سورة المؤمنون

مائة وثمان عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ
ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥
إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ
عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

اعلم أنه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعًا لصفات سبع، وقبل الخوض في شرح تلك الصفات لا بد من بحثين:

البحث الأول: أن ﴿قَدْ﴾ نقيضة لما فقد تثبت المتوقع ولما تنفيه[١] ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه.

البحث الثاني: الفلاح: الظفر بالمراد وقيل: البقاء في الخير، وأفلح دخل في الفلاح كأبشر دخل في البشارة، ويقال: أفلحه صيره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول، وعنه أفلحوا على لغة أكلوني البراغيث أو على الإبهام والتفسير.

الصفة الأولى: قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وقد تقدم القول في الإيمان في سورة البقرة.

الصفة الثانية: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات، ومنهم من جمع بين الأمرين وهو الأولى. فالخاشع في صلاته لا بد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود، ومن التروك أن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سوى التعظيم، ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكنًا مطرقًا ناظرًا إلى موضع سجوده، ومن التروك أن لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً، ولكن الخشوع الذي يرى على الإنسان ليس إلا ما

---

(١) كذا الصواب وما تنفيه يريد حرف النفي كقول المطيع: قد أطعت، وقول العاصي: ما أطعت (هامش).

يتعلق بالجوارح فإن ما يتعلق بالقلب لا يرى، قال: الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية طأطأ وكان لا يجاوز بصره مصلاه، فإن قيل: فهل تقولون إن ذلك واجب في الصلاة؟ قلنا: إنه عندنا واجب ويدل عليه أمور:

أحدها: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى، وكذا قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] معناه قف على عجائبه ومعانيه.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] وظاهر الأمر للوجوب والغفلة تضاد الذكر فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيمًا للصلاة لذكره.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وظاهر النهي للتحريم.

ورابعها: قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق المهتم بالدنيا.

وخامسها: قوله عليه السلام: «إِنَّمَا الْخُشُوعُ لِمَنْ تَمَسْكَنَ وَتَوَاضَعَ»(١) وكلمة إنما للحصر، وقوله عليه السلام: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ بُعْدًا»(٢) وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء، وقال عليه السلام: «كَمْ مِنْ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ»(٣) وما أراد به إلا الغافل، وقال أيضًا: «لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلاَّ مَا عَقَلَ»(٤).

وسادسها: قال الغزالي رحمه الله: المصلي يناجي ربه كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة

---

(١) لم أجده.

(٢) ضعيف: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٣٠٥)، حديث رقم (٥٠٨) من طريق مقدام بن داود حدثنا علي بن معبد حدثنا هشيم عن يونس عن الحسن... فذكره ورواه الطبراني في (الكبير) (١١/ ٥٤)، حديث رقم (١١٠٢٥)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (١١/ ٤٤٤)، حديث رقم (١٨١٨٧)، كلاهما من طريق أبي معاوية عن ليث عن طاوس عن ابن عباس... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ٢٥٨)، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة ولكنه مدلس، وقال الذهبي: قال ابن الجنيد: كذب وزور. قال الحافظ العراقي: حديث إسناده لين، قال الألباني: باطل لا يصح من قبل إسناده ولا من جهة متنه. (ميزان الاعتدال) (٣/ ٢٩٣). (تخريج الإحياء) (١/ ١٤٣). (السلسلة الضعيفة) (٢/ ٩٨٥).

(٣) حسن صحيح: أخرجه ابن ماجه في كتاب (الصيام)، باب: (في الغيبة والرفث للصائم) (١/ ٥٣٩)، حديث رقم (١٦٩٠) من طريق أسامة بن زيد... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٤٤١) من طريق أسامة... به، والدارمي في كتاب (الرقاق)، باب: (في المحافظة على الصوم) (٢/ ١٨٤)، حديث رقم (٢٧٢٠) من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري... به، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٤٣١) من طريق عمرو بن أبي عمرو... به، قال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والديلمي في (فردوس الأخبار) (٢/ ٣٩٥)، حديث رقم (٣٠٦٨)، كلاهما عن سعيد المقبري... به، جميعًا من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة بلفظ وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر.

(٤) لم أجده.

ليس بمناجاة ألبتة، وبيانه أن الإنسان إذا أدى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها على بعض الوجوه، وهو كسر الحرص وإغناء الفقير، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى التي هي عدوة الله تعالى. فلا يبعد أن يحصل منه مقصوده مع الغفلة، وكذا الحج أفعال شاقة، وفيه من المجاهدة ما يحصل به الابتلاء سواء كان القلب حاضرًا أو لم يكن. أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود، أما الذكر فإنه مناجاة مع الله تعالى. فإما أن يكون المقصود منه كونه مناجاة، أو المقصود مجرد الحروف والأصوات، ولا شك في فساد هذا القسم فإن تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح. فثبت أن المقصود منه المناجاة وذلك لا يتحقق إلا إذا كان اللسان معبرًا عما في القلب من التضرعات فأي سؤال في قوله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وكان القلب غافلاً عنه؟ بل أقول: لو حلف إنسان، وقال: والله لأشكرن فلانًا وأثني عليه وأسأله حاجة. ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في اليوم لم يبر في يمينه ولو جرى على لسانه في ظلمة الليل وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارًا في يمينه، ولا يكون كلامه خطابًا معه ما لم يكن حاضرًا بقلبه، ولو جرت هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر في بياض النهار إلا أن المتكلم غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب عليه عند نطقه لم يصر بارًا في يمينه، ولا شك أن المقصود من القراءة الأذكار والحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى، فإذا كان القلب محجوبًا بحجاب الغفلة وكان غافلاً عن جلال الله وكبريائه، ثم إن لسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد ذلك عن القبول. وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم، ولو جاز أن يكون تعظيمًا لله تعالى مع أنه غافل عنه؛ لجاز أن يكون تعظيمًا للصنم الموضوع بين يديه وهو غافل عنه، ولأنه إذا لم يحصل التعظيم لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس، وليس فيها من المشقة ما يصير لأجله عمادًا للدين، وفاصلاً بين الكفر والإيمان، ويقدم على الحج والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقة، ويجب القتل بسببه على الخصوص، وبالجملة فكل عاقل يقطع بأن مشاهدة الخواص العظيمة ليس أعمالها الظاهرة إلا أن ينضاف إليها مقصود هذه المناجاة، فدلت هذه الاعتبارات على أن الصلاة لا بد فيها من الحضور.

وسابعها: أن الفقهاء اختلفوا فيما ينويه بالسلام عند الجماعة والانفراد، هل ينوي الحضور أو الغيبة والحضور معًا. فإذا احتيج إلى التدبر في معنى السلام الذي هو آخر الصلاة فلأن يحتاج إلى التدبر في معنى التكبير والتسبيح التي هي الأشياء المقصودة من الصلاة بالطريق الأولى، واحتج المخالف بأن اشتراط الخضوع والخشوع على خلاف اجتماع الفقهاء فلا يلتفت إليه والجواب: من وجوه: أحدها: أن الحضور عندنا ليس شرطًا للإجزاء، بل شرط للقبول، والمراد من الإجزاء أن لا يجب القضاء، والمراد من القبول حكم الثواب. والفقهاء إنما يبحثون

عن حكم الإجزاء لا عن حكم الثواب، وغرضنا في هذا المقام هذا، ومثاله في الشاهد من استعار منك ثوبًا ثم رده على الوجه الأحسن، فقد خرج عن العهدة واستحق المدح، ومن رماه إليك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة، ولكنه استحق الذم، كذا من عظم الله تعالى حال أدائه العبادة صار مقيمًا للفرض مستحقًا للثواب، ومن استهان بها صار مقيمًا للفرض ظاهرًا لكنه استحق الذم. وثانيها: أنا نمنع هذا الإجماع، أما المتكلمون فقد اتفقوا على أنه لا بد من الحضور والخشوع، واحتجوا عليه بأن السجود لله تعالى طاعة وللصنم كفر، وكل واحد منهما يماثل الآخر في ذاته ولوازمه، فلا بد من أمر لأجله صار السجود في إحدى الصورتين طاعة، وفي الأخرى معصية، قالوا: وما ذاك إلا القصد والإرادة، والمراد من القصد: إيقاع تلك الأفعال لداعية الامتثال، وهذه الداعية لا يمكن حصولها إلا عند الحضور، فلهذا اتفقوا على أنه لا بد من الحضور، أما الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث رحمه الله في تنبيه الغافلين: أن تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن وأن يقرأ بالتفكر. وأما الغزالي رحمه الله فإنه نقل عن أبي طالب المكي عن بشر الحافي أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته. وعن الحسن رحمه الله: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع. وعن معاذ بن جبل: من عرف من على يمينه وشماله متعمدًا وهو في الصلاة فلا صلاة له. وروي أيضًا مسندًا قال عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ لاَ يُكْتَبُ لَهُ سُدُسُهَا وَلاَ عُشْرُهَا، وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاَتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا» وقال عبد الواحد بن زيد: أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل، وادعى فيه الإجماع إذا ثبت هذا فنقول هب أن الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز، أليس الأصوليون وأهل الورع ضيقوا الأمر فيها، فهلا أخذت بالاحتياط فإن بعض العلماء اختار الإمامة، فقيل له في ذلك فقال: أخاف إن تركت الفاتحة أن يعاتبني الشافعي، وإن قرأتها مع الإمام أن يعاتبني أبو حنيفة، فاخترت الإمامة طلبًا للخلاص عن هذا الاختلاف، والله أعلم.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وفي اللغو أقوال: أحدها: أنه يدخل فيه كل ما كان حرامًا أو مكروهًا أو كان مباحًا، ولكن لا يكون بالمرء إليه ضرورة وحاجة. وثانيها: أنه عبارة عن كل ما كان حرامًا فقط، وهذا التفسير أخص من الأول. وثالثها: أنه عبارة عن المعصية في القول والكلام خاصة، وهذا أخص من الثاني. ورابعها: أنه المباح الذي لا حاجة إليه، واحتج هذا القائل بقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] فكيف يحمل ذلك على المعاصي التي لا بد فيها من المؤاخذة، واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمي لغوًا بما أنه يلغي وكل ما يقتضي الدين إلغاءه كان أولى باسم اللغو، فوجب أن يكون كل حرام لغوًا، ثم اللغو قد يكون كفرًا لقوله: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وقد يكون كذبًا لقوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١] وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥] ثم إنه سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم يعرِضُون عن هذا اللغو والإعراض عنه، هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا

يخالط من يأتيه، وعلى هذا الوجه قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] واعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو؛ ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس الذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو أعلم.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وفي الزكاة قولان: أحدهما: قول أبي مسلم: أن فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضي، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] ومن جملته ما يخرج من حق المال، وإنما سمى بذلك لأنها تطهر من الذنوب لقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. والثاني: وهو قول الأكثرين أنه الحق الواجب في الأموال خاصة وهذا هو الأقرب؛ لأن هذه اللفظة قد اختصت في الشرع بهذا المعنى، فإن قيل: إنه لا يقال في الكلام الفصيح إنه فعل الزكاة، قلنا: قال صاحب (الكشاف): الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزكى الذي هو التزكية وهو الذي أراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل. ويقال لمحدثه: فاعل، يقال للضارب فاعل الضرب، وللقاتل: فاعل القتل، وللمزكى: فاعل الزكاة، وعلى هذا الكلام كله يجوز أن يراد بالزكاة العين، ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء فإن قيل: إن الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة، فلم فصل هاهنا بينهما بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾؟ قلنا: لأن الإعراض عن اللغو من متممات الصلاة.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ **وفيه سؤالات:**

السؤال الأول: لَمَ لم يقل إلا عن أزواجهم؟ الجواب: قال الفراء: معناه إلا من أزواجهم وذكر صاحب (الكشاف) فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه في موضع الحال أي إلا والين على أزواجهم أو قوَّامين عليهن من قولك كان فلان على فلانة، ونظيره كان زياد على البصرة أي: واليًا عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان ومن ثَمَّ سميت المرأة فراشًا. والمعنى أنهم: لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم. وثانيها: أنه متعلق بمحذوف يدل عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي: يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه وهو قول الزجاج: وثالثها: أن تجعله صلة لحافظين.

السؤال الثاني: هلا قيل: من ملكت؟ الجواب: لأنه اجتمع في السرية وصفان: أحدهما: الأنوثة وهي مظنة نقصان العقل والآخر كونها بحيث تباع وتشتري كسائر السلع، فلاجتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنها ليست من العقلاء.

السؤال الثالث: هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما يروى عن القاسم بن محمد. الجواب: نعم، وتقريره أنها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له، وإنما قلنا: إنها ليست زوجة

له؛ لأنهما لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] وإذا ثبت أنها ليست بزوجة له وجب أن لا تحل له لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وهو أعلم.

السؤال الرابع: أليس لا يحل له في الزوجة وملك اليمين الاستمتاع في أحوال كحال الحيض وحال العدة وفي الأمة حال تزويجها من الغير وحال عدتها، وكذا الغلام داخل في ظاهر قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ والجواب: من وجهين: أحدهما: أن مذهب أبي حنيفة رحمه الله أن الاستثناء من النفي لا يكون إثباتًا واحتج عليه بقوله عليه السلام: «لاَ صَلاَةَ إِلاَّ بِطَهُورٍ وَلاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ» فإن ذلك لا يقتضي حصول الصلاة بمجرد حصول الطهور وحصول النكاح بمجرد حصول الولي. وفائدة الاستثناء صرف الحكم لا صرف المحكوم به فقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ﴾ معناه: أنه يجب حفظ الفروج عن الكل إلا في هاتين الصورتين فإني ما ذكرت حكمهما لا بالنفي ولا بالإثبات. الثاني: أنا إن سلمنا أن الاستثناء من النفي إثبات، فغايته أنه عام دخله التخصيص بالدليل فيبقى فيما وراءه حجة.

أما قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يعني الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ قرأ نافع وابن كثير (لأمانتهم) واعلم أنه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدًا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقال: ﴿وَتَخُونُوٓا أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧] وإنما تؤدي العيون دون المعاني فكان المؤتمن عليه الأمانة في نفسه، والعهد ما عقده على نفسه فيما يقربه إلى ربه ويقع أيضًا على ما أمر الله تعالى به كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ [آل عمران: ١٨٣] والراعي القائم على الشيء لحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعى هذا الشيء؟ أي متوليه. واعلم أن الأمانة تتناول كل ما تركه يكون داخلاً في الخيانة وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧] فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل في ذلك؛ لأنها إما أن تخفى أصلاً كالصوم وغسل الجنابة وإسباغ الوضوء أو تخفى كيفية إتيانه بها وقال عليه السلام: «أَعْظَمُ النَّاسِ خِيَانَةً مَنْ لَمْ يُتِمَّ صَلاَتَهُ» (١) وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ الصَّلاَةُ» (٢) ومن جملة ذلك ما يلتزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل

---

(١) لم أجده.

(٢) صحيح موقوف: أخرجه سعيد بن منصور في (تفسيره) (١/ ٩٨)، حديث رقم (٩٦)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٦/ ٢٨٩)، كلاهما من طريق عبد العزيز بن رفيع سمع شداد بن معقل سمع عبد الله بن مسعود... فذكره، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (٧/ ٢٦٠)، حديث رقم (٣٥٨٧٨) من طريق مالك بن مغول عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء قال: قال عبد الله... به، ورواه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) (١/ ١٧١)، حديث رقم (١٦٤) من طريق عبد العزيز بن رفيع عن شداد بن معقل عن عبد الله بن مسعود... فذكره.

بهما. ومن ذلك الأقوال التي يحرم بها العبيد والنساء؛ لأنه مؤتمن في ذلك، ومن ذلك أن يراعي أمانته فلا يفسدها بغصب أو غيره، وأما العهد فإنه دخل فيه العقود والأيمان والنذور، فبيَّن سبحانه أن مراعاة هذه الأمور والقيام بها معتبر في حصول الفلاح.

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وإنما أعاد تعالى ذكرها؛ لأن الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين، فإن الخشوع صفة للمصلي في حال الأداء لصلاته والمحافظة إنما تصح حال ما لم يؤدها بكمالها. بل المراد بالمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على أركانها وإتمامها حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت، ثم لما ذكر الله تعالى مجموع هذه الأمور قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: لِمَ سمى ما يجدونه من الثواب والجنة بالميراث؟ مع أنه سبحانه حكم بأن الجنة حقهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] الجواب: من وجوه: الأول: ما روي عن الرسول ﷺ وهو أبْيَنُ على ما يقال فيه وهو: أنه لا مكلف إلا أعد الله له في النار ما يستحقه إن عصى وفي الجنة ما يستحقه إن أطاع وجعل لذلك علامة. فإذا آمن منهم البعض ولم يؤمن البعض صار منزل من لم يؤمن كالمنقول إلى المؤمنين وصار مصيرهم إلى النار الذي لا بد معه من حرمان الثواب كموتهم، فسمى ذلك ميراثًا لهذا الوجه، وقد قال الفقهاء: إنه لا فرق بين ما ملكه الميت وبين ما يقدر فيه الملك في أنه يورث عنه كذلك قالوا في الدية التي تجب بالقتل: إنها تورث مع أنه ما ملكها على التحقيق وذلك يشهد بما ذكرنا، فإن قيل: إنه تعالى وصف كل الذي يستحقونه إرثًا وعلى ما قلتم يدخل في الإرث ما كان يستحقه غيرهم لو أطاع. قلنا: لا يمتنع أنه تعالى جعل ما هو منزلة لهذا المؤمن بعينه منزلة لذلك الكافر لو أطاع؛ لأنه عند ذلك كان يزيد في المنازل فإذا آمن هذا عدل بذلك إليه. وثانيها: أن انتقال الجنة إليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال إلى الوارث. وثالثها: أن الجنة كانت مسكن أبينا آدم عليه السلام فإذا انتقلت إلى أولاده صار ذلك شبيهًا بالميراث.

السؤال الثاني: كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبع بالفلاح مع أنه تعالى ما تمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة؟ والجواب: أن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ يأتي على جميع الواجبات من الأفعال والتروك كما قدمنا والطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات الخمس لكونها من شرائطها.

السؤال الثالث: أفيدل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ على أنه لا يدخلها غيرهم؟ الجواب: أن قوله: ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ يفيد الحصر لكنه يجب ترك العمل به؛ لأنه ثبت أن الجنة يدخلها الأطفال والمجانين والولدان والحور العين ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو، لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]

السؤال الرابع: أفكل الجنة هو الفردوس؟ الجواب: الفردوس هو الجنة بلسان الحبشة وقيل: بلسان الروم، وروى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْفِرْدَوْسُ مَقْصُورَةُ الرَّحْمَنِ فِيهَا الْأَنْهَارُ وَالْأَشْجَارُ**»(١) وروى أبو أمامة عنه عليه السلام أنه قال: «**سَلُوا اللَّه الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهَا أَعْلَى الْجِنَانِ، وَإِنَّ أَهْلَ الْفِرْدَوْسِ يَسْمَعُونَ أَطِيطَ الْعَرْشِ**»(٢).

السؤال الخامس: هل تدل الآية على أن هذه الصفات هي التي لها ولأجلها يكونون مؤمنين أم لا؟ الجواب: ادعى القاضي أن الأمر كذلك بناء على مذهبه أن الإيمان اسم شرعي موضوع لأداء كل الواجبات، وعندنا أن الآية لا تدل على ذلك؛ لأن قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ مثل قد أفلح الناس الأذكياء العدول، فإن هذا لا يدل على أن الزكاة والعدالة داخلان في مسمى الناس فكذا هاهنا.

السؤال السادس: روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللَّه تَعَالَى جَنَّةَ عَدْنٍ قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**»(٣) وقال كعب: «**خَلَقَ اللَّه آدَمَ بِيَدِهِ وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ وَغَرَسَ شَجَرَةَ طُوبَى بِيَدِهِ، ثم قال لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**»(٤) وروي أنه عليه السلام قال: «**إِذَا أَحْسَنَ الْعَبْدُ الْوُضُوءَ وَصَلَّى الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا وَحَافَظَ عَلَى رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَمَوَاقِيتِهَا قَالَتْ: حَفِظَكَ اللَّه كَمَا حَافَظْتَ عَلَيَّ، وَشَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا. وَإِذَا أَضَاعَهَا قَالَتْ: أَضَاعَكَ اللَّه كَمَا ضَيَّعْتَنِي وَتُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلِقُ فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا**»(٥) الجواب: أما كلام الجنة فالمراد به أنها

---

(١) أورده ابن أبي حاتم في (التفسير) (٩/ ٢٤٤)، وقال عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره.

(٢) **إسناده ضعيف جدًا:** أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٠٢)، حديث رقم (٢٤٠٢) من طريق إسرائيل بن يونس عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة... بنحوه، وقال: هذا حديث لم نكتبه إلا من هذا الإسناد ولم نجد من أخرجه، وقال الذهبي معلقًا: جعفر هالك، والطبراني في (الكبير) (٨/ ٢٤٦)، حديث رقم (٧٩٨٢)، وأبو نعيم في (صفة الجنة) (٢/ ٦٠)، حديث رقم (٤٦٩)، كلاهما من طريق إبراهيم بن طهمان عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة... به، والروياني في (مسنده) (٢/ ٤٥٩)، حديث رقم (١٢٦٥) من طريق إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة... به، والحديث مداره على جعفر بن الزبير، قال الحافظ في التقريب: متروك الحديث.

(٣) **ضعيف:** أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٢٦)، حديث رقم (٣٤٨٠) من طريق العباس بن محمد الدوري حدثنا علي بن عاصم أنبأنا حميد الطويل عن أنس بن مالك... به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في تعليقه: بل ضعيف، والطبراني في (الأوسط) (١/ ٢٢٤)، حديث رقم (٧٣٨)، وفي (الكبير) (١١/ ١٨٤)، حديث رقم (١١٤٣٩)، كلاهما من طريق عطاء عن ابن عباس... به.

(٤) **صحيح موقوف:** أخرجه أبو سعيد في (نقض الدارمي) (١/ ٢٦٥)، والآجري في (الشريعة) (٢/ ٣٣٦)، حديث رقم (٧٥٣)، وابن المبارك في (الزهد) (١/ ٥١٢)، حديث رقم (١٤٥٨)، جميعًا من طريق قتادة عن أنس عن أبيه... به.

(٥) **إسناده ضعيف:** أخرجه أبو داود الطيالسي في (مسنده) (١/ ٨٠)، حديث رقم (٥٨٥) من طريق محمد بن مسلم عن أبي الوضاح عن الأحوص بن حكيم... به، والطبراني في (مسند الشاميين) (١/ ٢٣٩)، حديث رقم (٤٢٧)=

أعدت للمؤمنين فصار ذلك كالقول منها، وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وأما أنه تعالى خلق الجنة بيده فالمراد تولى خلقها لا أنه وكله إلى غيره، وأما أن الصلاة تثنى على من قام بحقها فهو في الجواز أبعد من كلام الجنة؛ لأن الصلاة حركات وسكنات ولا يصح عليها أن تتصور وتتكلم فالمراد منه ضرب المثل كما يقول القائل للمنعم: إن إحسانك إليَّ ينطق بالشكر.

السؤال السابع: هل تدل الآية على أن الفردوس مخلوقة؟ الجواب: قال القاضي: دل قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] على أنها غير مخلوقة فوجب تأويل هذه الآية، كأنه تعالى قال: إذا كان يوم القيامة يخلق الله الجنة ميراثًا للمؤمنين أو وإذا خلقها تقول على مثال ما تأولنا عليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وهذا ضعيف؛ لأنه ليس إضمار ما ذكره في هذه الآية أولى من أن يضمر في قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ ثم إن أكلها دائم، يوم القيامة، وإذا تعارض هذان الظاهران فنحن نتمسك في أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ۝١٦﴾

اعلم أنه سبحانه لما أمر بالعبادات في الآية المتقدمة، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق، لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعًا:

النوع الأول: الاستدلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة وأكوان الفطرة وهي تسعة:

المرتبة الأولى: قوله سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ والسلالة: الخلاصة؛ لأنها تسل من بين الكدر، فُعالة وهو بناء يدل على القلة كالقُلامة والقُمامة، واختلف

=من طريق ثور بن يزيد عن خالد بن معدان... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ١٤٣)، حديث رقم (٣١٤٠).

وقال: حدثنا أبو بكر بن فورك، أنا عبد الله بن جعفر، ثنا يونس بن حبيب، ثنا أبو داود، ثنا محمد بن مسلم بن أبي الوضاح، عن الأحوص بن حكيم ح وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأ أبو إسحاق إبراهيم بن عصمة بن إبراهيم ثنا المسيب بن زهير، ثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد الدشتكي، ثنا زهير بن معاوية، ثنا أبو خيثمة، ثنا الأحوص بن حكيم قال: حدثني خالد بن معدان، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ... الحديث، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ١٢٢).

وقال: رواه الطبراني في (الكبير) والبزار بنحوه وفيه الأحوص بن حكيم وثَّقه ابن المديني والعجلي وضعفه جماعة وبقية رجاله موثَّقون، وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (١٣١٤) وقال ضعيف.

أهل التفسير في الإنسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل: المراد منه آدم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين، ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الإنسان الذي هو ولد آدم، والإنسان شامل لآدم عليه السلام ولولده، وقال آخرون: الإنسان هاهنا ولد آدم والطين هاهنا اسم آدم عليه السلام، والسلالة هي الأجزاء الطينية المبثوثة في أعضائه التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المني صارت منيًا، وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨] وفيه وجه آخر، وهو أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهي إنما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك إنما يتولد من الأغذية، وهي إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى النباتية، والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء فالإنسان بالحقيقة يكون متولدًا من سلالة من طين، ثم إن تلك السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منيًا، وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه إلى التكلفات.

المرتبة الثانية: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ومعنى جعل الإنسان نطفة أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طينًا، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة في أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم قرارًا مكينًا لهذه النطفة والمراد بالقرار: موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها كقولك: طريق سائر أو لمكانتها في نفسها؛ لأنها تمكنت من حيث هي وأحرزت.

المرتبة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقة وهي الدم الجامد.

المرتبة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي: قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كالغرفة وهي مقدار ما يغترف، وسمي التحويل خلقًا؛ لأنه سبحانه يفني بعض أعراضها ويخلق أعراضًا غيرها فسمى خلق الأعراض خلقًا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.

المرتبة الخامسة: قوله: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ أي: صيرناها كذلك وقرأ ابن عامر (عظمًا) والمراد منه الجمع كقوله: (والملك صفًا صفًا).

المرتبة السادسة: قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ وذلك لأن اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها.

المرتبة السابعة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي: خلقًا مباينًا للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانًا وكان جمادًا، وناطقًا وكان أبكم، وسميعًا وكان أصم، وبصيرًا وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين، ولا شرح الشارحين، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هو تصريف الله إياه بعد الولادة في أطواره في زمن الطفولية وما بعدها

إلى استواء الشباب، وخلق الفهم والعقل وما بعده إلى أن يموت، ودليل هذا القول أنه عقَّبه بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وهذا المعنى مروي أيضًا عن ابن عباس وابن عمر، وإنما قال: ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾ لأنه جعل إنشاء الروح فيه، وإتمام خلقه إنشاء له قالوا: في الآية دلالة على بطلان قول النظام في أن الإنسان هو الروح لا البدن فإنه سبحانه بيَّن أن الإنسان هو المركب من هذه الصفات، وفيها دلالة أيضًا على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون: إن الإنسان شيء لا ينقسم، وإنه ليس بجسم.

أما قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: فتعالى الله فإن البركة يرجع معناها إلى الامتداد والزيادة، وكل ما زاد على الشيء فقد علاه، ويجوز أن يكون المعنى، والبركات والخيرات كلها من الله تعالى، وقيل: أصله من البروك وهو الثبات، فكأنه قال: والبقاء والدوام. والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء، وقوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: أحسن المقدرين تقديرًا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: لولا أن الله تعالى قد يكون خالقًا لفعله إذا قدره لما جاز القول بأنه أحسن الخالقين، كما لو لم يكن في عباده من يحكم ويرحم لم يجز أن يقال فيه: أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، والخلق في اللغة هو كل فعل وجد من فاعله مقدرًا لا على سهو وغفلة، والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه، قال الكعبي: هذه الآية، وإن دلت على أن العبد خالق إلا أن اسم الخالق لا يطلق على العبد إلا مع القيد كما أنه يجوز أن يقال: رب الدار، ولا يجوز أن يقال: رب بلا إضافة، ولا يقول العبد لسيده هو ربي، ولا يقال: إنما قال الله تعالى ذلك؛ لأنه سبحانه وصف عيسى عليه السلام بأنه يخلق من الطين كهيئة الطير؛ لأنا نجيب عنه من وجهين: أحدهما: إن ظاهر الآية يقتضي أنه سبحانه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ الذين هم جمع فحمله على عيسى خاصة لا يصح. الثاني: أنه إذا صح وصف عيسى بأنه يخلق صح وصف غيره من المصورين أيضًا بأنه يخلق؟ وأجاب أصحابنا: بأن هذه الآية معارضة بقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فوجب حمل هذه الآية على أنه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ في اعتقادكم وظنكم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي: هو أهون عليه في اعتقادكم وظنكم. والجواب الثاني: هو أن الخالق هو المقدر؛ لأن الخلق هو التقدير والآية تدل على أنه سبحانه أحسن المقدرين، والتقدير يرجع معناه إلى الظن والحسبان، وذلك في حق الله سبحانه محال؛ فتكون الآية من المتشابهات. والجواب الثالث: أن الآية تقتضي كون العبد خالقًا بمعنى كونه مقدرًا، لكن لم قلت. بأنه خالق بمعنى كونه موجدًا!.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن كل ما خلقه حسن وحكمة وصواب وإلا لما جاز وصفه بأنه أحسن الخالقين، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقًا للكفر والمعصية فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما؟ والجواب: من الناس من حمل الحسن على الإحكام

والاتقان في التركيب والتأليف، ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله تعالى كل الأشياء؛ لأنه ليس فوقه أمر ونهي حتى يكون ذلك مانعًا له عن فعل شيء.

المسألة الثالثة: روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله ﷺ فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ عجب من ذلك فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «اكْتُبْ فَهَكَذَا نَزَلَتْ» فشك عبد الله وقال: إن كان محمد صادقًا فيما يقول فإنه يوحى إليّ كما يوحى إليه، وإن كان كاذبًا فلا خير في دينه فهرب إلى مكة فقيل: إنه مات على الكفر، وقيل: إنه أسلم يوم الفتح(١)، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «هَكَذَا نَزَلَتْ يَا عُمَرُ»(٢) وكان عمر يقول: وافقني ربي في أربع، في الصلاة خلف المقام، وفي ضرب الحجاب على النسوة، وقولي لهن: لتنتهن أو ليبدلنه الله خيرًا منكن، فنزل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] والرابع قلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فقال «هَكَذَا نَزَلَتْ»(٣). قال العارفون: هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر، وسبب الشقاوة لعبد الله كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] فإن قيل: فعلى كل الروايات قد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن، وذلك يقدح في كونه معجزًا كما ظنه عبد الله. والجواب: هذا غير مستبعد إذا كان قدره القدر الذي لا يظهر فيه الإعجاز فسقطت شبهة عبد الله.

المرتبة الثامنة: قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن (لمائتون) والفرق بين الميت والمائت، أن الميت كالحي صفة ثابتة، وأما المائت فيدل على الحدوث تقول. زيد ميت الآن ومائت غدًا، وكقولك يموت ونحوهما: ضيق: وضائق في قوله: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢].

المرتبة التاسعة: قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فالله سبحانه جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضًا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع **وهاهنا سؤالات**:

السؤال الأول: ما الحكمة في الموت، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك

---

(١) **إسناده ضعيف**: أورده ابن عادل في (اللباب) (١١/ ٤٧٧)، قال: روى الكلبي عن ابن عباس أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح... فذكره، والكلبي: هو محمد بن السائب الكلبي متهم بالكذب.

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) (١١/ ٤٣٨)، حديث رقم (١٢٢٤٤)، وفي (الأوسط) (٦/ ١٦)، حديث رقم (٥٦٦٢)، كلاهما من طريق عبيدة عن فضيل بن عياض عن بشر بن السري حدثنا رباح بن معوض المكي عن سالم بن عجلان الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ٦٨)، وقال: رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) وفيه أبو عبيدة بن الفضيل بن عياض وهو لين وبقية رجاله ثقات.

(٣) انظر سابقه.

في الأنعام أبلغ؟ والجواب: هذا كالمفسدة في حق المكلفين؛ لأنه متى عجِّل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك المنافع لا لأجل طاعة الله، يبين ذلك أنه لو قيل لمن يصلي ويصوم: إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال، فإنه لا يأتي بذلك الفعل إلا لطلب الجنة، فلاجرم أخره الله تعالى وبعَّده بالإماتة ثم الإعادة؛ ليكون العبد عابدًا لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع.

السؤال الثاني: هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة. والجواب من وجهين: الأول: أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة. والثاني: أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة، والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧﴾

النوع الثاني: من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سموات وإنما قيل لها: طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض يقال: طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعلاً على نعل وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوبًا فوق ثوب. هذا قول الخليل، والزجاج، والفراء، قال الزجاج: هو كقوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] وقال علي بن عيسى: سميت بذلك؛ لأنها طرائق للملائكة في العروج والهبوط والطيران، وقال آخرون: لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه في إنعامه علينا بذلك أنه تعالى جعلها موضعًا لأرزاقنا بإنزال الماء منها، وجعلها مقرًا للملائكة؛ ولأنها موضع الثواب؛ ولأنها مكان إرسال الأنبياء ونزول الوحي.

أما قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ففيه وجوه: أحدها: ما كنا غافلين بل كنا للخلق حافظين من أن تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. وثانيها: إنما خلقناها فوقهم لننزل عليهم الأرزاق والبركات منها، عن الحسن. وثالثها: أنا خلقنا هذه الأشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا ثم بيَّن كمال العلم بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ يعني عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر. ورابعها: وما كنا عن خلق السموات غافلين بل نحن لها حافظون لئلا تخرج عن التقدير الذي أردنا كونها عليه كقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

واعلم أن هذه الآية دالة على كثير من المسائل: إحداها: أنها دالة على وجود الصانع فإن انقلاب هذه الأجسام من صفة إلى صفة أخرى تضاد الأولى مع إمكان بقائها على تلك الصفة يدل

على أنه لابد من محول ومغير. وثانيتها: أنها تدل على فساد القول بالطبيعة فإن شيئًا من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغيرها ولو قلت: إنما تغيرت تلك الصفات لتغير تلك الطبيعة افتقرت تلك الطبيعة إلى خالق وموجد. وثالثتها: تدل على أن المدبر قادر عالم لأن الموجب والجاهل لا يصدر عنه هذه الأفعال العجيبة. ورابعتها: تدل على أنه عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات. وخامستها: تدل على جواز الحشر والنشر نظرًا إلى صريح الآية ونظرًا إلى أن الفاعل لما كان قادرًا على كل الممكنات وعالمًا بكل المعلومات وجب أن يكون قادرًا على إعادة التركيب إلى تلك الأجزاء كما كانت. وسادستها: أن معرفة الله تعالى يجب أن تكون استدلالية لا تقليدية وإلا لكان ذكر هذه الدلائل عبثًا.

النوع الثالث: الاستدلال بنزول الأمطار وكيفية تأثيراتها في النبات:

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أن الماء في نفسه نعمة، وأنه مع ذلك سبب لحصول النعم فلا جرم ذكره الله تعالى أولاً ثم ذكر ما يحصل به من النعم ثانيًا.

اما قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ فقد اختلفوا في السماء فقال الأكثرون من المفسرين: إنه تعالى ينزل الماء في الحقيقة من السماء وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وقال بعضهم: المراد السحاب وسماه سماء لعلوه، والمعنى أن الله تعالى أصعد الأجزاء المائية من قعر الأرض إلى البحار ومن البحار إلى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد، ثم إن تلك الذرّات تأتلف وتتكون ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة إليه، ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها في قعر الأرض ولا بماء البحار لملوحته ولأنه لا حيلة في إجراء مياه البحار على وجه الأرض؛ لأن البحار هي الغاية في العمق، واعلم أن هذه الوجوه إنما يتمحلها من ينكر الفاعل المختار فأما من أقر به فلا حاجة به إلى شيء منها.

اما قوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ فمعناه: بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة في الزرع والغرس والشرب، أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم.

اما قوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: معناه جعلناه ثابتًا في الأرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل، ثم يرفعها عند خروج يأجوج ومأجوج ويرفع أيضًا القرآن.

اما قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: كما قدرنا على إنزاله فكذلك نقدر على رفعه وإزالته،

قال صاحب (الكشاف): وقوله: ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ﴾ من أوقع النكرات وأخَّرها للفصل. والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه. وفيه إيذان بكمال اقتدار المذهب وأنه لا يعسر عليه شيء، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] ثم إنه سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وإنما ذكر تعالى النخيل والأعناب؛ لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام ومقام الأدام ومقام الفواكه رطبًا ويابسًا وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: في الجنات، فكما أن فيها النخيل والأعناب ففيها الفواكه الكثيرة. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): يجوز أن يكون هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يعملها يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه، كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها تتعيشون.

أما قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ فهو عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء أي: ومما أنشأنا لكم شجرة، قال صاحب (الكشاف): طور سيناء وطور سينين لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإما أن يكون اسمًا للجبل مركبًا من مضاف ومضاف إليه كامرىء القيس وبعلبك فيمن أضاف، فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث؛ لأنها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء، ومن فتح لم يصرفه؛ لأن ألفه للتأنيث كصحراء، وقيل: هو جبل فلسطين وقيل: بين مصر وأيلة، ومنه نودي موسى عليه السلام وقرأ الأعمش (سينا) على القصر.

أما قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ فهو في موضع الحل أي: تنبت وفيها الدهن، كما يقال: ركب الأمير بجنده، أي: ومعه الجند وقرىء (تنبت) وفيه وجهان: أحدهما: أن أنبت بمعنى نبت قال زهير:

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... قطينا لهم حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ(١)

والثاني: أن مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت، قال المفسرون: وإنما أضافها الله تعالى إلى هذا الجبل؛ لأن منها تشعبت في البلاد وانتشرت ولأن معظمها هناك. أما قوله: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ فعطف على الدهن، أي: إدام للآكلين، والصبغ والصباغ ما يصطبغ به، أي: يصبغ به الخبز، وجملة القول أنه سبحانه وتعالى نبه على إحسانه بهذه الشجرة؛ لأنها تخرج هذه الثمرة التي يكثر بها الانتفاع وهي طرية ومدخرة، وبأن تعصر فيظهر الزيت منها ويعظم وجوه الانتفاع به.

النوع الرابع: الاستدلال بأحوال الحيوانات:

---

(١) تقدمت ترجمة زهير.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر أن فيها عبرة مجملاً ثم أردفه بالتفصيل من أربعة أوجه: أحدها: قوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ والمراد منه جميع وجوه الانتفاع بألبانها، ووجه الاعتبار فيه أنها تجتمع في الضروع وتتخلص من بين الفرث والدم بإذن الله تعالى، فتستحيل إلى طهارة وإلى لون وطعم موافق للشهوة وتصير غذاء، فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته؛ كان ذلك معدودًا في النعم الدينية ومن انتفع به فهو في نعمة الدنيا، وأيضًا فهذه الألبان التي تخرج من بطونها إلى ضروعها تجدها شرابًا طيبًا، وإذا ذبحتها لم تجد لها أثرًا، وذلك يدل على عظيم قدرة الله تعالى. قال صاحب (الكشاف): وقرىء (تَسقيكم) بتاء مفتوحة، أي: تسقيكم الأنعام. وثانيها: قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ وذلك بيعها والانتفاع بأثمانها وما يجري مجرى ذلك. وثالثها: قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني كما تنتفعون بها وهي حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضًا بالأكل. ورابعها: قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ لأن وجه الانتفاع بالإبل في المحمولات على البر بمنزلة الانتفاع بالفلك في البحر، ولذلك جمع بين الوجهين في إنعامه لكي يشكر على ذلك ويستدل به، واعلم أنه سبحانه وتعالى لما بيَّن دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة في سائر السور وهي هاهنا.

القصة الأولى نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

قال قوم: إن نوحًا كان اسمه يشكر، ثم سمي نوحًا لوجوه: أحدها: لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك، فأهلكهم بالطوفان فندم على ذلك. وثانيها: لمراجعة ربه في شأن ابنه. وثالثها: أنه مر بكلب مجذوم، فقال له: إخسًا يا قبيح، فعوتب على ذلك، فقال الله له: أعبتني إذ خلقته، أم عبت الكلب. وهذه الوجوه مشكلة لما ثبت أن الأعلام لا تفيد صفة في المسمى.

أما قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فالمعنى أنه سبحانه أرسله بالدعاء إلى عبادة الله تعالى وحده، ولا يجوز أن يدعوهم إلى ذلك إلا وقد دعاهم إلى معرفته أولاً؛ لأن عبادة من لا يكون معلومًا غير جائزة وإنما يجوز ويجب بعد المعرفة.

أما قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فالمراد أن عبادة غير الله لا تجوز إذ لا إله سواه. ومن حق العبادة أن تحسن لمن أنعم بالخلق والإحياء وما بعدهما، فإذا لم يصح ذلك إلا منه تعالى فكيف يعبد ما لا يضر ولا ينفع؟ وقرىء (غيرِهِ) بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ، ثم إنه لما لم ينفع فيهم هذا الدعاء واستمروا على عبادة غير الله تعالى حذرهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لأن ذلك زجر ووعيد باتقاء العقوبة لينصرفوا عما هم عليه، ثم إنه سبحانه حكى عنهم شبههم في إنكار نبوة نوح عليه السلام.

الشبهة الأولى: قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهذه الشبهة تحتمل وجهين: أحدهما: أن يقال: إنه لما كان مساويًا لسائر الناس في القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولاً لله؛ لأن الرسول لا بد وأن يكون عظيمًا عند الله تعالى وحبيبًا له، والحبيب لا بد وأن يختص عن غير الحبيب بمزيد الدرجة والمعزة، فلما فقدت هذه الأشياء علمنا انتفاء الرسالة. والثاني: أن يقال: هذا الإنسان مشارك لكم في جميع الأمور، ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية فلم يجد إليهما سبيلاً إلا بادعاء النبوة، فصار ذلك شبهة لهم في القدح في نبوته، فهذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى خبرًا عنهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨].

الشبهة الثانية: قولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ وشرحه أن الله تعالى لو شاء إرشاد البشر لوجب أن يسلك الطريق الذي يكون أشد إفضاء إلى المقصود، ومعلوم أن بعثة الملائكة أشد إفضاء إلى هذا المقصود من بعثة البشر؛ لأن الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم، فالخلق ينقادون إليهم، ولا يشكون في رسالتهم، فلما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أُرسل رسولاً ألبتة.

الشبهة الثالثة: قولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقوله: (بهذا) إشارة إلى نوح عليه السلام، أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله تعالى، أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وشرح هذه الشبهة أنهم كانوا أقوامًا لا يعولون في شيء من مذاهبهم إلا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء، فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها. قال القاضي: يحتمل أن يريدوا بذلك كونه رسولاً مبعوثًا؛ لأنه لا يمتنع فيما تقدم من زمان آبائهم أنه كان زمان فترة، ويحتمل أن يريدوا بذلك دعاءهم إلى عبادة الله تعالى وحده؛ لأن آباءهم كانوا على عبادة الأوثان.

الشبهة الرابعة: قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ والجنة: الجنون أو الجن، فإن جهال العوام يقولون في المجنون: زال عقله بعمل الجن، وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يفعل أفعالاً على خلاف عاداتهم، فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام إنه مجنون، ومن كان مجنونًا فكيف يجوز أن يكون رسولاً.

الشبهة الخامسة: قولهم: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهذا يحتمل أن يكون متعلقًا بما قبله أي: أنه مجنون فاصبروا إلى زمان حتى يظهر عاقبة أمره فإن أفاق وإلا قتلتموه ويحتمل أن يكون كلامًا مستأنفًا وهو أن يقولوا لقومهم: اصبروا فإنه إن كان نبيًا حقًا فالله ينصره ويقوي أمره فنحن حينئذ نتبعه وإن كان كاذبًا فالله يخذله ويبطل أمره، فحينئذ نستريح منه، فهذه مجموع الشبه التي حكاها الله تعالى عنهم، واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها، وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولاً إلا لأنه من جنس الملك وإنما يصير كذلك بأن يتميز عن غيره بالمعجزات فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولاً، بل جعل الرسول من جملة البشر أولى لما مر بيانه في السور المتقدمة وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة، وأما قولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ فإن أرادوا به إرادته لإظهار فضله حتى يلزمهم الانقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول، وإن أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد فالأنبياء منزهون عن ذلك، وأما قولهم: (ما سمعنا بهذا) فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشيء وهو في غاية السقوط؛ لأن وجود التقليد لا يدل على وجود الشيء فعدمه من أين يدل على عدمه، وأما قولهم: (به جنة)، فقد كذبوا لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله، وأما قولهم: (فتربصوا به)، فضعيف لأنه إن ظهرت الدلالة على نبوته وهي المعجزة وجب عليهم قبول قوله في الحال، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته؛ لأن الدولة لا تدل على الحقية، وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر، ولما كانت هذه الأجوبة في نهاية الظهور لا جرم تركها الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

أما قوله: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ففيه وجوه: أحدها: أن في نصره إهلاكهم فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي. وثانيها: انصرني بدل ما كذبوني كما تقول: هذا بذاك أي: بدل ذلك ومكانه، والمعنى أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم: وثالثها: انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

[الأعراف: ٥٩] ولما أجاب الله دعاءه قال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا وكلئنا كأن معه من الله حافظًا يكلؤه بعينه لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله، ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة، وهذه الآية دالة على فساد قول المشبهة في تمسكهم بقوله عليه السلام: «إِنَّ اللَّه خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» لأن ثبوت الأعين يمنع من ذلك، واختلفوا في أنه عليه السلام كيف صنع الفلك فقيل: إنه كان نجارًا وكان عالمًا بكيفية اتخاذها، وقيل: إن جبريل عليه السلام علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها، وهذا هو الأقرب لقوله ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

اما قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فاعلم أن لفظ الأمر كما هو حقيقة في طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء، فكذا هو حقيقة في الشأن العظيم، والدليل عليه أنك إذا قلت: هذا أمر بقي الذهن يتردد بين المفهومين وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما وتمام تقريره مذكور في كتاب المحصول في الأصول، ومن الناس من قال: إنما سماه أمرًا على سبيل التعظيم والتفخيم، مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١].

اما قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فاختلفوا في التنور، فالأكثرون على أنه هو التنور المعروف. روي أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب، وقيل: كان تنور آدم وكان من حجارة فصار إلى نوح، واختلف في مكانه، فعن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان نوح عليه السلام عمل السفينة في وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة وقيل: بالهند. القول الثاني: أن التنور وجه الأرض، عن ابن عباس رضي الله عنهما. الثالث: أنه أشرف موضع في الأرض أي: أعلاه، عن قتادة. والرابع: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: طلع للفجر، عن عليّ عليه السلام، وقيل: إن فوران التنور كان عند طلوع الفجر. والخامس: هو مثل قولهم حمى الوطيس. والسادس: أنه الموضع المنخفض من السفينة الذي يسيل الماء إليه، عن الحسن رحمه الله والقول الأول هو الصواب؛ لأن العدول عن الحقيقة إلى المجاز من غير دليل لا يجوز، واعلم أن الله تعالى جعل فوران التنور علامة لنوح عليه السلام حتى يركب عنده السفينة طلبًا لنجاته ونجاة من آمن به من قومه.

اما قوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أدخل فيها يقال: سلك فيه أي: دخل فيه وسلك غيره وأسلكه ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: من كل زوجين من الحيوان الذي يحضره في الوقت اثنين، الذكر والأنثى؛ لكي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان، وكل واحد منهما زوج لا كما تقوله العامة من أن الزوج هو الاثنان، روي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض، وقرىء (من كلٍ) بالتنوين، أي: من كل أمة زوجين، واثنين تأكيد وزيادة بيان.

اما قوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: وأدخل أهلك ولفظ على إنما يستعمل في المضار. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] واعلم أن هذه الآية تدل

على أمرين: أحدهما: أنه سبحانه أمره بإدخال سائر من آمن به وإن لم يكن من أهله، وقيل: المراد بأهله من آمن دون من يتصل به نسبًا أو سببًا وهذا ضعيف. وإلا لما جاز استثناء قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ والثاني: أنه قال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ يعني: كنعان، فإنه سبحانه لما أخبر بإهلاكهم وجب أن ينهاه عن أن يسأله في بعضهم؛ لأنه إن أجابه إليه فقد صير خبره الصدق كذبًا، وإن لم يجبه إليه كان ذلك تحقيرًا لشأن نوح عليه السلام فلذلك قال: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: الغرق نازل بهم لا محالة.

أما قوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان في السفينة ثمانون إنسانًا، نوح وامرأته سوى التي غرقت، وثلاثة بنين: سام وحام ويافث، وثلاث نسوة لهم، واثنان وسبعون إنسانًا فكل الخلائق نسل من كان في السفينة.

أما قوله: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: إنما قال: ﴿فَقُلِ﴾ ولم يقل: فقولوا؛ لأن نوحًا كان نبيًّا لهم وإمامًا لهم، فكان قوله قولاً لهم مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي.

المسألة الثانية: قال قتادة: علمكم الله أن تقولوا عند ركوب السفينة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] وعند ركوب الدابة ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] وعند النزول ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] قال الأنصاري: وقال لنبينا: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النحل: ٩٨] كأنه سبحانه أمرهم أن لا يكونوا عن ذكره وعن الاستعاذة به في جميع أحوالهم غافلين.

المسألة الثالثة: هذه مبالغة عظيمة في تقبيح صورتهم حيث أتبع النهي عن الدعاء لهم الأمر بالحمد على إهلاكهم والنجاة منهم كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥] وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق؛ لأنه سبحانه كان عرفه أنه بذلك ينجيه ومن تبعه، فيصح أن يقول: ﴿نَجَّىٰنَا﴾ من حيث جعله آمنًا بهذا الفعل ووصف قومه بأنهم الظالمون؛ لأن الكفر منهم ظلم لأنفسهم لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ثم إنه سبحانه بعد أن أمره بالحمد على إهلاكهم أمره بأن يدعو لنفسه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ وقرىء (منزلاً) بمعنى: إنزالاً أو موضع إنزال كقوله: ليدخلنهم مدخلاً يرضونه. واختلفوا في المنزل على قولين: أحدهما: أن المراد هو نفس السفينة فمن ركبها خلصته مما جرى على قومه من الهلاك. والثاني: أن المراد أن ينزله الله بعد خروجه من السفينة من الأرض منزلاً مباركًا، والأول أقرب؛ لأنه أمر بهذا الدعاء في حال استقراره في السفينة، فيجب أن يكون المنزل ذلك دون غيره. ثم بيّن سبحانه بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أن

الإنزال في الأمكنة قد يقع من غير الله كما يقع من الله تعالى وإن كان هو سبحانه خير من أنزل؛ لأنه يحفظ من أنزله في سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم والحكمة، ثم بيَّن سبحانه أن فيما ذكره من قصة نوح وقومه لآيات ودلالات وعبرًا في الدعاء إلى الإيمان والزجر عن الكفر فإن إظهار تلك المياه العظيمة ثم الإذهاب بها لا يقدر عليه إلا القادر على كل المقدورات، وظهور تلك الواقعة على وفق قول نوح عليه السلام يدل على المعجز العظيم وإفناء الكفار وبقاء الأرض لأهل الدين والطاعة من أعظم أنواع العبر.

أما قوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ فيمكن أن يكون المراد، وإن كنا لمبتلين فيما قبل، ويحتمل أن يكون وإن كنا لمبتلين فيما بعد، وهذا هو الأقرب لأنه كالحقيقة في الاستقبال، وإذا حمل على ذلك احتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون المراد المكلفين في المستقبل أي فيجب فيمن كلفناه أن يعتبر بهذا الذي ذكرناه. وثانيها: أن يكون المراد لمعاقبين لمن سلك في تكذيب الأنبياء مثل طريقة قوم نوح. وثالثها: أن يكون المراد كما نعاقب من كذَّب بالغرق وغيره فقد نمتحن بالغرق من لم يكذب على وجه المصلحة لا على وجه التعذيب؛ لكي لا يقدر أن كل الغرق يجري على وجه واحد.

القصة الثانية قصة هود أو صالح عليهما السلام

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ
ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ
إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ
إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ
فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أن هذه القصة هي قصة هود عليه السلام في قول ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر المفسرين واحتجوا عليه بحكاية الله تعالى قول هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] ومجيء قصة هود عقيب قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء. وقال بعضهم المراد بهم صالح وثمود؛ لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا

بالصيحة، أما كيفية الدعوى فكما تقدم في قصة نوح عليه السلام وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: حق (أرسل) أن يتعدى بإلى كأخواته التي هي وجه وأنفذ وبعث فلمَ عدَّى في القرآن بإلى تارة وبفي أخرى كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾[الرعد: ٣٠] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾[الأعراف: ٩٤] ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾[المؤمنون: ٣٢] أي: في عاد، وفي موضع آخر ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[هود: ٥٠] ؟ الجواب: لم يعدِ بفي كما عدَّى بإلى ولكن الأمة أو القرية جعلت موضعًا للإرسال وعلى هذا المعنى جاء بعث في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾[الفرقان: ٥١] .

السؤال الثاني: هل يصح ما قاله بعضهم: أن قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ غير موصول بالأول، وإنما قاله لهم بعد أن كذبوه، وردوا عليه بعد إقامة الحجة عليهم فعند ذلك قال لهم مخوفًا مما هم عليه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ هذه الطريقة مخافة العذاب الذي أنذرتكم به؟ الجواب: يجوز أن يكون موصولاً بالكلام الأول بأن رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الأوثان، فدعاهم إلى عبادة الله وحذرهم من العقاب بسبب إقبالهم على عبادة الأوثان. ثم اعلم أن الله تعالى حكى صفات أولئك القوم وحكى كلامهم، أما الصفات فثلاث هي شر الصفات: أولها: الكفر بالخالق سبحانه وهو المراد من قوله: ﴿كَفَرُوا﴾. وثانيها: الكفر بيوم القيامة وهو المراد من قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾. وثالثها: الانغماس في حب الدنيا وشهواتها وهو المراد من قوله: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: نعمناهم فإن قيل: ذكر الله مقالة قوم هود في جوابه في سورة الأعراف، وسورة هود بغير واو ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾[الأعراف: ٦٦] ، قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[هود: ٢٧] وهاهنا مع الواو فأي فرق بينهما؟ قلنا: الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه؟ فقيل له: كيت وكيت، وأما الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله ومعناه أنه اجتمع في هذه الواقعة هذا الكلام الحق وهذا الكلام الباطل. وأما شبهات القوم فشيئان: أولهما: قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾، وقد مر شرح هذه الشبهة في القصة الأولى وقوله: ﴿مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: من مشروبكم أو حذف منه لدلالة ما قبله عليه وهو قوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فجعلوا اتباع الرسول خسرانًا، ولم يجعلوا عبادة الأصنام خسرانًا، أي: لئن كنتم أعطيتموه الطاعة من غير أن يكون لكم بإزائها منفعة فذلك هو الخسران. وثانيهما: أنهم طعنوا في صحة الحشر والنشر، ثم طعنوا في نبوته بسبب إتيانه بذلك. أما الطعن في صحة الحشر فهو قولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ معادون أحياء للمجازاة، ثم لم يقتصروا على هذا القدر حتى قرنوا به الاستبعاد العظيم وهو قولهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ثم أكدوا الشبهة بقولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ولم يريدوا بقولهم نموت ونحيا الشخص الواحد، بل أرادوا أن البعض يموت والبعض يحيا، وأنه لا إعادة ولا حشر. فلذلك قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ولما فرغوا من الطعن في صحة الحشر بنوا عليه الطعن

في نبوته، فقالوا لما أتى بهذا الباطل فقد ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ثم لما قرروا الشبهة الطاعنة في نبوته قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن القوم كالتبع لهم، واعلم أن الله تعالى ما أجاب عن هاتين الشبهتين لظهور فسادهما أما الشبهة الأولى: فقد تقدم بيان ضعفها، وأما الثانية: فلأنهم استبعدوا الحشر، ولا يستبعد الحشر لوجهين: الأول: أنه سبحانه لما كان قادرًا على كل الممكنات عالمًا بكل المعلومات وجب أن يكون قادرًا على الحشر والنشر. والثاني: وهو أنه لولا الإعادة لكن تسليط القوى على الضعيف في الدنيا ظلمًا. وهو غير لائق بالحكيم على ما قرره سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: ثنى إنكم للتوكيد وحسن ذلك الفصل ما بين الأول والثاني بالظرف، ومخرجون خبر عن الأول. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

المسألة الثانية: قرىء (هيهات) بالفتح والكسر، كلها بتنوين وبلا تنوين، وبالسكون على لفظ الوقف.

المسألة الثالثة: هي في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه، وأصله: إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، ثم وضع هي موضع الحياة؛ لأن الخبر يدل عليه ومنه (قول الشاعر):

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ

والمعنى لا حياة إلا هذه الحياة، ولأن إن النافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها، فوازنت لا التي نفت ما بعدها نفي الجنس. واعلم أن ذلك الرسول لما يئس من قبول الأكابر والأصاغر فزع إلى ربه وقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ وقد تقدم تفسيره فأجابه الله تعالى فيما سأل وقال: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] والأقرب أن يكون المراد بأن يظهر لهم علامات الهلاك، فعند ذلك يحصل منهم الحسرة والندامة على ترك القبول، ويكون الوقت وقت إيمان اليأس فلا ينتفعون بالندامة، وبيَّن تعالى الهلاك الذي أنزله عليهم بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ وذكروا في الصيحة وجوهًا: أحدها: أن جبريل عليه السلام صاح بهم، وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها. وثانيها: الصيحة هي الرجفة، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وثالثها: الصيحة هي نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت: دُعِي فأجاب، عن الحسن. ورابعها: أنه العذاب المصطلم، قال الشاعر:

صَاحَ الزَّمَانُ بِآلِ بَرْمَكِ صَيْحَةً ... خَرُّوا لِشِدَّتِهَا عَلَى الأَذْقَانِ[(١)]

(١) هذا الشطر الأول من بيت ضمن قصيدة من البحر الطويل لعلي بن الجهم والبيت هكذا:

هي النَفسُ ما حَمَّلتَها تَتَحَمَّلُ ... وَلِلدَّهرِ أَيامٌ تَجورُ وَتَعدِلُ

وعلي بن الجهم تقدم ترجمته.

والأول أولى؛ لأنه هو الحقيقة.

وأما قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ فمعناه: أنه دمرهم بالعدل من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه. وقال المفضل: بالحق أي: بما لا يدفع، كقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[ق: ١٩].

أما قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ فالغثاء حميل السيل مما بلي واسْوَد من الورق والعيدان، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾[الأعلى: ٥].

وأما قوله تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَبُعْدًا﴾ وسحقًا، ودمرًا، ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى بعدًا بعدوا، أي: هلكوا يقال: بعد بُعْدًا وبَعَدًا بفتح العين نحو رشد رُشْدًا ورَشَدًا بفتح الشين، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَبُعْدًا﴾ بمنزلة اللعن الذي هو التبعيد من الخير، والله تعالى ذكر ذلك على وجه الاستخفاف والإهانة لهم، وقد نزل بهم العذاب دالاً بذلك على أن الذي ينزل بهم في الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم حالاً؛ ليكون ذلك عبرة لمن يجيء بعدهم.

القصة الثالثة

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أنه سبحانه يقص القصص في القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم وأخرى على سبيل الإجمال كهاهنا، وقيل: المراد قصة لوط، وشعيب، وأيوب، ويوسف عليهم السلام.

فأما قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ فالمعنى أنه ما أخلى الديار من مكلفين أنشأهم وبلغهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كان قبلهم في عمارة الدنيا.

أما قوله: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ فيحتمل في هذا الأجل أن يكون المراد آجال حياتها وتكليفها، ويحتمل آجال موتها وهلاكها، وإن كان الأظهر في الأجل إذا أطلق أن يراد به وقت الموت، فبيَّن أن كل أمة لها آجال مكتوبة في الحياة والموت، لا يتقدم ولا يتأخر، منبهًا بذلك على أنه عالم بالأشياء قبل كونها، فلا توجد إلا على وفق العلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[نوح: ٤]. **وهاهنا مسألتان:**

المسألة الأولى: قال أصحابنا: هذه الآية تدل على أن المقتول ميت بأجله إذ لو قتل قبل أجله

لكان قد تقدم الأجل أو تأخر، وذلك ينافيه هذا النص.

المسألة الثانية: قال الكعبي: المراد من قوله: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ أي: لا يتقدمون الوقت المؤقت لعذابهم إن لم يؤمنوا ولا يتأخرون عنه، ولا يستأصلهم إلا إذا علم منهم أنهم لا يزدادون إلا عنادًا وأنهم لا يلدون مؤمنًا، وأنه لا نفع في بقائهم لغيرهم، ولا ضرر على أحد في هلاكهم، وهو كقول نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٧].

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ﴾ فالمعنى أنه كما أنشأنا بعضهم بعد بعض أرسل إليهم الرسل على هذا الحد قرأ ابن كثير (تترًا) منونة والباقون بغير تنوين وهو اختيار أكثر أهل اللغة؛ لأنها فعلى من المواترة وهي المتابعة وفعلى لا ينون كالدعوى والتقوى والتاء بدل من الواو فإنه مأخوذ من الوتر وهو الفرد، قال الواحدي: تترى على القراءتين مصدر أو اسم أقيم مقام الحال؛ لأن المعنى متواترة.

أما قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ [المؤمنون: ٤٤] يعني: أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره ممن أهلكه الله بالغرق والصيحة فلذلك قال: ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ أي: بالهلاك.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ﴾ يمكن أن يكون المراد جمع الحديث ومنه أحاديث رسول الله ﷺ والمعنى أنه سبحانه بَلَغَ في إهلاكهم مبلغًا صاروا معه أحاديث فلا يرى منهم عين ولا أثر ولم يبق منهم إلا الحديث الذي يذكر ويعتبر به.

ويمكن أيضًا أن يكون جمع أحدوثة مثل الأضحوكة والأعجوبة، وهي ما يتحدث به الناس تلهيًا وتعجبًا.

ثم قال: ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ على وجه الدعاء والذم والتوبيخ، ودل بذلك على أنهم كما أهلكوا عاجلًا فهلاكهم بالتعذيب آجلًا على التأبيد مترقب وذلك وعيد شديد.

القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

اختلفوا في الايات فقال ابن عباس رضي الله عنهما هي الآيات التسع وهي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والسنون، والنقص من الثمرات، وقال الحسن: قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بديننا، واحتج بأن المراد بالآيات لو كانت هي المعجزات والسلطان المبين أيضًا هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشيء على نفسه والأقرب هو الأول: لأن

لفظ الآيات إذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات، وأما الذي احتجوا به فالجواب عنه من وجوه: أحدها: أن المراد بالسلطان المبين: يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا؛ لأنه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها حارسًا وشمعة وشجرة مثمرة ودلوًا ورشاء، فلأجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله: جبريل وميكال. وثانيها: يجوز أن يكون المراد بالآيات: نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين: كيفية دلالتها على الصدق، وذلك لأنها وإن شاركت سائر آيات الأنبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام. وثالثها: أن يكون المراد بالسلطان المبين: استيلاء موسى عليه السلام عليهم في الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة وأنه ما كان يقيم لهم قدرًا ولا وزنًا.

واعلم أن الآية تدل على أن معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هرون عليه السلام أيضًا، وأن النبوة كما أنها مشتركة بينهما فكذلك المعجزات، ثم إنه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم، أما صفتهم فأمران. أحدهما: الاستكبار والأنفة. والثاني: أنهم كانوا قومًا عالين أي: رفيعي الحال في أمور الدنيا، ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة وأما شبهتهم فهي قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): لم يقل: مثلينا كما قال: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[النساء: ١٤] ولم يقل: أمثالهم وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[آل عمران: ١١٠] ولم يقل: أخيار أمة كل ذلك؛ لأن الإيجاز أحب إلى العرب من الإكثار. والشبهة مبنية على أمرين: أحدهما: كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه. والثاني: أن قوم موسى وهرون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال أبو عبيدة: العرب تسمى كل من دان لملك عابدًا له ويحتمل أن يقال: إنه كان يدعي الإلهية فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه أنه لما خطرت هذه الشبهة ببالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾.

ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال: وكانوا ممن حكم الله عليهم بالغرق فإن حصول الغرق لم يكن حاصلاً عقيب التكذيب، إنما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك في الوقت اللائق به.

أما قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فقال القاضي: معناه أنه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذي هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكي يهتدوا به فلما أصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا أن يهلكوا، واعترض صاحب (الكشاف) عليه فقال: لا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملئه؛ لأن التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣] بل المعنى الصحيح: ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها

فذكر موسى والمراد آل موسي كما يقال: هاشم وثقيف والمراد قومهما.

القصة الخامسة قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾

اعلم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بأن خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد في الصغر وأجرى على يديه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية؛ لأنها حملته من غير ذكر. وقال الحسن: تكلمت مريم في صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٣٧] ولم تلقم ثديًا قط، قال القاضي: إن ثبت ذلك فهو معجزة لزكريا عليه السلام؛ لأنها لم تكن نبية، قلنا: القاضي إنما قال ذلك؛ لأن عنده الإرهاص غير جائز وكرامات الأولياء غير جائزة وعندنا هما جائزان فلا حاجة إلى ما قال، والأقرب أنه جعلهما آية بنفس الولادة؛ لأنه ولد من غير ذكر وولدته من دون ذكر فاشتركا جميعًا في هذا الأمر العجيب الخارق للعادة والذي يدل على أن هذا التفسير أَوْلَى وجهان: أحدهما: أنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ لأن نفس الإعجاز ظهر فيهما لا أنه ظهر على يدهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التي ظهرت على يده نحو إحياء الموتى وذلك لأن الولادة فيه وفيها آية فيهما وكذلك أن نطقا في المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لا أنه آية فيه. الثاني: أنه تعالى قال: آية ولم يقل: آيتين، وحمل هذا اللفظ على الأمر الذي لا يتم إلا بمجموعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التي كان عيسى عليه السلام مستقلاً بها.

اما قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: جعلنا مأواهما الربوة، والربوة والرباوة في راءيهما الحركات الثلاث وهي الأرض المرتفعة، ثم قال قتادة وأبو العالية: هي إيلياء أرض بيت المقدس، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنها الرملة. وقال الكلبي وابن زيد: هي بمصر وقال الأكثرون: إنها دمشق وقال مقاتل والضحاك: هي غوطة دمشق، والقرار المستقر من (كُلِّ) أرض مستوية مبسوطة، وعن قتادة ذات ثمار وماء، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها، والمعين الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض. فنبه سبحانه على كمال نعمه عليها بهذا اللفظ على اختصاره. ثم في المعين قولان: أحدهما: أنه مفعول لأنه لظهوره يدرك بالعين من عانه إذا أدركه بعينه وقال الفراء والزجاج: إن شئت جعلته فعيلاً من الماعون ويكون أصله من المعن والماعون فاعول منه قال أبو علي: والمعين: السهل الذي ينقاد ولا يتعاصى والماعون ما سهل على معطيه، ثم قالوا: وسبب الإيواء أنها فرت بابنها عيسى إلى الربوة وبقيت بها اثنتي عشرة سنة، وإنما ذهب بهما ابن عمها يوسف ثم رجعت إلى أهلها بعد أن مات ملكهم، وهاهنا آخر

القصص، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

اعلم أن ظاهر قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن؛ لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة متفرقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب إليهم، فلهذا الإشكال اختلفوا في تأويله على وجوه: أحدها: أن المعنى الإعلام بأن كل رسول فهو في زمانه نودي بهذا المعنى ووصى به ليعتقد السامع أن أمرًا نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه. وثانيها: أن المراد نبينا عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرسل، وإنما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد: أيها القوم كفوا عني أذاكم ومثله ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وهو نعيم بن مسعود كأنه سبحانه لما خاطب محمدًا ﷺ بذلك بيَّن أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين مجتمعين لما خوطبوا إلا بذلك ليعلم رسولنا أن هذا التثقيل ليس عليه فقط، بل لازم على جميع الأنبياء عليهم السلام. وثالثها: وهو قول محمد بن جرير أن المراد به عيسى عليه السلام؛ لأنه إنما ذكر ذلك بعدما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولأنه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه، والقول الأول أقرب؛ لأنه أوفق للفظ الآية؛ ولأنه روي عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح من لبن في شدة الحر عند فطره وهو صائم **«فَرَدَّهُ الرَّسُولُ إِلَيْهَا وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا؟ فَقَالَتْ: مِنْ شَاةٍ لِي، ثُمَّ رَدَّهُ وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ هَذِهِ الشَّاةُ؟ فَقَالَتْ: اشْتَرَيْتُهَا بِمَالِي فَأَخَذَهُ. ثُمَّ إِنَّهَا جَاءَتْهُ وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه، لِمَ رَدَدْتَهُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بِذَلِكَ أُمِرَتِ الرُّسُلُ أَنْ لاَ يَأْكُلُوا إِلاَّ طَيِّبًا وَلاَ يَعْمَلُوا إِلاَّ صَالِحًا»**(١).

أما قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنه الحلال وقيل: طيبات الرزق حلال وصافٍ وقوام، فالحلال: الذي لا يعصى الله فيه، والصافي: الذي لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل. والثاني: أنه المستطاب المستلذ من المأكل والفواكه فبيَّن تعالى أنه وإن ثقل عليهم بالنبوة وبما ألزمهم القيام بحقها، فقد أباح لهم أكل الطيبات كما أباح

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبراني في (مسند الشاميين) (٢/ ٣٥٥)، حديث رقم (١٤٨٨)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٦/ ١٠٥)، كلاهما من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس... به، وفي إسناده ابن أبي مريم وهو ضعيف.

لغيرهم. واعلم أنه سبحانه كما قال المرسلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، واعلم أن تقديم قوله: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ على قوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ كالدلالة على أن العمل الصالح لا بد وأن يكون مسبوقًا بأكل الحلال، فأما قوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به وإذا كان ذلك تحذيرًا للرسل مع علو شأنهم فبأن يكون تحذيرًا لغيرهم أولى.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ فقد فسرناه في سورة الأنبياء **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: المعنى أنه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والأعمال الصالحة فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الإتقاء من معصية الله تعالى. فإن قيل: لمَّا كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدًا؟ قلنا: المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته، وأما الشرائع فإن الاختلاف فيها لا يسمى اختلافًا في الدين، فكما يقال في الحائض والطاهر من النساء: إن دينهن واحد وإن افترق تكليفهما فكذا هاهنا، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه فلا مدخل للشرائع، وإن اختلفت في ذلك.

المسألة الثانية: قرىء وإن بالكسر على الاستئناف، وإن بمعنى ولأن، وإن مخففة من الثقيلة وأمتكم مرفوعة معها.

أما قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ فالمعنى فإن أمم الأنبياء عليهم السلام تقطعوا أمرهم بينهم وفي قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ معنى المبالغة في شدة اختلافهم والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين.

أما قوله ﴿زُبُرًا﴾ فقرىء (زبرًا) جمع زبور أي: كتبًا مختلفة يعني جعلوا دينهم أديانًا، وزبرًا: قطعًا استعيرت من زبر الفضة والحديد، وزبرًا مخففة الباء كرسل في رسل قال الكلبي ومقاتل والضحاك: يعني مشركي مكة والمجوس واليهود والنصارى.

أما قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فمعناه: أن كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه دينًا لنفسه معجب به يرى المحق أنه الرابح، وأن غيره المبطل الخاسر، ولما ذكر الله تعالى تفرق هؤلاء في دينهم أتبعه بالوعيد، وقال: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ الخطاب لنبينا ﷺ يقول: فدع هؤلاء الكفار في جهلهم، والغمرة: الماء الذي يغمر القامة فكأن ما هم فيه من الجهل والحيرة صار غامرًا ساترًا لعقولهم، وعن علي عليه السلام: ﴿فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وذكروا في الحين وجوهًا: أحدها: إلى حين الموت. وثانيها: إلى حين المعاينة. وثالثها: إلى حين العذاب، والعادة في ذلك أن يذكر في الكلام، والمراد به الحالة التي تقترن بها الحسرة والندامة، وذلك يحصل إذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم، ويحصل أيضًا عند المحاسبة في الآخرة، ويحصل عند عذاب القبر والمساءلة فيجب أن يحمل على كل ذلك.

ولما كان القوم في نعم عظيمة في الدنيا جاز أن يظنوا أن تلك النعم كالثواب المعجل لهم على أديانهم، فبيَّن سبحانه أن الأمر بخلاف ذلك، فقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قرئ (يمدهم، ويسارع) بالياء والفاعل هو الله سبحانه وفي المعنى وجهان: أحدهما: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم في المعاصي، واستجرارًا لهم في زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة في الخيرات وبل للاستدراك لقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ يعني بل هم أشباه البهائم لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في ذلك، أهو استدراج أم مسارعة في الخير، وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٨٥] روي عن يزيد بن ميسرة: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء «**أيَفرحُ عَبْدِي أَنْ أَبْسُطَ لَهُ الدُّنيَا وَهُوَ أَبْعَدُ لَهُ مِنِّي، وَيَجْزَعُ أَنْ أَقْبِضَ عَنْهُ الدُّنْيَا وَهُوَ أَقْرَبُ لَهُ مِنِّي**»(١) ثم تلا: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ وعن الحسن: لما أُتي عمر بسوار كسرى فأخذه ووضعه في يد سراقة فبلغ منكبه. فقال عمر: اللهم إني قد علمت أن نبيك عليه الصلاة والسلام، كان يحب أن يصيب مالاً لينفقه في سبيلك، فزويت ذلك عنه نظرًا، ثم إن أبا بكر كان يحب ذلك، اللهم لا يكن ذلك مكرًا منك بعمر. ثم تلا: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ الوجه الثاني: وهو أنه سبحانه إنما أعطاهم هذه النعم ليكونوا فارغي البال، متمكنين من الاشتغال بكلف الحق، فإذا أعرضوا عن الحق والحالة هذه، كان لزوم الحجة عليهم أقوى، فلذلك قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾

اعلم أنه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بيَّن بعده صفات من يسارع في الخيرات ويشعر بذلك وهي أربعة:

الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ والإشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف، فمنهم من قال: جمع بينهما للتأكيد، ومنهم من حمل الخشية على العذاب، والمعنى الذين هم من عذاب ربهم مشفقون، وهو قول الكلبي ومقاتل، ومنهم من حمل الإشفاق على أثره وهو الدوام في الطاعة، والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته، جادون في طلب مرضاته. والتحقيق أن من بلغ في الخشية إلى حد الإشفاق وهو كمال الخشية، كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلاً، ومن عقابة آجلاً، فكان في نهاية الاحتراز عن

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في (الزهد) (١/ ٢١٧)، حديث رقم (٢١٦) من طريق الحسين بن علي الجعفي عن شيخ من أهل البصرة عن يزيد بن ميسرة الحمصي... به، في إسناده من لم يسم.

المعاصي .

الصفة الثانية: قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ واعلم أن آيات الله تعالى هي المخلوقات الدالة على وجوده ، والإيمان بها هو التصديق بها ، والتصديق بها إن كان بوجودها فذلك معلوم بالضرورة ، وصاحب هذا التصديق لا يستحق المدح ، وإن كان بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع فذلك مما لا يتوصل إليه إلا بالنظر والفكر ، وصاحبه لا بد وأن يصير عارفًا بوجود الصانع وصفاته ، وإذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الإقرار باللسان ظاهرًا وذلك هو الإيمان .

الصفة الثالثة: قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله تعالى ؛ لأن ذلك داخل في قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ بل المراد منه نفي الشرك الخفي ، وهو أن يكون مخلصًا في العبادة لا يقدم عليها إلا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله أعلم .

الصفة الرابعة: قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ معناه : يعطون ما أعطوا ، فدخل فيه كل حق يلزم إيتاؤه سواء كان ذلك من حق الله تعالى : كالزكاة والكفارة وغيرهما ، أو من حقوق الآدميين : كالودائع والديون وأصناف الإنصاف والعدل ، وبيَّن أن ذلك إنما ينفع إذا فعلوه وقلوبهم وجلة ؛ لأن من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره وإخلاله بنقصان أو غيره ، فإنه يكون لأجل ذلك الوجل مجتهدًا في أن يوفيها حقها في الأداء . وسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقالت : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «**لاَ يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنْ هُوَ الرَّجُلُ يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ يَخَافُ اللَّهَ تَعَالَى**»(١) .

واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن ؛ لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي .

والصفة الثانية: دلت على ترك الرياء في الطاعات .

والصفة الثالثة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله سبحانه الوصول إليها ، فإن قيل : أفتقولون : إن قوله : ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ يرجع إلى يؤتون ، أو يرجع إلى كل ما تقدم من الخصال؟ قلنا : بل الأَوْلَى أن يرجع إلى الكل ؛ لأن العطية ليست بذلك أولى من سائر الأعمال ، إذ المراد أن يؤدي ذلك على وجل من تقصيره ، فيكون مبالغًا في توفيته حقه ، فأما إذا قرئ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٢٧)، حديث رقم (٣١٧٥)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ١٥٩)، حديث رقم (٢٥٣٠٢)، وابن ماجه في (سننه) (٩/ ١٩٨)، حديث رقم (٤١٩٨)، الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٢٧)، حديث رقم (٣٤٨٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، الحميدي في (مسنده) (١/ ١٣٢) حديث رقم (٢٧٥)، والطبري في (تفسيره) (١٩/ ٤٧)، جميعًا من طريق مالك بن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة . . . به .

فالقول فيه أظهر، إذ المراد بذلك أي شيء أتوه وفعلوه من تحرز عن معصية وإقدام على إيمان وعمل، فإنهم يقدمون عليه مع الوجل، ثم إنه سبحانه بين علة ذلك الوجل وهي علمهم بأنهم إلى ربهم راجعون، أي: للمجازاة والمساءلة ونشر الصحف وتتبع الأعمال، وأن هناك لا تنفع الندامة، فليس إلا الحكم القاطع من جهة مالك الملك. ثم إنه سبحانه لما ذكر هذه الصفات للمؤمنين المخلصين قال بعده: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن المراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاحترام. والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الإكرام، كما قال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ [آل عمران: ١٤٨]. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] لأنهم إذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها، وهذا الوجه أحسن طباقًا للآية المتقدمة؛ لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين وقرئ (يسرعون في الخيرات).

أما قوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ فالمعنى فاعلون السبق لأجلها، أو سابقون الناس لأجلها، أو وهم لها سابقون أي: ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون خبرًا بعد خبر. والمعنى: وهم لها كما يقال: أنت لها وهي لك، ثم قال: سابقون أي: وهم سابقون.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ٦٣ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر حكمين من أحكام أعمال العباد: فالأول: قوله: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ وفي الوسع قولان: أحدهما: أنه الطاقة عن المفضل. والثاني: أنه دون الطاقة وهو قول المعتزلة ومقاتل والضحاك والكلبي واحتجوا عليه بأن الوسع إنما سمي وسعًا؛ لأنه يتسع عليه فعله ولا يصعب ولا يضيق، فبيَّن أن أولئك المخلصين لم يكلفوا أكثر مما عملوا. قال مقاتل: من لم يستطع أن يصلي قائمًا فليصل جالسًا ومن لم يستطع جالسًا فليوم إيماء لأنا لا نكلف نفسًا إلا وسعها، واستدلت المعتزلة به في نفي تكليف ما لا يطاق وقد تقدم القول فيه. الثاني: قوله: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ ونظيره قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

واعلم أنه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان فإن الكتاب لا ينطق لكنه يعرب بما فيه كما يعرب وينطق الناطق إذا كان محقًا، فإن قيل: هؤلاء الذين يُعْرَض عليهم ذلك الكتاب إما أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلك عليه، فإن أحالوه عليه فإنهم يصدقونه في كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد، وإن جوزوه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب

لتجويزهم أنه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل. فعلى التقديرين لا فائدة في ذلك الكتاب؟ قلنا: يفعل الله ما يشاء وعلى أنه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة.

وأما قوله: ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فنظيره قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] فقالت المعتزلة: الظلم إما أن يكون بالزيادة في العقاب، أو بالنقصان من الثواب، أو بأن يعذب على ما لم يعلم، أو بأن يكلفهم ما لا يطيقون، فتكون الآية دالة على كون العبد موجدًا لفعله وإلا لكان تعذيبه عليه ظلمًا ودالة على أنه سبحانه لا يكلف ما لا يطاق. الجواب: أنه لما كلف أبا لهب أن يؤمن، والإيمان يقتضي تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه أن أبا لهب لا يؤمن فقد كلفه بأن يؤمن بأنه لا يؤمن فيلزمكم كل ما ذكرتموه.

وأما قوله تعالى: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه راجع إلى الكفار وهم الذين يليق بهم قوله: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ولا يليق ذلك بالمؤمنين إذ المراد في غمرة من هذا الذي بيناه في القرآن، أو من هذا الكتاب الذي ينطق بالحق، أو من هذا الذي هو وصف المشفقين ولهم أي: لهؤلاء الكفار أعمال من دون ذلك أي: أعمال سوى ذلك أي: سوى جهلهم وكفرهم ثم قال بعضهم: أراد أعمالهم في الحال، وقال بعضهم: بل أراد المستقبل وهذا أقرب؛ لأن قوله: ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ إلى الاستقبال أقرب وإنما قال: ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ لأنها مثبتة في علم الله تعالى وفي حكم الله وفي اللوح المحفوظ، فوجب أن يعملوها ليدخلوا بها النار لما سبق لهم من الله من الشقاوة. القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلم أن هذه الآيات من صفات المشفقين كأنه سبحانه قال بعد وصفهم: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ يحفظ أعمالهم ﴿ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ هو أيضًا وصف لهم بالحيرة كأنه قال: وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ولهم أعمال من دون ذلك أي: لهم أيضًا من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه إما أعمالاً قد عملوها في الماضي، أو سيعملونها في المستقبل، ثم إنه سبحانه رجع بقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ إلى وصف الكفار.

واعلم أن قول أبي مسلم أولى؛ لأنه إذا أمكن رد الكلام إلى ما يتصل به من ذكر المشفقين كان أَوْلى من رده إلى ما بعد منه خصوصًا، وقد يرغب المرء في فعل الخير بأن يذكر أن أعماله محفوظة كما قد يحذر بذلك من الشر، وقد يوصف المرء لشدة فكره في أمر آخرته بأن قلبه في غمرة ويراد أنه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله، أو رده وفي أنه هل أدّاه كما يجب، أو قصر. فإن قيل: فما المراد بقوله من هذا، وهو إشارة إلى ماذا؟ قلنا: هو إشارة إلى إشفاقهم ووجلهم مع أنهما مستوليان على قلوبهم.

أما قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ فقال صاحب (الكشاف): حتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام الجملة الشرطية.

واعلم أنه لا شبهة (فِي) أن الضمير في مترفيهم راجع إلى من تقدم ذكره من الكفار؛ لأن العذاب لا يليق إلا بهم وفي هذا العذاب وجهان: أحدهما: أراد بالعذاب ما نزل بهم يوم بدر. والثاني: أنه عذاب الآخرة ثم بيَّن سبحانه أن المنعمين منهم إذا نزل بهم العذاب يجأرون أي: يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه ويقال لهم على وجه التبكيت: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ فلا يدفع عنكم ما يريد إنزاله بكم، دل بذلك سبحانه على أنهم سينتهون يوم القيامة إلى هذه الدرجة من الحسرة والندامة وهو كالباعث لهم في الدنيا على ترك الكفر والإقدام على الإيمان والطاعة فإنهم الآن ينتفعون بذلك.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بيَّن فيما قبل أنه لا ينصر أولئك الكفار أتبعه بعلة ذلك وهي أنه متى تليت آيات الله عليهم أتوا بأمور ثلاثة: أحدها: أنهم كانوا على أعقابهم ينكصون وهذا مثل يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد وهو قوله: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: تنفرون عن تلك الآيات وعمن يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه. وثانيها: قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ والهاء في (به) إلى ماذا تعود؟ فيه وجوه: أولها: إلى البيت العتيق أو الحرم كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم والذي يسوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وإن لم يكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به. وثانيها: المراد مستكبرين بهذا التراجع والتباعد. وثالثها: أن تتعلق الباء بسامرًا أي: يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه، وهذا هو الأمر الثالث الذي يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سِحرًا وشعرًا وسب رسول الله ﷺ ويهجرون، والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع وقرئ سمرًا وسامرًا، يهجرون من أهجر في منطقه إذا أفحش والهجر بالفتح: الهذيان والهجر بالضم: الفحش أو من هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذي. ثم إنه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بأن بيَّن أن إقدامهم على هذه الأمور لا بد وأن يكون لأحد أمور أربعة: أحدها: أن لا يتأملوا في دليل ثبوته وهو المراد من قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[محمد: ٢٤] فبيَّن أن القول الذي هو القرآن كان معروفًا لهم وقد

مكنوا من التأمل فيه من حيث كان مباينًا لكلام العرب في الفصاحة، ومبرأ عن التناقض في طول عمره، ومن حيث ينبه على ما يلزمهم من معرفة الصانع ومعرفة الوحدانية فلم لا يتدبرون فيه ليتركوا الباطل ويرجعوا إلى الحق. وثانيها: أن يعتقدوا أن مجيء الرسل أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وذلك لأنهم عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تتواتر على الأمم وتظهر المعجزات عليها وكانت الأمم بين مصدق ناج، وبين مكذب هالك بعذاب الاستئصال أفما دعاهم ذلك إلى تصديق الرسول. وثالثها: أن لا يكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ نبه سبحانه بذلك على أنهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه في نهاية الأمانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والأخلاق الذميمة فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين. ورابعها: أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولون: إنما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وهذا أيضًا ظاهر الفساد؛ لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنه أعقل الناس، والمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة، ولقد كان من المبغضين له عليه السلام من سماه بذلك وفيه وجهان: **أحدهما**: أنهم نسبوه إلى ذلك من حيث كان يطمع في انقيادهم له وكان ذلك من أبعد الأمور عندهم فنسبوه إلى الجنون لذلك. والثاني: أنهم قالوا ذلك إيهامًا لعوامهم لكي لا ينقادوا له فأوردوا ذلك مورد الاستحقار له. ثم إنه سبحانه بعد أن عد هذه الوجوه، ونبه على فسادها قال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ من حيث تمسكوا بالتقليد ومن حيث علموا أنهم لو أقروا بمحمد ﷺ لزالت مناصبهم ولاختلت رياساتهم فلذلك كرهوه فإن قيل: قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ فيه دليل على أن أقلهم لا يكرهون الحق، قلنا: كان فيهم من يترك الإيمان أنفة من توبيخ قومه وأن يقولوا: ترك دين آبائه لا كراهة للحق كما حكي عن أبي طالب ثم بيَّن سبحانه أن الحق لا يتبع الهوى، بل الواجب على المكلف أن يطرح الهوى ويتبع الحق فبيَّن سبحانه أن اتباع الهوى يؤدي إلى الفساد العظيم فقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وفي تفسيره وجوه: الأول: أن القوم كانوا يرون أن الحق في اتخاذ آلهة مع الله تعالى، لكن لو صح ذلك لوقع الفساد في السموات والأرض على ما قررناه في دليل التمانع في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. والثاني: أن أهواءهم في عبادة الأوثان وتكذيب محمد ﷺ وهما منشأ المفسدة، والحق هو الإسلام، فلو اتبع الإسلام قولهم لعلم الله حصول المفاسد عند بقاء هذا العالم، وذلك يقتضي تخريب العالم وإفناءه. والثالث: أن آراءهم كانت متناقضة فلو اتبع الحق أهواءهم لوقع التناقض ولاختل نظام العالم، عن القفال.

أما قوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ فقيل: إنه القرآن والأدلة وقيل: بل شرفهم وفخرهم بالرسول وكلا القولين متقارب؛ لأن في مجيء الرسول بيان الأدلة وفي مجيء الأدلة بيان الرسول فأحدهما

مقرون بالآخر، وقيل: الذكر هو الوعظ والتحذير، وقيل: هو الذي كانوا يتمنونه ويقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٨، ١٦٩] وقرئ (بذكراهم). ثم بيّن سبحانه أنه عليه الصلاة والسلام لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببًا للنفرة فقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ وقرىء (خراجًا)، قال أبو عمرو بن العلاء: الخرج: ما تبرعت به والخراج: ما لزمك أداؤه والوجه أن الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ ﴿خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ يعني: أم تسألهم على هدايتهم قليلاً من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخلق خير. فنبه سبحانه بذلك على أن هذه التهمة بعيدة عنه، فلا يجوز أن ينفروا عن قبول قوله لأجلها. فنبه سبحانه بهذه الآيات على أنهم غير معذورين ألبتة وأنهم محجوجون من جميع الوجوه، قال الجبائي: دل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ على أن أحدًا من العباد لا يقدر على مثل نعمه ورزقه ولا يساويه في الإفضال على عباده ودل أيضًا على أن العباد قد يرزق بعضهم بعضًا ولولا ذلك لما جاز أن يقول: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ۝٧٤ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما زيف طريقة القوم أتبعه ببيان صحة ما جاء به الرسول ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأن ما دل الدليل على صحته فهو في باب الاستقامة أبلغ من الطريق المستقيم ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أي: لعادلون عن هذا الطريق؛ لأن طريق الاستقامة واحدة وما يخالفه فكثير.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ ففيه وجوه: أحدها: المراد ضرر الجوع وسائر مضار الدنيا. وثانيها: المراد ضرر القتل والسبي. وثالثها: أنه ضرر الآخرة وعذابها فبيّن أنهم قد بلغوا في التمرد والعناد المبلغ الذي لا مرجع فيه إلى دار الدنيا، وأنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] لشدة لجاجهم فيما هم عليه من الكفر.

أما قوله تعالى: ﴿لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فالمعنى: لتمادوا في ضلالهم وهم متحيرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠﴾

اختلفوا في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ على وجوه:

أحدها: أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة منع الميرة عن أهل مكة فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والجيف، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وقال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة العالمين، ثم قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فادع الله يكشف عنا هذا القحط. فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية [(١)]، والمعنى: أخذناهم بالجوع فما أطاعوا.

وثانيها: هو الذي نالهم يوم بدر من القتل والأسر، يعني: أن ذلك مع شدته ما دعاهم إلى الإيمان، عن الأصم.

وثالثها: المراد من عُذب من الأمم الخوالي ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: مشركي العرب لربهم، عن الحسن.

ورابعها: أن شدة الدنيا أقرب إلى المكلف من شدة الآخرة، فإذا لم تؤثر فيهم شدة الدنيا فشدة الآخرة كذلك، وهذا يدل على أنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

ففيه وجهان:

أحدهما: حتى إذا فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من القتل والأسر.

والثاني: إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥] والإبلاس: اليأس من كل خير، وقيل: السكون مع التحسير. **هاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: ما وزن استكان؟ الجواب: استفعل من السكون أي: انتقل من كون إلى كون، كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال، ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه.

السؤال الثاني: لمَ جاء ﴿اسْتَكَانُوا﴾ بلفظ الماضي و﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ بلفظ المستقبل؟ الجواب: لأن المعنى امتحناهم فما وجدنا منهم عقيب المحنة استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد وقرىء (فتحنا).

السؤال الثالث: العطف لا يحسن إلا مع المجانسة فأي مناسبة بين قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ وبين ما قبله؟ الجواب: كأنه سبحانه لما بين مبالغة أولئك الكفار في الأعراض عن سماع الأدلة ورؤية العبر والتأمل في الحقائق قال للمؤمنين: وهو الذي أعطاكم هذه الأشياء ووقفكم عليها، تنبيهًا على أن من لم يستعمل هذه الأعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٨/ ٤٥)، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٤/ ٣٣٢)، حديث رقم (١٣٢٧)، والبيهقي في (دلائل النبوة) (٤/ ١٣٣)، حديث رقم (١٤٢١)، جميعًا من طريق يحيى بن واضح قال: حدثنا عبد المؤمن، عن علباء بن أحمد، عن عكرمة، عن ابن عباس. . . به.

قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] تنبيهًا على أن حرمان أولئك الكفار ووجدان هؤلاء المؤمنين ليس إلا من الله. واعلم أنه سبحانه بيَّن عظيم نعمه من وجوه: أحدها: بإعطاء السمع والأبصار والأفئدة وخص هذه الثلاثة بالذكر؛ لأن الاستدلال موقوف عليها، ثم بيَّن أنه يَقِل منهم الشاكرون، قال أبو مسلم: وليس المراد أن لهم شكرًا وإن قلَّ، لكنه كما يقال للكفور الجاحد للنعمة: ما أقل شكر فلان. وثانيها: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل في التفسير: (خلقكم) قال أبو مسلم: ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثرتم كقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣] فنقول: هو الذي جعلكم في الأرض متناسلين، ويحشركم يوم القيامة إلى دار لا حاكم فيها سواه، فجعل حشرهم إلى ذلك الموضع حشرًا إليه لا بمعنى المكان. وثالثها: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: نعمة الحياة وإن كانت من أعظم النعم فهي منقطعة وأنه سبحانه وإن أنعم بها فالمقصود منها الانتقال إلى دار الثواب: ورابعها: قوله: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ووجه النعمة بذلك معلوم، ثم إنه سبحانه حذر من ترك النظر في هذه الأمور فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لأن ذلك دلالة الزجر والتهديد وقرىء (أفلا يعقلون).

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما أوضح القول في دلائل التوحيد عقَّبه بذكر المعاد فقال: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في إنكار البعث مع وضوح الدلائل ونبه بذلك على أنهم إنما أنكروا ذلك تقليدًا للأولين وذلك يدل على فساد القول بالتقليد، ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين: أحدهما: قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهو مشهور. وثانيهما: قولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ كأنهم قالوا: إن هذا الوعد كما وقع منه عليه الصلاة والسلام فقد وقع قديمًا من الأنبياء، ثم لم يوجد مع طول العهد، فظنوا أن الإعادة تكون في دار الدنيا، ثم قالوا: لما كان كذلك فهو من أساطير الأولين، والأساطير: جمع أسطار والأسطار جمع سطر أي ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له، وجمع أسطورة أوفق.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكري الإعادة وأن يكون المقصود الرد على عبدة الأوثان، وذلك لأن القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا: نعبد الأصنام لتقربنا إلى الله زلفى، ثم إنه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة:

أحدها: قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ ووجه الاستدلال به على الإعادة أنه تعالى لما كان خالقًا للأرض ولمن فيها من الأحياء، وخالقًا لحياتهم وقدرتهم وغيرها، فوجب أن يكون قادرًا على أن يعيدهم بعد أن أفناهم. ووجه الاستدلال به على نفي عبادة الأوثان، من حيث إن عبادة من خلقكم وخلق الأرض وكل ما فيها من النعم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ معناه الترغيب في التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه.

وثانيها: قوله: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ووجه الاستدلال على الأمرين كما تقدم، وإنما قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تنبيهًا على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل إلا بترك عبادة الأوثان والاعتراف بجواز الإعادة.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

اعلم أنه سبحانه لما ذكر الأرض أولاً والسماء ثانيًا عمم الحكم هاهنا، فقال: من بيده ملكوت كل شيء، ويدخل في الملكوت المُلك والمِلك على سبيل المبالغة، وقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يقال: أجرت فلانًا على فلان إذا أغثته منه ومنعته. يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحدًا.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فالمعنى: أنى تخدعون عن توحيده وطاعته، والخادع هو الشيطان والهوى. ثم بيَّن تعالى بقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أنه قد بالغ في الحجاج عليهم بهذه الآيات وغيرها وهم مع ذلك كاذبون، وذلك كالتوعد والتهديد، وقرىء (أتيتهم)، وأتيتهم بالضم والفتح. **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: قرىء (قل لله) في الجواب الأول باللام لا غير، وقرىء (الله) في الأخيرين بغير اللام في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام وباللام في مصاحف أهل البصرة فما الفرق؟

الجواب: لا فرق في المعنى؛ لأن قولك: من ربه، ولمن هو؟ في معنى واحد.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم حكى عنهم سيقولون: الله، وفيه تناقض؟

الجواب: لا تناقض لأن قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لا ينفي عملهم بذلك. وقد يقال مثل ذلك في الحجاج على وجه التأكيد لعلمهم والبعث على اعترافهم بما يورد من ذلك.

قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

اعلم أنه سبحانه ادعى أمرين: أحدهما: قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ وهو كالتنبيه على أن ذلك من قول هؤلاء الكفار، فإن جمعًا منهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله. والثاني: قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ وهو قولهم باتخاذ الأصنام آلهة، ويحتمل أن يريد به إبطال قول النصارى والثنوية، ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ والمعنى: لانفرد على (ذلك) كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزًا عن ملك الآخر، ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون، وحيث لم تروا أثر التمايز في الممالك والتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء. فإن قيل: ﴿إِذًا﴾ لا يدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجوابًا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل؟ قلنا: الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ عليه، ثم إنه سبحانه نزّه نفسه عن قولهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من إثبات الولد والشريك.

أما قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فقرىء بالجر صفة لله، وبالرفع خبر مبتدأ محذوف، والمعنى: أنه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة، فغيره وإن علم الشهادة فلن يعلم معها الغيب، والشهادة التي يعلمها لا يتكامل بها النفع إلا مع العلم بالغيب وذلك كالوعيد لهم، فلذلك قال: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم أمره سبحانه بالانقطاع إليه وأن يدعوه بقوله: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): ما والنون مؤكدتان، أي: إن كان ولا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة، فلا تجعلني قرينًا لهم ولا تعذبني بعذابهم، فإن قيل: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم؟ قلنا: يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهارًا للعبودية وتواضعًا لربه. وما أحسن قول الحسن في قول الصديق: وليتكم ولست بخيركم[1]،

---

(١) **صحيح موقوف**: أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) (١١/ ٣٣٦)، حديث رقم (٢٠٧٠٢) من طريق معمر قال: وحدثني بعض أهل المدينة قال: خطبنا أبو بكر. . . فذكره، والقاسم بن سلام في (الأموال) (١/ ٨/ ٦) من طريق=

مع أنه كان يعلم أنه خيرهم، ولكن المؤمن يهضم نفسه، وإنما ذكر رب مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة في التضرع.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ **ففيه قولان:**

أحدهما: أنهم كانوا ينكرون الوعد بالعذاب ويضحكون منه، فقيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد ويحتمل عذابًا في الدنيا مؤخرًا عن أيامه عليه السلام، فلذلك قال بعضهم: هو في أهل البغي، وبعضهم: في الكفار الذين قوتلوا بعد الرسول ﷺ. والثاني: أن المراد عذاب الآخرة.

أما قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ فالمراد منه أن الأولى به عليه السلام أن يعامل به الكفار فأمر باحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الأذى، وأن يدفعه بالكلام الجميل كالسلام وبيان الأدلة على أحسن الوجوه، وبيَّن له أنه أعلم بحالهم منه عليه السلام وأنه سبحانه لما لم يقطع نعمه عنهم، فينبغي أن يكون هو عليه السلام مواظبًا على هذه الطريقة، قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] أبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل، والمعنى الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الطاقة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء السيئة. وقيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة؛ لأن المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى نقصان دين أو مروءة.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما أدب رسوله بقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] أتبعه بما به يقوى على ذلك وهو الاستعاذة بالله من أمرين: أحدهما: من همزات الشياطين، والهمزات جمع الهمزة، وهو الدفع والتحريك الشديد، وهو كالهز والأز، ومنه مهماز الرائض، وهمزاته هو كيده بالوسوسة، ويكون ذلك منه في الرسول بوجهين:

أحدهما: بالوسوسة والآخر بأن يبعث أعداءه على إيذائه، وكذلك القول في المؤمنين؛ لأن الشيطان يكيدهم بهذين الوجهين، ومعلوم أن من ينقطع إلى الله تعالى ويسأله أن يعيذه من الشيطان، فإنه يجب أن يكون متذكرًا متيقظًا فيما يأتي ويذر، فيكون نفس هذا الانقطاع إلى الله

=هشام بن عروة عن أبيه قال: خطب أبو بكر رضي الله عنه... فذكره، وأبو داود في (الزهد) (١/ ٣٤) حديث رقم (٣١) من طريق علي بن هاشم عن إسماعيل عن قيس قال: خطبنا أبو بكر... به؛ وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٣٠/ ٣٠٤) من طريق يحيى بن سلمة بن كهيل عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن أبي بكر... به.

تعالى داعية إلى التمسك بالطاعة وزاجرًا عن المعصية، قال الحسن: كان عليه السلام يقول بعد استفتاح الصلاة: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ثَلاَثًا، اللَّهُ أَكْبَرُ ثَلاَثًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ هَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هَمْزُهُ؟ قَالَ: الْمَوْتَةُ الَّتِي تَأْخُذُ ابْنَ آدَمَ- أَيِ الْجُنُونُ الَّذِي يَأْخُذُ ابْنَ آدَمَ- قِيلَ: فَمَا نَفْثُهُ؟ قَالَ: الشِّعْرُ قِيلَ: فَمَا نَفْخُهُ؟ قَالَ الْكِبْرُ»(١).

وثانيها: قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

وفيه وجهان:

أحدهما: أن يحضرون عند قراءة القرآن لكي يكون متذكرًا فيَقِل سهوه، وقال آخرون: بل استعاذ بالله من نفس حضورهم؛ لأنه الداعي إلى وسوستهم كما يقول المرء: أعوذ بالله من خصومتك بل أعوذ بالله من لقائك، وروي عن رسول الله ﷺ وقد اشتكى إليه رجل أَرَقًا يجده فقال: «إِذَا أَرَدْتَ النَّوْمَ فَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ»(٢).

أما قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): حتى متعلق بيصفون أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعينًا بالله على الشيطان أنه يستزله عن الحلم والله أعلم.

المسألة الثانية: اختلفوا في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فالأكثرون على أنه راجع إلى الكفار وقال الضحاك: كنت جالسًا عند ابن عباس، فقال: من لم يزكِ ولم يحج سَأَلَ الرجعة عند الموت، فقال واحد: إنما يَسْأَل ذلك الكفار فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا أقرأ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك) (١/ ٢٠٤)، حديث رقم (٧٧٥)، قال: حدثنا عبد السلام بن مظهر، والترمذي في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقول عند افتتاح الصلاة) (٢/ ٩)، حديث رقم (٢٤٢)، وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة»، باب: (افتتاح الصلاة) (١/ ٢٦٤)، حديث رقم (٨٠٤)، والنسائي في كتاب (الافتتاح)، باب: (نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة والقراءة) (١/ ٤٦٩)، حديث رقم (٨٩٨) من طريق عبد الرزاق... به، والدارمي في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقال بعد افتتاح الصلاة) (١/ ٢٨٧)، حديث رقم (١٢٣٩)، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٢٣٨) حديث رقم (٤٦٧)، قال: حدثنا محمد بن موسى الحرشي، جميعًا (ابن مطهر، ابن موسى، زيد، عبد الرزاق، محمد بن الحسن، حسن بن الربيع) عن جعفر بن سليمان... به.

(٢) والحديث أصله في سنن أبي داود والترمذي، أخرجه أبو داود في كتاب (الطب)، باب: (كيف الرقي) (٤/ ١٦٧٦)، حديث رقم (٣٨٩٣)، والترمذي في كتاب (الدعوات)، باب: (٩٤)، (٥/ ٥٠٦)، حديث رقم (٣٥٢٨)، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٥٤٨)، جميعًا من طريق محمد بن إسحاق... به وإسناده حسن.

عليك به قرآنًا ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠] قال رسول الله ﷺ: «إذا حَضَرَ الإِنْسَانَ المَوْتُ جُمِعَ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْ حَقِّهِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَعِنْدَهُ يَقُولُ: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ»(١).

والأقرب هو الأول إذا عرف المؤمن منزلته في الجنة فإذا شاهدها لا يتمنى أكثر منها، ولولا ذلك لكان أدونهم ثوابًا يغتم بفقد ما يفقد من منزلة غيره وأما ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ١٠] فهو إخبار عن حال الحياة في الدنيا لا عن حال الثواب فلا يلزم على ما ذكرنا.

المسألة الثالثة: اختلفوا في وقت مسألة الرجعة فالأكثرون على أنه يسأل في حال المعاينة؛ لأنه عندها يضطر إلى معرفة الله تعالى وإلى أنه كان عاصيًا ويصير ملجأ إلى أنه لا يفعل القبيح بأن يعلمه الله تعالى أنه لو رامه لمنع منه، ومن هذا حاله يصير كالممنوع من القبائح بهذا الإلجاء فعند ذلك يسأل الرجعة، ويقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وقال آخرون: بل يقول ذلك عند معاينة النار في الآخرة، ولعل هذا القائل إنما ترك ظاهر هذه الآية لما أخبر الله تعالى في كتابه عن أهل النار في الآخرة أنهم يسألون الرجعة لكن ذلك مما لا يمنع أن يكونوا سائلين الرجعة في حال المعاينة، والله تعالى يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ فعلق قولهم هذا بحال حضور الموت وهو حال المعاينة فلا وجه لترك هذا الظاهر.

المسألة الرابعة: اختلفوا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ارْجِعُونِ﴾ مَنْ المراد به؟ فقال بعضهم: الملائكة الذين يقبضون الأرواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع، وقال آخرون: بل المراد هو الله تعالى؛ لأن قوله: (رب) بمنزلة أن يقول: يا رب وإنما ذكر بلفظ الجمع للتعظيم كما يخاطب العظيم بلفظه فيقول: فعلنا وصنعنا وقال الشاعر:

فَإِنْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ(٢)

ومن يقول بالأول يجعل ذكر الرب للقسم، فكأنه عند المعاينة قال: بحق الرب ارجعون،

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: كيف يسألون الرجعة وقد علموا صحة الدين بالضرورة، ومن الدين أن لا رجعة؟

الجواب: أنه وإن كان كذلك فلا يمتنع أن يسألوه؛ لأن الاستعانة بهذا الجنس من المسألة تحسن وإن علم أنه لا يقع فأما إرادته للرجعة فلا يمتنع أيضًا على سبيل ما يفعله المتمني.

---

(١) لم أجده.

(٢) هذا الشطر الأول من بيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر الحارث المخزومي والبيت هكذا:

فَإِن شِئتِ حَرَّمتُ النِساءَ سِواكُمُ ... وَإِن شِئتِ لَم أُطعَم نُقاخا وَلا بَردا

والحارث المخزومي هو الحارث المخزومي وهو: الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، من قريش. ؟- ٨٠ هـ/ ؟- ٦٩٩م. شاعر غزل، من أهل مكة نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة وكان يذهب مذهبه، لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء.

السؤال الثاني: ما معنى قوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ أفيجوز أن يسأل الرجعة مع الشك؟ **الجواب:** ليس المراد بلعل الشك فإنه في هذا الوقت باذل للجهد في العزم على الطاعة إن أعطى ما سأل، بل هو مثل من قصر في حق نفسه وعرف سوء عاقبة ذلك التقصير فيقول: مكنوني من التدارك لعلي أتدارك فيقول هذه الكلمة مع كونه جازمًا بأنه سيتدارك، ويحتمل أيضًا أن الأمر المستقبل إذا لم يعرفوه أوردوا الكلام الموضوع للترجي والظن دون اليقين، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

السؤال الثالث: ما المراد بقوله فيما تركت؟ الجواب: قال بعضهم: فيما خلفت من المال ليصير عند الرجعة مؤديًا لحق الله تعالى منه، والمعقول من قوله: ﴿تَرَكۡتُۚ﴾ التركة وقال آخرون: بل المراد أعمل صالحًا فيما قصرت فيدخل فيه العبادات البدنية والمالية والحقوق، وهذا أقرب كأنهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما أفسدوه ويطيعوا في كل ما عصوا.

السؤال الرابع: ما المراد بقوله كلا؟ الجواب: فيه قولان: أحدهما: أنه كالجواب لهم في المنع مما طلبوا، كما يقال لطالب الأمر المستبعد: هيهات، روي أنه عليه السلام قال لعائشة رضي الله عنها: «**إِذَا عَايَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَلائِكَةَ قَالُوا: نُرْجِعُكَ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: إِلَى دَارِ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ لاَ، بَلْ قُدُومًا عَلَى اللَّهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: نُرْجِعُكَ فَيَقُولُ: ارْجِعُونِ فَيُقَالُ لَهُ: إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَرْغَبُ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ أَوْ غَرْسِ الْغِرَاسِ أَوْ بِنَاءِ الْبُنْيَانِ أَوْ شَقِّ الْأَنْهَارِ؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ فَيَقُولُ: الْجَبَّارُ: كَلَّا**». الثاني: يحتمل أن يكون على وجه الإخبار بأنهم يقولون ذلك وأن هذا الخبر حق فكأنه قال: حقًا إنها كلمة هو قائلها، والأقرب الأول.

أما قوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ففيه وجهان: الأول: أنه لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه. الثاني: أنه قائلها وحده ولا يجاب إليها ولا يسمع منه.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ فالبرزخ: هو الحاجز والمانع كقوله في البحرين: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] أي: فهؤلاء صائرون إلى حالة مانعة من التلاقي حاجزة عن الاجتماع وذلك هو الموت، وليس المعنى أنهم يرجعون يوم البعث، إنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾

اعلم أنه سبحانه لما قال: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] ذكر أحوال ذلك

اليوم فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الصور آلة إذا نفخ فيها يظهر صوت عظيم، جعله الله تعالى علامة لخراب الدنيا ولإعادة الأموات، روي عن رسول الله ﷺ أنه قرن ينفخ فيه(١).

وثانيها: أن المراد من الصور مجموع الصور، والمعنى: فإذا نفخ في الصور أرواحها وهو قول الحسن فكان يقرأ بفتح الواو والفتح والكسر عن أبي رزين وهو حجة لمن فسر الصور بجمع صورة.

وثالثها: أن النفخ في الصور استعارة والمراد منه البعث والحشر، والأول أولى للخبر وفي قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٦٨] دلالة على أنه ليس المراد نفخ الروح والإحياء؛ لأن ذلك لا يتكرر.

اما قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فمن المعلوم أنه سبحانه إذا أعادهم فالأنساب ثابتة؛ لأن المعاد هو الولد والوالد، فلا يجوز أن يكون المراد نفي النسب في الحقيقة بل المراد نفي حكمه. وذلك من وجوه: أحدها: أن من حق النسب أن يقع به التعاطف والتراحم كما يقال في الدنيا: أسألك بالله والرحم أن تفعل كذا. فنفى سبحانه ذلك من حيث إن كل أحد من أهل النار يكون مشغولاً بنفسه وذلك يمنعه من الالتفات إلى النسب، وهكذا الحال في الدنيا؛ لأن الرجل متى وقع في الأمر العظيم من الآلام ينسى ولده ووالده. وثانيها: أن من حق النسب أن يحصل به التفاخر في الدنيا، وأن يسأل بعضهم عن كيفية نسب البعض، وفي الآخرة لا يتفرغون لذلك. وثالثها: أن يجعل ذلك استعارة عن الخوف الشديد فكل امرىء مشغول بنفسه عن بنيه وأخيه وفصيلته التي تؤويه فكيف بسائر الأمور، قال ابن مسعود رضي الله عنه: يؤخذ العبد والأمة يوم القيامة على رءوس الأشهاد وينادي منادٍ ألا إن هذا فلان فمن له عليه حق فليأت إلى حقه فتفرح المرأة حينئذ أن يثبت لها حق على أمها أو أختها أو أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها(٢) ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ وعن قتادة لا شيء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شيء ثم تلا ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥] وعن الشعبي قال: قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أما نتعارف يوم القيامة، أسمع الله تعالى يقول: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «ثَلاثُ مَوَاطِنَ تَذْهَلُ فِيهَا كُلُّ نَفسٍ: حِينَ يُرْمَى إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابُهُ، وَعِنْدَ الْمَوَازِينِ، وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ» وطعن بعض الملحدة فقال: قوله: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] يناقض قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] الجواب: عنه من وجوه: أحدها: أن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ففيه أزمنة وأحوال مختلفة فيتعارفون ويتساءلون في بعضها، ويتحيرون في بعضها لشدة الفزع.

(١) تقدم.

(٢) الطبري في (تفسيره) (١٨/ ٥٤). من طريق الحسين قال: حدثنا عيسى بن يونس عن هارون بن عنترة عن زاذان قال: سمعت ابن مسعود... به.

وثانيها: أنه إذا نفخ في الصور نفخة واحدة شغلوا بأنفسهم عن التساؤل، فإذا نفخ فيه أخرى أقبل بعضهم على بعض وقالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢] وثالثها: المراد لا يتساءلون بحقوق النسب. ورابعها: أن قوله: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ صفة للكفار وذلك لشدة خوفهم.

أما قوله: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠] فهو صفة أهل الجنة إذا دخلوها، واعلم أنه سبحانه قد بيَّن أن بعد النفخ في الصور تكون المحاسبة، وشرح أحوال السعداء والأشقياء، وقيل: لما بيَّن سبحانه أنه ليس في الآخرة إلا ثقل الموازين وخفتها، وجب أن يكون كل مكلف لا بد وأن يكون من أهل الجنة وأهل الفلاح، أو من أهل النار فيبطل بذلك القول بأن فيهم من لا يستحق الثواب والعقاب أو من يتساوى له الثواب والعقاب، ثم إنه سبحانه شرح حال السعداء بقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ وفي الموازين أقوال: أحدها: أنه استعارة من العدل. وثانيها: أن الموازين هي الأعمال الحسنة فمن أتى بما له قدر وخطر فهو الفائز الظافر، ومن أتى بما لا وزن له كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩] فهو خالد في جهنم. قال ابن عباس رضي الله عنهما الموازين: جمع موزون وهي الموزونات من الأعمال أي: الصالحات التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٥] أي: قدرًا. وثالثها: أنه ميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات في أحسن صورة، والسيئات في أقبح صورة فمن ثقلت حسناته سيق إلى الجنة ومن ثقلت سيئاته فإلى النار، وتمام الكلام في هذا الباب قد تقدم في سورة الأنبياء عليهم السلام. وأما الأشقياء فقد وصفهم الله تعالى بأمور أربعة:

أحدها: أنهم خسروا أنفسهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: غبنوها بأن صارت منازلهم للمؤمنين، وقيل: امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم في العذاب.

وثانيها: قوله: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ ودلالته على خلود الكفار في النار بينة. قال صاحب (الكشاف): ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من خسروا أنفسهم، أو خبر بعد خبر لأولئك، أو خبر مبتدأ محذوف.

وثالثها: قوله: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما أي: تضرب وتأكل لحومهم وجلودهم، قال الزجاج: اللفح والنفخ واحد إلا أن اللفح أشد تأثيرًا.

ورابعها: قوله: ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ والكلوح أن تتقلص الشفتان ويتباعدا عن الأسنان، كما ترى الرءوس المشوية، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَهُ**»، وقرئ (كَلِحُونَ)، ثم إنه سبحانه لما شرح عذابهم، حكى ما يقال لهم عند ذلك تقريعًا وتوبيخًا، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ ثم إنكم كنتم تكذبون بها مع وضوحها، فلا جرم صرتم مستحقين لما أنتم فيه من

العذاب الأليم. قالت المعتزلة: الآية تدل على أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب لسوء أفعالهم، ولو كان فعل العباد بخلق الله تعالى لما صح ذلك والجواب: أن القادر على الطاعة والمعصية إن صدرت المعصية عنه لا لمرجح ألبتة كان صدورها عنه اتفاقيًا لا اختياريًا، فوجب أن لا يستحق العقاب، وإن كان لمرجح، فذاك المرجح ليس من فعله وإلا لزم التسلسل، فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة عنه اضطراريًا لا اختياريًا، فوجب أن لا يستحق الثواب.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما قال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥] ذكروا ما يجري مجرى الجواب عنه وهو من وجهين: الأول: قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): غلبت علينا ملكتنا من قولك غلبني فلان على كذا إذا أخذه منك، والشقاوة سوء العاقبة، قرىء: (شقوتنا) بفتح الشين وكسرها فيهما، قال أبو مسلم: الشقوة: من الشقاء كجرية الماء، والمصدر الجري، وقد يجيء لفظ فعله، والمراد به الهيئة والحال، فيقول جلسة حسنة وركبة وقعدة وذلك من الهيئة، وتقول عاش فلان عيشة طيبة ومات ميتة كريمة، وهذا هو الحال والهيئة، فعلى هذا المراد من الشقوة حال الشقاء.

المسألة الثانية: قال الجبائي: المراد أن طلبنا اللذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا إلى هذه الشقاوة، فأطلق اسم المسبب على السبب. وليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بأن لا عذر لهم فيه، ولكنه اعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم في سوء صنيعهم، قلنا: إنك حملت الشقاوة على طلب تلك اللذات المحرمة، وطلب تلك اللذات حصل باختيارهم أو لا باختيارهم فإن حصل باختيارهم فذلك الاختيار محدث، فإن استغنى عن المؤثر فلم لا يجوز في كل الحوادث ذلك، وحينئذ ينسد عليك باب إثبات الصانع، وإن افتقر إلى محدث فمحدثه إما العبد أو الله تعالى، فإن كان هو العبد فذلك باطل لوجوه: أحدها: أن قدرة العبد صالحة للفعل والترك، فإن توقف صدور تلك الإرادة عنها إلى مرجح آخر، عاد الكلام فيه ولزم التسلسل، وإن لم يتوقف على المرجح فقد جوزت رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح، وذلك يسد باب إثبات الصانع. وثانيها: أن العبد لا يعلم كمية تلك الأفعال ولا كيفيتها، والجاهل

بالشيء لا يكون محدثًا له، وإلا لبطلت دلالة الإحكام والإتقان على العلم. والثاني: أن أحدًا في الدنيا لا يرضى بأن يختار الجهل، بل لا يقصد إلا تحصيل العلم، فالكافر ما قصد إلا تحصيل العلم، فإن كان الموجد لفعله هو فوجب أن لا يحصل إلا ما قصد إيقاعه، لكنه لم يقصد إلا العلم فكيف حصل الجهل؟ فثبت أن الموجد للدواعي والبواعث هو الله تعالى، ثم إن الداعية إن كانت سائقة إلى الخير كانت سعادة، وإن كانت سائقة إلى الشر كانت شقاوة. الوجه الثاني لهم في الجواب: قولهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ وهذا الضلال الذي جعلوه كالعلة في إقدامهم على التكذيب إن كان هو نفس ذلك التكذيب لزم تعليل الشيء بنفسه، ولما بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون ذلك الضلال عبارة عن شيء آخر ترتب عليه فعلهم وما ذاك إلا خلق الداعي إلى الضلال، ثم إن القوم لما أوردوا هذين العذرين، قال لهم سبحانه: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذا هو صريح قولنا: في أن المناظرة مع الله تعالى غير جائزة، بل لا يسأل عما يفعل. قال القاضي: في قوله: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ دلالة على أنه لا عذر لهم إلا الاعتراف، فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبإرادته وعلموا ذلك لكانوا بأن يذكروا ذلك أجدر وإلى العذر أقرب، فنقول: قد بيَّنا أن الذي ذكروه ليس إلا ذلك ولكنهم مقرون أن لا عذر لهم فلا جرم، قال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

أما قوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فالمعنى: أخرجنا من هذه الدار إلى دار الدنيا، فإن عدنا إلى الأعمال السيئة فإنا ظالمون، فإن قيل: كيف يجوز أن يطلبوا ذلك وقد علموا أن عقابهم دائم؟ قلنا: يجوز أن يلحقهم السهو عن ذلك في أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة. ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه الغوث والاسترواح.

أما قوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ فالمعنى: ذلوا فيها وانزجروا كما يزجر الكلاب إذا زجرت، يقال: خسأ الكلب وخسأ بنفسه.

أما قوله: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فليس هذا نهيًا لأنه لا تكليف في الآخرة، بل المراد لا تكلمون في رفع العذاب فإنه لا يرفع ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير، والعواء كعواء الكلاب، لا يفهمون ولا يفهمون. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن لهم ست دعوات، إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] فيجابون: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] فينادون ألف سنة ثانية: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] فيجابون: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ اللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ [غافر: ١٢] فينادون ألف ثالثة: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فيجابون: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فينادون ألفًا رابعة: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فينادون ألفًا خامسة: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧] فيجابون: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: ٣٧] فينادون ألفًا سادسة ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] فيجابون: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ ثم بيَّن سبحانه وتعالى،

أن فزعهم بأمر يتصل بالمؤمنين، وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ فوصف تعالى أحد ما لأجله عذبوا وبعدوا من الخير، وهو ما عاملوا به المؤمنين. وفي حرف أبي (أنه كان فريق) بالفتح بمعنى لأنه. وقرأ نافع، وأهل المدينة، وأهل الكوفة، عن عاصم بضم السين في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالكسر هاهنا وفي (ص) قال الخليل وسيبويه: هما لغتان كدُرّي ودِرّيّ. وقال الكسائي والفراء: الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول، والضم بمعنى السخرية. قال مقاتل: إن رؤساء قريش مثل أبي جهل، وعتبة، وأبيّ بن خلف كانوا يستهزئون بأصحاب رسول الله ﷺ ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال، وخباب، وعمار، وصهيب، والمعنى: اتخذتموهم هزوًا حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ذكرى وأكد ذلك بقوله: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ثم بيّن سبحانه ما يقتضي فيهم الأسف والحسرة بأن وصف ما جازى به أولئك المؤمنين فقال: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي (أنهم) بالكسر، والباقون بالفتح فالكسر استئناف أي: قد فازوا حيث صبروا؛ فجوزوا بصبرهم أحسن الجزاء، والفتح على أنه في موضع المفعول الثاني من جزيت، ويجوز أن يكون نصبًا بإضمار الخافض أي: جزيتهم الجزاء الوافر؛ لأنهم هم الفائزون.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

اعلم أن في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): في مصاحف أهل الكوفة (قال) وهو ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة، و(قل) في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام وهو ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

المسألة الثانية: الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ، فقد كانوا ينكرون اللبث في الآخرة أصلاً ولا يعدون اللبث إلا في دار الدنيا ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ولا إعادة فلما حصلوا في النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون سألهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تنبيهًا لهم على أن ما ظنوه دائمًا طويلاً فهو يسير بالإضافة إلى ما أنكروه، فحينئذ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا من حيث أيقنوا خلافه، فليس الغرض السؤال بل الغرض ما ذكرنا.

فإن قيل: فكيف يصح في جوابهم أن يقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولا يقع من أهل النار الكذب. قلنا: لعلهم نسوا ذلك لكثرة ما هم فيه من الأهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث

قالوا: ﴿فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل: مرادهم بقولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ تصغير لبثهم وتحقيره بالإضافة إلى ما وقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن السؤال عن أي لبث وقع، فقال بعضهم: لبثهم إحياؤهم في الدنيا ويكون المراد أنهم أمهلوا حتى تمكنوا من العلم والعمل فأجابوا بأن قدر لبثهم كان يسيرًا بناء على أن الله تعالى أعلمهم أن الدنيا متاع قليل وأن الآخرة هي دار القرار، وهذا القائل احتج على قوله: بأنهم كانوا يزعمون أن لا حياة سواها، فلما أحياهم الله تعالى في النار وعذبوا سألوا عن ذلك توبيخًا لأنه إلى التوبيخ أقرب، وقال آخرون: بل المراد اللبث في حال الموت، واحتجوا على قولهم بأمرين: الأول: أن قوله: في الأرض يفيد الكون في القبر ومن كان حيًّا فالأقرب أن يقال: إنه على الأرض وهذا ضعيف لقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٥٦]، الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] ثم بيَّن سبحانه أنهم كذبوا في ذلك وأخبر عن المؤمنين قولهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

المسألة الرابعة: احتج من أنكر عذاب القبر بهذه الآية فقال: قوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يتناول زمان كونهم أحياء فوق الأرض وزمان كونهم أمواتًا في بطن الأرض فلو كانوا معذبين في القبر لعلموا أن مدة مكثهم في الأرض طويلة فما كانوا يقولون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ والجواب من وجهين: أحدهما: أن الجواب لا بد وأن يكون بحسب السؤال، وإنما سألوا عن موت لا حياة بعده إلا في الآخرة، وذلك لا يكون إلا بعد عذاب القبر. والثاني: يحتمل أن يكونوا سألوا عن قدر اللبث الذي اجتمعوا فيه، فلا يدخل في ذلك تقدم موت بعضهم على البعض، فيصح أن يكون جوابهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ عند أنفسنا. **أما قوله:** ﴿فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ ففيه وجوه: أحدها: المراد بهم الحفظة وأنهم كانوا يحصون الأعمال وأوقات الحياة ويحسبون أوقات موتهم وتقدم من تقدم وتأخر من تأخر، وهو معنى قول عكرمة: فاسأل العادين أي: الذين يحسبون. وثانيها: فاسأل الملائكة الذين يعدون أيام الدنيا وساعاتها. وثالثها: أن يكون المعنى سل من يعرف عدد ذلك فإنا قد نسيناه. ورابعها: قرىء العادين بالتخفيف أي: الظلمة فإنهم يقولون مثل ما قلنا. وخامسها: قرئ (العاديين) أي: القدماء المعمرين، فإنهم يستقصرونها فكيف بمن دونهم؟ **أما قوله:** ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالمعنى أنهم قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ على معنى أنا لبثنا في الدنيا قليلاً، فكأنه قيل لهم: صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلاً إلا أنها انقضت ومضت، فظهر أن الغرض من هذا السؤال تعريف قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة. **فأما قوله تعالى:** ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فبيَّن في هذا الوجه أنه أراد أنه قليل لو علمتم البعث والحشر، لكنكم لما أنكرتم ذلك كنتم تعدونه طويلاً. ثم بيَّن تعالى ما هو في التوبيخ أعظم بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف) ﴿عَبَثًا﴾ حال أي: عابثين كقوله: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ أو مفعول به أي: ما خلقناكم للعبث.

المسألة الثانية: أنه سبحانه لما شرح صفات القيامة ختم الكلام فيها بإقامة الدلالة على وجودها وهي أنه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي والصديق من الزنديق، وحينئذ يكون خلق هذا العالم عبثًا، وأما الرجوع إلى الله تعالى فالمراد إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه لا أنه رجوع من مكان إلى مكان لاستحالة ذلك على الله تعالى ثم إنه تعالى نزّه نفسه عن العبث بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ والملك هو المالك للأشياء الذي لا يبيد ولا يزول ملكه وقدرته، وأما الحق فهو الذي يحق له الملك؛ لأن كل شيء منه وإليه، وهو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وبيَّن أنه لا إله سواه وأن ما عداه فمصيره إلى الفناء وما يفنى لا يكون إلهًا وبيَّن أنه تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾. قال أبو مسلم: والعرش هاهنا السموات بما فيها من العرش الذي تطوف به الملائكة ويجوز أن يعني به الملك العظيم، وقال الأكثرون: المراد هو العرش حقيقة وإنما وصفه بالكريم؛ لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة ولنسبته إلى أكرم الأكرمين كما يقال: بيت كريم إذا كان ساكنوه كرامًا، وقرئ (الكريم) بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

اعلم أنه سبحانه لما بيَّن أنه هو الملك الحق لا إله إلا هو أتبعه بأن من ادعى إلهًا آخر فقد ادعى باطلاً من حيث لا برهان لهم فيه، ونبه بذلك على أن كل ما لا برهان فيه لا يجوز إثباته، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد ثم ذكر أن من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ كأنه قال: إن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلا الله تعالى وقرىء أنه لا يفلح بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح جعل فاتحة السورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وخاتمتها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة. ثم أمر الرسول ﷺ بأن يقول رب اغفر وارحم ويثني عليه بأنه خير الراحمين، وقد تقدم بيان أنه سبحانه خير الراحمين فإن قيل: كيف تتصل هذه الخاتمة بما قبلها؟ قلنا: لأنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أمر بالانقطاع إلى الله تعالى والالتجاء إلى دلائل غفرانه ورحمته، فإنهما هما العاصمان عن كل الآفات والمخافات، وروي أن أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون: ١] وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها، واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح.

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه وعترته وأهل بيته.

سورة المؤمنون

مكيَّة كلُّها في قول الجميع(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ روى البيهقيُّ من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ جنةَ عَدْن، وغَرَسَ أشجارَها بيده، قال لها: تكلَّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون»(2).

وروى النَّسائيُّ عن عبد الله بن السائب قال: حضرتُ رسولَ الله ﷺ يومَ الفتح، فصلَّى في قُبُل الكعبة، فخلَعَ نعلَيْه، فوضعَهُما عن يساره، فافتتحَ سورة المؤمنين، فلمَّا جاء ذِكْرُ موسى - أو عيسى عليهما السلام - أخذته سَعْلَةٌ، فركع. خرَّجه مسلم

---

(1) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٧ ، والوسيط ٣/ ٢٨٣ ، وزاد المسير ٥/ ٤٥٨ .

(2) الأسماء والصفات للبيهقي (٦٩١)، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٩٢ ، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٣٧ . وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: بل ضعيف. اهـ. قلنا: وقد رُوي عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم من قولهم، كما في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٣ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٧ .

بمعناه[١].

وفي الترمذيِّ عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أُنزِل عليه الوحيُ، سُمِع عند وجهه كدَوِيِّ النَّحْل؛ وأُنزِل عليه يوماً، فمكثنا ساعةً، فسُرِّيَ عنه[٢]، فاستقبل القبلة، ورفع[٣] يديه، وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنا ولا تَنْقُصْنا [وأكْرِمْنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا]، وأرضِنا وارْضَ عنَّا». ثم قال: «أُنزِل عَلَيَّ عَشْرُ آيات، مَنْ أقامَهُنَّ دخلَ الجنةَ»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم عَشْر آيات[٤]. صحَّحه ابنُ العربي[٥].

قال النحاس[٦]: معنى: «مَن أقامهنَّ»: مَن[٧] أقام عليهنَّ، ولم يخالف ما فيهنَّ؛ كما تقول: فلانٌ يقوم بعمله. ثم نزل بعد هذه الآيات فرضُ الوضوء والحجِّ، فدخل معهنَّ.

---

(١) صحيح مسلم (٤٥٥)، وسنن النسائي الصغرى ٢/ ١٧٦ ، وهو في مسند أحمد (١٥٣٩٤)، وعلقه البخاري إثر حديث (٧٧٤).

(٢) في (ظ): ثم سري عنه.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): فرفع، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٣١٧٣) وما بين حاصرتين منه. وهو من طريق عبد الرزاق، عن يونس بن سُليم، عن الزُّهري، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبدٍ القاري، عن عمر ﷺ. ثم أخرجه الترمذي بإثره وزاد في الإسناد يونس بن يزيد بعد يونس بن سليم، وقال: هذا أصح.

وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٠٣٨)، وأحمد (٢٢٣)، والنسائي في الكبرى (١٤٤٣)، والحاكم ٢/ ٣٩٢ ، قال النسائي: هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه، والله أعلم. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا ـ يعني يونس بن سليم ـ فقال: أظنه لا شيء.

وأورده ابن أبي حاتم في العلل ٣/ ٧٥ - ٧٦ وقال: ويونس بن سليم لا أعرفه، ولا يعرف هذا الحديث من حديث الزهري.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٥ ، قال: وهو صحيح وإن كان قد تكلم فيه أبو عيسى وقطعه!

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ١١١ .

(٧) في (ظ): أي، بدل: من.

وقرأ طلحة بنُ مُصَرِّف: «قد أُفْلِح المؤمنون» بضم الألف على الفعل المجهول[١]، أي: أُبْقُوا في الثواب والخير[٢]. وقد مضى في أوَّل «البقرة» معنى الفلاح لغةً ومعنًى[٣]، والحمد لله وحدَه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿خَٰشِعُونَ﴾ روى المُعْتَمِر، عن خالد، عن محمد بن سيرين قال: كان النبيُّ ﷺ ينظر إلى السماء في الصلاة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾. فجعل رسولُ الله ﷺ ينظرُ حيثُ يَسجدُ[٤]. وفي رواية هُشيم[٥]: كان المسلمون يلتفتون في الصلاة وينظرون، حتى أنزل الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ فأقبلوا على صلاتهم، ونظروا أمامهم[٦].

وقد تقدَّم ما للعلماء في حكم المصلِّي إلى حيث ينظر في «البقرة»[٧] عند قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الآية: ١٤٤].

وقد تقدَّم أيضاً معنى الخشوع لغةً ومعنًى في «البقرة»[٨] أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [الآية: ٤٥].

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٧ ، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٣٦ .

(٢) في (ظ): والخيرات.

(٣) ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٧ ، ومعتمر: هو ابن سليمان التَّيمي، وخالد: هو ابن مهران الحذاء.
وأخرجه عبد الرزاق (٣٢٦١) (٣٢٦٢)، وأبو داود في المراسيل (٤٥)، والطبري ١٧/ ٧ ، والبيهقي ٢/ ٢٨٣ من طريق أيوب عن ابن سيرين، بنحوه. وقال البيهقي: هذا هو المحفوظ مرسل. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٥ : هذا الحديث مقطوع مظنون.

(٥) في (ظ): إبراهيم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٣٥ .

(٦) في (د) و(م): وجعلوا ينظرون أمامهم، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الناسخ والمنسوخ للنحاس، ورواية هُشيم أخرجها الطبري ١٧/ ٧ ، وابنُ أبي شيبة ٢/ ٢٤٠ ، من طريقه، عن ابن عَوْن، عن ابن سيرين (واللفظ لابن أبي شيبة): كان رسول الله ﷺ مما ينظر إلى الشيء في الصلاة، فيرفع بصره حتى نزلت آية؛ إن لم تكن هذه، فلا أدري ما هي: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال: فوضع النبي ﷺ رأسَه.

(٧) ٢/ ٤٤٤ .

(٨) ٢/ ٧٠ .

والخشوع محلُّه القلب، فإذا خَشَع خشعتِ الجوارحُ كلُّها لخشوعه؛ إذ هو مَلِكُها، حسبما بيَّنَّاه أوَّل «البقرة».

وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة[١]، وقام إليها، يَهاب الرحمنَ أن يَمُدَّ بصره إلى شيء، وأن يُحدِّث نفسَه بشيء من الدنيا[٢].

وقال عطاء: هو ألَّا يعبثَ بشيءٍ من جسده في الصلاة[٣].

وأَبصرَ النبيُّ ﷺ رجلاً يعبثُ بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خَشَع قلبُ هذا، لخشعت جوارحُه»[٤]. وقال أبو ذَرٍّ: قال النبيُّ ﷺ: «إذا قامَ أحدُكم إلى الصلاة، فإن الرَّحمة تُواجهه، فلا يُحرِّكَنَّ الحصى». رواه الترمذي[٥].

وقال الشاعر:

ألَا في الصلاة الخيرُ[٦] والفضل أجمعُ ... لأنَّ بها الآرابَ[٧] للهِ تخضعُ

(١) في (ظ) و(د): إذا قام إلى الصلاة، وفي (ز): إذا أقام إلى الصلاة، والمثبت من (خ) و(م).
(٢) الكشاف ٣/ ٢٥ .
(٣) أورده البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٢ .
(٤) هو عند الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ٣١٧ من حديث أبي هريرة. وأورده العراقي كما في الفتح السماوي ٢/ ٨٥٤ ، وطرح التثريب ٢/ ٣٧٢ ، والمغني عن حمل الأسفار ١/ ١٥١ (بهامش الإحياء)، والسيوطي في الجامع الصغير ٥/ ٣١٩ (مع شرحه فيض القدير) ونسباه للحكيم الترمذي هكذا مرفوعاً، وضعفاه، وقال العراقي كما في الفتح السماوي: فيه سليمان بن عمرو أبو داود النخعي أحد من اتهم بوضع الحديث. اهـ وقال في المغني: سنده ضعيف، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب، رواه ابن أبي شيبة في المصنف، وفيه رجل لم يسم. اهـ
وهو في مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٨٩ ، والزهد لابن المبارك (١١٨٩) من طريق معمر، وفي مصنف عبد الرزاق (٣٣٠٩) من طريق الثوري، كلاهما عن رجل عن ابن المسيب.
وأخرجه عبد الرزاق أيضاً (٣٣٠٨) عن معمر، عن أبان، عن ابن المسيب، وأبان ـ هو ابن أبي عياش ـ متروك.
(٥) في سننه برقم (٣٧٩)، ولفظه: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى، فإن الرحمة تواجهه». وقال: حديث حسن. اهـ. وهو في مسند أحمد (٢١٣٣٠).
(٦) في (د) و(ظ) و(ز): الحمد.
(٧) في (ظ): الأرباب، والمثبت من باقي النسخ، والآراب: جمع الإِرْب، وهو العضو، القاموس المحيط (أرب).

وأوّلُ فرضٍ من شريعة ديننا وآخِرُ ما يبقى إذا[1] الدِّينُ يُرفعُ
فمن قام للتكبير لاقته رحمةٌ وكان كعبدٍ بابَ مولاه يَقْرَعُ
وصار لربِّ العرش حين صَلاته نَجِيًّا فيَا طُوباه لو كان يخشعُ

وروى أبو عِمْران الجَوْنيُّ قال: قيل لعائشة: ما كان خُلُق رسولِ الله ﷺ؟ قالت: أتقرؤون سورةَ المؤمنين؟ قيل: نعم. قالت: اقرؤوا، فقرئ عليها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى بلغ: ﴿يُحَافِظُونَ﴾[2].

وروى النَّسائيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يلحظُ في صلاته يميناً وشِمالاً، ولا يَلوي عُنُقه خلف ظهره[3].

وقال كعب بن مالك في حديثه الطويل: ثم أصلِّي قريباً منه ـ يعني من النبيِّ ﷺ ـ وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي، نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه، أعرض عني... الحديث[4]؛ ولم يأمره بإعادة.

الثالثة: اختلف الناس في الخشوع، هل هو من فرائض الصلاة، أو من فضائلها ومكَمِّلاتها؟ على قولين: والصحيح الأوّل. ومحلُّه القلب.

---

(١) في (ظ): إذ.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥ ، والحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٨٧)، والحاكم ٢/ ٣٩٢ من طريق أبي عمران الجَوْني، عن يزيد بن بابنوس قال: قلت لعائشة. . . ويزيد بن بابنوس؛ قال فيه الحافظ في التقريب: مقبول. اهـ. يعني حيث يُتابع، لكنه تفرد به، ولم يتابع عليه.

(٣) سنن النسائي ٣/ ٩ ، وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (٢٤٨٥)، وأبو داود ـ كما في تحفة الأشراف ٥/ ١١٧ ـ والترمذي (٥٨٧)، والدارقطني (١٨٦٤)، والحاكم ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧ ، والبيهقي ٢/ ١٣ . وقال الترمذي: هذا حديث غريب. اهـ. وصحح إسناده الحاكم. وقال الدارقطني: تفرد به الفضل بن موسى عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند متصلاً، وأرسله غيره. وكذا قال البيهقي، وصحح أبو داود المرسل منه. قال ابن حجر في التقريب: الفضل بن موسى ثقة ثبت وربما أغرب.

وقوله: يلحظ: من اللحظ، وهو النظر بشقِّ العين الذي يلي الصُّدْغ. النهاية (لحظ).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، وهو عند أحمد (١٥٧٨٩) وسلف ١٠/ ٤١٢ وما بعدها.

وهو أوّل علم يُرفع من الناس؛ قاله عُبادة بنُ الصامت، رواه الترمذيُّ من حديث جُبير بنِ نُفير عن أبي الدَّرداء، وقال: هذا حديث حسن غريب[١]. وقد خرَّجه النَّسائي من حديث جُبير بن نفير أيضاً، عن عوف بن مالك الأشجعيِّ من طريق صحيحة[٢]. قال أبو عيسى[٣]: ومعاوية بنُ صالح ثقة عند أهل الحديث، ولا نعلم أحداً تكلَّم فيه غيرَ يحيى بنِ سعيدٍ القَطَّان.

قلت: معاوية بن صالح أبو عمرو ـ ويقال: أبو عمر[٤] ـ الحضرميُّ الحمصيُّ قاضي الأندلس، سُئل عنه أبو حاتم الرازي فقال: صالح الحديث، يُكتب حديثه ولا يحتجُّ به. واختلَف فيه قولُ يحيى بن معين، ووثَّقه عبد الرحمن بنُ مهدي وأحمد بنُ حنبل وأبو زُرْعة الرازي[٥]. واحتجَّ به مسلم في «صحيحه».

وتقدَّم في «البقرة» معنى اللغو والزكاة[٦]، فلا معنى للإعادة.

وقال الضَّحَّاك: إن اللغو هنا الشِّرك. وقال الحسن: إنه المعاصي كلُّها. فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال: هو الشرك، وقولُ مَن قال: هو الغناء؛ كما روى مالك ابنُ أنس عن محمد بن المُنْكَدِر[٧]، على ما يأتي في «لُقْمان» بيانُه[٨].

---

(١) سنن الترمذي برقم (٢٦٥٣)، وهو من طريق معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، به.

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٥٨٧٨)، وأخرجه أحمد (٢٣٩٩٠)، والبخاري في خلق أفعال العباد (٣٣٧) و(٣٣٨) و(٣٣٩).

(٣) هو الترمذي ، وقوله هذا بإثر الحديث السالف.

(٤) كذا قال، والمعروف له كنيتان: أبو عمرو، وأبو عبد الرحمن، ولعله: أبو عمر، تحريف أبي عمرو. ينظر تهذيب الكمال.

(٥) في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٦) ٢/ ٢٣ - ٢٤ ، ٤/ ١٧ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٩ - ١١٠ ، وأخرج قول الحسن عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٣ ، والطبري ١٧/ ١١ .

(٨) عند تفسير الآية السادسة منها.

ومعنى «فاعلون» أي: مؤدُّون، وهي فصيحة، وقد جاءت في كلام العرب، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت[١]:

المُطْعِمون الطعامَ في السَّنة الأ زمة والفاعلون للزَّكَواتِ

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ قال ابن العربي[٢]: مِن غريب القرآن أنَّ هذه الآياتِ العَشْرَ عامّةٌ في الرجال والنساء، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتمِلة لهم، فإنها عامَّة فيهم، إلا قولَه ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾، فإنما خاطب بها الرجال خاصَّةً دون الزوجات، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [ولا إباحة بين النساء وبين مِلْك اليمين في الفرج]، وإنما عُرف حفظ المرأة فرجَها من أدلة أُخَر، كآيات الإحصان عموماً وخصوصاً، وغيرِ ذلك من الأدلّة.

قلت: وعلى هذا التأويل في الآية، فلا يحلُّ لامرأة أن يطأها مَن تملكه إجماعاً من العلماء؛ لأنها غيرُ داخلة في الآية، ولكنها لو أعتقته بعد مِلْكها له، جاز له أن يتزوَّجها، كما يجوز لغيره عند الجمهور. ورُوي عن عبيد بن عبد الله بن عُتبة، والشَّعْبيِّ، والنَّخعيِّ: أنها لو أعتقته حين مَلَكته، كانا على نكاحهما. قال أبو عمر[٣]: ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار؛ لأن بملكها[٤] عندهم يبطل النكاح بينهما، وليس ذلك بطلاق، وإنما هو فسخ للنكاح؛ وأنها لو أعتقته بعد مِلْكها له، لم يراجعها إلا بنكاح جديد، ولو كانت في عِدَّة منه.

الخامسة: قال محمد بنُ عبد الحكم: سمعت حَرْملةَ بنَ عبد العزيز قال: سألتُ مالكاً عن الرجل يَجْلِد عُمَيرةَ، فتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ إلى

(١) ديوانه ص٣٠.

(٢) في أحكام القرآن ٣/١٢٩٨ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في الاستذكار ١٦/٣١٧ وما قبله منه.

(٤) في (م) و(د): تملكها.

قوله: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾. وهذا لأنهم يَكْنُون عن الذَّكر بعُمَيْرة؛ وفيه يقول الشاعر:

إذا حَـلَـلْـتَ بـوادٍ لا أنـيـس بـه فـاجْـلِـدْ عُـمَـيـرةَ لا داءٌ ولا حَـرَجُ[١]

ويسمِّيه أهل العراق: الاستمناء، وهو استفعال من المَنيّ[٢].

وأحمد بن حنبل على ورعه يجوِّزه[٣]، ويحتجُّ بأنه إخراج فَضْلة من البدن، فجاز عند الحاجة؛ أصله الفَصْد[٤] والحجامة.

وعامة العلماء على تحريمه.

وقال بعض العلماء: إنه كالفاعل بنفسه، وهي معصية أحدثها الشيطان، وأجْراها بين الناس، حتى صارت مسألة[٥]، ويا ليتها لم تُقَل، ولو قام الدليل على جوازها؛ لكان ذو المروءة يُعْرِض عنها لدناءتها. فإن قيل: إنها خير من نكاح الأَمَة، قلنا: نكاح الأمة ـ ولو كانت كافرةً على مذهب بعض العلماء ـ خير من هذا، وإن كان قد قال به قائل أيضاً، ولكن الاستمناء ضعيف في الدليل، عارٌ بالرجل الدنيء، فكيف بالرجل الكبير؟![٦].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ قال الفرّاء: أي: [إلا] من أزواجهم اللاتي أحل الله لهم لا يُجاوَزْنَ[٧]. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ في موضع خفض معطوفة

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ٥/ ١٧٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٨ ، وما بعده منه.

(٣) كذا نقل المصنف عن أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٨ منسوباً للإمام أحمد، والمنقول عن أحمد قولان، أصحهما أن الاستمناء حرام، والآخر مكروه عند الضرورة، ينظر القواعد لابن رجب ٢٤٦ ، وفتاوى ابن تيمية ٣٤/ ٢٢٩ و ٢٣١ ، وكشاف القناع ٦/ ١٢٤ ، والإنصاف ٢٦/ ٤٦٦ .

(٤) في (خ) و(ظ): فجاز عند الحاجة كالفصد.

(٥) في (م): قيلة. وكذا في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٩ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٨ - ١٢٩٩ .

(٧) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): يجاوزون، والمثبت من (خ). وجاء في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١ : اللاتي أحل الله لهم من الأربع لا تجاوز.

على «أزواجهم» و«ما» مصدرية[١].

وهذا يقتضي تحريم الزنى وما قلناه من الاستمناء، ونكاحِ المُتْعة؛ لأن المتمتَّع بها لا تجري مَجرى الزوجات، لا تَرِث ولا تورث، ولا يلحق به ولدها، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها، وإنما يخرج[٢] بانقضاء المدّة التي عُقدت عليها وصارت كالمستأجَرَة[٣]. ابن العربي[٤]: إن قلنا: إن نكاح المتعة جائز، فهي زوجة إلى أجلٍ، ينطلق عليها اسم الزوجية[٥]، وإن قلنا بالحق الذي أجمعت عليه الأمةُ من تحريم نكاح المتعة، لَمَا كانت زوجةً، فلم تدخل في الآية.

قلت: وفائدة هذا الخلاف: هل يجب الحدُّ، ولا يُلحق الولد كالزنى الصريح، أو يُدفع الحدُّ للشبهة ويُلحق الولد؟ قولان لأصحابنا[٦].

وقد كان للمتعة في التحليل والتحريم أحوال؛ فمن ذلك أنها كانت مباحة، ثم حرَّمها رسولُ الله ﷺ زَمَنَ خَيْبَر، ثم حلَّلها في غَزاة الفتح، ثم حرمها بعدُ؛ قاله ابن خُويْزمَنْدَاد من أصحابنا وغيرُه، وإليه أشار ابن العربي[٧]. وقد مضى في «النساء»[٨] القولُ فيها مستوفًى.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فسمَّى مَن نَكَح ما لا يَحِلُّ عادِياً، وأوجب عليه الحدَّ بعدوانه[٩]، واللائطُ عادٍ، قرآناً ولغة، بدليل

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٠، ومعاني القرآن له أيضاً ٤/ ٤٤٣ - ٤٤٤، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) في (ظ): يخرج منه.

(٣) ينظر الاستذكار ١٦/ ٢٩٦ - ٢٩٧، والتمهيد ١٠/ ١١٦. وسلف الكلام في هذا ٦/ ٢١٩.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٩.

(٥) في (ظ): الزوجة، وكذا هي في أحكام القرآن لابن العربي.

(٦) المفهم ٤/ ٩٣.

(٧) في أحكام القرآن ١/ ٣٨٩، والقبس ٢/ ٧١٣ - ٧١٤.

(٨) ٦/ ٢١٨ - ٢١٩.

(٩) في (م): لعدوانه.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] ـ كما تقدم في «الأعراف»[١] ـ فوجب أن يقام الحدُّ عليهم، وهذا ظاهر لا غبارَ[٢] عليه[٣].

قلت: فيه نظر، ما لم يكن جاهلاً أو متأوِّلاً، وإن كان الإجماع منعقِداً على أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ خُصَّ به الرجال دون النساء؛ فقد روى مَعْمَر عن قتادة قال: تسرَّرت امرأةٌ غلامَها؛ فذُكر ذلك لعمر، فسألها: ما حملكِ على ذلك؟ فقالت: كنتُ أُراه يحلّ لي بِمِلْك يمين، كما يحلُّ للرجلِ المرأةُ بمِلك اليمين. فاستشار عمرُ في رَجْمها أصحابَ رسول الله ﷺ، فقالوا: تأوَّلَتْ كتابَ الله عزَّ وجلَّ على غير تأويله، لا رجمَ عليها. فقال عمر: لا جَرَم واللهِ لا أُحِلُّكِ لحرٍّ بعده أبداً. عاقبها بذلك ودرأ الحدَّ عنها، وأمر العبدَ ألّا يَقْرَبها[٤].

وعن أبي بكر بن عبد الله، أنه سمع أباه يقول: أنا حضرتُ عمر بنَ عبد العزيز، جاءته امرأةٌ بغلام لها وَضيء، فقالت: إني اسْتَسْررتُه، فمنعني بنو عمي عن ذلك، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها؛ فانْهَ عني بني عمي؛ فقال عمر: أتزوَّجتِ قبله؟ قالت: نعم؛ قال: أمَا والله، لولا منزلتُكِ من الجهالة، لرجمتُكِ بالحجارة، ولكنِ اذهبوا به، فبيعوه إلى مَن يَخرج به إلى غير بلدها[٥].

و«وَرَاءَ» بمعنى: سِوى، وهو مفعول بـ «ابتغى»، أي: مَن طلب سِوى الأزواج والولائد المملوكةِ له[٦]. وقال الزجاج: أي: فمن ابتغى ما بعد ذلك[٧]. فمفعول

---

(١) ٩/ ٢٧٩.

(٢) في (د) و(ز): لا عناد عليهم.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٩.

(٤) الاستذكار ١٦/ ٣١٨، وأخرجه عبد الرزق (١٢٨١٨).

(٥) في الاستذكار ١٦/ ٣١٨، وأخرجه عبد الرزاق (١٢٨٢١) وفيهما، وفي الدر المنثور ٥/ ٥: بغلام لها رومي، بدل: بغلام لها وضيء.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٣.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧.

الابتغاء محذوف، و«وَرَاءَ» ظرف، و«ذَٰلِكَ» يُشار به إلى كلِّ مذكور، مؤنَّثاً كان أو مذكَّراً.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أي: المجاوزون الحدَّ؛ مِن عدا، أي: جاوَزَ الحدَّ، وجازَه.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ قرأ الجمهور: «لأماناتهم» بالجمع، وابنُ كثير بالإفراد[(١)].

والأمانةُ والعهد يجمع كلَّ ما يحملُه الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يَعمُّ معاشرةَ الناس والمواعيدَ وغيرَ ذلك. ورعايةُ[(٢)] ذلك: حفظُه والقيامُ به، والأمانة أعمُّ من العهد، وكلُّ عهد فهو أمانة فيما تقدَّم فيه قول أو فعل أو معتقَد.

التاسعة: قرأ الجمهور: «صَلَوَاتِهِمْ»، وحمزةُ والكسائيُّ: «صلاتِهم» بالإفراد[(٣)]، وهذا الإفراد اسم جنس، فهو في معنى الجمع[(٤)]، والمحافظةُ على الصلاة: إقامتُها والمبادرةُ إليها أوائلَ أوقاتها، وإتمامُ ركوعها وسجودها. وقد تقدَّم في «البقرة»[(٥)] مستوفًى.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ أي: مَن عمِلَ بما ذُكر في هذه الآيات فهم الوارثون، أي: يرثون منازل أهل النار من الجنة[(٦)]. وفي الخبر عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى جعلَ لكلِّ إنسان مسكناً في الجنة، ومسكناً في النار، فأمَّا المؤمنون فيأخذون منازلَهم، ويرثون منازلَ الكفار، ويَحصُل[(٧)] الكفار في منازلهم

(١) السبعة ص٤٤٤، والتيسير ص١٥٨.

(٢) في النسخ: وغاية. والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧، والكلام منه.

(٣) السبعة ص٤٤٤، والتيسير ص١٥٨.

(٤) في (د) و(م): الجميع، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧ والكلام منه.

(٥) ١/ ٢٥٣ وما بعدها.

(٦) الوسيط ٣/ ٢٨٥.

(٧) في (م) و(د): ويجعل. والمثبت من بقية النسخ، والمحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ١٣٧، والكلام منه.

في النار»[١]. خرَّجه ابنُ ماجه[٢] بمعناه عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا له[٣] منزلان، منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات، فدخل النار، وَرِث أهلُ الجنة منزِلَه، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾. إسناده صحيح.

ويحتمل أن يُسمَّى الحصول على الجنة وراثةً من حيث حَصَّلوها[٤] دون غيرهم، فهو اسمٌ مستعار على الوجهين[٥].

والفِرْدوس: رَبْوَةُ الجنة وأوسطُها وأفضلُها. خرَّجه الترمذيُّ من حديث الرُّبَيِّع بنتِ النَّضر أمِّ حارثة، وقال: حديث حسن صحيح[٦].

وفي حديث مسلم[٧]: «فإذا سألتم اللهَ، فسَلُوه الفردوسَ، فإنه أوسطُ الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهارُ الجنة». قال أبو حاتم محمد بن حِبَّان: قوله ﷺ: «فإنه أوسط الجنة» يريد أن الفردوسَ في وَسَط الجِنان في العرض. «وهو أعلى الجنة» يريد في الارتفاع[٨].

---

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٤، والطبري ١٧/ ١٥، والحاكم ٢/ ٣٩٣، والبيهقي في البعث (٢٦٨). قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) في سننه (٤٣٤١)، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢.

(٣) في (م): إلا وله.

(٤) في (ظ): «حصولها لهم»، وفي بقية النسخ: «حصولها» والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧.

(٦) سنن الترمذي (٣١٧٤). لكن قوله: «الفردوس: ربوة الجنة وأوسطُها وأفضلُها» مُدْرَج من قول قتادة آخر الحديث، وليس من كلامه ﷺ، فقد جاء مصرحاً به عند البيهقي في السنن ٩/ ١٦٧، وفيه: قال رسول الله ﷺ لأمِّ حارثة: «إن ابنكِ أصاب الفردوس الأعلى». قال قتادة: الفردوس ربوة الجنة... الخ. وسلف قول قتادة هذا آخر سورة الكهف عند تفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفروس نزلاً﴾. ويُشار إلى أن حديث أمِّ حارثة عند أحمد (١٣٢٠٠)، والبخاري (٢٨٠٩). يعني دون قول قتادة.

(٧) لم يخرجه مسلم، وقد عزاه المزي في تحفة الأشراف ١٠/ ٢٧٨ للبخاري فقط، وهو عند البخاري برقم (٢٧٩٠) وأحمد (٨٤١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، ونسبه المصنف آخر الكهف للبخاري.

(٨) صحيح ابن حبان إثر حديث (٤٦١١).

وهذا كلُّه يصحِّح قول أبي هريرة: إنَّ الفردوسَ جبلُ الجنة الذي يتفجَّر[١] منه أنهار الجنة.

واللفظة فيما قال مجاهد: رُومية عُرِّبت[٢]. وقيل: هي فارسية عُرِّبت. وقيل: حبشية[٣]. وإن ثبت ذلك فهو وِفاقٌ بين اللغات. وقال الضحاك: هو عربيٌّ، وهو الكَرْم[٤]، والعرب تقول للكروم: فراديس[٥].

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فأُنِّث على معنى الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ الإنسان هنا: آدمُ عليه الصلاة والسلام؛ قاله قتادة وغيره[٦]، لأنه استُلَّ من الطِّين[٧].

ويَجيء الضمير في قوله: «ثم جعلناه» عائداً على ابن آدم، وإن كان لم يُذكر لشهرة الأمر، فإن المعنى لا يصلُح إلا له، نظير ذلك: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

---

(١) في النسخ عدا (ظ): التي تتفجر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ٤٧ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ١٦، وينظر المعرب للجواليقي ص٢٨٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٣/ ٨٢ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٣٧ .

(٦) لفظ: وغيره. ليس في (ظ) ولم نقف عليه في المصادر لغير قتادة.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٤ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ١٨ ، وينظر الدر المنثور ٥/ ٦ .

وقيل: المراد بالسُّلالة: ابنُ آدم؛ قاله ابن عباس وغيره. والسُّلالة على هذا: صفوة الماء، يعني المَنيَّ[١].

والسُّلالة فُعالة[٢] من السَّلّ، وهو استخراج الشيء من الشيء، يقال: سَلَلت الشعر من العجين، والسيفَ من الغِمد، فانسلّ[٣]، ومنه قوله:

فسُلِّي ثيابي من ثيابكِ تَنْسُلِ[٤]

فالنطفة سُلالة، والولد سَليل وسُلَالة؛ عَنَى به الماء يُسَلُّ من الظهر سَلًّا[٥]. قال الشاعر:

فجاءتْ به عَضْبَ الأَدِيم غَضنْفَراً سُلالةَ فَرْجٍ كان غيرَ حَصِينِ[٦]

وقال آخر:

وهل هِنْدُ[٧] إلَّا مُهْرَةٌ عربيَّةٌ سَليلةُ أفراسٍ تجلَّلها بَغْلُ[٨]

وقوله ﴿مِّن طِينٍ﴾ أي: إن الأصل آدمُ، وهو من طين[٩]. قلت: أي: من طين

---

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧ والكلام قبله منه، وأخرج قول ابن عباس وغيره الطبري ١٧/ ١٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٤٦ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٩٢ وما بعدها.

(٤) هو عجز بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٣ ، وصدره: وإن كنتِ قد ساءتك مني خليقة. والمعنى: إن كان في خلقي ما لا ترضينه، فاقطعي أمري من أمرك.

(٥) ينظر الوسيط ٣/ ٢٨٥ .

(٦) قائله حسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص٤٨٢ .

(٧) في (م) والنكت والعيون ٤/ ٤٧ : وما هند، والمثبت من النسخ.

(٨) نُسب البيت في أدب الكاتب ص٤١ لهند بنت النعمان بن بشير، ونسب في الأغاني ١٦/ ٥٤ ، والاقتضاب ص١١٧ ، ٣٠٦ لحميدة بنت النعمان بن بشير. وجاء في الأغاني: وما أنا، بدل: وهل هند. وجاء في الاقتضاب: نَغْل ـ بالنون ـ، بدل: بغل. قال ابن السِّيد البطليوسي: وروى أبو علي: تجللها بغل، وأنكر كثير من أصحاب المعاني هذه الرواية، وقالوا: هي تصحيف؛ لأن البغل لا يَنْسُل، والصواب: نَغْل ـ بالنون ـ وهو الخسيس من الناس والدوابّ. وأصله: نَغِل ـ بكسر الغين ـ ثم تخفف الكسرة، فيقال: نَغْل.

(٩) بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٤ .

خالص، فأمَّا ولده، فهو من طين ومنيٍّ، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام[١].

وقال الكلبيُّ: السلالة: الطين؛ إذا عصرتَه انسلَّ من بين أصابعك، فالذي يخرج هو السُّلالة[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿نُطْفَةً﴾ قد مضى القول في النُّطْفة والعَلَقة والمُضْغة وما في ذلك من الأحكام في أول الحج، والحمد لله على ذلك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ اختلف الناس في الخَلْق الآخَر؛ فقال ابن عباس والشَّعْبيُّ وأبو العالية والضحاك وابن زيد: هو نفخ الروح فيه[٣]، بعد أن كان جماداً. وعن ابن عباس: خروجُه إلى الدنيا[٤]. وقال قتادة عن فِرقة: نباتُ شَعره. الضحاك: خروج الأسنان ونباتُ الشَّعر. مجاهد: كمال شبابه؛ ورُوي عن ابن عمر[٥]. والصحيح أنه عامٌّ في هذا وفي غيره من النُّطق والإدراك وحُسْن المحاولة وتحصيلِ المعقولات إلى أن يموت[٦].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يروى أن عمر بنَ الخطاب ﷺ لَمَّا سمع صَدْرَ الآية إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال: فتبارك الله أحسن الخالقين؛ فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت»[٧].

---

(١) ٨/ ٣١٨.

(٢) أورده أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٠٩ والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨ والوسيط ٣/ ٢٨٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٢٢ - ٢٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨.

(٥) أخرج قول قتادة والضحاك ومجاهد الطبري ١٧/ ٢٤، وأورده ـ عن ابن عمر ـ ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٦٣.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨.

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٤٤)، وفي الأوسط (٥٦٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً، دون قوله: هكذا أنزلت. وأورده الهيثمي في «المجمع» ٩/ ٦٨، وقال: فيه أبو عبيدة بن فضيل ابن عياض، وهو لين، وبقية رجاله ثقات.

وفي «مسند الطَّيالِسيِّ»: ونزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية؛ فلما نزلت قلت أنا: تبارك الله أحسن الخالقين؛ فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[١].

ويُروى أنَّ قائل ذلك معاذُ بنُ جَبَل[٢]. ويُروى أن قائل ذلك عبدُ الله بنُ أبي سَرْح، وبهذا السبب ارتدَّ وقال: آتي[٣] بمثل ما يأتي محمد، وفيه نزلت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] على ما تقدم بيانه في «الأنعام»[٤].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: أتقن الصانعين، يقال لمن صنع شيئاً: خَلَقه؛ ومنه قول الشاعر:

ولَأنت تَفْري ما خلقتَ وبعـ ... ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْري[٥]

وذهب بعض الناس إلى نَفْي هذه اللفظة عن الناس، وإنما يُضاف الخَلْق إلى

---

(١) مسند الطيالسي ص٩ - ١٠ ومن طريقه أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٩ ـ وابن أبي داود في المصاحف (٣٠٥) والواحدي في أسباب النزول ٣٢٣ عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد ابن جدعان، عن أنس ﷺ، قال عمر ﷺ: وافقت ربي في أربع... وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان، ولتفرده بذكر الموافقة في قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فالحديث مشهور من رواية حميد، عن أنس، عن عمر، كما في «صحيح البخاري» (٤٤٨٣)، و«مسند أحمد» (١٦٠) (٢٥٠)، وليس فيه ذكر الموافقة في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. وأخرجه مسلم (٢٣٩٩) من طريق ابن عمر، عن عمر أيضاً، وليس فيه ذكر هذه الموافقة.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٥٦٥٤)، وابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٩ ـ من حديث زيد بن ثابت ﷺ. وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٧٢: فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ وقال ابن كثير في تفسيره ٥/ ٤٦٩: في إسناده جابر بن يزيد الجعفي، ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد ابن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم.

(٣) في (ظ): إني آتي، وفي المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨: أنا آتي.

(٤) ٨/ ٤٥٩.

(٥) البيت لزهير بن أبي سلمى، يمدح به هَرِم بن سنان، وهو في ديوانه ص٩٤. وأورده البغدادي في خزانة الأدب ٦/ ٣٢٣، والفري: القطع. لسان العرب (فري).

الله تعالى، وقال ابن جُريج: إنما قال: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؛ لأنه تعالى قد أَذِن لعيسى عليه السلام أن يَخلُق. واضطرب بعضُهم في ذلك، ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر في معنى الصُّنع، وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم[(١)].

مسألة: من هذه الآية قال ابن عباس لعمرَ حين سأل مَشْيَخة الصحابة عن ليلة القدر، فقالوا: الله أعلم، فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى خلق السماواتِ سبعاً، والأرضِينَ سبعاً، وخلق ابنَ آدم مِن سبعٍ، وجعل رزقه في سبعٍ، فأُراها في ليلة سبع وعشرين. فقال عمر ﷺ: أعجزتُم[(٢)] أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه، وهذا الحديث بطوله في «مسند ابن أبي شيبة»[(٣)]، فأراد ابنُ عباس بقوله[(٤)]: «خلق ابن آدم من سبعٍ» هذه[(٥)] الآيةَ، وبقوله: «وجعل رزقَه في سبع» قولَه: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ الآية [عبس: ٢٧-٣١]، السبع منها لابن آدم، والأبُّ للأنعام. والقَضْبُ يأكله ابنُ آدم، ويَسْمَن منه النِّساء؛ هذا قول. وقيل: القَضْب: البقول لأنها تُقْضَبُ، فهي رزق ابن آدم. وقيل: القَضْب والأبُّ للأنعام، والسِّتُّ الباقية لابن آدم،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨، وأثر ابن جريج أخرجه الطبري ١٧/ ٢٥ بنحوه، وينظر الأسنى للمصنف ٣٣٤.

(٢) في النسخ: أعجزكم، والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) كذا نسبه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ٣/ ١٣٢، وابن حجر في المطالب العالية ٦/ ٢٢٧ لابن أبي شيبة في مسنده، وليس هو في مصنفه. وعند البوصيري: وما أراه إلا ليلة ثلاث وعشرين لسبع بقين.
وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢١٠ من طريق ابن أبي شيبة، عن عبد الله بن إدريس، عن عاصم ابن كليب، عن أبيه، عن ابن عباس، فذكره.
وأخرجه ابن خزيمة (٢١٧٢)، والحاكم ٣/ ٥٣٩، ومن طريقه البيهقي في السنن ٤/ ٣١٣، وفي الشعب (٣٥٨٦)، من طريق أحمد بن عبد الجبار، عن ابن إدريس، بالإسناد السابق بنحوه.
وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢١١ - ٢١٢ من طريق آخر بنحوه، وفيه قال ابن عباس: سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر.

(٤) لفظ: بقوله. من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨ والكلام منه.

(٥) في (م) و(خ) و(ز): بهذه، وفي (د): فهذه. والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

والسابعةُ هي للأنعام؛ إذ هي من أعظم رزق ابن آدم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أي: بعد الخلق والحياة. النحاس: ويقال في هذا المعنى: لمائتون[١].

ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال أبو عبيدة: أي: سبعَ سماوات[٢]. وحكى غيره[٣] أنه يقال: طارقتُ الشيء، أي: جعَلت بعضه فوق بعض. فقيل للسماوات: طرائق؛ لأن بعضها فوق بعض، والعرب تُسمِّي كلَّ شيء فوق شيء طَرِيقة[٤]. وقيل: لأنها طرائق الملائكة[٥].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ قال بعض العلماء: أي: عن خلق السماوات[٦]. وقال أكثر المفسرين: أي: عن الخَلْق كلِّهم مِن أن تسقُط عليهم، فتُهلكَهم[٧].

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي: في القيام

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٤٩ ، واللفظة الواردة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ ، وأبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٣٩٩ ، وقيل: هي قراءة ابن أبي عبلة وزيد بن علي وابن محيصن، وقيل: قراءة عيسى بن عمر. والله أعلم.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٥٦ وقد نقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٤٩ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩ ، وزاد المسير ٥/ ٤٦٥ .

(٣) في النسخ: وحكي عنه. والمثبت من معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٤٩ ، فالكلام منه، وليس من مجاز القرآن لأبي عبيدة، وهو منقول في زاد المسير ٥/ ٤٦٥ عن ابن قتيبة، وينظر تفسير غريب القرآن له ٢٩٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٥ .

(٦) في النسخ: السماء، والمثبت من (ظ) وتفسير الرازي ٢٣/ ٨٧ .

(٧) المصادر السابقة.

بمصالحه وحفظه، وهو معنى ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ على ما تقدم(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: هذه الآية من نِعَم الله تعالى على خلقه، ومما امتنَّ به عليهم؛ ومن أعظم المِنَن الماءُ الذي هو حياة الأبدان ونَماءُ الحيوان.

والماءُ المُنزَّل من السماء على قسمين: هذا الذي ذكر الله سبحانه وتعالى، وأخبر عنه بأنه استودعه في الأرض، وجعله فيها مُخْتَزناً لسقْي الناس، يجدونه عند الحاجة إليه، وهو ماء الأنهار والعيون، وما يُستخرج من الآبار(٢).

ورُوي عن ابن عباس وغيرِه، أنه إنما أراد الأنهارَ الأربعة: سَيْحان، وجَيْحان، ونيل مصر، والفُرات(٣).

وقال مجاهد: ليس في الأرض ماءٌ إلا وهو من السماء. وهذا ليس على إطلاقه، وإلا فالأُجَاج ثابت في الأرض، فيمكن أن يُقيَّد قولُه بالماء العذب، ولا مَحالة أن الله تعالى قد جعل في الأرض ماءً، وأنزل من السماء ماءً(٤).

وقد قيل: إن قوله ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إشارةٌ إلى الماء العذب، وأن أصله من

---

(١) ٤/٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٠٠ ، وقد نقل المصنف عنه القسم الأول. أما القسم الثاني فقال ابن العربي: هو الذي ينزل من السماء على الأرض في كل وقت.

(٣) المحرر الوجيز ٤/١٣٩ ولم ينسبه، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/٨ لابن أبي الدنيا.

وأخرج أحمد (٧٨٨٦)، ومسلم (٢٨٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً قال: سيحان، وجيحان، والنيل، والفرات، وكلٌّ من أنهار الجنة.

وسَيْحان و جَيْحان: نهران بالعواصم عند المَصِّيصَة وطَرَسُوس، كما في النهاية (جيح)، يعني يقعان جنوب تركيا، ينظر أطلس تاريخ الإسلام (خريطة رقم: ٦٠ ، ٧٢).

(٤) المحرر الوجيز ٤/١٣٩ .

البحر، رفعه الله تعالى بلطفه وحُسْن تقديره من البحر إلى السماء، حتى طاب بذلك الرَّفْع والتصعيد، ثم أنزله إلى الأرض ليُنتفع به، ولو كان الأمر إلى ماء البحر، لَمَا انْتُفع به من ملوحته[(١)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: على مقدارٍ مُصْلِح، لأنه لو كَثُر؛ أَهْلَك[(٢)]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ يعني: الماءَ المُخْتَزَن. وهذا تهديد ووعيد، أي: في قدرتنا إذهابُه وتغويره، ويَهْلِك الناس بالعطش، وتَهْلِك مواشيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[(٣)] [الملك: ٣٠].

الثالثة: ذكر النحاس: قُرِئ على أبي يعقوب إسحاق بنِ إبراهيم بنِ يونس، عن جامع بن سَوَادة قال: حدَّثنا سعيد بنُ سابق، قال: حدَّثنا مَسْلمة بنُ عُلَيٍّ، عن مقاتل ابن حَيَّان، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «أنزل الله عزَّ وجلَّ من الجنة إلى الأرض خمسةَ أنهار: سَيْحون وهو نهر الهند، وجَيْحون وهو نهر بَلْخ، ودِجْلة والفُرات، وهما نهرا العراق، والنيل، وهو نهر مصرَ، أنزلها الله تعالى من عينٍ واحدة من عيون الجنة، في أسفلِ درجة من درجاتها، على جناحَي جبريلَ عليه السلام، فاستودعها الجبالَ، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، وذلك قولُه جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فإذا كان عند خروج يأجوجَ ومأجوجَ، أرسل الله عزَّ وجلَّ جبريل، فرفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة، فيرفع ذلك إلى السماء، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، فإذا رُفِعت هذه الأشياء من الأرض، فَقَدَ

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٣/ ٨٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٠.

أهلُها خيرَ الدين والدنيا»[١].

الرابعة: كلُّ ما نزل من السماء ـ مُخْتزَناً كان أو غيرَ مختزن ـ فهو طاهر مُطَهِّر، يُغتسل به ويُتوضأ منه؛ على ما يأتي في «الفرقان» بيانه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا﴾ أي: جعلنا ذلك سببَ النبات، وأوجدناه به وخلَقناه.

وذكر تعالى النخيل والأعناب؛ لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما؛ قاله الطبري[٣]. ولأنها أيضاً أشرف الثمار، فذكرها تشريفاً لها وتنبيهاً عليها.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ﴾ من غير الرُّطَب والعنب. ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصَّةً، إذ فيها مراتبُ وأنواع، والأوّل أعمُّ لسائر الثمرات.

الثانية: مَن حلَف ألَّا يأكل فاكهةً؛ ففي الرواية عندنا: يحنث بالباقِلاء الخضراء وما أشبهها[٤].

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٤٥٠ - ٤٥١، وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٦، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٣٤ - ٣٥، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١/ ٥٧ - ٥٨ من طريق مسلمة بن علي، به، قال ابن عدي: وهذا حديث غير محفوظ، بل منكر المتن وكل أحاديثه، ما ذكرته، وما لم أذكره، كلها أو عامتها غير محفوظة. وقال فيه ابن حجر في التقريب: متروك.

ونهر سَيْحون وجَيْحون غير سَيْحان وجَيْحان ـ المتقدمين في قول ابن عباس ـ كما ذكر النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٦.

(٢) عند تفسير الآية (٤٨)، منها في المسألة الأولى والثانية.

(٣) في تفسيره ١٧/ ٢٨، ونقله المصنف بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩، وما سيأتي منه.

(٤) بنحوه في النوادر والزيادات ٤/ ١٠٦.

وقال أبو حنيفة: لا يحنث بأكل القِثَّاء والخيار والجزر؛ لأنها من البقول، لا من الفاكهة[١].

وكذلك الجوز واللَّوز والفستق؛ لأن هذه الأشياءَ لا تُعدُّ من الفاكهة[٢].

وإن أكل تفاحاً أو خَوخاً أو مِشْمِشاً أو تِيناً أو إجَّاصاً، يحنث. وكذلك البِطِّيخ؛ لأن هذه الأشياء كلَّها تؤكل على جهة التفكُّه قبل الطعام وبعده، فكانت فاكهة. وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البِطِّيخ اليابس؛ لأن ذلك لا يؤكل إلا في بعض البلدان[٣].

ولا يحنث بأكل البِطِّيخ الهندي؛ لأنه لا يُعدُّ من الفواكه.

وإن أكل عِنَباً أو رُمَّاناً أو رُطَباً لا يحنث، وخالفه صاحباه فقالا: يحنث؛ لأن هذه الأشياءَ من أعزِّ الفواكه، وتُؤكل على وجه التَّنعُّم، والإفرادُ لها بالذِّكر في كتاب الله عزَّ وجلَّ لكمال معانيها، كتخصيص جبريلَ وميكائيلَ من بين[٤] الملائكة. واحتجَّ أبو حنيفة بأن قال: عَطَفَ هذه الأشياء على الفاكهة مرَّة فقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]، ومرَّةً عَطفَ الفاكهة على هذه الأشياء فقال: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]، والمعطوف غيرُ المعطوف عليه، ولا يَليق بالحكمة ذكرُ الشيء الواحد بلفظين مختلفين في موضع المنَّة، والعنب والرُّمَّان يُكتفى بهما في بعض البلدان، فلا يكون فاكهة، ولأن ما كان فاكهة لا فرق بين رَطْبه ويابسه، ويابسُ هذه الأشياء لا يُعدُّ فاكهة، فكذلك رَطْبُها[٥].

---

(١) المبسوط للسرخسي ٨/ ١٧٩، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٨.

(٢) المبسوط للسرخسي ٨/ ١٧٧، وبدائع الصنائع ٤/ ١٣٠، وقد فرَّق أبو يوسف صاحب أبي حنيفة بين رطب الجوز ويابسه، فقال: رطبه فاكهة، ويابسه إدام.

(٣) ينظر المبسوط ٨/ ١٧٩، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) لفظ: بين من (ظ).

(٥) ينظر المبسوط ٨/ ١٧٩، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ۝٢٠﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾ شجرة عطفٌ على «جنات»، وأجاز الفراء الرفع؛ لأنه لم يظهر الفعل، بمعنى: وثَمَّ شجرةٌ[١]؛ ويريد بها شجرةَ الزيتون.

وأفردها بالذِّكر لعظيم منافعها في أرض الشام والحجاز وغيرهما من البلاد، وقلَّةِ تعاهُدها بالسَّقْي والحفر، وغير ذلك من المراعاة في سائر الأشجار[٢].

﴿تَخْرُجُ﴾ في موضع الصِّفة.

﴿مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أي: أنبتها الله في الأصل من هذا الجبل الذي بارك الله فيه. وطورُ سَيْناء من أرض الشام، وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام؛ قاله ابن عباس وغيره[٣]، وقد تقدَّم في البقرة[٤] والأعراف.

والطُّور: الجبل في كلام العرب، وقيل: هو مما عُرِّب من كلام العجم[٥]. وقال ابن زيد: هو جبل بيت المقدس ممدود من مصرَ إلى أيْلة[٦].

واختُلف في سَيْناء؛ فقال قتادة: معناه الحسَن، ويلزم على هذا التأويل أن يُنوَّن الطُّور على النعت. وقال مجاهد: معناه: مبارَك. وقال مَعْمَر عن فرقة: معناه ذو شجر[٧]، ويلزمهم أن يُنوِّنوا الطُّور. وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول: جبل

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٣، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٢.

(٢) ينظر النكت والعيون ٤/ ٥٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٠.

(٤) ٢/ ١٦٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩.

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٠، وأيلة مدينة في خليج العقبة على البحر الأحمر. ينظر أطلس تاريخ الإسلام ص١١٢.

(٧) في (خ) و(م): معناه شجر، وفي (د) و(ز): معناه وشجر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ - ١٤٠ والكلام منه، وأخرج الأقوال السالفة الطبري ١٧/ ٢٩ - ٣١، وقول مجاهد في تفسيره ص٤٣٠.

أُحُد. وعن مجاهد أيضاً: سَيْناء حجرٌ بعينه، أُضيف الجبل إليه لوجوده عنده. وقال مقاتل: كلُّ جبل يَحْمل الثمار فهو سَيْناء، أي: حَسَن[١].

وقرأ الكوفيون بفتح السين على وزن فَعْلاء[٢]، وفَعلاء في كلام العرب كثير، يُمنع من الصَّرف في المعرفة والنكرة؛ لأن في آخرها ألف التأنيث، وألفُ التأنيث ملازِمةٌ لِمَا هي فيه، وليس في الكلام فِعلاء، ولكنْ مَن قرأ: «سِيناء» بكسر السين جعله فِعلالاً، فالهمزة فيه كهمزة: حِرباء، ولم يُصرف في هذه الآية؛ لأنه جُعِل اسم بقعة، وزعم الأخفش أنه اسم أعجمي[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ قرأ الجمهور «تَنبُت» بفتح التاء وضم الباء، والتقدير: تَنْبُت ومعها الدُّهن، كما تقول: خرج زيد بسلاحه[٤].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء[٥]. واختُلف في التقدير على هذه القراءة، فقال أبو عليٍّ الفارسي: التقدير: تُنْبِت جَناها ومعها[٦] الدُّهن، فالمفعول محذوف. وقيل: الباء زائدة، مثلُ ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾[٧] [البقرة:١٩٥]. وهذا مذهب أبي عبيدة[٨]. وقال الشاعر:

نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج[٩]

---

(١) أورد قول مجاهد ومقاتل البغوي في تفسيره ٣/٣٠٦ .

(٢) هي قراءة: عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر الشامي. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بكسر السين. السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤ .

(٥) السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): ومعه.

(٧) الحجة ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٥٦ .

(٩) الرَّجز للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢١٦ ، وفيه: نضرب بالبيض... وسلف في المسألة السابعة من تفسير الآية (٢٥) من الحج.

وقال آخر:

هُنَّ الحرائرُ لا رَبَّاتُ أَخْمرةٍ[١] سودُ المحاجر لا يَقرأْنَ بالسُّوَرِ[٢]

ونحو هذا قاله أبو عليٍّ أيضاً؛ وقد تقدَّم.

وقيل: نَبَت وأنبت بمعنًى، فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور[٣]، وهو مذهب الفراء وأبي إسحاق[٤]، ومنه قول زُهير:

. . . . حتى إذا أنبت البَقْلُ[٥]

والأصمعي ينكر أنبت، ويتَّهِم قصيدةَ زهير التي فيها:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حَوْلَ بيوتِهم قَطِيناً بها حتى إذا أنبت البقلُ[٦]

أي: نبت.

وقرأ الزُّهْري والحسن والأعرج: «تُنْبَت بالدُّهن» برفع التاء ونصب الباء[٧]. قال ابن جِنِّي والزجَّاج[٨]: هي باء الحال، أي: تُنْبَت ومعها دهنُها. وفي قراءة ابن مسعود: «تَخْرُج بالدهن»، وهي باء الحال[٩].

---

(١) في النسخ الخطية: أخمرة، والمثبت من المصادر؛ وقال الجواليقي في شرح أدب الكاتب: الأحمرة: جمع حِمار ـ بالحاء المهملة، جمع قلة، وخصَّ الحمير، لأنها رُذال المال وشره، وقال البغدادي: وقد صحَّف الدماميني (في الحاشية الهندية): هذه الكلمة بالخاء المعجمة، وقال: والأخمرة جمع خمار، وهو ما تستر به المرأة رأسها. اهـ. تنظر خزانة الأدب ٩/١٠٩ - ١١٠ .

(٢) البيت للراعي النميري، والبيت في ديوانه ص١٢٢ ، أو القتَّال الكلابي، وهو في ديوانه ص٥٣ . وينظر: أدب الكاتب ٥٢١ ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ٣٧٨ ، وخزانة الأدب ٩/١٠٩ وسلف عجز هذا البيت في مقدمة المصنف ١/١٠٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/١٤٠ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣ ، ومعاني القرآن للزجَّاج (وهو أبو إسحاق) ٤/ ١٠ .

(٥) سلف ١٢/ ٢٩٢ ، وسيذكره المصنف بتمامه.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، وينظر الحجة ٥/ ٢٩٢ .

(٧) وهي قراءة شاذة المحتسب ٢/ ٨٨ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ .

(٨) المحتسب لابن جني ٢/ ٨٨ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، وقراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٨٨ أيضاً، وذكرها ابن خالويه =

ابنُ دَرَسْتَوَيْه: الدُّهن: الماء اللَّيِّن[١]، تُنبت من الإنبات.

وقرأ زِرُّ بن حُبَيش: «تُنْبِت» بضم التاء وكسر الباء «الدُّهنَ» بحذف الباء ونصبه. وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب: «بالدِّهان»[٢].

والمراد من الآية تعديدُ نعمة الزيت على الإنسان، وهي من أركان النِّعَم التي لا غنًى بالصحة عنها، ويدخل في معنى الزيتون شجرُ الزيت كلُّه على اختلافه بحسب الأقطار[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ قراءة الجمهور. وقرأت فرقة: «وأصباغٍ» بالجمع. وقرأ عامر بنُ عبد قيس: «ومتاعاً»[٤].

والمراد به الزيت الذي يَصْطَبِغ به الآكِل؛ يقال: صِبغ وصِباغ، مثلُ: دِبْغ ودِباغ، ولِبْس ولِباس[٥]. وكلُّ إدام يُؤتدم به فهو صِبْغ؛ حكاه الهَرَوِيُّ[٦] وغيره. وأصل الصِّبغ ما يُلوَّن به الثوب، وشُبِّه الإدام به؛ لأن الخبز يُلوَّن بالصِّبغ إذا غُمس فيه[٧]. وقال مقاتل: الأُدْم الزيتون، والدُّهن الزيت. وقد جعل الله تعالى في هذه الشجرة أُدْماً ودُهْناً[٨]؛ فالصِّبغ على هذا الزيتونُ.

= في القراءات الشاذة ص٩٧ بلفظ: يُخرِج الدهن.

(١) النكت والعيون ٤/ ٥٠ .

(٢) أورد قراءة سليمان بن عبد الملك، ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٧ ، وقراءة زرّ بن حبيش وسليمان بن عبد الملك والأشهب في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، والبحر المحيط ٦/ ٤٠١ والدِّهان، جمع دُهن، كرمح، ورماح. الدر المصون ٨/ ٣٢٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، وعامر بن عبد قيس، أبو عبد الله، ويقال: أبو عمرو التميمي، العنبري، من عباد التابعين، كان يقرئ الناس، توفي في زمن عثمان، وقيل: في زمن معاوية. السير ٤/ ١٥ ، وطبقات القراء ١/ ٣٥٠ .

(٥) تفسير غريب القرآن ص٢٩٦ .

(٦) في غريب الحديث ٢/ ١٥٢ .

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٨/ ٢٧ ، والوسيط ٣/ ٢٨٨ ، وزاد المسير ٥/ ٤٦٨ .

(٨) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٨٨ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٦ .

الرابعة: لا خلاف أن كلَّ ما يُصطبَغ فيه من المائعات، كالزيت والسَّمْن والعسل والرُّبِّ والخلِّ، وغير ذلك من الأمراق، أنه إدام[١]. وقد نصَّ رسول الله ﷺ على الخلّ، فقال: «نِعْمَ الإدامُ الخلُّ». رواه تسعةٌ من الصحابة، سبعةُ رجال وامرأتان، وممن رواه في الصحيح: جابرٌ، وعائشة، وخارجةُ، وعمرُ، وابنُه عبدُ الله[٢]، وابنُ عباس، وأبو هريرةَ، وسَمُرةُ بنُ جُنْدب، وأنسٌ، وأمُّ هانئ[٣].

الخامسة: واختُلف فيما كان جامداً، كاللَّحم والتمر والزيتون، وغيرِ ذلك من الجوامد؛ فالجمهور أنَّ ذلك كلَّه إدام، فمن حلف ألَّا يأكل إداماً، فأكل لحماً أو جُبْناً، حنِث. وقال أبو حنيفة: لا يحنث، وخالفه صاحباه، وقد رُوِي عن أبي يوسُفَ مثلُ قول أبي حنيفة[٤].

والبَقْل ليس بإدام في قولهم جميعاً[٥].

وعن الشافعي في التمر وجهان؛ والمشهور أنه ليس بإدام، لقوله في «التنبيه»[٦]:

---

(١) بنحوه في المفهم ٥/ ٣٢٦.

(٢) قوله: عبد الله، ليس في (ظ)، وفي (خ) و(م): عبيد الله، والمثبت من (د) و(ز).

(٣) حديث جابر وعائشة في الصحيح، وقد سلفا ٨/ ١٤٤، وأما حديث عمر فأخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٨٦٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٢/ ٩٩، ٧٠/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

وحديث عبد الله بن عمر أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨، وابن عدي في الكامل ١/ ٢٦٣.

وحديث ابن عباس أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨، والطبراني في الكبير (١١٣٣٨)، والبيهقي في الشعب (٥٩٤٥).

وحديث أبي هريرة أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨ - ٤٠٩، وابن عدي في الكامل ٣/ ٨٩٠.

وحديث أنس أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨، والطبراني في الأوسط (٢٢٤٨)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٥٤.

وحديث أم هانئ أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٤. وينظر المقاصد الحسنة ص٦٩٨.

(٤) بنحوه في المفهم ٥/ ٣٢٦، وينظر قول أبي حنيفة وصاحبيه أيضاً في المبسوط ٨/ ١٧٧، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٢.

(٥) بدائع الصنائع ٤/ ١٢٣.

(٦) التنبيه للشيرازي ص١٩٦، والعبارة فيه: إن أكل التمر لم يحنث وقيل: يحتمل أن يحنث.

والصحيح أنه لا يحنث[(١)] وقيل: يحنث. والصحيح أن هذا كلّه إدام.

وقد روى أبو داود عن يوسُفَ بنِ عبد الله بن سلَام قال: رأيت النبيَّ ﷺ أخذَ كِسْرة من خبز شعير، فوضع عليها تمرة، فقال: «هذه إدامُ هذه»[(٢)].

وقال ﷺ: «سيِّدُ إدام الدنيا والآخرة اللَّحمُ». ذكره أبو عمر[(٣)].

وترجم البخاري: باب الإدام، وساق حديث عائشة[(٤)].

ولأن الإدام مأخوذ من المؤادمة، وهي الموافقة، وهذه الأشياء توافق الخبز فكان إداماً، وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «ائتدموا ولو بالماء»[(٥)].

ولأبي حنيفةَ أن حقيقة الإدام الموافقةُ في الاجتماع على وجه لا يَقبل الفصل؛ كالخلِّ والزيت ونحوهما، وأمَّا اللحم والبيض وغيرُهما فلا يوافق الخبز، بل يجاوره، كالبِطِّيخ والتمر والعنب[(٦)]. والحاصل: أن كل ما يحتاج في الأكل إلى موافقة الخبز كان إداماً، وكلُّ ما لا يحتاج ويؤكل على حِدَة لا يكون إداماً، والله أعلم.

---

(١) عبارة: والصحيح أنه لا يحنث. من (ظ).

(٢) سنن أبي داود (٣٢٥٩) وفيه: يحيى بن العلاء؛ قال ابن حجر في تهذيب التهذيب. قال أحمد: كذاب يضع الحديث. وعن ابن معين: ليس بثقة. وقال في التقريب: رُمي بالوضع.
وأخرجه أيضاً (٣٢٦٠)، والترمذي في الشمائل (١٨٤) وفيه يزيد بن أبي أمية الأعور، وهو مجهول كما قال ابن حجر في التقريب.

(٣) في التمهيد ٣/ ٨٦، والاستذكار ٢٦/ ٣٤٦، والحديث سلف ٩/ ٢٠٨ وهو ضعيف جداً.

(٤) برقم (٥٤٣٠)، وفيه: دخل رسول الله ﷺ يوماً بيت عائشة وعلى النار برمة تفور، فدعا بالغداء، فأتي بخبز وأُدْم من أُدْم البيت، فقال: «لم أر لحماً؟». قالوا: بلى يا رسول الله، ولكنه لحم تُصُدِّقَ به على بَرِيرة، فأهدته لنا، فقال: «هو صدقةٌ عليها، وهديةٌ لنا».

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٩٥)، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ٤٣٠، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٦٥٣ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الهيثمي في المجمع ٥/ ٣٥: وفيه غزيل بن سنان، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، أما غزيل فرجل مجهول.

(٦) ينظر المبسوط ٨/ ١٧٧، وتحفة الفقهاء للسمرقندي ٢/ ٣٢٢ - ٣٢٣، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٢-١٢٣.

السادسة: روى الترمذيُّ من حديث عمرَ بنِ الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيتَ وادَّهِنُوا به، فإنه من شجرةٍ مباركة» [قال:] هذا حديث لا يُعرف إلا من حديث عبد الرزاق، وكان يَضطرب فيه، فربَّما يذكر فيه: عن عمرَ عن النبيِّ ﷺ، وربما رواه على الشكِّ فقال: أحسِبه عن عمرَ عن النبيِّ ﷺ، وربما قال: عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ [مرسلاً](١).

وقال مقاتل: خُصَّ الطُّور بالزيتون؛ لأن أوَّل الزيتون نَبَت منها. وقيل: إن الزيتون أوَّلُ شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان(٢). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ تقدَّم القول فيهما في «النحل»(٣) والحمد لله.

---

(١) سنن الترمذي (١٨٥١). وما بين حاصرتين منه وأخرجه عبد الرزاق (١٩٥٦١) من حديث زيد بن أسلم عن النبي ﷺ. وصوب ابن معين في تاريخه (٥٩٥) أن يكون عن زيد مرسلاً.
وله شاهد من حديث أبي أسيد في مسند أحمد (١٦٠٥٤) وفي إسناده جهالة.

(٢) تفسير البغوي ٣/٣٠٦ .

(٣) ١٢/ ٢٧١ - ٢٧٣ .

وفي هود قصةُ السفينة ونوحٍ[١]، وركوبُ البحر في غير موضع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: وعلى الأنعام في البرِّ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما يُحمل في البرِّ على الإبل، فيجوز أن تَرجع الكناية إلى بعض الأنعام. ورُوي أن رجلاً ركب بقرة في الزمان الأوّل، فأنطقها الله تعالى معه فقالت: إنَّا لم نخلق لهذا، وإنما خُلِقنا[٣] للحَرْث.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قُرِئ بالخفض ردًّا على اللفظ، وبالرفع ردًّا على المعنى. وقد مضى في «الأعراف»[٤].

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يَسُودُكم ويَشرُف عليكم؛ بأن يكون متبوعاً ونحن له تَبَع.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو شاء الله ألَّا يُعبد شيءٌ سواه؛ لجعل رسولَه مَلَكاً[٥].

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بمثل دعوته. وقيل: ما سمعنا بمثله بشراً أتى[٦] برسالة ربه ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في الأمم الماضية[٧]؛ قاله ابن عباس. والباء في «بهذا» زائدة، أي: ما سمعنا هذا كائناً في آبائنا الأولين.

ثم عطف بعضهم على بعض، فقالوا[٨]: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعنُون نوحاً ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ

---

(١) ١١/ ١٠٨ وما بعدها.

(٢) ٢/ ٤٩٥ .

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): خلقت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر. والحديث أخرجه أحمد (٧٣٥١)، والبخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨) عن أبي هريرة ﷺ مطولاً.

(٤) قرأ بالخفض الكسائي من السبعة، وأبو جعفر من العشرة، وسلف ٩/ ٢٦٠ .

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٣٤ ، والوسيط ٣/ ٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٧ .

(٦) في (خ) و(م): أي، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ٥٢ والكلام منه.

(٧) الوسيط ٣/ ٢٨٨ .

(٨) في (ظ): فقال.

﴿جِنَّةٌ﴾ أي: جنون لا يَدري ما يقول ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظِروا موته. وقيل: حتى يستبينَ جنونُه[١]. وقال الفرَّاء: ليس يُراد بالحين هاهنا وقت بعينه، إنما هو كقوله: دَعْه إلى يومٍ ما[٢].

فقال حين تمادَوا على كفرهم: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: انتقم ممن لم يُطعني ولم يسمع رسالتي. ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي: أرسلنا إليه رُسُلاً من السماء ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ على ما تقدَّم بيانه[٣].

قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أدخِل فيها واجعل فيها، يقال: سَلَكتُه في كذا وأسلكته فيه، إذا أدخلته[٤]، قال عبد منافِ بنُ رِبْعٍ الهُذَليُّ[٥]:

حتى إذا أسلَكُوهم في قُتَائِدةٍ شَلًّا كما تَطرُدُ الجَمَّالةُ الشُّرُدَا[٦]

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قرأ حفص: «مِن كلٍّ» بالتنوين، الباقون بالإضافة؛ وقد ذُكِر[٧]. وقال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلَّا ما يَلِد ويَبيض، فأما البَقُّ والذُّباب والدُّود، فلم يحمل شيئاً منها، وإنما خرج من الطِّين[٨]. وقد مضى القول في السفينة والكلامُ فيها مستوفًى[٩]، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٥٢ ، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٢ .

(٢) معاني القرآن ٢/ ٢٣٤ للفراء، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٠٤ .

(٣) ١١/ ١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٣٦ .

(٥) هو شاعر جاهلي من شعراء هذيل. خزانة الأدب ٣/ ١٧٤ (دار صادر).

(٦) ديوان الهذليين ٢/ ٤٢ ، وأدب الكاتب ص٤٣٤ ، والاقتضاب ص٤٠٢ ، وخزانة الأدب ٣/ ١٧٠ (دار صادر). ومعناه كما قاله البطليوسي أن الشاعر وصف قوماً هُزِموا حتى ألجئوا إلى الدخول في قتائدة، وهي ثنية ضيقة. والشَّل: الطرد. والجَمَّالة: أصحاب الجمال. والشُّرُد من الإبل: التي تفرُّ من الشيء إذا رأته، فإذا طُرِدت كان أشد لفرارها، فلذلك خصصها بالذكر.

(٧) ١١/ ١١٦ .

(٨) أورده البغوي في تفسيره ٢/ ٣٨٤ .

(٩) ١١/ ١٠٩ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ أي: عَلَوْتَ ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ راكبين ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: احمدوا الله على تخليصه إياكم ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومِن الغرق. و«الحمد لله» كلمةُ كلِّ شاكرٍ لله. وقد مضى في الفاتحة بيانه[١].

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ قراءة العامة: «مُنْزَلاً» بضم الميم وفتح الزاي[٢]، على المصدر الذي هو الإنزال، أي: أنزلني إنزالاً مباركاً. وقرأ زِرُّ بنُ حُبيش، وأبو بكر عن عاصم، والمفضَّل: «مَنزِلاً» بفتح الميم وكسر الزاي على الموضع، أي: أنزلني موضعاً مباركاً[٣]. الجوهري[٤]: المَنْزَل ـ بفتح الميم والزاي ـ: النزول، وهو الحُلول، تقول: نزلت نزولاً ومَنْزَلاً. وقال:

أإنْ ذكَّرتْكَ الدارُ مَنْزَلَها جُمْلُ   بَكَيْتَ فدمعُ العين مُنْحَدِرٌ سَجْلُ[٥]

نُصِب «المَنْزَل» لأنه مصدر[٦]، وأنزله غيره واستنزله بمعنًى، ونَزَّله تنزيلاً، والتنزيل أيضاً: الترتيب.

---

(١) ١/ ٢٠٢ وما بعدها.

(٢) السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ .

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٨ ، والوسيط ٣/ ٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٢ ، وقراءة أبي بكر عن عاصم في السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ ، وقراءة المفضل في البحر المحيط ٦/ ٤٠٢ .

(٤) في الصحاح (نزل).

(٥) أنشده ثعلب في مجالسه ص٢٢٤ ، وفيه: فماء العين منهمل، بدل: فدمع العين منحدر. والسَّجْل: الدَّلْو الضخمة المملوءة ماءً، ولا يقال لها فارغة سَجْلٌ، ولكن دَلْو. ويقال: سجلت الماء فانسجل، أي: صببته فانصبّ. لسان العرب (سجل).

(٦) نقل ابن منظور في اللسان (نزل) عن ابن بَرِّي قوله: تقديرُه: أإنْ ذَكَّرَتْك الدارُ نُزولَها جُمْلُ، فَجُمْلُ فاعل بالنزول، والنزولُ مفعولٌ ثانٍ بذكَّرَتْكَ. اهـ. وذكر ابن منظور أيضاً أن الرفع في قوله: مَنْزِلُها، صحيح، أراد: أإنْ ذكَّرتْك نزولُ جُمْلٍ إيَّاها، وأنَّثَ النزولَ حين أضافه إلى مؤنث.

قال ابن عباس ومجاهد: هذا حين خرج من السفينة[١]؛ مثلُ قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود:٤٨]. وقيل: حين دخلها. فعلى هذا يكون قوله: «مباركاً»، يعني بالسلامة والنجاة[٢].

قلت: وبالجملة فالآية تعليمٌ من الله عزَّ وجلَّ لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا هذا، بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلَّموا قالوها[٣]. وروي عن عليٍّ ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: اللهم أنزلني مُنزَلاً مباركاً وأنت خير المُنزِلين[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ أي: في أمر نوح والسفينة وإهلاك الكافرين. «لَآيَاتٍ» أي: دَلالاتٍ على كمال قدرة الله تعالى، وأنه يَنْصرُ أنبياءه ويُهلكُ أعداءهم. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾ أي: ما كنا إلا مبتلين الأُممَ قبلكم، أي: مختبِرين لهم بإرسال الرسل إليهم؛ ليَظْهر المطيع والعاصي[٥]، فيتبيَّن للملائكة حالُهم، لا أن يَستجِدَّ الربُّ علماً. وقيل: أي: نعاملهم معاملة المختبرين. وقد تقدم هذا المعنى في «البقرة» وغيرها[٦]. وقيل: «وإن كُنَّا» أي: وقد كنا[٧].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: من بعد هلاك قوم نوح ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ قيل: هم قوم عاد.

---

(١) قول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣٠ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٨ ، ولم نقف على من نسبه لابن عباس.

(٢) بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٧ ، وزاد المسير ٥/ ٤٧١ .

(٣) في النسخ عدا (ظ): قالوا.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨ .

(٦) ٢/ ٤٦٢ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٣ .

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني هوداً[١]؛ لأنه ما كانت أمة أُنشِئت في إِثر قوم نوح إلا عاد. وقيل: هم قوم ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ يعني صالحاً، قالوا: والدليل عليه قولُه تعالى آخرَ الآية: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الآية: ٤١][٢] نظيرها: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧].

قلت: وممن أُخذ بالصيحة أيضاً أصحابُ مدينَ قومُ شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم.

﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من عشيرتهم، يَعرفون مولده ومَنْشأه، ليكون سكونُهم إلى قوله أكثر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف والقادة والرؤساء ﴿مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد بالبعث والحساب ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وسَّعْنا عليهم نِعَم الدنيا حتى بَطِروا وصاروا يُؤْتَوْن[٣] بالتُّرْفة، وهي مثلُ التُّحْفة[٤] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فلا فضلَ له عليكم؛ لأنه محتاج إلى الطعام والشراب كأنتم. وزعم الفرَّاء أن معنى ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ على

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٣، والوسيط ٣/ ٢٨٩، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٨.

(٢) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧١ لأبي سليمان الدمشقي، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨، وتفسير الرازي ٢٣/ ٩٧.

(٣) في (ظ): يأتون.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤١٣. والتُّرْفة: الطعام الطيب، وكل طرفة تُرْفة. والتُّحفة: الطُّرْفة من الفاكهة وغيرها من الرياحين. والتحفة: ما أتحفت به الرجل من البر واللطف. ينظر لسان العرب (ترف) و(تحف).

حذف «منه»[(١)]، أي: مما تشربون منه، وهذا لا يجوز عند البصريين ولا يَحتاج إلى حذفٍ ألبتة؛ لأن «ما» إذا كانت[(٢)] مصدراً لم تَحتج إلى عائد، فإن جعلتها بمعنى الذي، حَذفت المفعول، ولم يحتج إلى إضمار «مِن».

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ يريد: لمغبونون بترككم آلهتكم، واتّباعِكم إياه من غير فضيلة له عليكم.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أي: مبعوثون من قبوركم. و«أنّ» الأولى في موضع نصب بوقوع «يعدِكم» عليها، والثانية بدل منها. هذا مذهب سيبويه[(٣)]، والمعنى: أيعدكم أنكم مُخرَجون إذا مِتُّم[(٤)].

قال الفرّاء: وفي قراءة عبد الله: «أيعدكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مُخرَجون»[(٥)]؛ وهو كقولك: أظن إنْ خرجت أنك نادم[(٦)].

وذهب الفرّاء والجَرْميُّ وأبو العباس المبرِّد إلى أنَّ «أنَّ»[(٧)] الثانية مكَرَّرةٌ للتوكيد، لَمَّا طال الكلام كان تكريرها حسناً[(٨)].

---

(١) في النسخ: من، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٣ وعنه نقل المصنف.

(٢) في (م) والنسخ عدا (ظ): كان، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٣.

(٣) في الكتاب ٣/ ١٣٢ - ١٣٣.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤، والمعاني للنحاس ٤/ ٤٥٥ والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٣.

(٦) في (ظ): أظن أنك إن خرجت أنك نادم. بزيادة «أنك»، وهو موافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥، فإن الفراء ذكر أن كل اسمٍ أوقعت عليه «أن» بالظن وأخوات الظن ثم اعترض عليه الجزاء دون خبره، فإن شئت كررت اسمه، وإن شئت حذفته أولاً وآخراً، فتقول: أظن أنك إن خرجت أنك نادم، فإن حذفت «أنك» الأولى أو الثانية صلح، وإن ثبتتا صلح.

(٧) لفظ «أن» الثانية من (ظ)، وهو الموافق لمعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤، والمقتضب للمبرد ٢/ ٣٥٦، والكلام من معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥. والجرمي هو صالح بن إسحاق.

وقال الأخفش: المعنى: أيعدكم أنكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً يَحدُث إخراجُكم؛ فـ «أنّ» الثانية في موضع رفع بفعل مضمر، كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يَحدُث القتال[١].

وقال أبو إسحاق: ويجوز «أيعدكم إنكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرَجون»؛ لأن معنى «أيعدكم»: أيقول إنكم[٢].

قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قال ابن عباس: هي كلمةٌ للبعد، كأنهم قالوا: بَعيدٌ ما توعدون[٣]، أي: إنَّ هذا لا يكون ما يُذكر من البعث. وقال أبو عليٍّ: هي بمنزلة الفعل، أي: بَعُد ما تُوعدون[٤].

وقال ابن الأنباري[٥]: وفي «هيهات» عَشْرُ لغات:

هيهاتَ لك، بفتح التاء، وهي قراءة الجماعة.

وهيهاتِ لك، بخفض التاء، ويُروى عن أبي جعفر بنِ القَعْقاع[٦].

وهيهاتٍ لك، بالخفض والتنوين، يُروى عن عيسى بنِ عمر[٧].

وهيهاتُ لك، برفع التاء، الثعلبي: وبها قرأ نصر بنُ عاصم وأبو العالية[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج (وهو أبو إسحاق)، ٤/ ١٢. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٥٦، والجواز المذكور يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٧/ ٤٢.

(٤) المسائل العضديات لأبي علي الفارسي ١٧١.

(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٩٩.

(٦) النشر ٢/ ٣٢٨.

(٧) القراءات الشاذة ص٩٧، والمحتسب ٢/ ٩٠.

(٨) نسبها البغوي في التفسير ٣/ ٣٠٠٨ لنصر بن عاصم، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٣ وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٤ لأبي حيوة، وهي في القراءات الشاذة ص٩٧ دون نسبة.

وهيهاتٌ لك، بالرفع والتنوين، وبها قرأ أبو حَيْوَة الشامي؛ ذكره الثعلبي أيضاً[١].

وهيهاتاً لك، بالنصب والتنوين[٢]، قال الأحوص[٣]:

تذكَّرت أياماً مَضَيْن من الصِّبا ... وهيهاتَ هيهاتاً إليكَ رُجُوعُها

واللغة السابعة: أَيْهات أَيْهات[٤]، وأنشد الفرّاء:

فأيْهاتَ أيْهاتَ العقِيقُ ومَن به ... وأيهاتَ خِلٌّ بالعقيق نُواصِلُه[٥]

قال المهدويُّ: وقرأ عيسى الهَمْداني: هيهاتْ هيهاتْ، بالإسكان[٦].

قال ابن الأنباري: ومِن العرب مَن يقول: أَيْهان، بالنون، ومنهم مَن يقول: أَيْها، بلا نون. وأنشد الفرّاء:

ومِن دُونيَ الأعيان والقِنْع كلُّه ... وكُتْمانُ أيْهَا ما أشتَّ وأبْعَدا[٧]

فهذه عَشْر لغات.

فمن قال: هيهاتَ، بفتح التاء، جعله مثلَ: أين وكيف[٨]. وقيل: لأنهما أداتان

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٧، والمحتسب ٢/ ٩٠.

(٢) نسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٣ لخالد بن إياس، وأبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٤٠٤ لهارون عن أبي جعفر.

(٣) في ديوانه ص١٣١.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٨ نقلاً عن ابن الأنباري.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ص٩٦٥، وجاء فيهما: وصلٌ، بدل: خِلّ. وجاء في الديوان: تواصله، بدل: نواصله.

(٦) المحتسب ٢/ ٩٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٧ لخارجة بن مصعب.

(٧) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٣٠٠ - ٣٠١، والصحاح (أيه)، والأمكنة والمياه والجبال للزَّمخشري ص١٨٧، وفيها: الأعيار، بدل: الأعيان. وفي تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٥: الأعراض، بدل: الأعيان. والأعيان والقِنْع وكُتْمان: أسماء مواضع، ينظر معجم البلدان ١/ ٢٢٣، ٤/ ٤٠٨، ٤٣٦.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨.

مركَّبتان مثلُ: خمسةَ عشَر، وبَعْلَبَكّ، ورامَ هُرْمُز[١]، وتقف على الثاني بالهاء، كما تقول: خمس عَشْره، وسبع عَشْره. وقال الفرّاء: نصبُها كنصب ثُمَّتَ ورُبَّتَ[٢]. ويجوز أن يكون الفتح إتباعاً للألف والفتحةِ التي قبلها[٣].

ومَن كسره جعله مثلَ أمسِ وهؤلاءِ[٤]، قال:

وهيهاتِ هيهاتِ إليكَ رجوعُها[٥]

قال الكسائي: ومَن كسر التاء وقف عليها بالهاء[٦]، فيقول: هيهاه. ومَن نصبها وقف بالتاء، وإن شاء بالهاء. ومَن ضمَّها فعلى مثلِ منذُ وقطُّ وحيثُ[٧]. ومَن قرأ «هيهات» بالتنوين، فهو جمعٌ ذهب به إلى التنكير[٨]، كأنه قال: بُعْداً بُعْداً. وقيل: خُفِض ونُوِّن تشبيهاً بالأصوات بقولهم: غاقٍ وطاقٍ[٩].

وقال الأخفش: يجوز في «هيهات» أن تكون جماعةً، فتكون التاء التي فيها تاءَ الجميع[١٠] التي للتأنيث. ومَن قرأ «هيهاتٍ» جاز أن يكون أخلصها اسماً مُعرَباً فيه معنى البُعْد، ولم يجعله اسماً للفعل فيبنيَه[١١]. وقيل: شُبِّه التاء بتاء الجمع،

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٣.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٦.

(٣) ينظر الدر المصون ٨/ ٣٤٠.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨.

(٥) سلف قريباً من قول الأحوص بلفظ: وهيهات هيهاتاً..

(٦) في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨: ويروى عن الكسائي الوقف عليها بالهاء. وينظر جامع البيان لأبي عمرو الداني ١/ ٤١٧ - ٤١٨.

(٧) ذكر توجيه قراءة الضم البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٨.

(٨) في (د): الكثير، وفي (خ) و(ز) و(ظ): التكثير، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في المحتسب ٢/ ٩١ والكلام منه.

(٩) أورد هذا القول الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٥.

(١٠) في (ز) و(ظ): الجمع.

(١١) ذكر هذا الوجه ابن جني في المحتسب ٢/ ٩١.

كقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ [البقرة:١٩٨].

قال الفرّاء: وكأني أستحب الوقف على التاء؛ لأن من العرب مَن يخفض التاء على كل حال، فكأنها مثلُ: عرفاتٍ وَمَلكُوت وما أشبه ذلك[١]. وكان مجاهد وعيسى ابنُ عمر وأبو عمرو بنُ العلاء والكسائي وابن كثير يقفون عليها «هيهاه» بالهاء[٢]. وقد رُوي عن أبي عمروٍ أيضاً أنه كان يقف على «هيهات» بالتاء[٣]، وعليه بقيةُ القُرَّاء لأنها حرف[٤].

قال ابن الأنباري[٥]: مَن جعلهما حرفاً واحداً لا يُفرِد أحدَهما من الآخر؛ وقف على الثاني بالهاء ولم يقف على الأوَّل؛ فيقول: هيهات هيهاه، كما يقول: خمس عَشْره، على ما تقدم. ومَن نوى إفراد أحدهما من الآخر، وقف فيهما جميعاً بالهاء والتاء؛ لأن أصل الهاء تاء.

قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ «هي» كناية عن الدنيا، أي: ما الحياة الدنيا[٦] إلا ما نحن فيه، لا الحياةُ الآخرة التي تَعِدُنا بعد البعث.

﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ يقال: كيف قالوا: نموت ونحيا، وهم لا يُقِرُّون بالبعث؟ ففي هذا أجوبة؛ منها: أن يكون المعنى: نكون مَوَاتاً، أي: نُطَفاً، ثم نحيا في الدنيا. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت؛ كما قال: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ [آل عمران:٤٣]. وقيل: «نموت» يعني الآباء، «ونحيا» يعني الأولاد[٧]. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦ .
(٢) التيسير ص٦٠ .
(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٩٨ .
(٤) ينظر التيسير ص٦٠ .
(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٩٨ .
(٦) لفظ: الدنيا، من (ظ)، والكلام في الوسيط ٣/ ٢٩٠ .
(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٧ - ٤٥٨ .

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ يعنون: الرسول[١] ﴿افْتَرَىٰ﴾ أي: اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ تقدَّم[٢].

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن قليل، و«ما» زائدة مؤكِّدة[٣]. ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على كفرهم، واللام لامُ القسم، أي: واللهِ لَيُصْبِحُن.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ في التفاسير: صاح بهم جبريلُ عليه السلام صيحةً واحدةً مع الريح التي أهلكهم الله تعالى بها[٤]، فماتوا عن آخرهم[٥]. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي: هَلْكَى هامدين، كغُثَاء السَّيل، وهو ما يحمله مِن بالي الشجر من الحشيش والقصب مما يبِس وتفتَّت[٦]. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكاً لهم. وقيل: بُعْداً لهم من رحمة الله[٧]، وهو منصوب على المصدر، ومِثلُه: سَقْياً له ورَعْياً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعد هلاك هؤلاء ﴿قُرُونًا﴾ أي: أُمماً

---

(١) زاد المسير ٥/ ٤٧٣ .

(٢) ص٣٥ من هذا الجزء.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣ ، ومعاني النحاس ٤/ ٤٥٨ .

(٤) في (ظ): مع الريح التي أهلكتهم.

(٥) بنحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٤ ، والوسيط ٣/ ٢٩٠ ، وزاد المسير ٥/ ٤٧٣ .

(٦) المراجع السابقة، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٤ .

﴿ءَاخَرِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد بني إسرائيل[١]. وفي الكلام حذف: فكذَّبوا أنبياءهم فأهلكناهم[٢].

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ «مِن» صلة، أي: ما تَسبِق أُمَّةٌ الوقتَ المؤقَّتَ لها ولا تتأخره، مثلُ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ومعنى ﴿تَتْرَا﴾: تتواتر، ويَتْبَع بعضُهم بعضاً، ترغيباً وترهيباً. قال الأصمعي: وَاترتُ كتبي عليه: أتبعتُ بعضَها بعضاً، إلا أنَّ بين كل واحد منها وبين الآخَر مُهلة. وقال غيره: المواتَرة: التتابعُ بغير مُهلة[٣].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «تترًى» بالتنوين[٤] على أنه مصدر، أدخل فيه التنوين على فتح الراء، كقولك: حَمْداً وشكراً، فالوقف على هذا على الألف المعوَّضةِ من التنوين. ويجوز أن يكون مُلحقاً بجعفر، فيكون مثلَ أَرْطَى وعَلْقَى؛ كما قال:

يَسْتَنُّ في عَلْقَى وفي مُكُورِ[٥]

فإذا وُقِف على هذا الوجه جازت الإمالة، على أن ينويَ الوقفَ على الألف الملحقة[٦].

---

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٢ .

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٤ .

(٤) يعني حالة الوصل، ويقفان عليها بالألف، ولأبي عمرو عند الوقف وجهان: الفتح والإمالة. السبعة ص٤٤٦ ، والتيسير ١٥٩ .

(٥) قائله العجاج، وهو في ديوانه ص٢٣٦ ، وفيه: فَحَطَّ، بدل: يستن. والعَلْقَى: نبت قضبانه دقاق، عَسِر رضُّها، يتخذ منه المكانس. والمُكور: جمع مَكْرَة، وهي نبتة، أو الرُّطَبَة الفاسدة. القاموس المحيط (علق) و(مكر).

(٦) قرأ حمزة والكسائي بالإمالة وصلاً ووقفاً، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٠٢ ، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٨ .

وقرأ ورْشٌ بين اللفظتين[١]؛ مثل: سَكْرَى وغَضْبَى، وهو اسم جمع؛ مثلُ: شَتَّى وأَسْرى[٢].

وأصله: وَتْرى، من المواترة والتواتر، فقلبت الواو تاء، مثلَ: التقوى والتُّكلان وتُجاه، ونحوِها[٣]. وقيل: هو الوِتر، وهو الفرد[٤]، فالمعنى: أرسلناهم فَرْداً فرداً. النحاس[٥]: وعلى هذا يجوز: «تِتْرا»؛ بكسر التاء الأولى، وموضعُها نَصْب على المصدر؛ لأن معنى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾: [ثم] واتَرنا. ويجوز أن يكون في موضع الحال، أي: متواتِرين.

ومعنى ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: بالهلاك ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمعُ أُحْدوثة، وهي ما يُتحدَّث به، كأعاجيب جمع أُعجوبة، وهي ما يُتعجَّب منه[٦]. قال الأخفش: إنما يقال هذا في الشَّرّ: «جعلناهم أحاديث»، ولا يقال في الخير، كما يقال: صار فلان حديثاً[٧]، أي: عِبرة ومَثَلاً، كما قال في آية أخرى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

قلت: وقد يقال: فلانٌ حديثٌ حَسَن، إذا كان مقيَّداً بذكر ذلك؛ ومنه قول ابن دُريد:

وإنما المرءُ حديثٌ بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وَعَى[٨]

---

(١) جامع البيان لأبي عمرو الداني ٢/ ٣٠٣، والكشف لمكي ٢/ ١٢٩.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٠٩. قال السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٣٤٥ ـ بعد أن ذكر هذا الكلام ـ: وفيه نظر، إذ المشهور أن أسرى وشتَّى جمعا تكسير، لا اسما جمع.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٩، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٠٣، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٩.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١١٤ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٣، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٠٠.

(٧) أورد قول الأخفش البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٩.

(٨) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد ١/ ٢٣٢، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٩٤.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ تقدَّم[١]. ومعنى ﴿عَالِينَ﴾: متكبِّرين قاهرين لغيرهم بالظلم[٢]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ الآية، تقدَّم أيضاً[٣]. ومعنى ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ أي: بالغرق في البحر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة[٤]، وخصَّ موسى بالذكر؛ لأن التوراة أُنزلت عليه في الطُّور وهارونُ خليفةٌ في قومه. ولو قال: «آتيناهما»[٥] جاز، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ تقدَّم في «الأنبياء» القولُ فيه[٦].

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ الرَّبوة: المكانُ المرتفِع من الأرض، وقد تقدَّم في «البقرة»[٧]. والمراد بها هاهنا في قول أبي هريرة: فلسطينُ. وعنه أيضاً:

---

(١) ١١/٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) تفسير البغوي ٣/٣١٠.

(٣) ١٢/١١٤.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/٤١٥، والوسيط ٣/٢٩١، والمحرر الوجيز ٤/١٤٥.

(٥) قبلها في (م): ولقد.

(٦) ١٤/٣٨١ - ٣٨٣.

(٧) ٤/٣٣٥ - ٣٣٦.

الرَّملة[١]، ورُويَ عن النبيِّ ﷺ[٢]. وقال ابن عباس وابن المسيِّب وابنُ سَلَام: دمشق[٣]. وقال كعب وقتادة: بيت المقدس. قال كعب: وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عَشَر مِيلاً[٤]. قال:

فكنتُ هَمِيداً تحت رَمْسٍ بِرَبْوَةٍ ... تَعاوَرُني ريحٌ جنوبٌ وَشَمْأَلُ[٥]

وقال ابن زيد: مصر[٦]. وروى سالمٌ الأفطسُ عن سعيد بن جُبير ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ قال: النَّشز من الأرض[٧].

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مُستويةٍ يُستقرُّ عليها[٨]. وقيل: ذات ثمار، ولأجل الثمار يَستقِرُّ فيها الساكنون[٩].

---

(١) أورد قوله الأول الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٩١، والثاني أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٥ وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٦، والطبري ١٧/ ٥٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٣ - ٥٤، والطبراني في الأوسط (٦٦٩١) من حديث مُرَّة البهزي ﷺ. وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٧٢: فيه من لم أعرفهم.

(٣) أورد قول ابن عباس النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٦١، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢٩١، وأخرج قول سعيد بن المسيب عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٥، والطبري ١٧/ ٤٥. وأورد قول ابن سلام البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٥، والوسيط ٣/ ٢٩١، وأخرج قول كعب وقتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٥ - ٤٦، والطبري ١٧/ ٥٥.

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥٦، وابن ميمون في منتهى الطلب ٨/ ٣٥٠ ونسباه لامرئ القيس السكوني، ووقع في منتهى الطلب: وإضتُ هميداً، بدل: فكنت هميداً. وقوله: هميداً، الهميد هو الموت. والرَّمس: القبر. وتعاورني، من قولهم: تعاورت الرياح رسمَ الدار حتى عفته، أي: تواظبت عليه، وقيل: أي: تداولته، فمرة تهب جنوباً ومرة شَمالاً. لسان العرب (همد) و(رمس) و(عور).

(٦) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥٦، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣١٠، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٥ وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧٦.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٢، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١/ ٢٠٩، وبنحوه الطبري ١٧/ ٥٧.

(٨) الوسيط ٣/ ٢٩١، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٠، وزاد المسير ٥/ ٤٧٥.

(٩) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٥٨ عن قتادة.

﴿وَمَعِينٍ﴾: ماء جارٍ ظاهر للعيون. يقال: مَعِين ومُعُن، كما يقال: رغيف ورُغُف؛ قاله علي بن سليمان[١]. وقال الزجَّاج: هو الماء الجاري في العيون[٢]. فالميم على هذا زائدةٌ كزيادتها في مَبِيْع، وكذلك الميم زائدةٌ في قول مَن قال: إنه الماء الذي يُرى بالعين. وقيل: إنه فعيل بمعنى مفعول. قال عليُّ بنُ سليمان: يقال: مَعَن الماء: إذا جرى [وكثر]، فهو مَعين ومَمْعون[٣]. ابن الأعرابي: مَعَن الماء يَمْعَن مُعوناً: إذا جرى وسَهُل، وأَمعَن أيضاً وأمعنته، ومياه مُعْنان[٤].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: في[٥] الصحيح عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّها الناس، إنَّ الله طيِّبٌ لا يَقبَلُ إلا طيباً، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجلَ يُطيلُ السَّفر، أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يديه إلى السماء يا ربِّ يا ربِّ، ومَطْعَمُه حرام، ومَشْربُه حرام، ومَلْبسُه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك!»[٦].

الثانية: قال بعض العلماء: والخطاب في هذه الآية للنبيِّ ﷺ، وأنه أقامه مقام

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥ ، ونقله المصنف بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٦٤ .

(٣) في (م): معيون، ولم تجوَّد اللفظة في (د)، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٤ والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٥ ، وتهذيب اللغة ٣/ ١٦ ، وفي القاموس: المُعْنان» بالضم: مجاري الماء في الوادي.

(٥) في (م) و(د) و(خ): روى، وسقط من (ز)، والمثبت من (ظ).

(٦) صحيح مسلم (١٠١٥)، وسلف ٣/ ٢١ .

الرسل، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، يعني: نُعيمَ بنَ مسعود[١].

وقال الزجَّاج: هذه مخاطبة للنبيِّ ﷺ، ودلَّ الجمع على أن الرسل كلَّهم كذا أُمِروا، أي: كُلُوا من الحلال[٢].

وقال الطبريُّ: الخطاب لعيسى عليه السلام، رُويَ أنه كان يأكل من غَزْل أُمِّه[٣]. والمشهور عنه أنه كان يأكل من بَقْل البَرِّيَّة[٤]. ووَجْهُ خطابه لعيسى ما ذكرناه من تقديره لمحمد ﷺ تشريفاً له.

وقيل: إن هذه المَقالةَ خُوطِب بها كلُّ نبيٍّ؛ لأن هذه طريقتُهم التي ينبغي لهم الكونُ عليها، فيكون المعنى: وقلنا: يا أيُّها الرسل كُلوا من الطيبات؛ كما تقول لتاجر: يا تجارُ، ينبغي أن تَجتنبوا الرِّبا، فأنت تخاطبه بالمعنى. وقد اقترن بذلك أنَّ هذه المقالةَ تصلُح لجميع صنفه، فلم يُخاطَبوا قطُّ مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما خُوطِب كلُّ واحد في عصره[٥]. قال الفرَّاء: هو كما تقول للرجل الواحد: كُفُّوا عنا أذاكم[٦].

الثالثة: سوَّى الله تعالى بين النبيِّين والمؤمنين في الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنُّب الحرام، ثم شَمَلَ الكلَّ في الوعيد الذي تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٦٥ .

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٥٩ ، ونسبه لعمرو بن شرحبيل، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ ، وسلف ١٠/ ١٦١ .

(٤) أخرج ابن المبارك في الزهد (٥٦٢) من رواية أبي صالح عن أبي هريرة، قال: كان عيسى ابن مريم يقول لأصحابه: ...كلوا من بقل البرّية.

وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٩٣ عن أبي صالح يرفعه إلى عيسى بن مريم، بمثله.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٧ .

عَلِيمٌ﴾. صلَّى الله على رسله وأنبيائه. وإذا كان هذا معهم؛ فما ظنُّ كلِّ الناس بأنفسهم؟![١].

وقد مضى القول في الطيبات والرِّزق في غير موضع[٢]، والحمد لله.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «يمد يديه» دليلٌ على مشروعية مدِّ اليدين عند الدعاء إلى السماء، وقد مضى الخلاف في هذا والكلام فيه، والحمد لله[٣].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «فأنَّى يستجاب لذلك!» على جهة الاستبعاد، أي: إنه ليس أهلاً لإجابة دعائه، لكنْ يجوز أن يَستجيب الله له تفضُّلاً ولُطفاً وكَرماً[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ المعنى: هذا الذي تقدَّم ذكره هو دينُكم ومِلَّتُكم، فالتزموه[٥]. والأُمَّة هنا: الدِّين؛ وقد تقدَّم مَحامله[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: على دين. وقال النابغة:

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً وهل يأثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائعُ[٧]

الثانية: قُرِئ: «وإنَّ هذه» بكسر «إنَّ» على القطع، وبفتحها وتشديد النون[٨]. قال

(١) المحرر الوجيز ٤/١٤٦ .

(٢) ١/٢٧٢ ، ٩/٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٣) ٩/٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٤) المفهم ٣/٦٠ .

(٥) في (خ) و(ظ): فالزموه.

(٦) ٢/٣٩٧ ، والأنبياء، الآية (٩٢).

(٧) سلف ٥/٢٦٠ .

(٨) قرأ بكسر همزة «إن» وتشديدها عاصم وحمزة والكسائي، وبفتحها وتشديدها نافع وأبو عمرو، وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة وتخفيف النون. السبعة ص٤٤٦ ، والتيسير ص١٥٩ .

الخليل: هي في موضع نصب لمَّا زال الخافض[١]، أي: أنا عالم بأنَّ هذا دينُكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به.

وقال الفرّاء[٢]: «أنّ» متعلِّقة بفعل مضمر، تقديره: واعلموا أنَّ هذه أمتُكم.

وهي عند سيبويه متعلِّقة بقوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾، والتقدير: فاتقونِ؛ لأنَّ أمتَكم واحدة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، أي: لأن المساجد لله، فلا تدعوا معه غيرَه، وكقوله: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١]، أي: فليعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلاف قريش[٣].

الثالثة: وهذه الآية تقوّي أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون:٥١] إنما هو مخاطبةٌ لجميعهم، وأنه بتقدير حضورهم، وإذا قَدَّرت ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ مخاطبةً لمحمد ﷺ قَلَق اتصال هذه الآية واتصال قوله: «فتقطَّعوا». أمَّا أنّ قوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ وإن كان قيل للأنبياء، فأممُهم داخلون فيه بالمعنى[٤]؛ فيحسُن بعد ذلك اتصال ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾. أي: افترقوا، يعني الأمم، أي: جَعلوا دينهم أدياناً بعد ما أُمِروا بالاجتماع[٥]. ثم ذكر تعالى أنَّ كلًّا منهم مُعجَب برأيه وضلالته، وهذا غاية الضَّلال[٦].

الرابعة: هذه الآية تنظر إلى قوله ﷺ: «ألَا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملَّة، وإن هذه الأمةَ سَتفترِق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعة» الحديث. خرَّجه أبو داود[٧]، ورواه

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ ، وينظر الكتاب ٣/ ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .

(٣) الكتاب ٣/ ١٢٧ ، وينظر الحجة ٥/ ٢٩٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .

(٤) في (ظ): وإن لم يقل للأنبياء، فإنهم داخلون فيه بالمعنى، والمثبت من (خ) و(م) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ والكلام منه.

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ - ١٤٧ .

(٧) في سننه (٤٥٩٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وسلف ٢/ ٢٢٣ .

الترمذي(١)، وزاد: قالوا: ومَن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» خرَّجه مِن حديث عبد الله بن عمرو.

وهذا يبيِّن أن الافتراق المُحذَّرَ منه في الآية والحديث، إنما هو في أصول الدين وقواعده؛ لأنه قد أَطلق عليها مِلَلاً، وأخبر أن التمسُّك بشيء من تلك الملل مُوجِبٌ لدخول النار، ومِثلُ هذا لا يقال في الفروع، فإنه لا يُوجِب تعديد المِلل ولا عذابَ النار؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿زُبُرًا﴾ يعني كُتُباً وضعوها، وضلالاتٍ أَلَّفوها؛ قاله ابن زيد. وقيل: إنهم فرَّقوا الكتب، فاتَّبعت فرقةٌ الصُّحُفَ، وفرقةٌ التوراةَ، وفرقةٌ الزبورَ، وفرقة الإنجيلَ، ثم حَرَّف الكلُّ وبدَّل؛ قاله قتادة(٢). وقيل: أَخَذ كلُّ فريق منهم كتاباً آمنَ به وكَفَر بما سواه.

و«زُبُراً» بضم الباء، قراءةُ نافع، جمع زبور(٣). والأعمشُ وأبو عمرو بخلافٍ عنه: «زُبَراً» بفتح الباء(٤)، أي: قِطَعاً كقطع الحديد؛ كقوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦].

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ أي: فريق ومِلَّة ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: بما(٥) عندهم من الدِّين ﴿فَرِحُونَ﴾ أي: مُعجَبون به. وهذه الآية مثالٌ لقريش، خاطَبَ محمداً ﷺ في شأنهم، متصلاً بقوله ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: فَذَرْ هؤلاء الذين هم بمنزلة مَن

---

(١) برقم (٢٦٤١) وسلف ٥/ ٢٤٢، وقد أكد العلماء على صحة حديث الافتراق بمجموع رواياته وطرقه وشواهده.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٧، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣١، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢ مختصراً.

(٣) وهي قراءة بقية السبعة أيضاً.

(٤) كذا نسب المصنف هذه القراءة لأبي عمرو، تبعاً لابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٧، ونسبها الطبري ١٧/ ٦٣ إلى عامة قرأة الشام، ونسبها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٣٠٣ إلى ابن عامر الشامي، لكن بخلاف بين أصحاب هشام راوي ابن عامر. فلعل النسبة إلى أبي عمرو وهم، وصوابه: ابن عامر، والله أعلم.

(٥) لفظ: بما، من (ظ).

تقدَّم[١]، ولا يَضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكلِّ شيء وقت.

والغَمْرة في اللغة: ما يَغْمُرك ويَعلُوك؛ وأصله السَّتر[٢]، ومنه الغَمْر: الحِقْد؛ لأنه يغطِّي القلب، والغَمْر: الماء الكثير؛ لأنه يغطِّي الأرض، وغَمْرُ الرِّداء: الذي يشمل الناس بالعطاء، قال:

غَمْرُ الرِّداء إذا تبسَّم ضاحكاً غَلِقتْ لضَحْكته رِقابُ المالِ[٣]

المراد هنا: الحَيْرة والغَفْلة والضلالة. ودخل فلانٌ في غِمار الناس، أي: في زَحْمتهم[٤].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال مجاهد: حتى الموت[٥]، فهو تهديد لا توقيت؛ كما يقال: سيأتي لك يوم[٦].

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ «ما» بمعنى الذي[٧]، أي: أيحسبون يا محمدُ أنَّ الذي نعطيهم في الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم؟ إنما هو استدراجٌ وإملاء، وليس إسراعاً في الخيرات[٨].

وفي خبر «أنّ» ثلاثةُ أقوال:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/١٤٧.

(٢) قبلها في (ظ): من.

(٣) سلف ١٢/٢٨٧.

(٤) الصحاح (غمر).

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/٥٨ ولم ينسبه.

(٦) النكت والعيون ٤/٥٨.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/١١٧.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/٢٣٨، ومعاني القرآن للزجاج ٤/١٦، والوسيط ٣/٢٩٢.

منها أنه محذوف.

وقال الزجَّاج[١]: المعنى نسارع لهم به في الخيرات، وحُذِفت «به». وقال هشامٌ الضريرُ[٢] قولاً دقيقاً، قال: إن «ما» هي الخيرات، فصار المعنى: نسارع لهم فيه، ثم أظهر فقال: «في الخيرات». ولا حذفَ فيه على هذا التقدير[٣].

ومذهبُ الكسائي أنَّ «أنَّما» حرفٌ واحد، فلا يحتاج إلى تقدير حذف[٤]، ويجوز الوقف على قوله: «وبنين»، ومَن قال: «أنما» حرفان، فلابدَّ من ضمير يَرجع من الخبر إلى اسم «أنَّ»: ولم يَتِمَّ الوقف على «وبنين»[٥].

وقال السِّجستاني[٦]: لا يَحْسُن الوقف على «وبنين»؛ لأن «يحسبون» يحتاج إلى مفعولين، فتمامُ المفعولين: «في الخيرات». قال ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن «أنّ» كافيةٌ من اسم «أنَّ» وخبرِها، ولا يجوز أن يُؤتى بعد «أنَّ» بمفعول ثان[٧].

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ وعبد الرحمن بن أبي بَكرة: «يُسارِع» بالياء[٨]،

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ١٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٧ وما قبله منه.

(٢) هو أبو عبد الله هشام بن معاوية الضرير، النحوي الكوفي، صاحب الكسائي، المتوفى سنة ٢٠٩ هـ. إنباه الرواة ٣/ ٣٦٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٧، وتعقب هشاماً بقوله: وهذا قول بعيد. اهـ وينظر مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٥٠٤ وعبارته: وقال هشام تقديره: نسارع لهم فيه، ثم أظهر الضمير، وهو «الخيرات» و«ما» التي هي اسم «أن» هي للخيرات.

(٤) في (ظ): حرف.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٩١ - ٧٩٢.

(٦) هو أبو حاتم سهل بن محمد، وتحرف في (م) إلى السختياني.

(٧) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٩٢، وفيه: كافية من اسم «يحسبون» وخبرها. (وقد جاء في النسخة (ظ): كافية باسمها).

(٨) القراءات الشاذة ص٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٤، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٧، وأخرج القراءة عن عبد الرحمن بن أبي بكرة الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٦٥ - ٦٦، وعبد الرحمن بن أبي بكرة ـ نفيع بن الحارث ـ البصري تابعي، كان أول مولود في الإسلام بالبصرة، توفي سنة ٩٦هـ. تهذيب التهذيب.

على أن يكون فاعله «إمدادُنا». وهذا يجوز أن[١] يكون على غير حذفٍ، أي[٢]: يُسارِع لهم الإمدادُ، ويجوز أن يكون فيه حذف، ويكون المعنى: يُسارع اللهُ لهم.

وقُرِئ: «يُسارَع لهم في الخيرات»، وفيه ثلاثة أوجه: أحدُها على حذف «به»، ويجوز أن يكون: يُسارَع الإمدادُ. ويجوز أن يكون «لهم» اسمُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه. ذكره النحاس[٣].

قال المهدويُّ: وقرأ الحُرُّ النَّحْوي: «نُسرِع لهم في الخيرات»[٤]، وهو معنى قراءة الجماعة.

قال الثعلبي: والصواب قراءة العامة؛ لقوله: «نمدهم».

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ ذلك فتنةٌ لهم واستدراج[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ لمَّا فرَغ من ذِكر الكفرة وتوعَّدَهم، عقَّب ذلك بذكر المؤمنين المسارِعين في الخيرات، ووعدَهم، وذَكَرهم[٦]

---

(١) قبلها في (خ) و(ز) و(ظ): على.

(٢) في (خ) و(ز) و(ظ): ويكون المعنى، بدل: أي، والمثبت من (د) و(م) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٨ ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦ ، والكلام منهما.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١١٧ ، وهذه القراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٩٤ ونسبها لعبد الرحمن ابن أبي بكرة.

(٤) قراءة الحُرِّ في المحتسب ٢/ ٩٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٧ ، وذكرها ابن خالويه في الشواذ ص٩٨ بالياء (يسرع لهم) ونسبها لبعضهم. والحُرُّ النحوي: هو ابن عبد الرحمن، سمع أبا الأسود الدؤلي، وعنه طلب القرآن. بغية الوعاة ١/ ٤٩٣ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٦ .

(٦) في النسخ عدا (ظ): وذكر ذلك، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٧ والكلام منه.

بأبلغِ صفاتهم. و«مُشْفِقُونَ»: خائفون وَجلون مما خوَّفهم الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قال الحسن: يُؤتُون الإخلاص ويخافون ألّا يُقبلَ منهم[1]. وروى الترمذيُّ عن عائشةَ رضي الله عنها زوج النبيِّ ﷺ قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: أَهُم الذين يشربون الخمرَ ويسرقون؟! قال: «لا يا بنتَ الصدِّيق، ولكنَّهم الذين يصومون ويُصلُّون ويتصدَّقون وهم يخافون ألَّا يُقبَلَ منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[2].

وقال الحسن: لقد أَدركت[3] أقواماً كانوا من حسناتهم أنْ تُرَدَّ عليهم، أشفقَ منكم على سيئاتكم أن تُعذَّبوا عليها[4].

وقرأت عائشةُ رضي الله عنها وابنُ عباس والنَّخَعيُّ: «والذين يأتون ما أَتَوا» مقصوراً من الإتيان[5].

قال الفرَّاء: ولو صحَّت هذه القراءةُ عن عائشةَ، لم تُخالِف قراءةَ الجماعة؛ لأن الهمز؛ من العرب مَن يَلْزَم فيه الألفَ في كلِّ الحالات إذا كَتَب، فيكتب: سُئل الرجل، بألف بعد السِّين، ويستهزئون، بألف بين الزاي والواو، وشيءٌ، بألف بعد الياء، فغيرُ مستنكَر في مذهب هؤلاء أن يُكتب «يؤتُون» بألف بعد الياء، فيَحتمِل هذا

(١) أخرجه بمعناه ابن المبارك في الزهد (١٥)، والطبري ١٧/ ٦٧ ، والبيهقي في الشعب (٧٦٣).

(٢) الترمذي برقم (٣١٧٥)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤١٩٨) وأحمد (٢٥٧٠٥) من طريق سعيد بن عبد الرحمن الخيواني عن عائشة، به. وعبد الرحمن لم يدرك عائشة كما قاله أبو حاتم ونقله عنه ابنه في المراسيل ص١٠٩ ، وابن حجر في تهذيب التهذيب (في ترجمة عبد الرحمن).

(٣) في (م): أدركنا.

(٤) أورده الكيا الطبري في أحكام القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٨ لعائشة، وابن جني في المحتسب ٢/ ٩٥ لعائشة وابن عباس وقتادة والأعمش.

اللفظُ بالبناء على هذا الخطِّ قراءتين: «يؤتون ما آتوا» و«يأتُون ما أَتَوا».

ويَنفرد ما عليه الجماعة باحتمال تأويلين:

أحدُهما: والذين يُعطُون ما أَعطَوا من الزكاة والصدقة وقلوبُهم خائفة.

والآخر: والذين يؤتون الملائكة الذين يكتبون الأعمال على العباد[١] ما آتوا وقلوبُهم وجِلة، فيحذف[٢] المفعول[٣] في هذا الباب لوضوح معناه، كما حُذِف في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]، والمعنى: يَعصِرون السِّمسِم والعنب؛ فاختُزل المفعول لوضوح تأويله.

ويكونُ الأصل في الحرف[٤] على هجائه الموجود في الإمام: «يأتون» بألف مبدَلة من الهمزة، فكُتِبت الألف واواً لتآخي حروف المدِّ واللِّين في الخفاء. حكاه ابن الأنباري.

قال النحاس: المعروف من قراءة ابن عباس: «والذين يأتون ما أَتَوا»، وهي القراءة المرويَّةُ عن النبيِّ ﷺ وعن عائشةَ رضي الله عنها، ومعناها: يعملون ما عملوا؛ كما رُويَ في الحديث[٥].

والوجَلُ: نحوُ الإشفاق والخوف، فالتقيُّ والتائب خَوْفُه أَمْرَ العاقبة وما يطَّلع عليه بعد الموت. وفي قوله: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ تنبيه على الخاتمة[٦]. وفي «صحيح البخاري»: «وإنما الأعمال بالخواتيم»[٧]. وأما المخلِّط، فينبغي له أن يكون

---

(١) في (ظ): الذين يكتبون أعمال العباد.

(٢) في (م): فحذف.

(٣) في النسخ عدا (ظ): مفعول. والمثبت من (ظ).

(٤) في (ظ): ويكون الحرف.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٩، وسلفت القراءة قريباً.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٨.

(٧) صحيح البخاري (٦٤٩٣)، وسلف ١/ ٢٩٦.

تحت خوفٍ من أن يُنفَّذ عليه الوعيد بتخليطه[١].

وقال بعض[٢] أصحاب الخواطر: وَجَلُ العارف مِن طاعته أكثرُ وجلاً[٣] من وَجَلِه من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تُطلَب بتصحيح الغرض[٤].

﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: لأنهم ـ أو من أجل أنهم[٥] ـ إلى ربهم راجعون.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: في عمل الخيرات[٦]، أي: في الطَّاعات؛ كي ينالوا بذلك أعلى الدَّرجات والغُرُفات.

وقُرِئ: «يُسْرِعون في الخيرات» أي: يكونون سِراعاً إليها. و«يُسارِعون» على معنى يسابقون مَن سابقهم إليها، فالمفعول محذوف[٧]. قال الزَّجَّاج[٨]: «يُسارِعون» أبلغُ مِن «يُسرِعون».

﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أحسنُ ما قيل فيه: أنهم يَسبِقون إلى أوقاتها، ودلَّ بهذا أن الصلاة في أوَّل الوقت أفضل ـ كما تقدَّم في «البقرة»[٩] ـ وكلُّ مَن تقدَّم في شيء فقد[١٠] سابق إليه، وكلُّ مَن تأخَّر عنه فقد سَبقَه وفاتَه، فاللام في «لها» على هذا القول بمعنى «إلى»، كما قال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، أي: أوحى إليها.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/١٤٨.

(٢) لفظة: بعض، ليست في (م).

(٣) في (ظ): وجل العارف من طاعته كوجله من مخالفته.

(٤) النكت والعيون ٤/٥٩.

(٥) ما بين معترضتين ليس في (ظ)، والكلام في المحرر الوجيز ٤/١٤٨.

(٦) إعراب القرآن للنحاس، وقوله: أي في عمل الخيرات، ليس في (م).

(٧) المحتسب ٢/٩٦، ونسب ابن جني هذه القراءة للحرِّ النحوي.

(٨) في معاني القرآن ٤/١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/١١٧.

(٩) ٢/ ٤٥٠ وما بعدها.

(١٠) في (م) و(د) و(ز): فهو، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/١١٧ والكلام منه.

وأنشد سيبويه:

تَجانَفُ عن جَوِّ اليمامة ناقتي ... وما قصدَتْ من أهلها لِسِوائكا[(١)]

وعن ابن عباس في معنى ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾: سبقت لهم من الله السعادةُ[(٢)]، فلذلك سارعوا في الخيرات. وقيل: المعنى: وهم من أجل الخيرات سابقون[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قد مضى في «البقرة»[(٤)]، وأنه ناسخ لجميع ما ورد في الشَّرع من تكليفِ ما لا يطاق.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أظهرُ ما قيل فيه: أنه أراد كتابَ إحصاء الأعمال الذي تَرفعه الملائكة[(٥)]، وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمالَ العباد بأمره، فهو يَنطِق بالحق. وفي هذا تهديدٌ وتأنيس[(٦)] من الحَيْف والظلم.

ولفظ النُّطق يجوز في الكتاب، والمراد أن النبيين تَنطِق بما فيه، والله أعلم، وقيل: عنى اللوحَ المحفوظ، وقد أُثبِتَ فيه كلُّ شيء، فهم لا يُجاوِزون ذلك. وقيل: الإشارة بقوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ إلى[(٧)] القرآن، فالله أعلم، وكلٌّ محتمِل، والأوَّل أظهر[(٨)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٠ ، والبيت في الكتاب ١/ ٣٢ ، ٤٠٨ ، منسوب للأعشى، وسلف ٣/ ١١٦ وفيه: حجر، بدل: جوّ.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٧٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٠ ، والوسيط ٢/ ٤١٧ ، وزاد المسير ٥/ ٤٨٠ .

(٤) ٤/ ٤٩٨ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ .

(٦) في (ظ) و(م): وتأييس، والمثبت من (خ) و(د) و(ز) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ والكلام منه.

(٧) لفظة: إلى، من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ - ١٤٩ والكلام منه.

(٨) ينظر تفسير أبي الليث السمرقندي ٢/ ٤١٧ ، والوسيط ٣/ ٢٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ وزاد المسير ٥/ ٤٨١ .

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ قال مجاهد: أي: في غِطاء وغَفْلة وعَماية عن القرآن. ويقال: غَمَره الماء: إذا غطَّاه، ونهرٌ غَمْرٌ يُغطِّي مَن دَخله[(١)]. ورجلٌ غَمْر يَغْمُره آراء الناس. وقيل: «غُمْرة»؛ لأنها تُغطِّي الوجه، ومنه: دَخَل في غُمار الناس وخُمارهم، أي: فيما يغطِّيه من الجمع[(٢)].

وقيل: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: في حَيْرة وعَمًى، أي: ممَّا وَصَف من أعمال البِرِّ في الآيات المتقدِّمة؛ قاله قتادة. أو: مِن الكتاب الذي يَنْطِق بالحقّ[(٣)].

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال قتادة ومجاهد: أي: لهم خطايا لابُدَّ أن يعملوها من دون الحقّ[(٤)]. وقال الحسن وابن زيد: المعنى: ولهم أعمال رديَّةٌ[(٥)] لم يعملوها من دون ما هم عليه؛ لابُدَّ أن يعملوها دون أعمال المؤمنين، فيدخلون بها النار، لِمَا سبق لهم من الشِّقوة[(٦)]. ويَحتمِل ثالثاً: أنه ظُلْم الخَلْق مع الكفر بالخالق؛ ذكره الماوردي[(٧)]. والمعنى متقارب.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ يعني: بالسيف يوم بدر، قاله ابن عباس[(٨)]. وقال

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٢ ، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٧٤ .

(٢) الصحاح (غمر)، وفيه: رجل غَمْر: لم يجرب الأمور. وينظر تهذيب اللغة ٨/ ١٢٨ ، وما بعدها.

(٣) أورد هذا القول النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٨ .

(٤) قول قتادة في النكت والعيون ٤/ ٦٠ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣٣ ، وأخرج قولهما الطبري ١٧/ ٧٥ - ٧٦ .

(٥) في (م): رديئة.

(٦) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٧٦ بنحوه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٦٠ .

(٨) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٩٠).

الضحَّاك: يعني: بالجوع حين قال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجعلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسف»[(١)]. فابتلاهم الله بالقَحْط والجوع، حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والجِيَف، وهلك الأموال والأولاد[(٢)].

﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي: يَضِجُّون ويستغيثون، وأصلُ الجُؤَار رفعُ الصوت بالتضرُّع[(٣)]، كما يفعل الثور. وقال الأعشى يصِف بقرة:

فطافت ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ وكان النكير أن تُضِيف[(٤)] وتجأرا

قال الجوهري[(٥)]: الجُؤَار مثلُ الخُوار؛ يقال: جأر الثورُ يَجْأر، أي: صاح، وقرأ بعضهم: «عِجْلاً جسَداً لَهُ جُؤَار» [الأعراف:١٤٨]، حكاه الأخفش[(٦)]، وجَأر الرجلُ إلى الله عزَّ وجلَّ: تضرَّع بالدعاء.

قتادة: يَصْرُخون بالتوبة فلا تُقبل منهم[(٧)]. قال:

يُراوِح من صلواتِ المَليك فطَوْراً سُجوداً وطَوْراً جُؤارا[(٨)]

وقال ابن جُريج: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ هم الذي قُتِلوا ببدر ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ هم الذين بمكة[(٩)]، فجمع بين القولَين المتقدِّمَين، وهو حسَن.

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا﴾ أي: من عذابنا ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾: لا تُمنعون ولا

---

(١) سلف ٤/ ٣٠٤.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣١٢.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣١٢.

(٤) في النسخ الخطية: وتطيف، والمثبت من (م) والمصادر، وقد سلف ١٢/ ٣٣٨.

(٥) في الصحاح (جأر).

(٦) معاني القرآن له ٢/ ٥٣٢، والقراءة أوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ ونسبها لأبي السمال.

(٧) نسبه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦١ للحسن.

(٨) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٣.

(٩) أخرجه الطبري ١٧/ ٧٨.

يَنفعكم جَزَعُكم[١]. وقال الحسن: لا تُنصَرون بقَبول التوبة[٢].

وقيل: معنى هذا النهي الإخبارُ، أي: إنكم إن تضرَّعتم لم ينفعكم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ الآيات يريد بها القرآن[٣]. «تُتْلَى عَلَيْكُمْ» أي: تُقرَأ. قال الضحاك: قبل أن تُعذَّبوا بالقتل[٤]، و«تَنْكِصُونَ»: تَرجِعون وراءكم[٥]. مجاهد: تستأخِرون[٦]، وأصله أن تَرجع الْقَهْقَرَى[٧]. قال الشاعر:

زعموا أنهمْ على سُبُلِ الحقِّ   وأنَّا[٨] نُكُصٌ على الأعقابِ

وهو هنا استعارة للإعراض والإدبار[٩] عن الحقّ.

وقرأ عليُّ بن أبي طالب ﷺ: «على أدباركم» بدل: «على أعقابكم»، «تنكُصون» بضم الكاف[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣١٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٦٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩.

(٤) أورده النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩.

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٣، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٨٠.

(٧) تفسير غريب القرآن ص٢٩٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٣.

(٨) في (م): على سبل النجاة... وإنما، وفي (خ): على سبل الحق وإنما...، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ٦١ والكلام منه.

(٩) لفظ: والإدبار، ليس في (م)، وفي (خ) و(د) و(ز): عن الإدبار، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩، والكلام منه.

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٩ لابن مسعود ﷺ.

و«مُسْتَكْبِرِينَ» حال.

والضمير في «به» قال الجمهور: هو عائدٌ على الحَرَم، أو المسجد الحرام[١]، أو البلد الذي هو مكة، وإن لم يتقدَّم له ذِكْر لشهرته في الأمر[٢]، أي: يقولون: نحن أهل الحرم فلا نَخاف[٣].

وقيل: المعنى: أنهم يعتقدون في نفوسهم أنَّ لهم بالمسجد والحَرَم أعظَمَ الحقوق على الناس والمنازل [عند الله]، فيستكبرون لذلك، وليس الاستكبارُ من الحقّ. وقالت فرقة: الضمير عائدٌ على القرآن من حيث ذُكِرتِ الآيات، والمعنى: يُحدِث لكم سماعُ آياتي كِبْراً وطُغياناً، فلا تؤمنوا به. قال ابن عطية[٤]: وهذا قول جيِّد.

النحاس[٥]: والقول الأوَّل أوْلى، والمعنى: أنهم يفتخرون بالحرم، ويقولون: نحن أهل حرم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ **فيه أربعُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ «سامِراً» نصب على الحال، ومعناه: سُمَّاراً، وهو الجماعة يتحدَّثون بالليل، مأخوذٌ من السَّمَر، وهو ظِلُّ القمر، ومنه سُمْرة اللون. وكانوا يتحدَّثون حول الكعبة في سَمَر القمر، فسُمِّي التحدُّثُ به[٦].

قال الثوري: يقال لظِلِّ القمر: السَّمَر - ومنه السُّمْرة في اللَّون - ويقال له: الفَخْت، ومنه قيل: فاخِتة[٧].

---

(١) لفظ: الحرام، من (ظ).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩ .

(٣) الوسيط ٣/ ٢٩٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٣ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩ - ١٥٠ ، والكلام قبله وما بين حاصرتين منه.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٤٧٤ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٥ . والفاختة: واحدة الفواخت، وهي ضرب من الحمام المُطوَّق. قال ابن بري: ذكر الجواليقي أن الفاختة مشتقة من الفَخْت الذي هو ظل القمر. اللسان (فخت).

وقرأ أبو رجاء: «سُمَّاراً»، وهو جمع سامر[١]، كما قال:

ألستَ ترى السُّمَّارَ والنَّاسَ أحوالي[٢]

وفي حديث قَيْلة: إذ[٣] جاء زوجها[٤] من السامر[٥]. يعني: من القوم الذين يَسْمُرون بالليل[٦]؛ فهو اسمٌ مفردٌ بمعنى الجمع[٧]، كالحاضر، وهم القوم النازلون على الماء، والباقِر جمع البَقَر، والجامِل جمع الإبل[٨]، ذكورتِها وإناثِها؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أي: أطفالاً. يقال: قوم سَمْر وسُمَّر وسامِر، ومعناه سهر الليل؛ مأخوذ من السَّمَر، وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر[٩].

قال الجوهري: السامر أيضاً السُّمَّار، وهم القوم الذين يَسْمُرون؛ كما يقال للحاجِّ: حُجَّاج[١٠]، وقول الشاعر:

وسامرٍ طال فيه اللَّهْوُ والسَّمَرُ

كأنه سَمَّى المكان الذي يُجتمَع فيه للسَّمر بذلك.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٧، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣١، وصدره:

فقالت سباك الله إنك فاضحي

(٣) في النسخ: إذا، والمثبت من المصادر الآتية.

(٤) في (ظ): زوجي، وفي (خ) و(ز): زوجنا.

(٥) هو قطعة من حديث طويل أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٣١٧ - ٣٢٠، والطبراني في الكبير ٢٥/ ٧-١٠ وقيلة: هي بنت مخرمة العنبرية، صحابية هاجرت إلى النبي ﷺ. الإصابة ١٣/ ٩٨، والتقريب.

(٦) النهاية لابن الأثير (سمر).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٠، والنهاية (سمر).

(٨) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٧، والنهاية لابن الأثير ٢/ ٤٠٠، والذي في المعاني: باقر لجماعة البقر، وجامل لجماعة الجمال.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٠.

(١٠) في الصحاح (سمر): كما يقال: للحجاج: الحاجّ.

وقيل: وحَّد سامراً، وهو بمعنى السُّمَّار؛ لأنه وُضِع مَوضِع الوقت، كقول الشاعر:

مِـن دونـهـم إن جـئـتَـهـم سَـمَـراً عَـزْفُ الـقِـيَـانِ ومَـجْـلِـسٌ غَـمْـرُ[١]

فقال: سَمَراً؛ لأن معناه: إن جئتَهم ليلاً وجدتَهم وهم يَسْمُرون[٢].

وابنا سَمِير: الليل والنهار؛ لأنه يُسْمَر فيهما، يقال: لا أفعلُه ما سَمَر ابنا سَمِير[٣]، [أي:] أبداً. ويقال: السَّمير: الدَّهر، وابناه: الليلُ والنهار. ولا أفعلُه السَّمَرَ والقمرَ؛ أي: ما دام الناس يَسْمُرون في ليلة قمراء. ولا أفعلُه سَمِيرَ الليالي. قال الشَّنْفَرَى:

هـنـالـك لا أرجـو حـيـاةً تَـسُـرُّنـي سَـمِـيرَ الـلـيـالـي مُـبْـسَـلاً بـالـجَـرَائِـرِ[٤]

والسَّمَارُ ـ بالفتح ـ اللَّبنُ الرقيق[٥]. وكانت العرب تجلس للسَّمَر تتحدَّث، وهذا الذي[٦] أَوجبَ معرِفتَها بالنجوم؛ لأنها تجلس في الصحراء، فترى الطَّوالع من الغوارب. وكانت قريشٌ تَسْمُر حول الكعبة مجالسَ السمر[٧] في أباطيلها وكفرها[٨]،

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٦٠ وغريب الحديث للحربي ٣/ ١٠٦٩ ، وتفسير الطبري ١٧/ ٨٢ ونسبه في مجاز القرآن لابن أحمر، وهو عمرو بن أحمر الباهلي والمعنى ـ كما في غريب الحديث ـ: هم أهل مجلسٍ غَمْرٍ يغمرون بالمعروف غيرهم لأنهم كرام.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٨٢ ، وما قبله منه.

(٣) الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٣٨١ ، وجمهرة الأمثال ٢/ ٢٨٢ .

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٨٠ ، والأغاني ٢١/ ١٨٢ ، والطرائف الأدبية ص٣٦ منسوباً للشنفرى، وفيه: سجيس، بدل: سمير، يقال أيضاً: لا أفعله سجيس الليالي، أي: أبداً.

وقال الجرجاني: ويقال: لتأبط شرًّا. اهـ. وهو في ديوانه ص٢٤٣ . وقوله: مُبْسلاً، أي: مُسْلَماً. لسان العرب (بسل).

(٥) الصحاح (سمر)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) لفظ: الذي، من (ظ).

(٧) لفظ: السمر. من (ظ).

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٠ .

فعابهم الله بذلك[١].

و«تهجرون» قُرِئ بضم التاء وكسر الجيم، مِن أَهْجر: إذا نَطَق بالفُحش، وبنصب التاء وضم الجيم[٢]، مِن هَجَر المريضُ: إذا هَذَى. ومعناه: يتكلَّمون بهَوَسٍ وسَيِّئٍ من القول في النبيِّ ﷺ وفي القرآن. عن ابن عباس وغيره[٣].

الثانية: روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: إنما كُرِه السَّمَر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾، يعني أن الله تعالى ذمَّ أقواماً يَسْمُرون في غير طاعة الله تعالى، إمَّا في هَذَيان، وإمَّا في إذاية[٤].

وكان الأعمش يقول: إذا رأيتَ الشيخَ ولم يكتب الحديث، فاصْفَعه، فإنه من شيوخ القمر. يعني يجتمعون في ليالي القمر، فيتحدَّثون بأيام الخلفاء والأمراء، ولا يُحسِن أحدهم يتوضَّأ للصلاة[٥].

الثالثة: روى مسلمٌ عن أبي بَرْزَةَ قال: كان النبيُّ ﷺ يؤخِّر العِشاء إلى ثُلُث الليل، ويكره النومَ قبلها والحديثَ بعدها[٦].

قال العلماء: أما الكراهية للنوم قبلها، فلئلا يُعَرِّضها للفوات عن كل وقتها أو أفضلِ وقتها؛ ولهذا قال عمر: فَمَن نام فلا نامت عينه؛ ثلاثاً[٧].

---

(١) في (د): فعاتبهم الله بذلك، وفي (ز) و(ظ): فعاتبهم الله على ذلك، والمثبت من (خ) و(م).

(٢) قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم، والباقون بنصب التاء وضم الجيم. السبعة ص٤٤٦، والتيسير ص١٥٩.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٢٩٩، والوسيط ٣/ ٢٩٤، والبغوي ٣/ ٣١٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٧ - ١٣٠٨، وأخرجه الطبري ١٧/ ٨٤ - ٨٥ بنحوه مختصراً.

(٥) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٢٠٤)، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (١٤٢).

(٦) صحيح مسلم (٦٤٧): (٢٣٧)، وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (١٩٨٠٠)، والبخاري (٥٩٩) وفيه: وكان يستحب أن يؤخِّر العشاء.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨، وقول عمر أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٦، وعبد الرزاق (٢١٤٢)، وابن المنذر في الأوسط (١٠٤١).

وممن كرِه النوم قبلها عمرُ وابنُه عبدُ الله وابنُ عباس وغيرُهم، وهو مذهب مالك. ورخَّص فيه بعضُهم، منهم عليٌّ وأبو موسى وغيرُهم، وهو مذهب الكوفيين. وشرطَ بعضهم أن يجعل معه مَن يُوقِظُه للصلاة. ورُوِي عن ابن عمَر مثلُه، وإليه ذهب الطَّحاوي(١).

وأمَّا كراهيةُ الحديث بعدَها، فلأن الصلاة قد كفَّرت خطاياه، فينامُ على سلامة، وقد خَتَم الكُتَّابُ صحيفته بالعبادة، فإنْ هو سَمَر وتحدَّث فيملؤها بالهَوَس، ويجعلُ خاتمتَها اللغوَ والباطل، وليس هذا مِن فعل المؤمنين(٢). وأيضاً فإنَّ السَّمَر في الحديث مَظِنة غلبة النوم آخِرَ الليل، فينام عن قيام آخِرِ الليل، وربَّما ينام عن صلاة الصبح(٣).

وقد قيل: إنما يُكره السَّمَر بعدَها لِمَا روى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والسَّمَرَ بعد هَدْأة الرِّجل، فإنَّ أحدكم لا يَدري ما يَبُثُّ الله تعالى مِن خَلْقه، أَغلِقوا الأبواب، وأَوْكُوا السِّقاء، وخَمِّروا الإناء، وأَطفِئوا المصابيح»(٤).

ورُوِي عن عمرَ أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العِشاء، ويقول: أَسَمَراً أوَّلَ الليل ونوماً آخِره؟! أَريحوا كُتَّابكم(٥). حتى إنه رُوِي عن ابن عَمْرو(٦) أنه قال: مَن قَرَض بيتَ شِعر بعد العِشاء، لم تُقبَل له صلاةٌ حتى يُصبِح(٧). وأسنده شدَّاد بنُ

---

(١) في مختصر اختلاف العلماء ١/ ٣١٨، ونقله المصنف بواسطة أبي العباس القرطبي في المفهم ٢/ ٢٧١.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨.

(٣) المفهم ٢/ ٢٧١.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨، والحديث أخرجه الحميدي في مسنده (١٣١٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٣٠)، والحاكم مختصراً ٤/ ٢٨٤ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
وأخرجه أحمد (١٤٢٨٣)، وأبو داود (٥١٠٣)، وابن حبان (٥٥١٧) من حديث جابر أيضاً، بلفظ: أقلوا الخروجَ إذا هدأت الرِّجل فإن الله يبث في ليله من خلقه ما شاء...

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٢٧٩.

(٦) في النسخ: ابن عمر، والتصويب من مصادر التخريج الآتية.

(٧) أورده ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٢٦٣ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٢٣٨) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً قال أبو حاتم كما في العلل لابنه: هذا خطأ، الناس يروون هذا الحديث لا يرفعونه يقولون: عن عبد الله بن عمرو فقط.

أَوْس إلى النبيِّ ﷺ[١].

وقد قيل: إن الحكمة في كراهية الحديث بعدها إنما هو لمَّا أنَّ الله تعالى جعل الليل سَكَناً ـ أي: يُسكَن فيه ـ فإذا تحدَّث الإنسان فيه، فقد جعله كالنهار[٢] الذي هو متصرَّف المعاش؛ فكأنه قصد إلى مخالفة حِكْمة الله تعالى التي أَجرى عليها وجوده، فقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

الرابعة: هذه الكراهة إنما تختصُّ بما لا يكون من قَبِيل القُرَب والأذكار وتعليمِ العلم، ومُسامرةِ أهل العلم وتعليم المصالح[٣]، وما شابه ذلك، فقد ورد عن النبيِّ ﷺ وعن السَّلف ما يدلُّ على جواز ذلك، بل على نَدْبيَّته. وقد قال البخاريُّ: بابُ السَّمَر في الفقه والخير بعد العِشاء، وذكر أن قُرَّة بنَ خالد قال: انتَظَرْنا الحسن، ورَاثَ[٤] علينا، حتى جاء قريباً[٥] من وقت قيامه، فجاء فقال: دعانا جيرانُنا هؤلاء. ثم قال: [قال] أنس: انتَظَرْنا رسولَ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، حتى كان شطرُ الليل، فجاء فصلَّى، ثم خطبنا فقال: «إن الناس قد صَلَّوا [ثم رقدوا]، وإنكم لم تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتم

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٣٠٨، وأخرجه أحمد (١٧١٣٤)، والبزار (٢٠٩٤ - كشف)، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني في الكبير (٧١٣٣)، والبيهقي في الشعب (٥٠٨٩)، وابن الجوزي في الموضوعات (٥٠٦) من طريق قزعة بن سويد، عن عاصم بن مخلد، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن شداد بن أوس مرفوعاً.

قال العقيلي: عاصم بن مخلد عن أبي الأشعث لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع. وعاصم في عداد المجهولين. قال أحمد بن حنبل: قزعة بن سويد مضطرب الحديث، وقال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم، فلما كثر ذلك في رواته سقط الاحتجاج بأخباره. اهـ وينظر القول المسدد في الذب عن مسند أحمد ص٧٥ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): في النهار، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في المفهم ٢/ ٢٧١ والكلام منه.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في المفهم ٢/ ٢٧١ ، والكلام منه، غير أن في المفهم: تعلُّم، بدل: تعليم.

(٤) أي: أبطأ. ينظر النهاية (ريث).

(٥) في صحيح البخاري: حتى قربنا.

الصلاةَ». قال الحسن: فإن القوم لا يزالون في خير ما انتظروا الخير[١].

وقال: بابُ السَّمَر مع الضيف والأهل، وذكر حديثَ عبدِ الرحمن بنِ أبي بكر[٢] أنَّ أصحابَ الصُّفَّة كانوا [أناساً] فقراء... الحديث[٣]. أخرجه مسلمٌ أيضاً[٤].

وقد جاء في حراسة الثُّغُور وحفظِ العساكر بالليل من الثَّواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار، وقد مضى من ذلك جملةٌ في آخِر «آل عمران»[٥] والحمدُ لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني القرآن[٦]؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وسُمِّيَ القرآن قولاً لأنهم خُوطِبوا به.

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فأنكروه وأعرضوا عنه. وقيل: «أم» بمعنى بل، أي: بل جاءهم ما لا عَهْدَ لآبائهم به، فلذلك أنكروه وتركوا التَّدبُّر له، قاله ابن عباس[٧]. وقيل: المعنى: أم جاءهم أمان من العذاب، وهو شيءٌ لم يأتِ آباءهم الأوَّلين، فتركوا الأجر[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٠٨ - ١٣٠٩ ، وصحيح البخاري (٦٠٠) وما سلف بين حاصرتين منهما، وأخرج حديث أنس ﷺ أحمد (١٣٠٦٩)، ومسلم (٦٤٠): (٢٢٢) دون قول قرة بن خالد.

(٢) في النسخ: أبي بكر بن عبد الرحمن، والتصويب من أحكام القرآن وصحيح البخاري.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٠٨ - ١٣٠٩ ، وصحيح البخاري (٦٠٢) وما بين حاصرتين منهما، وموضع الشاهد في تمامه، وهو أن أبا بكر تعشّى عند النبي ﷺ ثم لبث حيث صُلِّيت العشاء، ثم رجع فلبث حتى تعشى النبي ﷺ فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله تعالى.

(٤) صحيح مسلم (٢٠٥٧): (١٧٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧١٢).

(٥) ٥/٤٨٨ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/٤٧٧ .

(٧) أخرجه الطبري ١٧/٨٧ بنحوه.

(٨) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: الأعز، وينظر الكشاف ٣/٣٦ .

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

هذا تستعمله العرب على معنى التوقيف والتقبيح، فيقولون: الخيرُ أحبُّ إليك أم الشَّر؟ أي: قد أُخبِرتَ الشَّرَّ[١] فتجنَّبه، وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصِّدق والأمانة، ففي اتِّباعه النجاةُ والخير لولا العَنَت. قال سفيان: بلى، قد عرفوه ولكنَّهم حسَدوه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: أم يحتجُّون في ترك الإيمان به بأنه مجنون؟! فليس هو هكذا؛ لزوال أمارات الجنون عنه ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: القرآنَ والتوحيد الحقَّ والدِّينَ الحق ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أي: كلُّهم ﴿لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ حسداً وبَغْياً وتقليداً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ «الحقُّ» هنا: هو الله سبحانه وتعالى؛ قاله الأكثرون، منهم مجاهدٌ وابن جُريج وأبو صالح وغيرُهم. وتقديره في العربية: ولو اتَّبع صاحبُ الحق؛ قاله النحاس[٣].

وقد قيل: هو مجاز، أي: لو وافق الحقُّ أهواءهم. فجعل موافقته اتِّباعاً مجازاً، أي: لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصُون الله عزَّ وجلَّ، ثم لا يُعاقَبون ولا يُجازَون على ذلك، إمَّا عجزاً، وإمَّا جهلاً؛ لفسدت السماواتُ والأرضُ. وقيل: المعنى: ولو

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٨ وفيه: قد اخترت الشر، بدل: قد أخبرت الشر.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٨٨.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١١٩، وأورد قول مجاهد ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٨٤، وأخرج قول ابن جريج وأبي صالح الطبري ١٧/ ٨٩.

كان الحقُّ ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى؛ لتنافست[١] الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدتِ السماواتُ والأرض، وإذا فسدتا فسد مَن فيهما.

وقيل: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: بما يهواه الناس ويَشْتهونه، لَبَطل نظام العالَم؛ لأنَّ شهواتِ الناس تختلف وتتضادُّ، وسبيلُ الحقِّ أن يكون متبوعاً، وسبيلُ الناس الانقيادُ للحق[٢].

وقيل: «الحق»: القرآن؛ أي: لو نزل القرآن بما يُحبُّون، لفسدتِ السماوات والأرض [ومن فيهن][٣].

﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ إشارةٌ إلى مَن يعقل مِن ملائكة السماوات، وإنسِ الأرض وجِنِّها. الماوردي[٤]: وقال الكلبي: يعني: وما بينهما مِن خَلْق، وهي قراءةُ ابنِ مسعود: «لفسدت السماواتُ والأرضُ وما بينهما»[٥]. فيكون على تأويل الكلبيِّ وقراءةِ ابن مسعود محمولاً على فساد من يعقل[٦] وما لا يعقل من حيوان وجماد. و[على] ظاهرِ التنزيل في قراءة الجمهور يكونُ محمولاً على فساد مَا يعقل[٧] من الحيوان[٨]؛ لأن ما لا يعقل تابعٌ لِمَا يَعقِل في الصَّلاح والفساد، فعلى هذا؛ ما يكون من الفساد يعود على مَن في السماوات من الملائكة بأن جُعلت أرباباً وهي مربوبة، وعُبِدت وهي

(١) في (م) و(خ) و(د) و(ز): لتنافت، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ١١٩/٣ والكلام منه.

(٢) تفسير أبي الليث ٤١٨/٢، والنكت والعيون ٦٢/٤، وتفسير الرازي ١١٢/٢٣ ونسبه للقفال.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤٧٨/٤، وزاد المسير ٤٨٤/٥ وما بين حاصرتين منهما.

(٤) في النكت والعيون ٦٢/٤ وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه دون قوله: وجِنها.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٩.

(٦) قوله: من يعقل، ليس في النكت والعيون.

(٧) في (ظ): من يعقل.

(٨) جاء في النكت والعيون: ...ما يعقل ولا يعقل من الحيوان.

مُستعبَدة. وفسادُ الإنس يكون على وجهين: أحدُهما: باتِّباع الهوى، وذلك مُهْلِك. الثاني: بعبادة غير الله، وذلك كفر. [وأمَّا فسادُ الجن، فيكون بأن يُطاعوا فيطغوا] وأمَّا فسادُ ما عدا ذلك فيكون على وجه التَّبَع؛ لأنهم مدبَّرون بذوِي العقول، فعاد فساد المدبِّرين عليهم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بما فيه شرفُهم وعِزُّهم، قاله السُّدِّيُّ وسفيان[1]. وقال قتادة: أي: بما لهم فيه ذِكْرُ ثوابِهم وعقابهم. ابن عباس: أي: ببيان الحقِّ، وذِكْرِ ما لهم به حاجةٌ من أمر الدين[2]. ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: أجراً على ما جئتَهم به. قاله الحسن[3] وغيرُه. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾.

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بنُ وَثَّاب: «خراجاً» بألف، الباقون بغير ألف، وكلُّهم قد قرؤوا: «فخراج» بالألف، إلَّا ابنَ عامر وأبا حَيْوة، فإنهما قرأا بغير الألف[4]. والمعنى: أم تسألُهم رزقاً؟ فرزقُ ربك خير[5].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: ليس يَقْدِر أحد أن يَرْزُق مثل رزقه، ولا يُنعِم مثلَ إنعامه[6]. وقيل: أي: ما يؤتيك الله من الأجر على طاعتك له والدعاءِ إليه خيرٌ من

---

(١) أورد قولهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦٣، والقول دون نسبة في معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤١٨، والوسيط ٣/ ٢٩٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥١، وزاد المسير ٥/ ٤٨٤، وتفسير الرازي ٢٣/ ١١٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٨٩ مختصراً وبنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٩٠.

(٤) السبعة ص٤٤٧، والتيسير ص١٤٦ و ١٥٩.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٦٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩.

عَرَض الدنيا، وقد عَرَضوا عليك أموالهم حتى تكون كأغنى[(١)] رجل من قريش، فلم تُجِبهم إلى ذلك. قال معناه الحسن[(٢)].

والخَرْج والخَراج واحد، إلا أن اختلاف الكلام أحسن. قاله الأخفش. وقال أبو حاتم: الخَرْج: الجُعْل، والخراج العطاء. المبرِّد: الخَرْج المصدر، والخَراج الاسم[(٣)]. وقال النضر بنُ شُميل: سألت أبا عمرو بنَ العلاء عن الفرق بين الخَرْج والخَراج، فقال: الخَراج ما لَزِمَك، والخَرْج ما تبرَّعت به[(٤)]. وعنه: أن الخَرْج من الرِّقاب، والخَراج من الأرض[(٥)]. ذكر الأوَّل الثعلبيُّ والثاني الماوردي[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى دين قويم. والصِّراط في اللغة: الطريقُ، فسُمِّيَ الدِّينُ طريقاً؛ لأنه يؤدِّي إلى الجنة، فهو طريقٌ إليها.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بالبعث ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ قيل: هو مِثْل الأوَّل. وقيل: إنهم عن طريق الجنة لعادلون[(٧)]، حتى يصيروا إلى النار[(٨)]. نَكَب

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: كأعين.

(٢) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦٣، وينظر الوسيط ٣/ ٢٩٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩. وعنه نقل المصنف كلام أبي حاتم والأخفش. وينظر نزهة القلوب ص٢٢٠.

(٤) أورد قول أبي عمرو بن العلاء الرازيُّ في تفسيره ٢٣/ ١١٢، والزمخشري أيضاً ٣/ ٣٨ لكن دون أن ينسبه.

(٥) في (ظ): «وعنه أن الخَراج من الرقاب، والخرج من الأرض». وفي تهذيب اللغة ٧/ ٤٨، ومفردات ألفاظ القرآن (خرج)، ولسان العرب (خرج). ما يفيد أنه قد يطلق أحدهما على الآخر.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٦٣.

(٧) في (م): لناكبون.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩ - ١٢٠.

عن الطريق يَنْكُب نُكوباً: إذا عدلَ عنه ومال إلى غيره، ومنه: نَكَبت الريح: إذا لم تَسْتقم على مَجْرًى، وشَرُّ الرِّيح النَّكْباء[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي: لو رددناهم إلى الدنيا ولم نُدْخِلهم النارَ وامتحنَّاهم ﴿لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ قال السُّدِّيّ: في معصيتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش: يتردَّدون[٢].

وقال ابن جُريج: «ولو رحمناهم» يعني: في الدنيا، «وَكَشَفْنَا ما بِهِم منْ ضُرٍّ» أي: من قَحْط وجوع، «لَلَجُّوا» أي: لَتَمادَوْا «في طُغْيَانِهِمْ» وضلالتهم وتجاوزِهم الحدَّ، «يَعْمَهُونَ»: يتذبذبون ويَخبِطُون[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ قال الضحَّاك: بالجوع[٤]. وقيل: بالأمراض والحاجة والجوع. وقيل: بالقتل والجوع. ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما خضعوا[٥]. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: ما يخشعون لله عزَّ وجلَّ في الشدائد تُصيبهم.

قال ابن عباس: نزلت في قصة ثُمَامَة بنِ أُثَال؛ لمَّا أَسَرته السَّريَّة وأسلم، وخَلَّى رسولُ الله ﷺ سبيلَه، حالَ بين مكة وبين المِيرة[٦]، وقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حَبَّةُ حِنْطة حتى يأذن فيها رسولُ الله ﷺ. وأخذ الله قريشاً بالقَحْط والجوع حتى أكلوا

---

(١) الصحاح (نكب).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠ وفيه: الأخفش، بدل: الأعمش. وأخرج قول الأعمش الطبري ١٤/ ٩٢ .

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٩٢ ، ومجمع البيان ١٨/ ١٦٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠ .

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٩٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٠ .

(٦) الميرة: هي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع. النهاية (مير).

الميتة والكلاب والعِلْهِز، قيل: وما العِلْهِز؟[١] قال: كانوا يأخذون الصُّوف والوَبَر، فيبُلُّونه بالدم، ثم يَشْوونه ويأكلونه، فقال له أبو سفيان: أَنْشُدُكَ اللهَ والرَّحِم، أليس تزعم أنَّ الله بعثك رحمةً للعالمين؟ قال: «بلى»، قال: فوالله ما أراكَ إلا قتلتَ الآباءَ بالسيف، وقتلتَ الأبناءَ بالجوع؛ فنزل قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال عكرمة: هو بابٌ من أبواب جهنم، عليه من الخَزَنة أربعُ مئة ألفٍ، سودٌ وجوهُهم، كالِحةٌ أنيابُهم، قد قُلِعت الرحمةُ من قلوبهم، إذا بلغوه فتحه الله عزَّ وجلَّ عليهم[٣].

وقال ابن عباس: هو قتلُهم بالسيف يوم بدر[٤].

مجاهد: هو القَحْط الذي أصابهم حتى أكلوا العِلْهِز من الجوع[٥]؛ على ما تقدَّم.

وقيل: فتح مكة[٦].

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: يائسون متحيِّرون، لا يدرون ما يصنعون، كالآيس من

---

(١) في (د) و(ز): والعهن، وقيل: وما العهن؟

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٨٩) والطبري ١٧/ ٩٣ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٨١ ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٣٩٢)، دون قوله: والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، فقد أخرجه أحمد (٩٨٣٤)، والبخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤): (٥٩) في حديث طويل.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠ ، وأورده ابن رجب في التخويف من النار ص١٥٩ عن عكرمة وعزاه لابن أبي حاتم.

وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥٢ ، والدر المنثور ٤/ ١٠٠ ، من حديث سمرة بن جندب مرفوعاً مطولاً.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٦٤ وسلف ص٦١ من هذا الجزء.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤ بنحوه، وأخرجه الطبري ١٧/ ٩٥ بنحوه أيضاً.

(٦) نسبه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤١٩ وللسدي.

الفَرَج ومن كلِّ خير. وقد تقدَّم في «الأنعام»[١].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ عرَّفهم كثرةَ نِعَمه وكمالَ قدرته. ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أي: ما تشكرون إلا شكراً قليلاً[٢]. وقيل: أي: لا تشكرون ألبتة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: نشركم[٤] وبثَّكم وخلقكم. ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: تُجْمعون للجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: جعلهما مختلفَين، كقولك: لك الأجر والصِّلة، أي: إنك تُؤجَر وتَصِل[٥]؛ قاله الفرّاء. وقيل:

---

(١) ٨/ ٣٨١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٣.

(٣) زاد المسير ٥/ ٤٨٩.

(٤) في (م): أنشأكم.

(٥) في النسخ: وتوصل، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٠ والكلام منه.

اختلافُهما: نُقصانُ أحدِهما وزيادةُ الآخر[١]. وقيل: اختلافُهما في[٢] النُّور والظُّلمة. وقيل: تكرُّرُهما يوماً بعد ليلة، وليلةً بعد يوم. ويحتمل خامساً: اختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشَقاء وضلال وهُدى[٣].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كُنْهَ قدرتِه ورُبوبيَّته ووحدانيَّته، وأنه لا يجوز أن يكون له شريكٌ من خلقه، وأنه قادر على البعث.

ثم عيَّرهم بقولهم، وأخبر عنهم أنهم ﴿قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ . قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ هذا لا يكون ولا يُتَصوَّر ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قَبْل مجيء محمدٍ ﷺ، فلم نَرَ له حقيقة ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أباطيلُهم وتُرَّهَاتُهم؛ وقد تقدَّم هذا كلُّه[٤].

قال الله تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمد، جواباً لهم عمَّا قالوه: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ يُخبِر بربوبيَّته ووحدانيَّته ومُلْكِه الذي لا يزول، وقدرتِه التي لا تحول؛ فـ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولا بُدَّ لهم من ذلك. فـ ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتَّعِظون وتعلمون أنَّ مَنْ قَدَر على خلق ذلك ابتداءً، فهو على إحياء الموتى بعد موتهم قادر[٥].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يريدُ: أفلا تخافون حيث تَجعلون لي ما تكرهون، زعمتم أنَّ الملائكةَ بناتي، وكَرِهتم لأنفسكم البنات؟

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يريدُ السماواتِ وما فوقَها وما بينَهنّ، والأرضينَ وما تحتَهنَّ وما بينَهنَّ، وما لا يعلمه أحدٌ إلا هو. وقال مجاهد: «ملكوت

(١) تفسير أبي الليث ١/ ١٧٣ ، والنكت والعيون ٤/ ٦٤ .

(٢) لفظة: في، من (م) وتفسير البغوي ١/ ١٣٥ ، ونسب البغوي هذا القول لعطاء.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦٤ .

(٤) في تفسير الآية (٣٣) وما بعدها من هذه السورة.

(٥) الوسيط ٣/ ٢٩٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٥ ، وزاد المسير ٥/ ٤٨٧ .

كلِّ شيء»: خزائنُ كلِّ شيء. الضحَّاك: مُلْكُ كلِّ شيء. والملكوتُ من صفات المبالغة كالجَبَرُوت والرَّهَبُوت[١]؛ وقد مضى في «الأنعام»[٢].

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: يَمنع ولا يُمنع منه[٣]. وقيل: «يُجير»: يُؤمِّن مَن شاء. «ولا يُجَار عَلَيْه»، أي: لا يُؤمَّن مَن أخافه[٤]. ثم قيل: هذا في الدنيا، أي: مَن أراد الله إهلاكَه وخوفَه؛ لم يمنعه منه مانع، ومَن أراد نَصْره وأَمْنَه؛ لم يدفعه مِن نصره وأمنه دافع. وقيل: هذا في الآخرة، أي: لا يمنعه مِن مستحِقِّ الثواب مانعٌ، ولا يدفعه عن مستوجِب العذاب دافع[٥].

﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: كيف تُخدعون وتُصرَفون عن طاعته وتوحيده؟[٦]. أو: كيف يُخيَّل إليكم[٧] أن تُشرِكوا به ما[٨] لا يَضرُّ ولا ينفع؟! والسِّحر: هو التخييل. وكلُّ هذا احتجاجٌ على العرب المُقِرِّين بالصانع.

وقرأ أبو عمرو: «سيقولون الله» في الموضعين الأخيرين، وهي قراءةُ أهل العراق، والباقون: «لله»[٩].

ولا خلاف في الأوَّل أنه «لله»؛ لأنه جواب لـ «قل لمن الأرض ومن فيها»، فلمَّا تقدَّمت اللام في «لمن» رجعت في الجواب، ولا خلافَ أنه مكتوبٌ في جميع المصاحف بغير ألف.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٦٥، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣٤، وأخرج عنه الطبري ١٧/ ١٠٠.

(٢) ٨/ ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦٥.

(٤) مراح لبيد ٢/ ٧٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٥.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٦٥.

(٦) مراح لبيد ٢/ ٧٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٦.

(٧) في (ظ): لكم.

(٨) في النسخ الخطية: من، والمثبت من (م).

(٩) السبعة ص٤٤٧، والتيسير ص١٦٠.

وأمَّا مَن قرأ: «سيقولون الله»؛ فلأن السؤال بغير لام، فجاء الجواب على لفظه، وجاء في الأوَّل: (لله)؛ لمَّا كان السؤال باللام.

وأمَّا مَن قرأ: «لله» باللام في الأخيرين وليس في السؤال لامٌ، فلأن معنى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: قل: لمن السماواتُ السبعُ ولمن[١] العرش العظيم، فكان الجواب: «لله»؛ حين قَدَّرت اللام في السؤال. وعلَّةُ الثالثةِ كعلة الثانية[٢]. وقال الشاعر:

إذا قيل مَن ربُّ المزالفِ والقُرَى ... وربُّ الجيادِ الجُرْدِ قيل[٣] لخالد

أي: لمن المزالف، والمزالف: البراغيل، وهي البلاد التي بين الريف والبرّ، الواحدة مَزْلَفة[٤].

ودلَّت هذه الآياتُ على جواز جِدال الكفار وإقامةِ الحجَّة عليهم، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥]. ونبَّهتْ على أنَّ مَنِ ابتدأ بالخلق والاختراع والإيجاد والإبداع، هو المستحِقُّ للألوهية والعبادة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالقول الصِّدق، لا ما تقوله الكفار من إثبات الشريك[٦] ونَفْي البعث. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم[٧] إنَّ الملائكة بناتُ

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): ورب. والمثبت من (ظ).

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٧/٩٨ - ٩٩، ومعاني القرآن للنحاس ٤/٤٨١، والحجة ٥/٣٠١، والكشف عن وجوه القراءات ٢/١٣٠.

(٣) في (م): قلت، وأورد البيت النسفي في تفسيره ٣/١٢٦، والشوكاني في فتح القدير ٣/٤٩٦.

(٤) قوله: والمزالف البراغيل، إلخ... ليس في (ز) و(د)، وجاء في (ظ): والمزاليف، بدل: والمزالف.

(٥) ٤/٢٩٠ - ٢٩١.

(٦) ينظر تفسير البغوي ٣/٣١٦.

(٧) قوله: في قولهم، من (ظ).

الله[1]. فقال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ «مِن» صِلة ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ «مِن» زائدة؛ والتقدير: ما اتَّخذ الله ولداً كما زعمتم، ولا كان معه إله فيما خلَق. وفي الكلام حذف، والمعنى: لو كانت معه آلهةٌ[2]، لانفرَدَ كلُّ إلهٍ بخلقه[3] ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ولَغالبَ، وطلب القويُّ الضعيفَ[4]، كالعادة بين الملوك، وكان الضعيفُ المغلوبُ لا يستحِقُّ الإلهية. وهذا الذي يدلُّ على نفي الشريك يدلُّ على نَفْي الولد أيضاً؛ لأن الولد يُنازِع الأبَ في المُلْك منازعةَ الشريك.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهاً له عن الولد والشريك. ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهٌ وتقديس.

وقرأ نافع وأبو بكر وحمزةُ والكسائيُّ: «عالمُ» بالرفع على الاستئناف، أي: هو عالمُ الغيب، الباقون: بالجرِّ؛ على الصِّفة لله[5]، وَرَوى رُوَيس عن يعقوب: «عالِمِ» إذا وَصَل خفضاً، و«عالمُ» إذا ابتَدَأ رفعاً[6].

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

علَّمه ما يدعو به، أي: قل ربِّ، أي: يا ربِّ، إنْ أَرَيْتني ما يُوعدون من العذاب ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في نزول العذاب بهم، بل أخرجني منهم[7].

---

(١) مراح لبيد ٢/ ٧٠.

(٢) من قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ إلى هذا الموضع جاء بدلاً منه في (ظ): ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ كما زعمتم ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾.

(٣) قوله: وفي الكلام حذف... إلى هذا الموضع، هو تفسير لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٥٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٢ - ٤٨٣، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٣١٦، والوسيط ٣/ ٢٩٧.

(٥) السبعة ص٤٤٧، والتيسير ص١٦٠، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣١.

(٦) النشر ٢/ ٣٢٩. والرواية المشهورة عن يعقوب (وهو من العشرة) الخفض في الحالين؛ وصلاً ووقفاً.

(٧) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٠، وزاد المسير ٥/ ٤٨٨.

وقيل: النداء معترِض[١]، و«ما» في «إمَّا» زائدة[٢]. وقيل: إنَّ أصل «إمَّا»: إنْ ما؛ فـ «إن» شرط، و«ما» شرط، فَجمع بين الشرطين توكيداً[٣]، والجواب: «فلا تجعلني في القوم الظالمين»، أي: إذا أردتَ بهم عقوبةً، فأخرجني منهم[٤].

وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أنَّ الله تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إذا نَزَل بهم العذاب، ومع هذا أمره الربُّ بهذا الدعاء والسؤال ليَعْظُم أجرُه، وليكون في كلِّ الأوقات ذاكراً لربِّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

نبَّه على أن خلافَ المعلوم مقدور، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيف، ونجَّاه الله ومَن آمن به مِن ذلك.

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أمر بالصَّفح ومكارم الأخلاق، فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم[٥]؛ فهو مُحكَم باقٍ في الأمة أبداً[٦]، وما كان[٧] فيها من معنى موادعة الكفار وتركِ التعرُّض لهم والصَّفحِ عن أمورهم؛ فمنسوخٌ بالقتال.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: مِن الشِّرك والتكذيب. وهذا يقتضي أنها آيةُ مُوادَعة[٨]، والله تعالى أعلم.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥.

(٣) لم نقف على هذا الوجه في (إما)، وذكر الهروي في الأُزْهيَّة ص١٤٢ أن «إما» تكون جزاءً بمعنى «إنْ»، وتكون «ما» زائدة للتوكيد.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢١.

(٥) قوله: الأمة فيما بينهم، من (م).

(٦) جاء في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ ـ والكلام منه ـ: وما كان منها لهذا فهو حكم باق في الأمة أبداً.

(٧) لفظ: كان، من (م).

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ الهَمَزاتُ: هي جمعُ هَمْزة، والهَمْزُ في اللغة: النَّخْس والدَّفع[١]، يقال: هَمزَه ولَمَزه ونَخَسه: دفعه.

قال الليث: الهَمْز كلامٌ مِن وراء القَفَا، واللَّمْزُ مواجهة. والشيطان يُوسوس فيَهْمِسُ في وَسواسه في صَدر ابن آدم[٢]، وهو قولُه: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾، أي: نَزَغاتِ الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى[٣].

وفي الحديث: كان يتعوَّذ من هَمْز[٤] الشيطان ولَمْزه وهَمْسه[٥].

قال أبو الهَيْثَم: إذا أَسرَّ الكلام وأخفاه، فذلك الهَمْس من الكلام. وسُمِّي الأسد هَمُوساً[٦]؛ لأنه يمشي بخِفَّة؛ فلا يُسمع صوت وطئه. وقد تقدم في «طه»[٧].

الثانية: أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين بالتعوُّذ من الشيطان في هَمَزاته، وهي سَوْراتُ الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسَه، وكأنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المُحادَّة، فلذلك اتصلت بهذه الآية، فالنَّزَغات وسَوْراتُ

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٤.

(٢) تهذيب اللغة ٦/ ١٤٢ وفيه: بوسواسه، بدل: في وسواسه. والليث هو ابن المظفر، وقيل: ابن نصر، صاحب الخليل بن أحمد الفراهيدي. إنباه الرواة ٣/ ٤٢.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢١.

(٤) في (د) و(ظ): همزات.

(٥) الأثر أورده الخليل في العين ٤/ ١١ والأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ١٤٣، وابن الأثير في النهاية (لمز) و(همس)، وقد أخرجه أحمد (٣٨٢٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، بلفظ: كان يتعوذ من الشيطان، من همزه ونفثه ونفخه.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ١٤٣، وأبو الهيثم: هو الرازي.

(٧) ١٤/ ١٣٩.

الغضب الواردةُ من الشيطان هي المتعوَّذُ منها في الآية[١]، وقد تقدم في آخر «الأعراف»[٢] بيانُه مستوفًى، وفي أوَّل الكتاب أيضاً[٣].

ورُوِي عن عليِّ بن حرب بن محمدٍ الطائيِّ، حدَّثنا سفيان، عن أيوب، عن محمد ابن حَبَّان: أن خالداً كان يؤرَّق من الليل؛ فذكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فأمره أن يتعوَّذ بكلماتِ الله التَّامَّة، من غضب الله وعقابه، ومن شرِّ عباده، ومن هَمَزات الشياطين وأنْ يَحْضُرون[٤].

وفي كتاب أبي داود[٥]: قال عمرو[٦]: وهَمْزُه المُوتَةُ. قال ابنُ ماجه: المُوتَةُ: يعني الجنون[٧]. والتعوُّذُ أيضاً من الجنون وَكِيد[٨].

وفي قراءة أُبَيّ: «رَبِّ عائذاً بك من هَمَزات الشياطين، وعائذاً بك ربِّ[٩] أن

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

(٢) ٩/ ٤٢٢ وما بعدها.

(٣) ١/ ١٣٥ وما بعدها.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١٠٩ ، وفي الاستذكار ٢٧/ ٩٢ وابن حجر في نتائج الأفكار ٣/ ١١١ ، بهذا الإسناد قال ابن حجر: هذا مرسل صحيح الإسناد. اهـ. يعني أن محمد ابن حَبَّان (وهو محمد بن يحيى ابن حبان) تابعي صغير، لم يدرك خالد بن الوليد.

وأخرجه أحمد (١٦٥٧٣) وابن أبي شيبة٨/ ٦٠ ، وابن السني (٦٣٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٠٦) وابن حجر في نتائج الأفكار ٣/ ١١٢ من طريق يحيى بن سعيد، عن محمد بن حبان، أن الوليد ابن الوليد شكا إلى رسول الله ﷺ الأرق فذكره. قال البيهقي: هذا مرسل. قال ابن حجر: هذا مرسل صحيح الإسناد... ولم يخرج السند بذلك من الانقطاع فإن محمد بن يحيى من صغار التابعين، وجل روايته عن التابعين، والوليد بن الوليد مات في حياة النبي ﷺ.

(٥) برقم (٧٦٤) وسلف ١/ ١٣٦ .

(٦) في (خ) و(ظ) و(م): عمر، والمثبت من (د) و(ز)، وعمرو هذا: هو ابن مرة أحد رجال الإسناد.

(٧) لم نقف عليه في مطبوع سنن ابن ماجه، وسلف هذا الكلام ١/ ١٣٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

(٩) لفظة: رب، من (د) والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ والكلام منه.

يَحْضُرونِ»، أي: يكونوا معي في أموري، فإنهم إذا حضروا الإنسانَ كانوا مُعَذِّين للهَمْز، وإذا لم يكن حضورٌ، فلا هَمْز.

وفي «صحيح مسلم» عن جابر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الشيطانَ يحضر أحدَكم عند كلِّ شيءٍ من شأنه، حتى يحضرَه عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللُّقمةُ، فلْيُمِط ما كان بها من أذى، ثم ليأكلْها، ولا يَدَعْها للشيطان، فإذا فرغ فلْيَلْعَق أصابعَه، فإنه لا يدري في أيِّ طعامه البَرَكة»[1].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ عاد الكلام إلى ذِكْر المشركين، أي: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا﴾ إلى قوله ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الآية: ٨٢-٨٣]، ثم احتجَّ عليهم وذكَّرهم قدرتَه على كلِّ شيء [في الآية: ٨٤-٨٩]، ثم قال: هم مُصِرُّون على ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ تيقَّن ضلالتَه، وعايَنَ الملائكة التي تَقْبِض روحه ـ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠] ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ تمنَّى الرجعة كي يعملَ صالحاً فيما ترك[2].

وقد يكون القول في النفس، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[3] [المجادلة: ٨].

فأمَّا قولُه: «ارْجِعُونِ» وهو يخاطِبُ[4] ربَّه عزَّ وجلَّ، ولم يقل: «ارجعني»، فقيل[5]: جاء على تعظيم الذِّكْر للمخاطَب. وقيل: استغاثوا بالله عزَّ وجلَّ أوَّلاً، فقال

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٣٣): (١٣٥)، وأخرج أحمد (١٤٥٥٢) مختصراً.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ١٠٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢١ - ١٢٢ .

(٤) في (م): مخاطب.

(٥) قوله: فقيل، ليست في (د) و(م).

قائلهم: ربِّ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال: ارجعون، أي: ارجعون[١] إلى الدنيا؛ قاله ابن جُريج[٢]. وقيل: إن معنى «ارجعون» على جهة التكرير، أي: ارجعني ارجعني[٣]. وهكذا قال المازنيُّ[٤] في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق:٢٤]، قال: معناه: ألْقِ ألْقِ. قال الضحَّاك: المراد به أهلُ الشرك[٥].

قلت: ليس سؤالُ الرجعة مختصًّا بالكافر، فقد يسألُها المؤمنُ، كما في آخر سورة المنافقين على ما يأتي[٦].

ودلَّت الآيةُ على أنَّ أحداً لا يموتُ حتى يعرفَ اضطراراً، أهو من أولياء الله، أم من أعداء الله[٧]، ولولا ذلك لَمَا سأل الرجعةَ، فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذَواقه.

﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس: يريد «أشهد أن لا إله إلا الله»[٨]. ﴿فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ أي: فيما ضيَّعتُ وتركتُ العمل به من الطاعات[٩]. وقيل: «فيما تركت» من مالي[١٠] فأتصدَّق. و«لعلَّ» تتضمن تردُّداً، وهذا الذي يسأل الرجعة قد استيقن العذابَ، وهو يوطِّن نفسَه على العمل الصالح[١١] قطعاً من غير تردُّد، فالتردُّد يرجع

---

(١) قوله: أي ارجعون، ليست في (د) و(م).

(٢) أورده عن ابن جريج الطبري ١٧/ ١٠٨، وذكره دون نسبة ـ مع القول الذي قبله ـ البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٧، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ - ١٥٦، والرازي في تفسيره ٢٣/ ١٢٠.

(٣) في (م): ارجعني ارجعني ارجعني.

(٤) في (د) و(م): المزني، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٢، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٠٥ والكلام منهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ١٠٨.

(٦) عند تفسير الآية العاشرة منها.

(٧) مجمع البيان ١٨/ ١٧٦.

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٩٨.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣١٧، وزاد المسير ٥/ ٤٩ ـ ونسبه لمقاتل ـ وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٠.

(١٠) في (م): المال، وينظر هذا القول في تفسير الرازي ٢٣/ ١٢٠.

(١١) لفظ: الصالح. من (م).

إمَّا إلى ردِّه إلى الدنيا، وإمَّا إلى التوفيق، أي: أعمل صالحاً إن وفقتني، إذ ليس على قطعٍ من وجود القدرة والتوفيق لو رُدَّ إلى الدنيا.

﴿كَلَّآ﴾ هذه كلمةُ رَدٍّ[١]، أي: ليس الأمر على ما يظنُّه؛ من أنه يُجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، بل هو كلام يَطيح في أدراج الريح[٢]. وقيل: لو أُجيب إلى ما يطلب لَمَا وَفَّى بما يقول، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[٣] [الأنعام:٢٨]. وقيل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ترجع إلى الله تعالى، أي[٤]: لا خُلْفَ في خبره، وقد أخبر أنه لن يؤخِّر نفساً إذا جاء أجلُها، وأخبر بأن هذا الكافر لا يؤمن. وقيل: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ عند الموت، ولكن لا تنفع[٥].

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي: ومن أمامهم وبين أيديهم[٦]. وقيل: مِن خلفهم. «بَرْزَخٌ» أي: حاجزٌ بين الموت والبعث؛ قاله الضحاك ومجاهد وابن زيد[٧]. وعن مجاهد أيضاً: أنَّ البرزخ هو الحاجز بين الميت[٨] والرجوع إلى الدنيا. وعن الضحَّاك: هو ما بين الدنيا والآخرة[٩]. ابن عباس: حجاب. السُّدِّي: أَجَل. قتادة: بقيَّةُ الدنيا[١٠]. وقيل: الإمهالُ إلى يوم القيامة؛ حكاه ابن عيسى. الكلبي: هو الأَجَل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة[١١]. وهذه الأقوال متقاربة.

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ردّ.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ١٠٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٢١، والوسيط ٣/ ٢٩٨، وزاد المسير ٥/ ٤٩٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٦.

(٤) قوله: أي، ليست في (د)، وفي (ظ): لأنه.

(٥) تفسير الرازي ٢٣/ ١٢٠.

(٦) الوسيط ٣/ ٢٩٨، وزاد المسير ٥/ ٤٩٠.

(٧) أخرج قول مجاهد وابن زيد الطبري ١٧/ ١١٠.

(٨) في (م) وتفسير مجاهد ٢/ ٤٣٤: الموت، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما أخرجه الطبري عنه ١٧/ ١١٠.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٥، والنكت والعيون ٤/ ٦٧.

(١٠) أخرج قول قتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٨، والطبري ١٧/ ١١٠.

(١١) أورد قول ابن عيسى والكلبي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦٧.

وكلُّ حاجزٍ بين شيئين فهو بَرْزَخ، قال الجوهري[١]: البرزخُ: الحاجزُ بين الشيئين. والبرزخ: ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل في البرزخ.

وقال رجل بحضرة الشَّعْبيّ: رحم الله فلاناً؛ فقد صار من أهل الآخرة، فقال: لم يَصِر من أهل الآخرة، ولكنه صار من أهل البرزخ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة[٢].

وأُضِيف «يوم» إلى «يُبْعثون» لأنه ظرفُ زمان، والمراد بالإضافة المصدر[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ المرادُ بهذا النفخِ النفخةُ الثانية[٤] ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال ابن عباس: لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا: مِن أيِّ قبيلة أنت، ولا مِن أيِّ نسب، ولا يتعارفون لهَوْل ما أذهلهم[٥].

وعن ابن عباس: أن ذلك في النفخة الأولى، حين يَصْعَق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلَّا مَن شاء الله، فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون، ثم نُفِخ فيه أُخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[٦].

وسأل رجلٌ ابنَ عباس عن هذه الآية وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾

---

(١) في الصحاح (برزخ).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٢ ، وأخرج قول الشعبي هناد في الزهد (٣١٥) بنحوه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٢ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٢١ ، والوسيط ٣/ ٢٩٨ ، وزاد المسير ٥/ ٤٩٠ .

(٥) الوسيط ٣/ ٢٩٨ .

(٦) سلف ٥/ ٢٠ مطولاً، وهذا الكلام مقتبس من هذه الآية، والآية (٦٨) من سورة الزمر، والآية (٢٧) من سورة الصافات.

[الصافات: ٢٧]، فقال: لا يتساءلون في النفخة الأولى؛ لأنه لا يبقى على الأرض حيٌّ، فلا أنسابَ ولا تساؤل، وأمَّا قولُه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فإنهم إذا دخلوا الجنة تساءلوا[١].

وقال ابن مسعود: إنما عَنَى في هذه الآية النفخةَ الثانية[٢].

وقال أبو عمر زاذان: دخلت على ابن مسعود، فوجدتُ أصحاب الخير واليُمْنة قد سبقوني إليه، فناديت بأعلى صوتي: يا عبدَ الله بنَ مسعود، مِن أجل أني رجلٌ أعجميٌّ أدْنيتَ هؤلاء وأقصيتني؟! فقال: ادْنُهْ. فدنوتُ، حتى ما كان بيني وبينه جليسٌ، فسمعته يقول: يُؤْخَذ بيد العبد أو الأَمَة يوم القيامة، فيُنْصَبُ على رؤوس الأوَّلين والآخِرين، ثم يُنادي منادٍ: هذا فلانُ بنُ فلان، مَن كان له حقٌّ فليأتِ إلى حقِّه، فتفرحُ المرأة أن يدور لها الحقُّ على أبيها، أو على زوجها، أو على أخيها[٣]، أو على ابنها. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾. فيقول الربُّ سبحانه وتعالى: آتِ هؤلاء حقوقَهم، فيقول: يا ربِّ قد فنِيتِ الدنيا فمن أين أُوْتيهم؟ فيقول الربُّ للملائكة: خُذُوا من حسناته فأعطُوا كلَّ إنسان بقَدْر طَلِبَتِه. فإن كان وليًّا لله، فَضَلَت[٤] من حسناته مثقالُ حبَّة مِن خَرْدل، فيضاعفُها[٥] الله تعالى حتى يُدْخِلَه بها الجنة، ثم قرأ ابن مسعود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وإن كان شقيًّا، قالت الملائكة: ربِّ، فنِيتْ حسناتُه وبقي طالبون، فيقول الله تعالى: خُذُوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيئاته، وصُكُّوا له صَكًّا إلى جَهَنَّمَ[٦].

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ١١١ ، والحاكم ٢/ ٣٩٤ - ٣٩٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١١٧ .

(٣) في (ز) و(ظ): وأختها.

(٤) في (ظ): وفضل.

(٥) في (خ): يضاعفها، وفي (ظ): ضاعفها، والمثبت من (د) و(ز) و(م).

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤١٦)، والطبري مقطعاً ١٧/ ١١٢ ، ١١٣ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٠١ - ٢٠٢ . وجاء في الزهد: من أجل أني رجل أعمى، بدل: من أجل أني رجل أعجمي.

قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

تقدم الكلام فيهما[١].

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ويقال: «تَنْفَح»، وهو[٢] بمعناه، ومنه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء:٤٦]، إلَّا أنَّ «تَلْفَح» أبلغُ بأساً[٣]؛ يقال: لَفَحَتْه النارُ والسَّمُومُ بحرِّها: أحرقَتْه، ولَفَحْتُه بالسيف لَفْحةً: إذا ضربتَه به ضربة[٤] خفيفة.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال ابن عباس: عابسون[٥]. وقال أهل اللغة: الكُلُوح تكشُّرٌ في عُبوس[٦]. والكالح: الذي قد تشمَّرت شفتاه وبَدَت أسنانه[٧]، قال الأعشى:

ولـه الـمُـقْـدَمُ لا مِـثْـلَ لـهُ ... سـاعـةَ الـشِّـدْقِ عـن الـنَّـاب كَـلَـحْ[٨]

وقد كَلَح الرجل كُلوحاً وكُلَاحاً، وما أقبح كَلْحَتَه: يُرادُ به الفَمُ وما حواليه، ودهرٌ كالحٌ، أي: شديد[٩].

---

(١) ٩/١٥٨ وما بعدها.

(٢) لفظة: وهو، من (ظ).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٢٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/٢٣.

(٤) لفظة: ضربة، من (م) والصحاح (لفح) والكلام منه.

(٥) أخرجه البخاري إثر حديث (٤٧٤٤) تعليقاً، ووصله الطبري ١٧/١١٥ - ١١٦، وابن أبي حاتم كما في تغليق التعليق ٤/٢٦٣.

(٦) الصحاح (كلح).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٢٣، ومعاني القرآن للزجاج ٤/٢٣.

(٨) ديوان الأعشى ص٢٩١، وفيه: في الحرب إذا، بدل: لا مثل له. وهو بمثل رواية المصنف عند الطبري ١٧/١١٥.

(٩) الصحاح (كلح).

وعن ابن عباس أيضاً: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾: يريد كالذي كَلَح وتقلَّصت شفتاه، وسال صديدُه.

وقال ابن مسعود: ألم ترَ إلى الرأس المُشَيَّط بالنار، وقد بدت أسنانه وقَلَصت شفتاه[١]؟

وفي الترمذيِّ عن أبي سعيد الخُدْريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: تشويه النار، فتَقْلِصُ شَفَتُه العليا، حتى تَبْلُغ وَسَطَ رأسه، وتسترخي شَفَتُه السُّفْلى حتى تضرب سُرَّته». قال: هذا حديث حسن صحيح غريب[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قراءةُ أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم: «شِقْوَتُنا»[٣]، وقرأ الكوفيون إلّا عاصماً: «شَقاوتنا»، وهذه القراءةُ مرويةٌ عن ابن مسعود والحسن[٤]. ويقال: شقاءً وشَقاً، بالمد والقصر.

وأحسنُ ما قيل في معناه: غلبت علينا لذَّاتُنا وأهواؤنا، فسَمَّى اللَّذاتِ والأهواءَ شِقوةً؛ لأنهما يُؤدِّيان إليها، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، لأن ذلك يؤدِّيهم إلى النار[٥]. وقيل: ما سبق في علمك، وكُتِب علينا في أمِّ الكتاب من الشَّقاوة[٦]. وقيل: حُسْنُ الظَّن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٨ - ٤٩، وهناد في الزهد (٣٠٤)، والطبري ١٧/ ١١٦. والمشيَّط هو من قولهم: شيَّط اللحمَ أو الشَّعَر أو الصوفَ: إذا أحرق بعضه. النهاية (شيط).

(٢) سنن الترمذي (٢٥٨٧) و(٣١٧٦) من طريق أبي السَّمح، عن أبي الهيثم، وأخرجه بهذا السند أيضاً أحمد (١١٨٣٦). وأبو السَّمح هو درّاج بن سَمعان، وهو صدوق، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف كما قال ابن حجر في التقريب.

(٣) السبعة ص٤٤٨، والتيسير ص١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر أيضاً.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣.

(٦) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ١١٧.

بالنفس وسوءُ الظَّن بالخَلْق(١).

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: كنا في فِعْلنا ضالِّين عن الهدى. وليس هذا اعتذاراً منهم، إنما هو إقرار، ويدلُّ على ذلك قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾(٢). طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت .﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر(٣) ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا بالعَوْد إليه. فيُجابون بعد ألف سنة: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ابعُدُوا في جهنم، كما يقال للكلب: اخْسَأ، أي: ابعُدْ(٤). خسأتُ الكلبَ خَسْأً: طردتُه. وخَسَأ الكلبُ بنفسه خُسُوءاً(٥)، يتعدَّى ولا يتعدَّى، وانخسأ الكلب أيضاً(٦).

وذكر ابن المبارك(٧) قال: حدَّثنا سعيد بنُ أبي عَرُوبة، عن قتادة يذكره عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: إنَّ أهلَ جهنمَ يَدْعون مالكاً، فلا يُجيبهم أربعين عاماً، ثم يردُّ عليهم: إنكم ماكثون، قال: هانت ـ واللهِ ـ دعوتُهم على مالك وربِّ مالك، قال: ثم يدعُون ربَّهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، قال: فيسكت عنهم قَدْر الدنيا

(١) النكت والعيون ٤/ ٦٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣ .

(٣) زاد المسير ٥/ ٤٩٢ .

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣١٨ .

(٥) لفظ: خُسُوءاً، ليس في (ز) و(د)، ولا في الصحاح (خسأ) والكلام منه.

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ١٢٢ .

(٧) في الزهد (٣١٩) (زوائد)، وقد سقط في المطبوع بعضه لسقط في المخطوط كما أشار إلى ذلك محققه.

وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٩ (١٤٠٤٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٨٠)، وقال: هذا موقوف، وظاهره أن الله تعالى يجيبهم بقوله: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، وظاهر الكتاب أيضاً يدل على أن الله تعالى يجيبهم بذلك وإن كان يحتمل غير ذلك.

مرتين، قال: ثم يَردُّ عليهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون. قال: فوالله ما نَبَس القومُ بعدها بكلمة، وما هو إلا الزَّفِيرُ والشَّهيق في نار جهنم. فشبَّه أصواتَهم بصوت[(١)] الحمير، أوَّلُها زفيرٌ وآخرُها شهيق. خرجه الترمذيُّ مرفوعاً بمعناه من حديث أبي الدَّرداء[(٢)].

وقال قتادة: صوت الكفار في النار كصوت الحمار، أوَّله زفيرٌ وآخرُه شهيق[(٣)]. وقال ابن عباس: يصير لهم نُباح كنُباح الكلاب[(٤)].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: بلغني ـ أو ذُكِر لي ـ أنَّ أهل النار استغاثوا بالخَزَنةِ. الخبر بطوله؛ ذكره ابن المبارك[(٥)]، وقد ذكرناه بكماله في «التَّذكرة»[(٦)]، وفي آخره: ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ قال: فلمَّا سمعوا صوته، قالوا: الآن يرحمنا ربُّنا، فقالوا عند ذلك: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، أي: الكتابُ الذي كُتِب علينا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ . رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فقال عند ذلك: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. فانقطع عند ذلك الدعاءُ والرجاء، وأقبل بعضُهم على بعض، ينبَحُ بعضُهم في وجوه بعض، وأُطْبِقت عليهم.

---

(١) في (ظ): بأصوات.

(٢) برقم (٢٥٨٦) وقال: إنما نعرف هذا الحديث عن الأعمش، عن شِمر بن عطية، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قولَه، وليس بمرفوع.
وأخرجه ـ موقوفاً ـ ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٥ - ١٥٦ ، والطبري ١٧/ ١٢٣ - ١٢٤ ، والبيهقي في البعث والنشور (٦٠٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٩ ، والطبري ١٧/ ١٢٤ - ١٢٥ .

(٤) أورده أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٢٢ بنحوه.

(٥) الزهد بزوائد نعيم بن حماد ص٩١ - ٩٢ وسقط بعضه أيضاً وقد أشار المحقق هناك إلى سقط في المخطوط، وقد سلف ١٢/ ١٦٢ - ١٦٣ ، ونسبه ثمة للبيهقي أيضاً.

(٦) ص٤١٧ - ٤١٩ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

قال مجاهد: هم بلالٌ وخَبَّاب وصُهَيب، وفلانٌ وفلانٌ من ضعفاء المسلمين، كان أبو جهل وأصحابُه يهزؤون بهم[١].

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ بالضم قراءةُ نافع وحمزةَ والكسائي هاهنا وفي «ص» [الآية: ٦٣]. وكَسَرَ الباقون[٢].

قال النحاس: وفرَّق أبو عمرو بينهما، فجعل المكسورة من جهة التهزُّؤ، والمضمومةَ من جهة السُّخْرة، ولا يَعرف هذا التفريقَ الخليلُ ولا سيبويه ولا الكسائيُّ ولا الفراء. قال الكسائي: هما لغتان بمعنًى واحد، كما يقال: عُصِيٌّ وعِصِيٌّ[٣]، ولُجِّيٌّ ولِجِّيٌّ[٤].

وحكى الثعلبيُّ عن الكسائيِّ والفرَّاء[٥] الفرقَ الذي ذكره أبو عمرو، وأن الكسر بمعنى الاستهزاءِ والسُّخريةِ بالقول، والضَّمَّ بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل[٦].

وقال المبرِّد: إنما يُؤخذ التفريقُ بين المعاني عن العرب، وأمَّا التأويل فلا يكون. والكَسرُ في سِخْرِيٍّ في المعنيين جميعاً؛ لأن الضمة تُستثقَل في مثل هذا[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) السبعة ص٤٤٨ ، والتيسير ص١٦٠ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٢٣ .

(٤) في (د) و(ز): ويجي وتجي، وفي (خ) و(ظ): وبِختي وبُختي، والمثبت من (م).

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢٤٣ .

(٦) قول الكسائي والفراء في تفسير البغوي ٣/ ٣١٩ ، والكشاف ٣/ ٤٤ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٥ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٤ .

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي: حتى اشتغلتم بالاستهزاء بهم عن ذكري ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم. وأضاف الإنساء إلى المؤمنين؛ لأنهم كانوا سبباً لاشتغالهم عن ذكره[(١)]، وتعدَّى شُؤمُ استهزائهم بالمؤمنين إلى استيلاء الكفر على قلوبهم.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على أذاكم[(٢)]، وصبروا على طاعتي ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ بكسر الهمزة، على ابتداء المدح من الله تعالى لهم، وفتح الباقون، أي: لأنهم هم الفائزون. ويجوز نصبُه بوقوع الجزاء عليه، تقديره: إني جزيتهم اليوم الفوزَ بالجنة[(٣)].

قلت: ويُنْظَر إلى معنى هذا قولُه تعالى في آخر المُطَفِّفِين: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [الآية: ٣٤] إلى آخر السورة، على ما يأتي بيانُه هناك إن شاء الله تعالى.

ويُستفاد من هذا: التحذيرُ من السُّخريَة والاستهزاء بالضعفاء والمساكين، والاحتقارِ لهم، والإزراءِ[(٤)] عليهم، والاشتغالِ بهم فيما لا يعني، وأنَّ ذلك مُبْعِدٌ من الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: يعني في القبور. وقيل: هو سؤالٌ لهم عن مدَّة حياتهم في الدنيا[(٥)]. وهذا السؤالُ للمشركين في عَرَصات القيامة،

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٨.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩.

(٣) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٤٤٨ - ٤٤٩، والتيسير ص١٦٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٣، وتفسير الطبري ١٧/ ١٢٨ - ١٢٩، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٢، والحجة ٥/ ٣٠٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٥.

(٤) الإزراء: التهاون بالشيء، يقال: زرى عليه فعله: عابه. الصحاح (زري).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٦٩، وينظر الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩.

أو في النار[١].

﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ بفتح النون، على أنه جمع مسلَّم، ومن العرب مَن يخفضُها ويُنوِّنها[٢].

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أنساهم شدَّةُ العذاب مدَّةَ مُكثهم في القبور[٣]. وقيل: لأن العذاب رُفِع عنهم بين النفختين، فنسُوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم. قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى الثانية[٤]، وذلك أنه ليس من أحد قَتَلَه نبيٌّ، أو قتل نبيًّا، أو مات بحضرة نبيٍّ إلَّا عُذِّب من ساعة يموت إلى النفخة الأولى، ثم يُمْسَك عنه العذابُ، فيكون كالنائم حتى تُنفخ الثانية[٥]. وقيل: استقصروا مدَّة لبثهم في الدنيا وفي القبور، ورأوه يسيراً بالنسبة إلى ما هم بصدده[٦].

﴿فَسْـَٔلِ الْعَادِّينَ﴾ أي: سَلِ الحُسَّاب الذين يعرفون ذلك، فإنا قد نسيناه. أو: فاسألِ الملائكةَ الذين كانوا معنا في الدنيا. الأوَّل قولُ قتادة، والثاني قولُ مجاهد[٧].

وقرأ ابن كَثير وحمزةُ والكسائي: ﴿قُلْ كم لبثتم في الأرض﴾ على الأمر[٨]، ويحتمل ثلاثةَ معانٍ:

أحدُها: قولوا: كم لبثتم، فأُخرِجَ الكلامُ مخرجَ الأمر للواحد، والمرادُ

(١) زاد المسير ٥/ ٤٩٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٤ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦٩ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٥ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٦ .

(٥) في النسخ عدا (ظ): كالماء حتى تنفخ الثانية.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣١٩ ، والكشاف ٣/ ٤٤ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٥ ، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٩ ، وأخرج قوليهما الطبري ١٧/ ١٣١ - ١٣٢ .

(٨) السبعة ص٤٤٩ ، والتيسير ص١٦٠ .

الجماعة، إذ كان المعنى مفهوماً[١].

الثاني: أن يكون أمراً للمَلَك[٢]، ليسألهم يوم البعث عن قَدْر مُكثهم في الدنيا.

أو أراد قل ـ أيها الكافر ـ: كم لبثتم، وهو الثالث[٣].

الباقون: ﴿قَالَ كَمْ﴾ على الخبر[٤]، أي: قال الله تعالى لهم، أو قالت الملائكة لهم: كم لبثتم[٥].

وقرأ حمزة والكسائيُّ أيضاً: ﴿قُلْ إن لبِثتم إلا قلِيلاً﴾ الباقون: «قال» على الخبر[٦]، على ما ذُكِر من التأويل في الأوَّل، أي: ما لبثتم في الأرض إلَّا قليلاً، وذلك أنَّ مُكثَهم في القبور ـ وإن طال ـ كان متناهياً. وقيل: هو قليلٌ بالنسبة إلى مُكثهم في النار؛ لأنه لا نهاية له[٧].

﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: مُهمَلين كما خُلِقت البهائم، لا ثوابَ لها، ولا عقابَ عليها، مثلُ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] يريد كالبهائم مُهمَلين[٨] لغير فائدة.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٣٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٤.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٤.

(٤) السبعة ص٤٤٩، والتيسير ص١٦٠.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٤، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٦.

(٦) السبعة ص٤٤٩، والتيسير ١٦٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٥.

(٨) في النسخ عدا (ظ): مهملاً. والكلام في الوسيط ٣/ ٣٠٠ وقد نسبه الواحدي لابن عباس، وتفسير البغوي ٣/ ٣٢٠.

قال الترمذيُّ الحكيمُ أبو عبد الله محمدُ بنُ علي: إنَّ الله تعالى خلق الخلقَ عبيداً ليعبدوه، فيُثيبُهم على العبادة ويعاقبُهم على تركها، فإنْ عبدوه؛ فهم اليومَ له عبيدٌ أحرارٌ كرامٌ من رقِّ الدنيا، ملوكٌ في دار السلام[١]، وإن رفضوا العبوديَّة[٢]، فهم اليوم عبيدٌ أُبَّاق سُقَّاط لِئام، وغداً أعداءٌ في السجون بين أطباق النيران[٣].

و«عَبَثاً» نصب على الحال عند سيبويه وقُطْرُب. وقال أبو عبيدة: هو نصب على المصدر، أو لأنه مفعول له[٤].

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فتُجازَون بأعمالكم.

قرأ حمزة والكسائيُّ: «تَرْجِعون»، بفتح التاء وكسر الجيم[٥]، من الرجوع.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تنزَّه وتقدَّس الله الملِكُ الحقُّ، عن الأولاد والشركاء والأنداد[٦]، وعن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سَفَهاً؛ لأنه الحكيم.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ ليس في القرآن غيرُها. وقرأ ابن مُحَيْصِن ورُوِيَ عن ابن كثير: «الكريمُ» بالرفع نعتاً لله[٧].

---

(١) في (د) و(م): الإسلام.

(٢) في (ظ): وإن رضوا عبودية دنياهم.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) ذكر هذه الأوجه البغوي في تفسيره ٣/ ٣٢٠، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥، والسمين في الدر المصون ٨/ ٣٧٤ دون نسبة.

(٥) السبعة ص٤٥٠، والتيسير ص١٦٠.

(٦) ينظر الوسيط ٣/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٩.

(٧) القراءات الشاذة ص٩٩، وقوله: نعتاً لله، أي: لـ «ربُّ» كما جاء مصرحاً به في زاد المسير ٥/ ٤٩٦ وفي المحرر الوجيز ٤/ ١٥٩. وجوز أبو حيان في البحر ٦/ ٤٢٤ أن يكون نعتاً للعرش أيضاً، ولكنه قطع عن إعرابه لأجل المدح، على خبر مبتدأ مضمر. وأما قراءة ابن كثير المتواترة عنه، فهي بالجر، كقراءة الجماعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: لا حُجَّةَ له عليه ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: هو يعاقبُه ويحاسبه ﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاء ضميرُ الأمر والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ـ وقرأ الحسن وقتادة: «لا يَفْلَح» بالفتح[1] ـ: مَنْ كذَب وجحدَ ما جئتَ به، وكفر نعمتي.

ثم أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لتقْتديَ به الأمة. وقيل: أَمَره بالاستغفار لأمته[2].

وأسند الثعلبيُّ من حديث ابن لَهِيعةَ عن عبد الله بنِ هُبيرة، عن حَنَش بن عبد الله الصنعانيّ، عن عبد الله بن مسعود: أنه مرَّ بمصابٍ مُبتلًى، فقرأ في أُذُنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورةَ، فبَرأ، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا قرأت في أُذُنه»؟ فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده، لو أنَّ رجلاً مُوقِناً قرأها على جبل لزال»[3].

تمَّ تفسير سورة المؤمنون، والحمد لله.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٩ ، ولم ترد عبارة: وقرأ الحسن... الخ في (ظ)، وهو الأشبه بسياق التفسير.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٣ ، والوسيط ٣/ ٣٠١ .

(٣) أخرجه بهذا الإسناد أبو يعلى الموصلي (٥٠٤٥)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٥١٣ (١٤٠٧٠)، والطبراني في الدعاء (١٠٨١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٣١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٧ ، والخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٣١٢ .

وأخرجه أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٥٩٧٩)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ١٦٣ ، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٧٠) من طريق سلام بن رزين، عن الأعمش، عن شقيق، عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد: هذا الحديث موضوع، هذا حديث الكذابين، منكر الإسناد.

تفسير سورة المؤمنون [١]

مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑪﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنى يونس بن سُلَيْم قال: أملى عليّ يونس بن يزيد[٢] الأيْلِيّ، عن ابن شهاب، عن عُرْوَة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عَبْدٍ القاريّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحيُ، يسمع عند وجهه كدَوِيٍّ النحل فَمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «اللهم، زدنا ولا تَنْقُصْنا، وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثِرْنا ولا تؤثر [علينا، وارض عنا][٣] وأرضنا»، ثم قال: «لقد أنزلت عليَّ عشر آيات، مَنْ أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العَشْر.

وكذا روى[٤] الترمذى فى تفسيره، والنسائى فى الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به[٥]. وقال الترمذى: منكر، لا نعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه.

وقال النسائى فى تفسيره: أنبأنا قُتَيْبَةَ بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبى عمران عن يزيد بن بابَنُوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان[٦] خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلُق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، قالت: هكذا كان خُلق رسول الله ﷺ[٧].

وقد رُوى عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبى العالية، وغيرهم: لَمَّا خلقَ الله جنةَ عَدْن،

---

(١) فى ف: «المؤمنين». (٢) فى أ: «زيد». (٣) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) فى أ: «رواه».

(٥) المسند (١/ ٣٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٤٣٩).

(٦) فى أ: «حال».

(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥٠).

وغرسها بيده، نظر إليها وقال لها. تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال كعب الأحبار: لِمَا أعدّ لهم فيها من الكرامة. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك فى كتابه.

وقد رُوى ذلك عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا، فقال أبو بكر البزار:

حدثنا محمد بن الْمُثَنَّى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وُهَيْب، عن الجُرَيرى، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد قال: خلق الله الجنة، لَبِنَةً من ذهب ولبنة من فضة، وغرسها، وقال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، منزلَ الملوك![١].

ثم قال[٢]: وحدثنا بِشْر بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله العُمَرى، حدثنا عَدِىَ بن الفضل، حدثنا الجُرَيْرِى، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الجنة، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ومِلاَطها[٣] المِسْك». قال أبو بكر: ورأيت فى موضع آخر فى[٤] هذا الحديث: «حائط الجنة، لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك. فقال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك!».

ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عَدِىّ بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت[٥].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن على، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بَقِيَّة، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «لما خلق الله جنة عَدْن، خلق فيها ما لا عين رأت، [ولا أذن سمعت][٦]، ولا خطر على قلب بشر. ثم قال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾»[٧].

بَقِيَّة: عن الحجازيين ضعيف.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنا مِنْجَابُ بن الحارث، حدثنا حماد ابن عيسى العَبْسى، عن إسماعيل السُّدِّى، عن أبى صالح، عن ابن عباس ـ يرفعه ـ : «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودَلَّى فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال: وعزتى [٨] لا يجاورنى فيك بخيل»[٩].

---

(١) مسند البزار برقم (٣٥٠٧) «كشف الأستار».

تنبيه:

وقع فى مسند البزار سنده هكذا: «حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن المنهال، حدثنا حماد بن سلمة عن الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد.

(٢) فى أ: «وقال». (٣) فى أ: «بلاطها». (٤) فى أ: «من».

(٥) مسند البزار برقم (٣٥٠٨) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٧): «رجال الموقوف رجال الصحيح».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) المعجم الكبير (١١/ ١٨٤). (٨) فى أ: «وعزتى وجلالى».

(٩) المعجم الأوسط برقم (٤٨٦١) «مجمع البحرين»، وأبى صالح ضعيف.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البَزَّار، حدثنا محمد بن زياد الكلبى، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده، لبنة من دُرّة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زَبَرجَدَة خضراء، ملاَطُها المسك، وحَصْباؤها اللؤلؤ، وحَشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقى. قالت[(١)]: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فقال الله: وعزتى، وجلالى لا يجاورنى فيك بَخيلٌ». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩][(٢)]. فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد فازوا وسُعدوا وحَصَلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَاشِعُونَ﴾: خائفون ساكنون. وكذا رُوى عن مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهرى[(٣)].

وعن على بن أبى طالب، رَضِى الله عنه: الخشوعُ: خشوعُ القلب. وكذا قال إبراهيم النَّخعِىّ.

وقال الحسن البصرى: كان خشوعهم فى قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضوا الجناح.

وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم.

[و][(٤)] قال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُصَلاَّه، فإن كان قد اعتاد النظر فَلْيُغمِضْ. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

ثم رَوَى[(٥)] ابنُ جرير عنه، وعن عطاء بن أبى رَبَاح أيضاً مرسلا: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية.

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل بمن فَرّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقُرَّة عين، كما قال النبى ﷺ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إلىّ الطِّيب والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا مِسْعَر، عن عمرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبى الجَعْد،

---

(١) فى أ: «فقالت».

(٢) صفة الجنة لابن أبى الدنيا برقم (٢٠) وفى إسناده محمد بن زياد الكلبى، قال ابن معين: لا شىء.

تنبيه:

وقع فى صفة الجنة: «حدثنا محمد بن زياد الكلبى حدثنا بشر بن الحسين» وفى النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير (٢/ ٢٧٩) «نفيس بن ضين».

(٣) فى ف، أ: «والزهرى وقتادة». (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «ورواه».

(٦) المسند (٣/ ١٢٨) وسنن النسائى (٦١١٧).

عن رجل من أسلَم، أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»[١].

وقال الإمام أحمد أيضاً؛ حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، حدثنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبى الجعد، أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار، فحَضَرت الصلاة، فقال: يا جارية، ائتنى بوَضُوء لعلى أصلى فأستريح. فرآنا[٢] أنكرنا عليه ذلك[٣]، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة»[٤].

وقال[٥]: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أى: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك ـ كما قاله بعضهم ـ والمعاصى ـ كما قاله آخرون ـ وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقَذَهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾: الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه [الآية][٦] مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التى فرضت بالمدينة إنما هى ذات النُّصُب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى فى سورة الأنعام، وهى مكية: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، على أحد القولين فى تفسيرها.

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا[٧] قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أى: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: المعتدون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن امرأة

---

(١) المسند (٥/ ٣٦٤).
(٢) فى ف، أ: «فرأى أنا».
(٣) فى ف: «ذلك عليه».
(٤) المسند (٥/ ٣٧١).
(٥) فى أ: «وقوله».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف: «فلهذا».

اتخذت مملوكها، وقالت: تأولت آية من كتاب الله: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾، [قال][١] : فأتى بها عمر ابن الخطاب، فقال له ناس من أصحاب النبى[٢] ﷺ: تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها. قال: فَغرب[٣] العبدَ وجزّ رأسه: وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم.

هذا أثر غريب منقطع، ذكره[٤] ابن جرير فى أول تفسير سورة المائدة[٥]، وهو هاهنا أليق، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها، والله أعلم.

وقد استدل الإمام الشافعى، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾. وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عَرَفَةَ فى جزئه المشهور حيث قال:

حدثنى على بن ثابت الجَزَرِىّ، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد[٦]، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده[٧]، والفاعل، والمفعول به، ومدمن[٨] الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»[٩].

هذا حديث غريب، وإسنادُه فيه مَنْ لا يُعرَف؛ لجهالته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أى: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أى: يواظبون عليها فى مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله، أىّ العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «برُّ الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله».

أخرجاه فى الصحيحين[١٠]. وفى مستدرك الحاكم قال: «الصلاة فى أول وقتها»[١١].

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى ف، أ: «فضرب» وهو الصحيح.
(٤) فى أ: «ذكرها».
(٥) تفسير الطبرى (٩/٥٨٦) ط ـ المعارف.
(٦) فى ف، أ: «أحمد». (٧) فى ف، أ: «الناكح يده». (٨) فى ف، أ: «المدمن».
(٩) جزء الحسن بن عرفة برقم (٤١).
(١٠) صحيح البخارى برقم (٥٩٧٠) وصحيح مسلم برقم (٨٥).
(١١) المستدرك (١/١٨٨) وقال الحاكم: «فقد صحت هذه اللفظة باتفاق الثقتين بندار بن بشار، والحسن بن مكرم على روايتهما عن عثمان بن عمرو، وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الضّحَى، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير، وعكرمة.

وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها.

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[١].

ولما وَصَفهم [الله][٢] تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ .الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات فدخل النار وَرِثَ أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾»[٤].

وقال ابن جُريج، عن لَيْث، عن مجاهد: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبنَى بيته الذي في الجنة، ويُهدّم بيته الذي في النار[٥]، وأما الكافر فيُهدَم بيته الذي في الجنة، ويُبنى بيته الذي في النار. وروى عن سعيد بن جُبَير نحو ذلك.

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم [كلهم][٦] خلقوا لعبادة الله تعالى[٧]، فلما قام هؤلاء المؤمنين بما وجب عليهم من العبادة، وتركَ أولئك ما أمرُوا به مما خُلقوا له ـ أحرزَ هؤلاء نصيب

---

(١) جاء من حديث ثوبان: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٧) من طريق سفيان عن منصور عن ابن أبي الجعد عنه به وفيه انقطاع.
ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٨) من طريق المعتمر عن ليث عن مجاهد عنه به، وليث بن أبي سليم ضعيف.
ومن حديث أبي أمامة: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٩) من طريق إسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عنه به، وضعفه البوصيري في الزوائد.

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) البخاري في صحيحه برقم (٢٧٩٠)، (٧٤٢٣) عن أبي هريرة، ولم يعزه صاحب التحفة إلى غير البخاري.

(٤) ورواه ابن ماجه في السنن برقم (٤٣٤١) عن أبي بكر بن أبي شيبة وأحمد بن سنان، كلاهما عن أبي معاوية به. وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ٣٢٧): «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».

(٥) في ف، أ: «فيهدم بيته الذي في النار، ويبنى بيته الذي في الجنة». (٦) زيادة من أ. (٧) في ف، أ: «وحده لا شريك له».

أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى بُردَة[١]، عن أبيه، عن النبى ﷺ قال: «يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضَعُها على اليهود والنصارى»[٢].

وفى لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دَفَع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال[٣]: هذا فكَاكُكَ من النار». فاستحلف عُمر بن عبد العزيز أبا بُردَةَ بالله الذى لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حَدَّثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له[٤]. قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف: ٧٣]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جُبير: الجنة بالرومية هى الفردوس.

وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم[٥].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن أبى يحيى، عن ابن عباس: ﴿مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قال: صَفوةُ الماء.

وقال مجاهد: ﴿مِن سُلالَةٍ﴾ أى: من منىّ آدم.

قال ابن جرير: وإنما سمى آدم طيناً لأنه مخلوق منه.

وقال قتادة: استُلّ آدمُ من الطين. وهذا أظهر فى المعنى، وأقرب إلى السياق، فإنه آدم، عليه السلام، خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

---

(١) فى ف، أ: «بردة بن أبى موسى».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).
(٣) فى ف، أ: «فيقول».
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).
(٥) فى ف، أ: «والله أعلم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عَوْفَ، حدثنا قَسَامَة بن زُهَيْر، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبيث والطيب، وبين ذلك».

وقد رواه أبو داود والترمذى، من طرق، عن عوف الأعرابى، به نحوه[١]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة ٧، ٨] أى: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ[٢] فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، يعنى: الرحمُ مُعَد لذلك مهيأ له، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٢، ٢٣]، أى: [إلى][٣] مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنقَّل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أى: ثم صيّرنا النطفة، وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل ـ وهو ظهره ـ وترائب المرأة ـ وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الثندوة ـ فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة. قال عكرمة: وهى دم.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: وهى قطعة كالبَضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ يعنى: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

وقرأ آخرون: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا[٤]﴾.

قال ابن عباس: وهو عظم الصلب.

وفى الصحيح، من حديث أبى الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خلق ومنه[٥] يركب»[٦].

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أى: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أى: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا جعفر بن مُسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر ـ يعنى: ابن كثير، مولى بنى هاشم ـ حدثنا زيد بن على، عن أبيه، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: إذا أتمت النطفة أربعة أشهر، بُعِث إليها مَلَك فنفخ فيها الروح فى

---

(١) المسند (٤/ ٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥).
(٢) فى أ: «فجعلناه نطفة» وهو خطأ. (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ف، أ: «النطفة عظاماً».
(٥) فى أ: «وفيه».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى: نفخنا فيه الروح[١].

ورُوى عن أبى سعيد الخدرى أنه نَفْخُ الروح.

قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى به: الروح[٢]. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى، وابنُ زيد، واختاره ابنُ جرير[٣].

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى: ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلا، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلا، ثم شيخاً، ثم هرما.

وعن قتادة، والضحاك نحو ذلك. ولا منافاة، فإنه من ابتداء[٤] نفخ الروح [فيه][٥] شَرَعَ فى هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم.

قال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليُجمع خَلقُه فى بطن أمه فى أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل[٦] ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها».

أخرجاه من حديث سليمانَ بن مِهْرَان الأعمش[٧].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله[٨] ـ يعنى: ابن مسعود ـ إن النطفة إذا وقعت فى الرحم، طارت فى كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوما، ثم تتحدّر[٩] فى الرحم فتكون علقة.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا أبو كُدَيْنَة، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مَرّ يهودىّ برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودى، إن هذا يَزعُم أنه نبى. فقال: لأسألنه عن شىء لا يعلمه إلا نبى. قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، مِمَّ يخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودى، من كلٍّ

---

(١) فى ف: «يعنى به الروح». (٢) فى ف: «يعنى نفخنا فيه الروح».
(٣) تفسير الطبرى (٨/ ٨١).
(٤) فى ف: «ابتدأ». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ف: «أحدكم».
(٧) المسند (١/ ٣٨٢) وصحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٨) فى ف: «عن خيثمة عن عبد الله قال: قال». (٩) فى ف، أ: «تنحدر».

يُخلَقُ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعَصَب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» فقام اليهودى فقال: هكذا كان يقول من قبلك(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو، عن أبى الطُّفَيْل، حُذَيْفَة بن أسَيْد الغفارى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل المَلَك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقى أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتبان(٢). فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله عز وجل، فيكتبان ويُكتَبُ عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص».

وقد رواه مسلم فى صحيحه، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو ـ وهو ابن دينار ـ به(٣) نحوه. ومن طُرُق أخرَى، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة بن أسيد أبى سريحة(٤) الغفارى بنحوه، والله أعلم(٥).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبى بكر، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكّل بالرحم ملكاً فيقول: أى رب، نطفة. أىْ رب، علقة(٦) أى رب، مضغة. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟» قال: «فذلك يكتب فى بطن أمه».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد به(٧).

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعنى: حين ذكر قدرته ولطفه فى خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السَّوىّ الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا على ابن زيد، عن أنس، قال: قال عمر ـ يعنى: ابن الخطاب رضى الله عنه ـ: وافقت ربى ووافقنى فى أربع: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية، قلت(٨) أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين. فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

---

(١) المسند (١/ ٤٦٥).
(٢) فى ف: «ويكتبان».
(٣) المسند (٤/ ٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).
(٤) فى أ: «سريح».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٥).
(٦) فى ف: «فحلقه».
(٧) صحيح البخارى برقم (٣١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٦).
(٨) فى ف، أ: «الآية، فلما نزلت قلت».

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شَيْبان، عن جابر الجُعْفى، عن عامر الشعبى، عن زيد بن ثابت الأنصارى قال: أملى علىّ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله ﷺ. فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾»[١].

جابر بن يزيد الجُعْفى ضعيف جداً، وفى خبره هذا نَكَارة شَديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحى بالمدينة، وكذلك[٢] إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم[٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعنى: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تَصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعنى: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] يعنى: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كلّ عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾.

لما ذكر تعالى خَلْق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خَلْق السموات والأرض[٤] مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا فى أول ﴿الم﴾ السجدة، التى كان رسول الله ﷺ يقرأ بها [فى][٥] صبيحة يوم الجمعة، فى أولها خَلْقُ السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾: قال مجاهد: يعنى السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أى: ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها،

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٣٦٧) «مجمع البحرين» عن أبى زرعة عن آدم بن إياس به وجابر الجعفى ضعيف.

(٢) فى ف، أ: «وكذا».

(٣) فى ف، أ: «والله أعلم».

(٤) فى أ: «السبع».

(٥) زيادة من ف، أ.

وما ينزل من السماء وما يعرُج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو ـ سبحانه ـ لا يَحجبُ عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما فى وَعْره، ولا بحر إلا يعلم ما فى قَعْره، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده[(١)] التى لا تعدّ ولا تحصى، فى إنزاله القَطْر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلا فلا يكفى الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دِمْنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما فى أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرُز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها، فيأتى الماء يحمل طيناً[(٢)] أحمر، فيسقى أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ أى: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض، وجعلنا[(٣)] فى الأرض قابليَّة له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبرارى [والبحار][(٤)] والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشُرب ولا لسقى لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض، بل ينجرّ على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مَدًى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالا، فيسكنه فى الأرض ويَسْلُكُه ينابيع فى الأرض، فيفتح[(٥)] العيون والأنهار، فيسقى[(٦)] به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون[(٧)] منه وتتطهرون

(١) فى ف، أ: «عبده». (٢) فى ف: «الطين». (٣) فى ف، أ: «وجعل».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف: «فيفجر».
(٦) فى ف، أ: «ويسقى». (٧) فى ف: «ويغتسلون وتغتسلون».

وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعنى: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين وحدائق ذات بهجة، أى: ذات منظر حسن.

وقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أى: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشىء وبين نظيره، وكذلك فى حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يَعجزُون عن القيام بشكره.

وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أى: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١].

وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شىء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعنى: الزيتونة. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عَرِى عنها سمى جَبَلا لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذى كَلّم [الله](١) عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون.

وقوله: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾: قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تنبت الدهن، كما فى قول العرب: ألقى فلان بيده، أى: يده. وأما على قول من يُضَمِّن الفعل فتقديره: تخرج بالدهن، أو(٢) تأتى بالدهن؛ ولهذا قال: ﴿وَصِبْغٍ﴾ أى: أدْم، قاله قتادة. ﴿لِّلآكِلِينَ﴾ أى: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامى، عن أبى أسَيْد ـ واسمه مالك بن ربيعة الساعدى الأنصارى ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به(٣)؛ فإنه من شجرة مباركة»(٤).

وقال عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة».

ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه، عن عبد الرزاق(٥). قال الترمذى: ولا يعرف إلا من

---

(١) زيادة من ف، وفى أ: «والله تعالى».

(٢) فى ف، أ: «أى».

(٣) فى أ: «بالزيت».

(٤) المسند (٣/٤٩٧).

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣) وسنن الترمذى برقم (١٨٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٣١٩).

حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عمر[(١)]، وربما لم يذكره.

قال[(٢)] أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثني الصَّعْب بن حكيم بن شريك بن نملة، عن أبيه عن جده، قال: ضِفْتُ عمرَ بن الخطاب ليلة عاشوراء[(٣)]، فأطعمني[(٤)] من رأس بعير بارد، وأطعمنا زيتاً، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ[(٥)].

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾: يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فَرْث ودم، ويأكلون من حُمْلانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملونها[(٦)] الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ .وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) ﴾.

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، حين بعثه[(٧)] إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟! فقال الملأ ـ وهم السادة والأكابر منهم ـ: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفّع عليكم ويتعاظم بدعوى[(٨)] النبوة، وهو بشر مثلكم. فكيف أوحى إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبياً، لبعث مَلَكاً من عنده ولم يكن بشراً! ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: ببعثة البشر في آبائنا الأولين. يعنون[(٩)] بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم[(١٠)] الماضية.

---

(١) في أ: «عمرو». (٢) في ف، أ: «وقال». (٣) في ف: «ضفت ليلة عمر بن الخطاب».
(٤) في ف: فأطعمني« عودا». وفي أ: «عسورا».
(٥) المعجم الكبير (١/ ٧٤) والصعب بن حكيم لا يعرف كما قال الذهبي.
(٦) في ف: «ويحملون». (٧) في ف، أ: «بعثه الله ». (٨) في ف، أ: «بدعوة».
(٩) في ف: «يعني». (١٠) في ف، أ: «الدهور».

وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح، عليه السلام، أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبرا [عنه][1] في الآية الأخرى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿[قَالَ][2] رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي: ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رأفة بقومك، وشفقة عليهم، وطَمَع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة «هود»[3] بما يغني عن إعادة ذلك هاهنا.

وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كما قال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]. وقد امتثل نوح، عليه السلام، هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. فذكَر اللهَ تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ أي: إن في هذا الصنيع ـ وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ـ

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) زيادة من أ.
(٣) انظر تفسير الآيات: ٢٥ ـ ٤٨.

﴿لآيَاتٍ﴾ أي: لحججاً[1] ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾.

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين[2] ـ قيل: المراد بهم عاد، فإنهم مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ ـ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فكذبوه وخالفوه، وأبوا من اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشرى، فكذبوا بلقاء الله فى القيامة، وأنكروا المعاد الجثمانى، وقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ .هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أى: بعيد بعيد ذلك. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: فيما جاءكم[3] به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد. ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ .قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أى: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربَّه عليهم، فأجاب دعاءه، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أى: بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أى: وكانوا يستحقون ذلك من الله لكفرهم وطغيانهم.

والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصَّرْصر العاصف القويّ الباردة، ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ[4] إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أى: صرعى هَلْكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذى

---

(١) فى ف، أ: «الحجج». (٢) فى ف، أ: «آخر». (٣) فى ف، أ «جاء».
(٤) فى ف، أ: «ترى».

لا ينتفع بشيء منه. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله(١): ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ [الزخرف: ٧٦] أى: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أى: أمما وخلائق، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يعنى(٢): بل يُؤخذون(٣) حسب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم، أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وخلفاً بعد سلف.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾: قال ابن عباس: يعنى يتبع بعضهم بعضاً. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعنى: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقوله: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أى: أهلكناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أى: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [الآية](٤) [سبأ: ١٩] [﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾](٥).

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾.

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بَشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن

---

(١) فى ف: «كقولهم». (٢) فى ف، أ: «بل». (٣) فى ف، أ: «يوجدون».
(٤) زيادة من ف. وفى هـ: ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾. (٥) زيادة من ف.

أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

ثم قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعنى: ماء ظاهراً[1].

وقال مجاهد: ربوة مستوية.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾: استوى الماء فيها.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الماء الجارى.

ثم اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة فى أىّ أرض [الله][2] هى؟ فقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: ليس الربى إلا بمصر. والماء حين يرسل[3] يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى.

وروى عن وهب بن مُنَبِّه نحو هذا، وهو بعيد جداً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى: ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هى دمشق[4].

قال: ورُوى عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن مَعْدان نحو ذلك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكِيع، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق.

---

(١) فى ف: «طاهراً». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ف: «يسيل».
(٤) فى أ: «الدمشق».

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ [ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ][١]﴾، قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها.

وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبى عبد الله ابن عم أبى هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: فى قوله[٢]: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هى الرملة من فلسطين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابى، حدثنا روّاد[٣] بن الجراح، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة، حدثنا السيبانى[٤]، عن ابن[٥] وَعْلَة، عن كُرَيْب السَّحولى، عن مُرَّة البَهْزِى قال: سمعت النبى ﷺ يقول لرجل: «إنك ميت[٦] بالربوة» فمات بالرملة.[٧] وهذا حديث غريب جداً.

وأقرب الأقوال فى ذلك ما رواه العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجارى، وهو النهر الذى قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾.

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عَون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولا وعملا ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً.

قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أُمِروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه.

وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعنى: الحلال.

---

(١) زيادة من ف.
(٢) فى ف: «فى قول الله».
(٣) فى ف: «داود».
(٤) فى ف، أ: «الشيبانى» وهو الصحيح.
(٥) فى ف، أ: «أبى» وهو الصحيح.
(٦) فى ف، أ: «تموت».
(٧) فيه عباد بن عباد له مناكير.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى، عن أبى مَيْسَرَةَ بن شُرَحْبِيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه.

وفى الصحيح: «ما من نبى إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»(١).

وفى الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده(٢).

وفى الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان(٣) ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سُدسَه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يَفر إذا لاقى»(٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبى مريم، عن ضَمْرة بن حبيب، أن أم عبد الله، أخت(٥) شداد بن(٦) أوس بعثت إلى النبى ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك فى أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أنَّى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالى، فشرب منه، فلما كان الغد أتته أم عبد الله أخت(٧) شداد فقالت: يا رسول الله(٨)، بعثتُ إليك بلبن مَرثية(٩) لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إلىّ الرسول فيه؟. فقال لها: «بذلك أمرت الرسل، ألا تأكل إلا طيبا، ولا تعمل إلا صالحا»(١٠).

وقد ثبت فى صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومسند الإمام أحمد ـ واللفظ له ـ من حديث فُضَيْل بن مرزوق، عن عَدِىّ بن ثابت، عن أبى حازم، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إنّ الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ **يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾. وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشْعَثَ أغْبَرَ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّى بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنَّى يستجاب لذلك»(١١).

وقال الترمذى: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فُضيل بن مرزوق.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٠٧٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى ف: «وكان».

(٤) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(٥) فى أ: «بنت». (٦) فى ف: «بنت».

(٧) فى ف، أ: «بنت».

(٨) فى ف: «يا رسول الله صلى الله عليك»، وفى أ: « يارسول الله ﷺ». (٩) فى ف: «مرتثه».

(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٢٥) من طريق المعافى بن عمران عن أبى بكر بن أبى مريم به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى: «قلت: وابن أبى مريم واه».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٩) والمسند (٦/ ١٥٩).

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى[1]: دينكم ـ يامعشر الأنبياء ـ دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «الأنبياء»، وأن قوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أى: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أى: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أى: فى غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ !كلا، ليس الأمر كما يزعمون فى قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥]، لقد أخطؤوا فى ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وإنظارا وإملاء؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١ـ ١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ: ٣٧] والآيات فى هذا كثيرة.

قال[2] قتادة فى قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ قال: مُكِرَ والله بالقوم فى أموالهم وأولادهم، يابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد [ابن عُبَيْد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمدانى، حدثنا عبد الله][3] بن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:«إن الله قَسَم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يُعطى الدنيا من يُحِبّ ومن لا يحب، ولا يعطى الدِّين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نَفْسى بيده، لا يسلم[4] عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ـ قالوا: وما بوائقه يا نبى الله؟ قال: غشمه وظلمه ـ

(١) فى ف، أ: «وإن».
(٢) فى أ: «وقال».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) فى ف:«يؤمن».

ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل [١] منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أى: هم مع [٣] إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصرى: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحريم: ١٢]، أى: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر الله وقضائه، وماشرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيا[٤] فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أى: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى: يعطون العطاء[٥] وهم خائفون [٦] ألا يتقبل منهم، لخوفهم [٧] أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغوَل، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة؛ أنها قالت: يارسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يابنت أبى بكر، يابنت الصديق، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل».

وهكذا رواه الترمذى وابن أبى حاتم، من حديث مالك بن مغْول، به بنحوه[٨]. وقال: «لا يابنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، ﴿أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾». قال الترمذى: ورُوى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن

(١) فى ف: «منه ليتقبل» وفى أ: «فيتقبل».
(٢) المسند (١/ ٣٨٧).
(٣) فى ف: «قى» وفى أ: «من».
(٤) فى ف: «منهيا».
(٥) فى ف: «العطاء فيه».
(٦) فى أ: «خائفون وجلون».
(٧) فى ف: «تخوفهم».
(٨) المسند (٦/ ١٥٩) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٥).

أبى حازم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ نحو هذا[١].

وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى، والحسن البصرى فى تفسير هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: «والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة» أى: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروى هذا مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قرأ كذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا صخر بن جُوَيْرية، حدثنا إسماعيل المكى، حدثنى أبوخلف مولى بنى جُمَح: أنه دخل مع عُبَيد بن عُمَيْر على[٢] عائشة، رضى الله عنها، فقالت: مرحباً بأبى عاصم، ما يمنعك أن تزورنا ـ أو: تُلمّ بنا؟ ـ فقال: أخشى أن أُمِلَّك. فقالت: ماكنت لتفعل؟ قال: جئت لأسأل[٣] عن آية فى كتاب الله عز وجل، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: أيّة آية؟ فقال: ﴿الَّذين يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أو ﴿الَّذين يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾؟ فقالت: أيتهما[٤] أحب إليك؟ فقلت: والذى نفسى بيده، لإحداهما أحب إلى من الدنيا جميعاً[٥] ـ أو: الدنيا وما فيها ـ قالت: وماهى؟ فقلت: ﴿الَّذينَ يأْتُونَ مَا أتَوا﴾ فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف[٦].

إسماعيل بن مسلم المكى، وهو ضعيف.

والمعنى على القراءة الأولى ـ وهى قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم ـ أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقصرين، والله تعالى أعلم.

﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عَدْله فى شرعه على عباده فى الدنيا: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أى: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التى كتبها عليهم فى كتاب مسطور لا يضيع منه شىء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يبخسون من الخير شيئا، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٧٥).

(٢) فى أ: «إلى».

(٣) فى ف: «لأسألك».

(٤) فى أ: «أيتها».

(٥) فى ف: «جميعها».

(٦) المسند (٦/ ٩٥).

ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أى: غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَذَا﴾ أى: القرآن الذى أنزله [الله تعالى] [1] على رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: قال الحكم [2] بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أى: سيئة من دون ذلك، يعنى: الشرك، ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال: لابد أن يعملوها. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغير واحد.

وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أى: قد كتب عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب. ورُوِى نَحو هذا عن مقاتل بن حيَّان والسُّدِّىّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوى حسن. وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود: «فوالذى لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها».

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يعنى: حتى إذا جاء مترفيهم ـ وهم السعداء المنعمون فى الدنيا ـ عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أى: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً. إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً. وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾ [المزمل: ١١ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقوله: ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ أى: لا نجيركم [3] مما حل بكم، سواء جأرتم أو سكتُّم، لا محيد ولا مناص ولا وَزَرَ لزم الأمر ووجب العذاب.

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أى: إذا دعيتم أبيتم، وإن [4] طُلبتم امتنعتم؛ ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾: فى تفسيره قولان، أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير فى ﴿بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها [5]: أنه الحرم بمكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون بالهُجْر [6] من الكلام.

والثانى: أنه [7] ضمير القرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «الحكيم».
(٣) فى أ: «يجيركم».
(٤) فى ف، أ: «وإذا».
(٥) فى أ: «أحدها».
(٦) فى أ: «الهجر».
(٧) فى أ: «هو».

والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذى أظهره الله عليهم، وأخرجهم من (١) الحرم صاغرين أذلاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أى: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم (٢) أولياؤه، وليسوا(٣) بهم، كما قال النسائى فى التفسير (٤) من سننه:

أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾، فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، ﴿سَامِرًا﴾ قال: يتكبرون [ويسمرون فيه، ولا] (٥) يعمرونه، ويهجرونه(٦).

وقد أطنب ابن أبى حاتم هاهنا بما ذا (٧) حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وآباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التى أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى عنهم.

وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذًا والله يجدون (٨) فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

---

(١) فى أ: «إلى». (٢) فى أ: «وتعتقدون أنكم». (٣) فى ف: «وليسم» وفى أ: «ولستم».
(٤) فى ف، أ: «تفسيره». (٥) زيادة من ف.
(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥١).
(٧) فى أ: «هذا». (٨) فى ف، أ: «تجدون».

ثم قال منكرا على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي: أفهم [1] لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التى نشأ بها فيهم، أفيقدرون [2] على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، للنجاشى ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾: يحكى قول المشركين عن النبى ﷺ أنه تقوَّل [3] القرآن، أى: افتراه من عنده، أو أن به جنونا لا يدرى ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يُدافع، وقد تحدّاهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾: يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أى: فى حال كراهة [4] أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

وقال قتادة: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعونى إلى أمر أنا له كاره. فقال نبى الله ﷺ: «وإن كنت كارها». وذُكر لنا أنه لقى رجلا فقال له: «أسلم» فَتَصَعَّده [5] ذلك وكبر عليه، فقال له نبى الله: «أرأيت لو كنتَ فى طريق وَعْر وَعْث، فلقيت رجلا تعرف وجهه، وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل، أكنت متبعه [6]؟» قال: نعم. فقال: «فوالذى [7] نفس محمد بيده، إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإنى لأدعوك إلى أسهل من ذلك لو دعيت إليه». وذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا، فقال له: «أسلم» فَتَصَعَّده ذلك، فقال له نبى الله ﷺ: «أرأيت فَتَيَيْكَ، أحدهما إذا حَدَّثك صدقك، وإذا [8] ائتمنته أدى إليك أهو أحب إليك، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك وإذا [9] ائتمنته خانك؟». قال: بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى، وإذا ائتمنته أدى إلى. فقال النبى [10] ﷺ: «كذاكم أنتم عند ربكم».

وقوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾: قال مجاهد، وأبوصالح والسدى: الحق هو الله عز وجل، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ [11] وَمَن فِيهِنَّ﴾ أى: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم فى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ

(١) فى ف: «هم» وفى أ: «أهم».
(٢) فى ف، أ: «أفتقدرون».
(٣) فى أ: «يقول».
(٤) فى ف: «كراهته».
(٥) فى ف، أ: « فصعد».
(٦) فى ف: «تتبعه».
(٧) فى ف: «والذى».
(٨، ٩) فى ف: «وإن».
(١٠) فى ف: «نبى الله».
(١١) فى ف: «الأرض والسموات».

نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، ففى هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره لخلقه(١)، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه.

ثم قال: **﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾** يعنى: القرآن، **﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾**.

وقوله: **﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾**: قال الحسن: أجرا. وقال قتادة: جعلا **﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾** أى: أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: **﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾** [سبأ: ٤٧]، وقال: **﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾** [ص: ٨٦]، وقال: **﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾** [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: **﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾** [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: **﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾** قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف بن مِهْرَان، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أتاه ـ فيما يرى النائم ـ ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: اضرب مَثَل هذا ومثل أمته. فقال: إن مَثَلَه ومثل أمته، كمثل قوم سَفْر انتهوا إلى رأس مَفَازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينا(٢) هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء تتبعونى؟ فقالوا: نعم: قال. فانطلق، فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى؟ قالوا(٣): بلى قال: فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه، وحياضا هى أروى من هذه، فاتبعونى. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لنتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه (٤).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعرى، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى ممسك بحجزكم: هَلُمَّ عن النار، هلم عن النار، وتغلبونى وتقاحمون فيها تَقَاحُم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فَرَطكم على الحوض، فتردون على معا وأشتاتا، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل فى إبله، فيُذْهَب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أى رب، قومى، أى رب أمتى.

(١) فى ف: «بخلقه». (٢) فى أ: «فبينما». (٣) فى أ: «فقالوا».
(٤) المسند (١/ ٢٦٧).

فيقال: يامحمد، إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا. قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيرا له رُغَاء، ينادى: يامحمد، يامحمد. فأقول: لا أملك [1] شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة، فينادى: يامحمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من أدم، ينادى: يامحمد، يامحمد: فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغت»[2].

وقال على بن المدينى: هذا حديث حسن الإسناد، إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعرى القمى.

قلت: بل قد روى عنه أيضا أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح. ووثقه النسائى وابن حبان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أى: لعادلون جائرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: يخبر تعالى عن غلظهم[3] فى كفرهم بأنه لو أراح عَلَلَهُم وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون[4].

[و] [5] قال الضحاك، عن ابن عباس: كل ما فيه «لو»، فهو مما لا يكون أبدا

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا

---

(١) فى ف، أ: «لا أملك لك».

(٢) ورواه البزار فى مسنده برقم (٩٠٠) وابن عبد البر فى التمهيد (٢/ ٣٠٠) من طريق مالك بن إسماعيل عن يعقوب بن عبد الله الأشعرى به نحوه.

وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٨٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير والبزار إلا أنه قال: يحمل قشعاً مكان سقاء. ورجال الجميع ثقات».

(٣) فى أ: «غلظهم». (٤) فى ف، أ: «ولو كان كيف كان يكون». (٥) زيادة فى ف، أ.

أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ**﴾ أى: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿**فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾، أى: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيهم. ﴿**فَمَا اسْتَكَانُوا**﴾ أى: ما خشعوا، ﴿**وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾ أى: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿**فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن حمزة المروزى، حدثنا على ابن الحسين، حدثنا أبى، عن يزيد ـ يعنى: النحوى ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز ـ يعنى: الوبر والدم ـ فأنزل الله: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾.

وهكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل، عن على بن الحسين، عن أبيه، به [١]. وأصل هذا الحديث فى الصحيحين: أن [٢] رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف» [٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سلمة بن شَبِيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم ابن عمر بن كَيْسَان، عن [٤] وهب بن عمر بن كيسان قال: حُبِس وهب بن منبه، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن فى طرف من عذاب الله، والله تعالى يقول: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾ قال: وصام وهب ثلاثا متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أحدَث لنا فأحدثنا. يعنى: أحدث لنا الحبس، فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ**﴾ أى: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبْلَسُوا [٥] من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالى نعمته على عباده فى أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهى العقول والفهوم، التى يدركون [٦] بها الأشياء، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥٢).

(٢) فى ف، أ: «عن».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

(٤) فى ف، أ: «حدثنى». (٥) فى أ: «أيسوا». (٦) فى ف: «تدركون».

وقوله: ﴿**قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ أي: وما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، فى بَرْئة الخليقة وذرئه لهم فى سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا، ولا ذكرا ولا أنثى، ولا جليلا ولا حقيرا، إلا أعاده كما أبدأه؛ ولهذا قال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ أى: يحيى الرمم ويميت الأمم، ﴿**وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾ أى: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، ولايفترقان بزمان غيرهما، كقوله تعالى: ﴿**لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ أى: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذى قد قهر كل شىء، وعز كل شىء، وخضع له كل شىء.

ثم قال مخبرا عن منكرى البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿**بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ . قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾ يعنى يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿**لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾ يعنون: [أن][1] الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿**أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ**﴾ [النازعات: ١١ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

﴿**قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)**﴾.

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الذى لا إله إلا هو، ولا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه فى

(١) زيادة من أ.

الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئا، ولا يستبدّون بشىء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا [(١)] نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ أى: من مالكها الذى خلقها ومن [(٢)] فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك[(٣)] ﴿قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [أى: لا تذكرون] [(٤)] أنه لا تنبغى [(٥)] العبادة إلا للخالق الرازق [(٦)] لا لغيره.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من هو خالق العالم العُلْوى بما فيه من الكواكب النيّرات، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعنى: الذى هو سقف المخلوقات، كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك، إن [(٧)] عرشه على سمواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة[(٨)].

وفى الحديث الآخر: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة» [(٩)]. ولهذا قال بعض السلف: إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة، [وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة][(١٠)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سمى عرشاً لارتفاعه.

وقال الأعمش عن كعب الأحبار: إن السموات والأرض فى العرش، كالقنديل المعلق بين السماء والأرض.

وقال مجاهد: ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فَلاَة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا وَكيع، حدثنا [(١١)] سفيان الثورى، عن عمار الدُّهنى[(١٢)]، عن مسلم البَطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قدره. وفى رواية: إلا الله عز وجل[(١٣)].

وقال بعض السلف: العرش من ياقوتة حمراء.

ولهذا قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى: الكبير: وقال فى آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ

(١) فى أ: «إنما» وهو خطأ. (٢) فى ف،أ: «وما». (٣) فى ف،أ: «كذلك».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى أ: «يليق». (٦) فى ف: «الرزاق».
(٧) فى ف: «لأن».
(٨) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٦) عن حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه.
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٥/٣٩٩) من طريق ابن وهب عن ابن زيد عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه، وقد سبق من رواية ابن مردويه عند تفسير الآية:٢ من سورة الرعد.
(١٠) زيادة من أ. (١١) فى أ: «عن». (١٢) فى أ: «الذهبى».
(١٣) ورواه ابن أبى شيبة فى صفة العرش (ق ١١٤) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٨٢) من طريق الضحاك بن مخلد عن سفيان عن عمار الذهنى به، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وأقره الذهبى.

﴿الْكَرِيمِ﴾ أى: الحسن البهى. فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو، والحسن الباهر؛ ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء.

وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور [(١)] العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أى: إذا كنتم تعترفون [(٢)] بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا إسحاق ابن إبراهيم، أخبرنا عبد الله [(٣)] بن جعفر، أخبرنى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها يرعى غنما، فقال لها ابنها: يا أماه، من خلقك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبى؟ قالت: الله. قال: فمن خلقنى؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: فإنى أسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع.

قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث.

قال عبد الله بن دينار: كان [(٤)] ابن عمر كثيرا ما يحدثنا بهذا الحديث.

قلت: فى إسناده عبد الله [(٥)] بن جعفر المدينى، والد الإمام على بن المدينى، وقد تكلموا فيه، فالله أعلم[(٦)].

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: بيده الملك، ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، أى: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذى نفسى بيده»، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال[(٧)]: «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخْفَر فى جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أى: وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه، الذى له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذى لا يمانع ولا يخالف، وما شاء[(٨)] كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أى: لا يسئل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته [(٩)]، والخلق كلهم يُسألون عن

---

(١) فى أ: «فوق». (٢) فى أ: «تعرفون». (٣) فى ف، أ: «عبيد الله».
(٤) فى ف: «وكان». (٥) فى أ: «عبيد الله».
(٦) ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/ ١٧٨) من طريق إسحاق بن أبى إسرائيل عن عبد الله بن جعفر به، وقال: «غير محفوظ لا يحدث به عن ابن دينار غير عبد الله بن جعفر» وعبد الله بن حعفر المدينى ضعيف عند الأئمة.
(٧) فى أ: «يقول». (٨) فى ف، أ: «وما شاء الله». (٩) فى ف، أ: «وحكمته وعدله».

أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أى: فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك/ كما قال فى آخر السورة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، فالمشركون لا يفعلون ذلك [عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك] [(١)] اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾.

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك، فقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: لو قُدّر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض، فى غاية الكمال، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالا، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى: عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيرا.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل[عما يقول الظالمون والجاحدون] [(٢)].

(١، ٢) زيادة من ف، أ.

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾.

يقول تعالى آمرا [نبيه محمداً ﷺ] (١) أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أى: إن عاقبتهم ـ وإنى شاهدُ ذلك ـ فلا تجعلنى فيهم، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى ـ وصححه ـ: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون»(٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا لأريناك ما نحل (٣) بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم قال مرشداً له إلى التِّرْياق النافع فى مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسىء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، وهذا كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]: أى ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة(٤) أو الصفة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ : أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تنفع(٥) معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف.

وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه»(٦).

وقوله: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أى: فى شىء من أمرى؛ ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور ـ وذلك مطردة للشياطين (٧) ـ عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الهَرَم، وأعوذ بك من الهَدْم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت»(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه،

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) المسند (٥/٢٤٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(٣) فى ف، أ: «ما يحل». (٤) فى ف: «الخصلة أو الوصية». (٥) فى ف، أ: «لا ينفع».

(٦) انظر الاستعاذة عند تفسير سورة الفاتحة.

(٧) فى ف: «للشيطان».

(٨) سنن أبى داود برقم (١٥٥٢).

عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها فى عنقه.

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث محمد بن إسحاق(١) ،قال الترمذى: حسن غريب.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين فى أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده فى مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ .لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ . ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم فى غمرات عذاب الجحيم.

وقوله : هاهنا: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾: كلا: حرف ردع وزجر، أى: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

---

(١) المسند (٢/ ١٨١) وسنن أبى داود برقم (٣٨٩٣) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٦٠١).

وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أى لابد أن يقولها لا محالة كل مختصر ظالم.

ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أى: لأنها كلمة، أى: سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحا، ولكان يكذب فى مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال: فيقول الجبار: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرَة: إذا سمعت الله يقول: ﴿كَلاَّ﴾، فإنما يقول: كذب[1].

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾: قال: كان العلاء بن زياد يقول: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل.

وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله. وعن محمد بن كعب القرظى نحوه.

وقال محمد بن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل ـ يعنى: ابن عياض ـ عن لَيْث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: إذا وضع ـ يعنى: الكافر ـ فى قبره، فيرى مقعده من النار . قال: فيقول: رب، ارجعون أتوب وأعمل صالحا. قال: فيقال: قد عُمِّرت ما كنت مُعَمَّرًا. قال : فيضيق عليه قبره، قال: فهو كالمنهوش، ينام ويفزع، تهوى[2] إليه هَوَامّ الأرض وحياتها وعقاربها.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن على، حدثنى سلمة بن تمام، حدثنا على بن زيد[3]، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، أنها قالت: ويل لأهل المعاصى من أهل القبور!! تدخل[4] عليهم فى قبورهم حيات سود ـ أو: دُهُم ـ حية عند رأسه، وحية عند رجليه، يقرصانه حتى يلتقيا[5] فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم﴾ : يعنى: أمامهم.

وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا[6] مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم.

وقال أبو صخر: البرزخ: المقابر، لا هم فى الدنيا، ولا هم فى الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم

---

(١) فى ف: «كذبت». (٢) فى ف، أ: «ويهوى». (٣) فى أ: «يزيد».
(٤) فى ف، أ: «يدخل». (٥) فى ف: «تقرصانه حتى تلتقيا». (٦) فى ف، أ: «ليس».

يبعثون.

وفى قوله: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] وقال: ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء فى الحديث: «فلا يزال معذبا فيها»[(١)]، أى: فى الأرض.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) ﴾.

يخبر تعالى أنه نفخ فى الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور، ﴿ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثى والد لولده، ولا يَلْوى عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو أعز الناس عليه ـ كان ـ فى الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعرضة، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه: قال: فيفرح[(٢)] المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا، ومصداق ذلك فى كتاب الله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد ـ مولى بنى هاشم ـ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت المِسْوَر بن مَخْرَمَة، عن عُبَيد الله بن أبى رافع، عن المِسْوَر ـ هو ابن مَخْرَمَة ـ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بَضْعَةٌ منى، يَقْبِضُنى ما يقبضها، ويَبْسُطُنى ما يبسطها[(٣)]، وإن الأنساب تنقطع[(٤)] يوم القيامة غير نسبى وسببى وصهرى»[(٥)].

هذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور أن[(٦)] رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة منى،

---

(١) رواه الترمذى فى السنن برقم (١٠٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) فى أ: «فيفرح والله».　　(٣) فى أ: «يفيضنى ما يفيضها وينشطنى ما ينشطها».　　(٤) فى أ: «منقطع».

(٥) المسند (٤/٣٢٣).

(٦) فى ف، أ: «عن».

يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى، والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة، وإنى ـ أيها الناس ـ فرط لكم، إذا [٢] جئتم» قال رجل: يارسول الله، أنا فلان بن فلان، [وقال أخوه: أنا فلان ابن فلان] [٣] فأقول لهم: «أما النسب فقد عرفت، ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى»[٤].

وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[٥]، من طرق متعددة عنه، رضى الله عنه: أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، قال: أما ـ والله ـ مابى إلا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبَبٍ ونَسب فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببى ونسبى».

رواه [٦] الطبرانى، والبزار والهيثم بن كليب، والبيهقى، والحافظ الضياء فى «المختارة» [٧] وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفا؛ إعظاماً وإكراما، رضى الله عنه؛ فقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى العاص بن الربيع ـ زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ـ من طريق أبى القاسم البغوى: حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد ابن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى»[٨]. وروى فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: «سألت ربى عز وجل ألا أتزوج إلى أحد من أمتى، ولا يتزوج إلى أحد منهم، إلا كان معى فى الجنة، فأعطانى ذلك»[٩]، ومن حديث عمار بن سيف، عن إسماعيل، عن عبد الله ابن عمرو.

وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس.

﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة.

وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٧١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٩).

(٢) فى ف، أ: «فإذا».

(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) المسند (٣/ ١٨).

(٥) مسند عمر بن الخطاب لابن كثير (١/ ٣٨٩).

(٦) فى أ: «ورواه الحافظ».

(٧) المعجم الكبير(٣/ ٤٥) ومسند البزار برقم (٢٤٤٥) «كشف الأستار» وسنن البيهقى الكبرى (٧/ ٦٤) والمختارة للمقدسى برقم (٢٨١).

(٨) تاريخ دمشق (١٩/ ١١٩ «المخطوط») ورواه على بن سعيد عن سليمان بن عمر الرقى عن إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦٣).

(٩) تاريخ دمشق (١٩/ ١١٩ «المخطوط») ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦١) «مجمع البحرين» من طريق يزيد بن الكميت عن عمار بن سيف به. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٨٥): «إسناده واهٍ» وفى الباب عن ابن أبى أوفى رضى الله عنه.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أى: ثقلت سيئاته على حسنات، ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أى: خابوا وهلكوا، وباؤوا بالصفقة [(١)] الخاسرة.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا داود بن المُحَبَّر، حدثنا صالح المُرِّىّ، عن ثابت البُنانى وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: «إن لله ملكا موكلا بالميزان، فيؤتى بابن آدم، فيوقف بين كفتى الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقى فلان شقاوة لا [(٢)] يسعد بعدها أبداً»[(٣)].

إسناده ضعيف، فإن داود بن المُحَبَّر متروك.

ولهذا قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أى: ماكثون، دائمون مقيمون لا يظعنون.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء[(٤)]، حدثنا محمد بن سلمان بن الأصبهانى، عن أبى سِنَان ضِرَار بن مُرَّة، عن عبد الله بن أبى الهذيل، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «إن جهنم لما سيق [إليها] [(٥)] أهلها يلقاهم [(٦)] لهبها، ثم تلفحهم لفحة، فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»[(٧)].

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى الفَزَّاز، حدثنا الخضر بن على بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبى الحارث بن الخضر القَطَّان، حدثنا سعد بن سعيد [(٨)] المقبرى، عن أخيه، عن أبيه، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله الله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، قال: «تلفحهم لفحة، فتسيل لحومهم على أعقابهم»[(٩)].

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى عابسون.

وقال الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس والمُشَيَّط الذى قد بدا أسنانه وقَلَصت شفتاه.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: أخبرنا على بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ هو ابن المبارك، رحمه

---

(١) فى أ: «وفازوا بالصفقة». (٢) فى ف: «فلا».

(٣) ورواه أبو نعيم فى الحلية كما فى تخريج الإحياء (٤٠٩٨) وقال: «تفرد به داود بن المحبر».

(٤) فى أ: «أبى الفراء». (٥) زيادة من ف. (٦) فى ف: «تلقيهم».

(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٣٦٣) وقال: «لم يروه مرفوعًا متصلاً عن أبى سنان عن عبد الله إلا محمد بن سليمان الأصبهانى، ورواه ابن عيينة وابن فضيل وجرير عن أبى سنان فأوقفه ابن فضيل على أبى هريرة».

(٨) فى ف، أ: «سعيد بن أبى سعيد».

(٩) ورواه الضياء المقدسى فى صفة النار كما فى الدر المنثور (٦/ ١١٧) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

الله ـ أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبى السَّمْح، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخُدْرى، عن النبى ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: «تَشْويه النار فَتَقَلَّصُ شفته العليا حتى تبلغ وَسَطَ رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تَضْرب سُرَّته».

ورواه الترمذى، عن سُوَيْد بن نصر[١]، عن عبد الله بن المبارك، به[٢]. وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧)﴾.

هذا تقريع من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التى أوبقتهم فى ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت[٣] شُبَهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ .فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: ٨ ـ ١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أى: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فَضَلَلْنَا عنها ولم نُرْزَقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أى: رُدّنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ. ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢] أى: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحَّده المؤمنون.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار[٤]، يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أى: امكثوا فيها صاغرين مُهَانين أذلاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أى: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندى.

---

(١) فى أ: «نصير».
(٢) المسند (٣/٨٨) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٦).
(٣) فى أ: «وأرخت».
(٤) فى أ: «الدنيا».

قال العَوفى، عن ابن عباس: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَبْدَة بن سليمان المروزى، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أبى أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين عاما، ثم يردّ عليهم: إنكم ماكثون. قال: هانت دعوتهم ـ والله[(١)] ـ على مالك وربّ مالك. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ قال: فيسكت عنهم قَدْرَ الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. قال: والله ما نَبَس[(٢)] القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق.

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، حدثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهَيْل، حدثنا أبو الزَّعْرَاء قال: قال عبد الله بن مسعود: إذا أرادَ الله ألا يخرج منهم أحداً ـ يعنى: من جهنم ـ غَير وجوههم وألوانهم، فيجىء الرجل من المؤمنين، فيشفع فيقول: يا رب [(٣)]. فيقول: من عرف أحداً فليخرجه. فيجىء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول: أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فعند ذلك يقول: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. وإذا[(٤)] قال ذلك، أطبقت عليهم فلا[(٥)] يخرج منهم بَشَر.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم فى الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فسخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضرعهم إلىّ، ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أى: حملكم بغضهم على أن نَسِيتم معاملتى ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أى: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أى: يلمزونهم استهزاء.

ثم أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أى: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أى: جعلتهم هم الفائزين[(٦)] بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين[(٧)] من النار.

---

(١) فى ف، أ: «والله دعوتهم».
(٢) فى ف: «فوالله ما يبس».
(٣) فى ف، أ: «يارب يارب».
(٤) فى ف، أ: «فإذا».
(٥) فى ف، أ: «فلم».
(٦) فى ف: «الفائزون».
(٧) فى ف: «الناجون».

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ(١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(١١٦)﴾.

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صَبَروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أى: كم كانت إقامتكم فى الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أى: الحاسبين ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لما آثرتم الفانى على الباقى، ولما تَصرَّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيِّئ، ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته[1] ـ كما فعل المؤمنون ـ لفزتم كما فازوا.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن الوَزِير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن أيْفَع ابن عبد الكَلاَعى؛ أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم. قال: لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم: رحمتى ورضوانى وجنتى، امكثوا فيها خالدين مخلدين؟ ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. فيقول: بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم: نارى وسَخَطى، امكثوا فيها خالدين مخلدين»[2].

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أى: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ أى: لا تعودون فى الدار الآخرة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يعنى هملا[3].

وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تقدّس أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أى: حسن المنظر بهى الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا إسحاق بن سليمان ـ شيخ من أهل العراق ـ أنبأنا شعيب بن صفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال:

---

(١) فى ف: «على عبادته وطاعته».

(٢) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (١/ ١٨٧) بإسناده إلى الحكم بن موسى عن الوليد عن صفوان به.

(٣) فى أ: «مهملاً».

كان آخر خطبة خطب عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثا، ولن[١] تتركوا سدى، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر مَن خرج من رحمة الله، وحرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافدا بباق، وقليلا بكثير، وخوفا بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون مَن بعدكم الباقين، حتى تردون[٢] إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تُشيّعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صَدْع من الأرض، في بطن صَدْع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مُرتَهَن بعمله، غنى عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه، ونزول الموت بكم ثم جعل طرف ردائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن نصر[٣] الخَوْلاَني، حدثنا ابن وَهْب، أخبرني ابن لَهِيعة، عن أبي هُبَيْرَةَ عن حَنَش[٤] بن عبد الله؛ أن رجلا مصاباً مرَّ به عبد الله بن مسعود، فقرأ في أذنه هذه الآية: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾، حتى ختم السورة فَبَرأ، [فذكر ذلك لرسول الله ﷺ][٥]، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا قرأت في أذنه؟» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أن رجلا مُوقنا قرأها على جَبَل لزال».

وروى أبو[٦] نُعَيم من طريق خالد بن نِزَار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سَرِيّة، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** ﴾، قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا[٧].

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب العَلاَّف الواسطي، حدثنا أبو المسَيَّب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن خُنَيْس[٨]، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضحاك بن مُزَاحِم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن: باسم الله الملك الحق، ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [هود: ٤١]»[٩].

---

(١) في ف: «ولم».
(٢) في ف: «حين تردوا».
(٣) في أ: «نصير».
(٤) في ف: «حسن».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) في ف: «ابن».
(٧) معرفة الصحابة لأبي نعيم برقم (٧٢٦).
(٨) في ف: «حبيش».
(٩) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٢٤) وفي كتاب الدعاء برقم (٨٠٤) من طرق عن عبد الحميد الهلالي، عن نهشل به، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٢): «نهشل بن سعيد متروك».

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾.

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره، وعَبَد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أي: لا دليل له على قوله ـ فقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط فى قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أى: الله يحاسبه على ذلك.

ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

قال قتادة: ذُكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله، وكذا وكذا ـ حتى عد أصناما، فقال رسول الله ﷺ: «فأيهم إذا أصابك ضُرٌّ فدعوتَه، كشفه عنك؟». قال: الله عز وجل. قال: [«فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوتَه أعطاكها؟» قال: الله عز وجل. قال][1]: «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه أم حسبت أن يغلب عليه. فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا يعلمون» قال[2] الرجل بعد ما أسلم: لقيت رجلا خصمنى.

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذى فى جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ نحو ذلك[3].

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء، فالغَفْر ـ إذا أطلق ـ معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى أ: «فقال».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٨٣) وقال: «هذا حديث غريب».

/ سورة المؤمنين [١٣٠و]

مكّيّة، وهي مائة وتسع عشرة آية، وثماني عشرة آية[١] عند الكوفيّين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ "الفلاح": الفوز بالمرام، والنجاةُ عن المكروه. وقيل: البقاء في الخير. و"الإفلاح": الدخول في ذلك، كـ"الإبشار" الذي[٢] هو الدخول في البِشارة. وقد يجيء متعدّيًا بمعنى "الإدخال فيه"، وعليه قراءة مَن قرأ على البناء للمفعول.[٣]

وكلمة ﴿قَدْ﴾ ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقَّعَ الثبوت مِن قبلُ، لا متوقَّعَ الإخبار به ضرورةَ أنّ المتوقَّع مِن حال المؤمنين ثبوتُ الفلاح لهم، لا الإخبار بذلك، فالمعنى: قد فازوا بكلّ خير، ونجَوا مِن كلّ ضَير، حسبما كان ذلك متوقَّعًا مِن حالهم، فإنّ إيمانهم وما تفرّع عليه مِن أعمالهم الصالحة مِن دواعي الفلاح بموجَب الوعد الكريم، خلا أنّه إن أريدَ بالإفلاح حقيقةُ الدخول في الفلاح الذي لا يتحقّق إلّا في الآخرة فالإخبارُ به على صيغة الماضي للدلالة على تحقّقه لا محالةَ بتنزيله منزلةَ الثابت، وإن أريدَ كونهم بحالٍ تستتبعه البتّة فصيغة الماضي في محلّها.

وقُرئ: "أَفْلَحُوا"[٤] على الإبهام والتفسير، أو على "أكَلوني البَراغيثُ". وقُرئ: "أَفْلَحُ" بضمّةٍ اكتُفِي بها عن الواو،[٥] كما في قولِ مَن قال:

---

١ ط - آية؛ س - وثماني عشرة آية.

٢ س - الذي.

٣ أي: "أُفْلِحَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٥ هي عين القراءة السابقة، والواو محذوفة في اللفظ للضرورة، قال أبو حيّان: «وفي كتاب

ولــو أنّ الأطِــبّــا[١] كــانُ حَــولِــي[٢]

والمراد بـ"المؤمنين" إمّا المصدِّقون بما عُلم ضرورةً أنّه مِن دين نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم مِن التوحيد والنبوّة والبعث والجزاء ونظائرها، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ وما عُطف عليه صفاتٌ مخصِّصة لهم، وإمّا الآتون بفروعه أيضًا، كما يُنبئ عنه إضافةُ الصلاة إليهم، فهي صفات موضّحة أو مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر في حيّز الصلة مِن المعاني مع الإيمان إجمالًا أو تفصيلًا، كما مرّ في أوائل سورة البقرة.

[١٣٠ظ] و"الخشوع": الخوف والتذلّل، أي: خائفون مِن الله عزّ وجلّ، / متذلّلون له، ملزِمون أبصارَهم مساجدَهم. رُوي أنّه عليه السلام كان إذا صلّى رفع بصره إلى السماء، فلمّا نزلت رمى ببصره نحو مسجده.[٣] وأنّه رأى مصلّيًا يعبث بلحيته فقال: «لو خَشع قلب هذا لَخَشعت جوارحه».[٤]

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ أي: عمّا لا يَعنيهم مِن الأقوال والأفعال ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ أي: في عامّة أوقاتهم، كما يُنبئ عنه الاسم الدالّ على الاستمرار، فيدخل في ذلك إعراضُهم عنه حالَ اشتغالهم بالصلاة دخولًا أوّليًا، ومدارُ إعراضِهم عنه ما فيه مِن الحالة الداعية إلى الإعراض عنه، لا مجرّدُ الاشتغال بالجِدّ في أمور الدين

ابن خالوَيه مكتوبًا بواو بعد الحاء، وفي اللوامح: "وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدرج، وكانت الكتابة عليها محمولة على الوصل، نحو: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الشورى، ٤٢/٢٤]"». البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٦/٧.

١ س: الأطبّاء.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٧٤/٣. قال أبو حيّان بعد نقله عن الزمخشري استشهادَه بهذا البيت: «وليس بجيّد؛ لأنّ الواو في "أَفۡلَحُ" حذفت لالتقاء الساكنين، وهنا حذفت للضرورة، فليست مثلَها». البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٦/٧. | وتمام البيت:

وكــان مــع الأطــبّــاء الـشـفـاءُ

وهو بغير نسبة في الجمل في النحو للخليل، ص ٢٣٢؛ والحيوان للجاحظ، ١٦٠/٥.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٧٥/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٢/٤. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ٤٢٦/٢ (٣٤٨٣)، بلفظ: «فطأطأ رأسَه».

٤ نوادر الأصول للحكيم الترمذي، ١٧٢/٢. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف، ٨٦/٢ (٦٧٨٧)، موقوفًا على سعيد بن المسيّب.

كما قيل،[١] فإنّ ذلك ربّما يوهم أن لا يكون في اللغوِ نفسِه ما يزجرهم عن تعاطيه، وهو أبلغ مِن أن يقال: "لا يلهون" مِن وجوه؛ جعلِ الجملة اسميَّةً، وبناءِ الحكم على الضمير، والتعبيرِ عنه بالاسم، وتقديمِ الصلة عليه، وإقامةِ الإعراض مُقام الترك؛ ليدلّ على تباعدهم عنه رأسًا مباشرةً وتسبّبًا، وميلًا وحضورًا، فإنّ أصله: أن يكون في عُرضٍ غير غُرضه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وصفُهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنّهم بلغوا الغاية القاصية مِن القيام بالطاعات البدنيّة والماليّة، والتجنّبِ عن المحرّمات وسائرِ ما يوجب المروءةُ اجتنابَه. وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة.

و"الزكاة" مصدر؛ لأنّه الأمر الصادر عن الفاعل، لا المحلّ الذي هو موقعه. ومعنى الفعل قد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة، ٢/٢٤]، ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ ممسكون لها، فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ مِن نفي الإرسال الذي يُنبئ عنه الحِفظ، أي: لا يرسلونها على أحد / إلّا على أزواجهم. وفيه إيذان بأنّ قوّتهم الشهويّة داعية لهم إلى ما [١٣١و]
لا يخفى، وأنّهم حافظون لها مِن استيفاء مقتضاها، وبذلك يتحقّق كمال العفّة.

ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى "مِن"، وإليه ذهب الفرّاء،[٢] كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين، ٨٣/٢]، أي: حافظون لها مِن كلّ أحد إلّا مِن أزواجهم. وقيل: هي متعلّقة بمحذوف وقَع حالًا مِن ضمير ﴿حَٰفِظُونَ﴾،

---

[١] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/١٧٥.
[٢] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢/٢٣١.

أي: حافظون لها في جميع الأحوال إلّا حالَ كونهم والِين أو قوّامين على أزواجهم. وقيل: بمحذوف يدلّ عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، كأنّه قيل: يلامون على كلّ مباشَر إلّا على ما أُطلق لهم، فإنّهم غير ملومين.

وحملُ الحفظِ على القَصر عليهنّ ليكون المعنى: حافظون فُروجهم على الأزواج لا يتعدّاهنّ، ثمّ يقال: غير حافظين إلّا عليهنّ، تأكيدًا على تأكيد؛[١] تكلّفٌ[٢] على تكلّف.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: سراريّهم، عُبّر عنهنّ بـ﴿مَا﴾ إجراءً لهنّ لمملوكيّتهنّ مُجرى غيرِ العقلاء، أو لأنوثتهنّ المُنبئة عن القصور.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لِمَا يفيده الاستثناء مِن عدم حفظ فروجهم منهنّ، أي: فإنّهم غير مَلومين على عدم حفظها منهنّ.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الحدّ المتّسع، وهو أربع مِن الحرائر، وما شاء مِن الإماء، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان، المتناهون فيه. وليس فيه ما يدلّ حتمًا على تحريم المتعة، حسبما نقل عن القاسم بن محمّد،[٣] فإنّه قال: «إنّها ليست زوجةً له، فوجب ألّا تحلّ له، أمّا أنّها ليست زوجةً له فلأنّهما لا يتوارثان بالإجماع،[٤] ولو كانت زوجةً له لَحَصل التوارث لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء، ١٢/٤]، فوجب أن لا تحِلّ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾»؛[٥] لأنّ لهم أن يقولوا: إنّها زوجة له في الجملة. وأمّا أنّ كلّ زوجة ترِث فهم لا يسلّمونها، وأمّا ما قيل مِن أنّه إن أريدَ لو كانت زوجةً

---

١ انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣١٩/٦.

٢ خبر "حَملُ".

٣ هو القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، القرشي، التيمي، البكري، المدني، أبو محمّد (ت. ١٠٧هـ/٧٢٥م)، الإمام، القدوة، الحافظ، الحجّة، عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة، ولد في خلافة عليّ رضي الله عنه، ورُبّي في حِجر عمّته أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وتفقّه منها، وأكثرَ عنها. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٣/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٨١/٥.

٤ م ط س - بالإجماع ["صح" في هامش م س].

٥ في الآية السابقة. | تفسير الرازي، ٧١/٢٣.

حالَ الحياة لم يُفد، وإن أريدَ بعد الموت فالملازمة ممنوعة، فليس له معنى محصّل. نعم لو عُكِس لكان له وجه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾

/ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لِما يُؤتمَنون عليه ويُعاهَدون مِن جهة الحقِّ أو الخلقِ ﴿رَٰعُونَ﴾ أي: قائمون عليها حافظون لها على وجه الإصلاحِ. وقُرئ: "لِأَمَانَتِهِمْ".[1] [١٣١ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ المفروضة عليهم ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها، ويؤدّونها في أوقاتها. ولفظ الفعل فيه لِما في الصلاة مِن التجدّد والتكرّر، وهو السرّ في جمعها. وليس فيه تكرير، لِما أنّ الخشوع في الصلاة غيرُ المحافظة عليها. وفصلُهما للإيذان بأنّ كلًّا منهما فضيلة مستقلّة على حيالها، ولو قُرِنا في الذِّكر لربّما توهّم أنّ مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن الصفات. وإيثارها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلةَ المشار إليهم حِسًّا. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعلوّ طبقتهم وبُعد درجتهم في الفضل والشرَف، أي: أولئك المَنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي: الأحِقّاء بأن يُسمَّوا وُرّاثًا، دون مَن عداهم ممّن وَرِث رغائب الأموال والذخائر وكرائمَها.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لِما يَرثونه، وتقييدٌ للوِراثة بعد إطلاقها، وتفسيرٌ لها بعد إبهامها، تفخيمًا لشأنها، ورفعًا لمحلِّها. وهي استعارة لاستحقاقهم "الفردوس" بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه.

---

[1] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٨.

وقيل: إنّهم يرثون مِن الكفّار منازلَهم فيها حيث فوّتوها على أنفسهم؛ لأنّه تعالى خلق لكلّ إنسان منزلًا في الجنّة ومنزلًا في النّار.

﴿هُمْ فِيهَا﴾ أي: في الفردوس. والتأنيث لأنّه اسم للجنّة، أو لطبقتها العليا، وهو البستان الجامع لأصناف الثمر. رُوي أنّه تعالى بنى جنّة الفردوس لَبِنةً مِن ذهب، ولَبِنةً مِن فضّة، وجعل خِلالها المِسكَ الأذفَر. وفي رواية: ولَبِنةً مِن مِسك مُذرًّى، / وغرس فيها مِن جيّد الفاكهة وجيّد الريحان.[١] [١٣٢و]

﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدًا. والجملة إمّا مستأنفة مقرِّرة لِما قبلها، وإمّا حال مقدّرة مِن فاعل ﴿يَرِثُونَ﴾، أو مفعوله، إذ فيها ذِكر كلّ منهما. ومعنى الكلام: لا يموتون ولا يخرجون منها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ شروع في بيان مَبدأ خلق الإنسان وتقلّبه في أطوار الخِلقة وأدوارِ الفطرة بيانًا إجماليًا إثرَ بيان حال بعض أفراده السعداء. و"اللام" جواب قسم، و"الواو" ابتدائيّة. وقيل: عاطفة على ما قَبلها. والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنس، أي: وباللهِ لقد خلقنا جنس الإنسان في ضمن خلق آدم عليه السلام خَلقًا إجماليًا حسبما تحقّقتَه في سورة الحجّ وغيرها.[٢] وأمّا كونه مخلوقًا مِن سلالات جُعلت نُطَفًا بعد أدوار وأطوار[٣] فبعيدٌ.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ "السُّلالة": ما سُلَّ مِن الشيء واستُخرِجَ منه. فإنّ "فُعَالة" اسم لِما يحصل مِن الفعل، فتارة تكون مقصودًا منه، كـ"الخُلاصة"، وأخرى غير مقصود منه، كـ"القُلامة" و"الكُناسةِ"، و"السُّلالةُ" مِن قَبيل الأوّل، فإنّها مقصودة بالسَّلّ.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٧٨/٣. وفي سنن الترمذي، ٦٧٢/٤ (٢٥٢٦)، عن أبي هريرة، قال: قلت: «الجنّة ما بناؤها؟» قال: «لَبِنة مِن فضّة ولَبِنة مِن ذهب، ومِلاطها المِسك الأذفَر، وحَصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران»...

٢ وفي هامش م: مِن سورة طه وسورة مريم وغيرهما. «منه». | مريم، ٩/١٩؛ طه، ٥٥/٢٠؛ الحجّ، ٥/٢٢.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٣/٤.

و﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلّقة بالخَلق. وما في قوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ﴾ بيانيّة متعلّقة بمحذوف وقعَ صفة لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾، أي: خلقناه مِن سُلالة كائنة مِن طين. ويجوز أن تتعلّق بـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ على أنّها بمعنى "مسلولة"، فهي ابتدائيّة كالأولى.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ آدم عليه السلام، فإنّه الذي خُلق مِن صفوةٍ سُلَّت مِن الطين. وقد وقفتَ على التحقيق.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: الجنس باعتبار أفراده المغايِرة لآدم عليه السلام، أو جعلنا نسله، على حذف المضاف إن أريدَ بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾[١] آدم عليه السلام ﴿نُطۡفَةٗ﴾ بأن خلقناه منها. أو ثمّ جعلنا السّلالة نطفة، والتذكيرُ بتأويل الجوهر، أو المَسلول، أو الماء.

﴿فِي قَرَارٖ﴾ أي: مستقَرّ، وهو الرحِم، عُبّر عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغةً. وقوله تعالى: ﴿مَّكِينٖ﴾ وصفٌ لها بصفة ما استقرّ فيها، مثل: / "طريق سائر"، أو بمكانتها في نفسها، فإنّها مُكِّنت بحيث هي وأُحرِزت. [١٣٢ظ]

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ﴾ أي: دمًا جامدًا بأن أحَلْنا النطفةَ البيضاء علقةً حمراء. ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ أي: قطعةَ لحم لا استبانةَ ولا تَمايزَ فيها، ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ﴾ أي: غالبَها ومعظمَها أو كلَّها ﴿عِظَٰمٗا﴾ بأن صلّبناها وجعلناها عَمودًا للبدن على هيئاتٍ وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة، ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ﴾ المعهودةَ ﴿لَحۡمٗا﴾ مِن بقيّة المضغة، أو ممّا أنبتنا عليها بقدرتنا ممّا يصل إليها، أي: كسونا كلّ عظم مِن تلك العظام ما يليق به مِن اللحم على مقدار لائقٍ به وهيئة مناسبة له. واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات،

---

١ في الآية السابقة.

وجمع العظام لاختلافها. وقُرئ على التوحيد فيهما[١] اكتفاءً بالجنس، وبتوحيد الأوّل فقط،[٢] وبتوحيد الثاني فحسب.[٣]

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ هي صورة البدن، أو الروح، أو القوى بنفخه فيه، أو المجموع. و﴿ثُمَّ﴾ لكمال التفاوت بين الخلقَين. واحتجّ به أبو حنيفة رحمه الله على أنّ مَن غَصَب بَيضةً فأفرَخت عنده لزِمه ضمان البَيضة، لا الفَرخ؛ لأنّه خَلق آخر.[٤]

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى شأنه في علمه الشامل وقدرته الباهرة. والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعارِ بأنّ ما ذكر مِن الأفاعيل العجيبة مِن أحكام الألوهيّة، وللإيذان بأنّ حقَّ كلِّ مَن سَمِع ما فُصِّل مِن آثار قدرته عزّ وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلّم به إجلالًا وإعظامًا لشئونه تعالى.

﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ بدَل مِن الجلالة. وقيل: نعت له بناءً على أنّ الإضافة ليست لفظيّة.[٥] وقيل: خبر مبتدإٍ محذوف، أي: هو أحسن الخالقين خَلقًا، أي: المقدِّرين تقديرًا، حُذف المميَّز لدلالة ﴿ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ عليه، كما حُذف المأذون فيه / في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [الحج، ٣٩/٢٢] لدلالة الصلة عليه، أي: [١٣٣و]
أحسن الخالقين خَلقًا، فالحُسن للخلق.

قيل: نظيره قوله عليه السلام: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال»،[٦] أي: جميلٌ فعلُه، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، فانقلب مرفوعًا، فاستكنّ.

رُوي أنّ عبد الله بن أبي سَرْح كان يكتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم الوحيَ، فلمّا انتهى عليه السلام إلى قوله: ﴿خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ سارع عبد الله إلى النطق به قبل إملائه عليه السلام، فقال عليه السلام: «اكتب، هكذا نزلت»،

---

١ أي: "عَظْمًا فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ". قرأ بها ابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وقتادة والأعرج والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٤ انظر: البحر الرائق لابن نجيم، ٢٤٥/٧.

٥ ط س: محضة. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٦ صحيح مسلم، ٩٣/١ (٩١)؛ سنن الترمذي، ٣٦١/٤ (١٩٩٩).

فشكَّ عبد الله، فقال: «إن كان محمّد يوحَى إليه فأنا كذلك»، فلحِق بمكّة كافرًا، ثمّ أسلَم يومَ الفتح. وقيل: مات على كفره.[١]

ورَوى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية قال عمر رضي الله عنه: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هكذا نزل يا عمر».[٢]

وكان رضي الله عنه يفتخر بذلك ويقول: «وافقتُ ربّي في أربع؛ الصلاةِ خلفَ المقام، وضَربِ الحجاب على النسوة، وقَولي لهنّ: "أو ليُبْدله الله خيرًا منكنّ" فنزل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآيةَ [التحريم، ٦٦/٥]، والرابعُ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾».[٣]

انظر كيف وقعت هذه الواقعة سببًا لسعادة عمر رضي الله عنه وشقاوة ابن أبي سَرح حسبما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة، ٢/٢٦]. لا يُقال: فقد تكلّم البشر ابتداءً بمِثل نظم القرآن، وذلك قادح في إعجازه؛ لِمَا أنّ الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار أقصر السور، على أنّ إعجاز هذه الآية الكريمة مَنوط بما قبلها، كما يُعرب عنه "الفاء"، فإنّها اعتراض تذييلي مقرّر لمضمون ما قبله.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذكر مِن الأمور العجيبة، حسبما يُنبئ عنه ما في اسم الإشارة مِن معنى البعد المشعِر بعلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل والكمال، وكونِه بذلك ممتازًا منزّلًا منزلةَ الأمور الحسّيّة.

/ ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ لَصائرون إلى الموت لا محالةَ، كما يؤذن به صيغة النعت الدالّة على الثبوت، دون الحدوث الذي يفيده صيغة الفاعل. وقد قُرئ: "لَمَائِتُونَ".[٤] [١٣٣ظ]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٧٩/٣.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٧٩/٣. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٤٣٨/١١ (١٢٢٤٤)، في حديث طويل.

٣ تفسير يحيى بن سلّام، ٣٩٥/١؛ مسند أبي داود الطيالسي، ٤٦/١ (٤١).

٤ قراءة شاذّة، مروية عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٣.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ١٦﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: عند النفخة الثانية ﴿تُبْعَثُونَ﴾ مِن قبوركم للحساب والمُجازاة بالثواب والعقاب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ بيان لخلق ما يَحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم، أي: خلقنا في جهة العلوّ مِن غير اعتبار فوقيّتها لهم؛ لأنّ تلك النسبة إنّما تعرّض لها بعد خلقهم.

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ هي السماوات السبع، سمّيت بها لأنّها طُورق بعضها فوق بعض مطارقةَ النعل،[1] فإنّ كلّ ما فوقَه مثلُه فهو طريقه، أو لأنّها طرائق الملائكة، أو الكواكب فيها مسيرها.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هي السماوات، أو عن جميع المخلوقات التي هي مِن جملتها، أو عن الناس ﴿غَٰفِلِينَ﴾ مهمِلين أمرها؛ بل نحفظها عن الزوال والاختلال، وندبّر أمرها حتّى تبلغ منتهى ما قُدّر لها مِن الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلّقت به المشيئة، ويصل إلى ما في الأرض منافعها، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر، أو الأنهار النازلة مِن الجنّة. قيل: هي خمسة أنهار؛ سِيحون نهر الهند، وجيحون نهر بَلْخ، ودِجلة والفرات نهرا العراق، والنيل نهر مِصر، أنزلها الله تعالى مِن عينٍ واحدة مِن عيون الجنّة، فاستودعها الجبالَ، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في فنون معايشهم.[2]

و﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلّقة بـ﴿أَنزَلْنَا﴾، وتقديمُها على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر. والعدول عن الإضمار لأنّ الإنزال لا يُعتبر فيه عنوان كونها طرائقَ؛ بل مجرّدُ كونها جهةَ العلوّ.

---

[1] طارَق النعلَ، إذا صيّرها طاقًا فوق طاق، وركّب بعضها فوق بعض. النهاية لابن الأثير، «طرق».

[2] التفسير الوسيط للواحدي، ٢٨٧/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٧٩/٣.

﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقديرٍ لائقٍ لاستجلاب منافعهم ودفع مضارّهم، / أو بمقدار [١٣٤و]
ما علمنا مِن حاجاتهم ومصالحهم، ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلناه ثابتًا قارًّا فيها.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ﴾ أي: إزالته بالإفساد، أو التصعيد، أو التغوير بحيث يتعذّر استنباطه ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ كما كنّا قادرين على إنزاله. وفي تنكير ﴿ذَهَابِۭ﴾ إيماء إلى كثرة طُرقه، ومبالغةٌ في الإيعاد[1] به، ولذلك جُعل أبلغَ مِن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك، ٦٧/٣٠].

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنّات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكّهون بها، ﴿وَمِنْهَا﴾ مِن الجنّات ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذّيًا، أو تُرزقون وتحصّلون معايشكم، مِن قولهم: "فلان يأكل مِن حِرفته". ويجوز أن يعود الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمراتها أنواع مِن الفواكه، الرُّطَب والعِنب، والتمر والزبيب، والعصير والدبس، وغير ذلك، وطعامٌ تأكلونه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾.[2] وقُرئ بالرفع على أنّه مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه ما قبله، أي: وممّا أُنشِئَ لكم به شجرة، وتخصيصُها بالذكر مِن بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافعَ معروفة، قيل: هي أوّلُ شجرة نبتَتْ بعد الطوفان.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، ويقال له: "طور سينين". فإمّا أن يكون "الطور" اسم الجبل، و﴿سَيْنَآءَ﴾ اسم البقعة أضيفَ إليها، أو المركّب منهما علَم له،

---

[1] ط س: الإبعاد.

[2] في الآية السابقة.

كـ"امرئ القيس". ومنعُ صرفه[١] على قراءة مَن كسر السين[٢] للتعريف[٣] والعجمة، أو التأنيثِ على تأويل البُقعة، لا للألف؛ لأنّه "فِيعال" -كـ"دِيماس"- مِن "السَّناء" بالمدّ، وهو الرفعة، أو بالقصر، وهو النور، أو ملحق بـ"فِعْلَال" -كَـ"عِلْبَاء"-[٤] مِن "السِّين"، / إذ لا فِعلاءَ بألف التأنيث، بخلاف "سَيناء"، فإنّه "فَيعال" كـ"كَيسان"، [١٣٤ظ] أو "فَعلاء" كـ"صَحراء"، إذ لا "فَعْلَال" في كلامهم. وقُرئ بالكسر والقصر.

والجملة صفة لـ﴿شَجَرَةً﴾، وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها مِن سائر البقاع أيضًا لتعظيمها، ولأنّه المنشأ الأصلي لها.

وقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ صفة أخرى لـ﴿شَجَرَةً﴾، و"الباء" متعلّقة بمحذوف وقع حالًا منها، أي: تنبت ملتبسة به. ويجوز كونها صلة معدِّية، أي: تُنْبِتُه بمعنى تتضمّنه وتحصّله، فإنّ النبات حقيقةً صفةٌ للشجرة لا للدهن. وقُرئ: "تُنْبِتُ"[٥] مِن الإفعال، وهو إمّا مِن "الإنبات" بمعنى "النبات"، كما في قول زهير:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتهم قَطينًا لهم حتّى إذا أنبتَ البقلُ[٦]

أو على تقدير: تُنبتُ زيتونَها ملتبسًا بالدهن. وقُرئ على البناء للمفعول،[٧] وهو كالأوّل، و"تُثْمِرُ بِالدُّهْنِ"،[٨] و"تَخْرُجُ بِالدُّهْنِ"،[٩] و"تَنْبُتُ بِالدِّهَانِ".[١٠]

---

١ س + للتعريف.

٢ ط - على قراءة مَن كسر السين. | قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٣ س - للتعريف.

٤ ط س: كعليا.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورويس. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٦ القطين: الساكن النازل في الدار. يقول: يلزمونهم فيسكنون عندهم. وقوله: "أنبتَ البقلُ" أي: أخصب الناس. شرح شعر زهير لثعلب، ص ٩٣.

٧ أي: "تُنْبَتُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري والحسن والأعرج. شواذ القراءات للكرماني، ص ٣٣٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٥/٧.

٩ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها، ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه: "تُخرِجُ الدُّهْنَ". انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٥/٧. قال أبو حيّان: «وما رَووا مِن قراءة عبد الله "تُخرِجُ الدُّهْنَ" وقراءة أبيّ "تُثْمِرُ بِالدُّهْنِ" محمول على التفسير لمخالفته سَواد المصحف المجمع عليه».

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن عبد الملك والأشهب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٥/٧.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلدُّهْنِ﴾ جارٍ على إعرابه عطفَ أحدِ وصفَي الشيء على الآخر، أي: تَنبُت بالشيء الجامع بين كونه دُهنًا يُدهَن به ويُسرَج منه، وكونِه إدامًا يُصبغ فيه الخبز، أي: يُغمَس للاِئتدام. وقُرئ: "وَصِبَاغٍ"، كـ"دِبَاغٍ" في دَبْغ.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم مِن جهة الحيوان إثرَ بيان النعم الواصلة إليهم مِن جهة الماء والنبات، وقد بُيّن أنّها مع كونها في نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتّى عبرةٌ لا بدّ مِن أن يعتبروا بها، ويستدلّوا بأحوالها على عظيم قدرة الله عزّ وجلّ، وسابغ رحمته، ويشكروه، ولا يكفروه، وخُصّ هذا بالحيوان لِما أنّ محلّ العبرة فيه أظهر ممّا في النبات.

وقوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ / تفصيل لِما فيها مِن مواقع العِبرة. [١٣٥و] وما في بطونها عبارة إمّا عن الألبان، فـ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، والمراد بـ"البطون" الجَوف، أو عن العَلَف الذي يتكوّن منه اللبن، فـ﴿مِن﴾ ابتدائيّة، و"البطون" على حقيقتها. وقُرئ بفتح النون،[١] وبالتاء،[٢] أي: تَسقِيكم الأنعام.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذُكر مِن أصوافها وأشعارها، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: على الأنعام، فإنّ الحَمل عليها لا يقتضي الحَمل على جميع أنواعها؛ بل يتحقّق بالحَمل على البعض، كالإبل ونحوها. وقيل: المراد هي الإبل خاصّةً؛ لأنّها هي المحمول عليها عندهم، والمناسبُ لـ﴿ٱلْفُلْكِ﴾،

---

[١] قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

[٢] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

فإنّها سفائن البرّ، قال ذو الرمّة:[١]

سفينةُ بَـرٍّ تـحـتَ خَـدّي زِمـامُـهـا[٢]

فالضمير فيهِ كما في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[٣] [البقرة، ٢/٢٢٨].

﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: في البرّ والبحر. وفي الجمع بينها وبين ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ في إيقاع الحَمل عليها مبالغة في تحمّلها للحَمل، وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها مِن المنافع الحاصلة منها مِن[٤] ذكر مَنفعة الأكل المتعلّقة بعينها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروع في بيان إهمال الأمم السابقة، وتركِهم النظرَ والاعتبارَ فيما عُدِّد مِن النِّعم الفائتة للحصر، وعدمِ تذكّرهم بتذكير رسلهم، وما حاق بهم لذلك مِن فنون العذاب؛ تحذيرًا للمخاطَبين. وتقديمُ قصّةِ نوح عليه السلام على سائر القِصص ممّا لا يخفى وجهه، وفي إيرادها إثرَ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[٥] مِن حُسن الموقع ما لا يوصف.

و"الواو" ابتدائيّة، و"اللام" جواب قسم محذوف. وتصدير القصّة به لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها، أي: وبالله / لقد أرسلنا نوحًا... إلخ. ونَسَبه الكريم [١٣٥ظ]
وكيفيّةُ بَعثه وكمّيّةُ لَبثه فيما بينهم قد مرّ تفصيله في سورة الأعراف[٦] وسورة هود.[٧]

---

[١] هو غيلان بن عقبة بن بهيس، ذو الرُّمّة (ت. ١١٧هـ/٧٣٥م)، مِن فحول الشعراء، مُضريّ النسب. والرُّمّة: هي الحبل. شبَّبَ بمَيّة بنت مقاتل المنقريّة، وبالخرقاء. وله مدائح في الأمير بلال بن أبي بردة. قال أبو عمرو بن العلاء: «افتُتح الشعراء بامرئ القيس، وخُتموا بذي الرُّمّة». وقيل: إن الوليد قال للفرزدق: «أتعلم أحدًا أشعرَ منك؟» قال: «غلام مِن بني عديّ، يركب أعجاز الإبل» يريد: ذا الرُّمّة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/٢٦٧؛ والأعلام للزركلي، ٥/١٢٤.

[٢] صدره:
طُروقًا وجِلبُ الرَّحلِ مشدودةٌ به
ديوان ذي الرمّة، ٢/١٠٠٤. وفيه: "وجِلْبُ الرَّحل": خشبة بغير أداة.

[٣] وفي هامش م: مِن حيث إنّ كلًّا منها أخصّ مِن المرجع فـ﴿ٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ تعمّ المطلّقة الرجعيّة والمَبتوتة، وكذا ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تعمّ الإبل وغيرها. «منه».

[٤] س: عن.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] الأعراف، ٧/٥٩.

[٧] هود، ١١/٢٥.

﴿فَقَالَ﴾ متعطّفًا عليهم ومستميلًا لهم إلى الحقّ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه وحده كما يُفصح عنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود، ٢٦/١١]. وتركُ التقييد به للإيذان بأنّها هي العبادة فقط، وأمّا العبادة بالإشراك فليس مِن العبادة في شيء رأسًا.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئناف مَسوق لتعليل العبادة المأمور بها، أو تعليلِ الأمر بها. و﴿غَيْرُهُۥ﴾ بالرفع صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار محلِّه الذي هو الرفعُ على أنّه فاعل، أو مبتدأ خبره ﴿لَكُم﴾، أو محذوف و﴿لَكُم﴾ للتخصيص والتبيين، أي: ما لكم في الوجود أو في العالَم إلهٌ غيرُه تعالى. وقُرئ بالجرّ[١] باعتبار لفظه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تقُون أنفسَكم عذابَهُ الذي يستوجبه ما أنتم عليه مِن ترك عبادته تعالى، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف، ٥٩/٧]، وقولُه تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود، ٢٦/١١]. وقيل: أفلا تخافون أن ترفضوا عبادةَ الله الذي هو ربّكم... إلخ، وليس بذاك. وقيل: أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعَمه... إلخ، وفيه ما فيه. و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أتعرفون ذلك -أي: مضمون قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾- فلا تتّقون عذابه بسبب إشراككم به في العبادة ما لا يستحقّ الوجودَ لولا إيجاد الله تعالى إيّاه، فضلًا عن استحقاق العبادة؟ فالمنكَرُ عدمُ الاتّقاء مع تحقّق ما يوجبه، أو ألَا تُلاحظون ذلك فلا تتّقونه؟ فالمنكَر كِلا الأمرين، فالمبالغة حينئذ في الكمّيّة، وفي الأوّل في الكيفيّة.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ﴾ أي: الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وُصِف الملأ بما ذُكر مع اشتراك الكلّ فيه للإيذان بكمال عَراقتهم في الكفر، وشدّةِ شَكيمتهم فيه،

---

[١] قرأ بها أبو جعفر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

أي: قالوا لعوامّهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي: في الجنس والوصف مِن غير فَرق / بينكم وبينه، وصفوه عليه السلام بذلك مبالغةً في وضع رتبته العالية [١٣٦و] وحطِّها عن منصب النبوّة.

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدّمكم بادّعاء الرسالة مع كونه مثلَكم، وصفوه بذلك إغضابًا للمخاطَبين عليه عليه الصلاة والسلام[١] وإغراءً لَهم على معاداته عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريّته عليه السلام، أي: لو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلًا مِن الملائكة. وإنّما قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾ لأنّ إرسال الملائكة لا يكون إلّا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلقُ الإرسال المفهومُ مِن الجواب، لا نفسُ مضمونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ﴾ [النحل، ٩/١٦] ونظائره.

﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بمثل هذا الكلام الذي هو الأمر بعبادة الله تعالى خاصّةً وتركِ عبادة ما سواه. وقيل: بمثل نوح عليه السلام في دعوى[٢] النبوّة. ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: الماضِين قبل بعثته عليه السلام، قالوه إمّا لكونهم وآبائهم في فترة متطاولة، وإمّا لفَرط غلوّهم في التَكَذُّبِ والعناد، وانهماكهم في الغيّ والفساد. وأيًا ما كان فقولُهم هذا ينبغي أن يكون هو الصادر عنهم في مبادي دعوته عليه السلام، كما ينبئ عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ﴾... إلخ.

وقيل: معناه: ما سمعنا به عليه السلام أنّه نبيّ. فالمراد بآبائهم الأوّلين الذين مضَوا قبلهم في زمن نوح عليه السلام. وقولهم المذكور هو الذي صدر عنهم في أواخر أمره عليه السلام، وهو المناسب لِما بعده مِن حكاية دعائه عليه السلام، وقولِهم: ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ أي: جنون، أو جِنّ يخبلونه، ولذلك يقول ما يقول، ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ لعلّه يُفيق ممّا فيه؛ محمولٌ حينئذ على ترامي أحوالهم في المكابرة والعناد، وإضرابِهم عمّا وصفوه عليه السلام به مِن البشريّة وإرادةِ التفضّل إلى وصفه عليه السلام

---

١ س: عليه السلام.

٢ س: ذعوى.

بما ترى، وهم يعرفون أنّه عليه السلام أرجح الناس عقلًا وأرزنُهم قولًا. وعلى الأوّل على تناقض مقالاتهم الفاسدة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية كلام الكفرة، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام بعدما سمع منهم هذه الأباطيل؟ فقيل: قال لمّا رآهم قد أصرّوا على الكفر والتكذيب، وتمادَوا في الغواية والضلال حتّى يَئِس مِن إيمانهم بالكلّيّة، وقد أُوحِي إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود، ٣٦/١١]: / ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ بإهلاكهم بالمرّة، فإنّه حكاية إجماليّة لقوله عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾... إلخ [نوح، ٢٦/٧١]. [١٣٦ظ]

﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إيّاي، أو بدلَ تكذيبهم.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ عند ذلك ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ «أن» مفسِّرة لِما في الوحي مِن معنى القول. ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ ملتبسًا بحفظنا وكلاءتنا، كأنّ معه عليه السلام منه عزّ وعلا حُفّاظًا وحرّاسًا يكلئونه بأعينهم مِن التعدّي، أو مِن الزيغ في الصنعة. ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ وأمرِنا وتعليمِنا لكيفيّة صنعها.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفُلك. والمراد بـ"الأمر" العذابُ كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [هود، ٤٣/١١]، لا الأمرُ بالركوب كما قيل،[١] وبمجيئه كمالُ اقترابه أو ابتداءُ ظهوره. أي: إذا جاء إثرَ تمام الفُلك عذابُنا.

---

[١] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨٦/٤.

وقوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ عطف بيان لمجيء الأمر. رُوي أنّه قيل له عليه السلام: «إذا فار الماء مِن التنّور اركب أنت ومَن معك»، وكان تنّورَ آدمَ عليه السلام، فصار إلى نوح عليه السلام، فلمّا نبع منه الماءُ أخبرَته امرأته فركبوا.[١] واختُلِف في مكانه، فقيل: كان في مسجد الكوفةِ، أي: في موضعه عن يمين الداخل مِن باب كِندةَ اليومَ. وقيل: كان في عين وردة مِن الشام. وقد مرّ تفصيله في تفسير سورة هود عليه السلام.[٢]

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أَدْخِل فيها، يقال: "سَلَكَ فيه"، أي: دَخَل فيه، و"سَلَكَه فيه"، أي: أَدخَله[٣] فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر، ٤٢/٧٤].

﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ أمّة ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي: فَردين مزدَوجين، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ فإنّه نصّ في الفردين دون الجمعَين أو الفريقَين. وقُرئ بالإضافة[٤] على / أنّ المفعول ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، أي: مِن كلِّ أُمّتَيْ زوجين، وهما أمّة الذكر وأمّة الأنثى، [١٣٧و] كالجِمال والنُّوق والحُصُن والرِّماك. وهذا صريح في أنّ الأمر كان قبل صنعة الفُلك، وفي سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ [هود، ٤٠/١١]، فالوجه أن يُحمل إمّا على أنّه حكاية لأمرٍ آخر تنجيزيّ ورَد عند فوران التنّور الذي نِيط به الأمر التعليقي اعتناءً بشأن المأمور به، أو على أنّ ذلك هو الأمر السابق بعينه، لكن لمّا كان الأمر التعليقي قبل تحقق المعلّق به في حقّ إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جُعِل كأنّه إنّما حدث عند تحقّقه، فحُكِي على صورة التنجيز، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة، ٣٤/٢].

﴿وَأَهْلَكَ﴾ منصوب بفعل معطوف على ﴿فَٱسْلُكْ﴾، لا بالعطف على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ على القراءتين؛ لأدائه إلى اختلال المعنى، أي: واسلك أهلَك، والمراد به امرأته وبنوه. وتأخير الأمر بإدخالهم عمّا ذُكر مِن إدخال الأزواج فيها لكونه عريقًا فيما أُمِر به مِن الإدخال، فإنّه محتاج إلى مُزاولة الأعمال منه عليه السلام؛

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٨٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٦/٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ٤٠٤/١٢ (هود، ٤٠/١١).

٢ هود، ٤٠/١١.

٣ س: أدخلته.

٤ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.

بل إلى معاونةٍ مِن أهله وأتباعه. وأمّا هم فإنّما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك، ولأنّ في المؤخَّر ضرب تفصيل بذِكر الاستثناء وغيره، فتقديمه يؤدّي إلى الإخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: القولُ بإهلاك الكفرة، وإنّما جيء بـ"على" لكون السابق ضارًّا، كما جيء باللام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١] لكونه نافعًا.

﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بالدعاء لإنجائهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ تعليلٌ للنهي، أو لِما يُنبئ عنه مِن عدم قبول الدعاء، أي: إنّهم مَقضيّ عليهم بالإغراق لا محالةَ لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصي. ومَن هذا شأنه لا يُشفع له / ولا يُشفَّع فيه، [١٣٧ظ] كيف لا، وقد أُمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ أي: مِن أهلك وأشياعك ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ على طريقة قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام، ٤٥/٦].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السفينة أو منها ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: إنزالًا، أو موضعَ إنزالٍ يستتبع خيرًا كثيرًا. وقُرئ: "مَنزِلًا"،[١] أي: موضعَ نزولٍ. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أُمر عليه السلام بأن يُشفع دعاءه ما يطابقه مِن ثنائه عزّ وجلّ توسّلًا به إلى الإجابة. وإفرادُه عليه السلام بالأمر مع شركة الكلّ في الاستواء والنجاة لإظهار فضله عليه السلام والإشعار بأنّ في دعائه وثنائه مندوحة عمّا عداه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ممّا فُعِل به عليه السلام وبقومه ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ جليلةً يستدِلّ بها أولو[٢] الأبصار، ويعتبر بها ذَوُو الاعتبار. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة

---

[١] قرأ بها أبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢. [٢] م: أولوا.

مِن "إنّ"، و"اللام" فارقة بينها وبين النافية. وضمير الشأن محذوف، أي: وإنّ الشأن كنّا مصيبين قومَ نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو مختبرين بهذه الآيات عبادَنا لننظر مَن يعتبر ويتذكّر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر، ١٥/٥٤].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم عاد حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما،[٢] وعليه أكثر المفسّرين، وهو الأوفق لِما هو المعهود في سائر السور الكريمة مِن إيراد قصّتهم إثرَ قصّة قوم نوح. وقيل: هم ثمود.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ جُعِلوا موضعًا للإرسال كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ [الرعد، ٣٠/١٣] ونحوِه، لا غايةً له كما في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ
[١٣٨و] أَرْسَلْنَا نُوحًا/ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف، ٥٩/٧]؛ للإيذانِ مِن أوّل الأمر بأنّ مَن أُرسل إليهم لم يأتهم مِن غير مكانهم؛ بل إنّما نشأ فيما بين أظهرهم، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، أي: مِن جملتهم نسبًا، فإنّهما عليهما السلام كانا منهم.

و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرة لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لتضمّنه معنى القول، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تعليل للعبادة المأمور بها، أو لِلأمرِ بها، أو لوجوب الامتثال به. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: عذابَه الذي يستدعيه ما أنتم عليه مِن الشرك والمعاصي. والكلام في العطف كالذي مرّ في قصّة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾

---

١ س - تعالى.

٢ المؤمنون، ٢٣/٢٣.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾ حكاية لقولهم الباطل إثرَ حكاية القول الحقّ الذي ينطق به حكايةُ إرسال الرسول بطريق العطف، على أنّ المراد حكايةُ مطلق تكذيبهم له عليه السلام إجمالًا، لا حكايةُ ما جرى بينه عليه السلام وبينهم مِن المحاورة والمقاولة تفصيلًا حتّى يُحكى بطريق الاستئناف المبنيّ على السؤال، كما يُنبئ عنه ما سيأتي مِن حكاية سائر الأمم، أي: وقال الأشراف مِن قومه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في محلّ الرفع على أنه صفة لـ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، وُصِفوا بذلك ذمًّا لهم، وتنبيهًا على غلوّهم في الكفر. وتأخيره مِن ﴿قَوْمِهِۦ﴾ لعطف قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وما عُطف عليه على الصلة الأولى، أي: كذّبوا بلقاء ما فيها مِن الحساب والثواب والعقاب، أو بمَعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث.

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ونعّمناهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد، أي: قالوا لأعقابهم مُضِلّين لهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الصفات والأحوال. وإيثارُ ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ على "مِثلنا" للمبالغة في تهوين أمره عليه السلام وتوهينه.

﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة. و﴿مَا﴾ خبريّة. / والعائد إلى الثاني منصوب محذوف، أو مجرور قد حُذف مع الجارّ [١٣٨ظ]
لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ أي: فيما ذُكر مِن الأحوال والصفات، أي: إن امتثلتم بأوامره ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي: على تقدير الاتّباع ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ عقولَكم، ومغبونون في آرائكم، حيث أذللتم أنفسكم. انظر كيف جعلوا اتّباعَ الرسول الحقّ الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خُسرانًا دون عبادة الأصنام التي لا خسرانَ وراءها، قاتلهم الله أنّى يُؤفكون.

و﴿إِذًا﴾ واقع بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرها لتأكيد مضمون الشرط. والجملة جواب لقسَم محذوف قبل ﴿إن﴾ الشرطيّة المصدّرة باللام الموطّئة. أي: وبالله لئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم إذًا لخاسرون.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله مِن زجرهم عن اتّباعه عليه السلام بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به واستبعاده. ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ بكسر الميم، مِن "مات يَمات". وقُرئ بضمّها،[1] مِن "مات يَموت". ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ نخِرةً مجرّدةً عن اللحوم والأعصاب، أي: كان بعض أجزائكم مِن اللحم ونظائره ترابًا، وبعضُها عظامًا. وتقديم التراب لعَراقته في الاستبعاد، وانقلابه مِن الأجزاء البادية. أو كان متقدّموكم ترابًا صِرفًا، ومتأخّروكم عظامًا.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُم﴾ تأكيد للأوّل لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ أي: مِن القبور أحياءً كما كنتم. وقيل: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبتدأ، و﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ خبره، على معنى إخراجكم إذا مِتّم، ثمّ أُخبر بالجملة عن ﴿أَنَّكُم﴾. وقيل: رُفع ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ بفعل هو جزاء الشرط، كأنّه قيل: إذا متّم وقع إخراجكم، ثمّ أُوقِعت الجملة الشرطيّة خبرًا عن ﴿أَنَّكُم﴾. والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم هو الأوّل. وقُرئ: "أَيَعِدُكُمْ إِذَا مِتُّمْ"... إلخ.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

[١٣٩و] / ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ تكرير لتأكيد البعد، أي: بَعُد الوقوعُ أو الصحّة ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. وقيل: "اللام" لبيان المستبعَد ما هو، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]، كأنّهم لمّا صوّتوا بكلمة الاستبعاد قيل: لماذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لِمَا توعدون. وقيل: ﴿هَيْهَاتَ﴾ بمعنى البعد، وهو مبتدأ خبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. وقُرئ بالفتح منوّنًا[2] للتنكير، وبالضمّ منوّنًا[3] على أنّه جمع "هَيهة"، وغيرَ منوّن[4]

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٤. وعن هارون عن أبي عمرو في البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٠/٧.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

تشبيهًا بـ"قَبْلُ"، وبالكسر على الوجهين،[١] وبالسكون[٢] على لفظ الوقف، وإبدالِ التاء هاءً.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أصله: إنِ الحياة إلّا حياتنا. فأقيمَ الضمير مُقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذرًا مِن التكرار، وإشعارًا بإغنائها عن التصريح، كما في "هي النفس تتحمّل ما حُمّلت"، و"هي العربُ تقول ما شاءت". وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالّة على الجنس كانت ﴿إِنْ﴾ النافية بمنزلة "لا" النافية للجنس.

وقوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ جملة مفسّرة لِما ادّعَوه مِن أنّ الحياة هي الحياة الدنيا، أي: يموت بعضنا ويولد بعض إلى انقراض العصر، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه مِن إرساله، وفيما يَعِدنا مِن أنّ الله تعالى يبعثنا، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمُصدّقين فيما يقوله.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: هود عليه السلام عند يأسه مِن إيمانهم بعد ما سلك في دعوتهم كلّ مَسلك متضرّعًا إلى الله عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ عليهم، وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إيّاي وإصرارِهم عليه.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابةً لدعائه وعِدَةً بالقبول: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن زمانٍ قليلٍ، و﴿مَا﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور لتأكيد معنى القِلّة، كما زيدت في قوله تعالى:

---

١ بالكسر مِن غير تنوين قرأ أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢. وبالكسر مع التنوين قراءة شاذّة، مرويّة عن خالد بن إياس. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجة بن مصعب عن أبي عمرو والأعرج وعيسى. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٥٩/٣]، / أو نكرة موصوفة أي: عن شيء قليل [١٣٩ظ]
﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ على ما فعلوا مِن التكذيب، وذلك عند معاينتهم للعذاب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ لعلَّهم حين أصابتهم الريح العقيم أُصِيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة أيضًا. وقد رُوي أنّ شدّاد بن عاد[١] حين أتمّ بناءَ إرَمَ سار إليها بأهله، فلمّا دنا منها بعث الله تعالى[٢] عليهم صيحة مِن السماء، فهلكوا.[٣] وقيل: الصيحة نفس العذاب والموت. وقيل: هي العذاب المصطَلم، قال قائلهم:

صاح الزمانُ بآل بَرْمَكَ صيحةً   خرّوا لشدّتها على الأذقانِ[٤]

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ"الأخذ"، أي: بالأمر الثابت الذي لا دفاع له، أو بالعدل مِن الله تعالى، أو بالوعد الصِّدق. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: كغُثاء السيل، وهو حَميله. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إخبار أو دعاء. و﴿بُعْدًا﴾ مِن المصادر التي لا يكاد يُستعمل ناصبُها. والمعنى: بَعُدوا بُعدًا، أي: هلكوا. و"اللام" لبيان مَن قيل له: ﴿بُعْدًا﴾. ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعدِ هلاكهم ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرِهم.

---

١ هو شدّاد بن عاد بن ملطاط بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن حِمير، مِن قحطان، ملِك يَماني جاهلي قديم مِن ملوك الدولة الحِميريّة. اتّفقت عليه كلمة أولي الرأي مِن حِمير وقحطان بعد وفاة النعمان بن يعفر، فولّوه المُلك في صنعاء، فكان حازمًا مِغوارًا، غزا البلاد إلى أن بلغ أرمينيّة، وعاد إلى الشام فزحف إلى المغرب، يبني المدن، ويتّخذ المصانع. ولمّا رجع إلى اليمن مضى إلى مأرب فبنى فيه قَصر "إرَم" بجانب السدّ. انظر: التيجان في ملوك حِمير للمعافري، ص ٧٤؛ والأعلام للزركلي، ١٥٨/٣.

٢ س - تعالى.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٧٤٨/٤ (الفجر، ٧/٨٩)؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٩/٥ (الفجر، ٧/٨٩).

٤ بغير نسبة في الدرّ الفريد للمستعصمي، ٥٤/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢١٥/١٤.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تتقدّم أمّةٌ مِن الأُمم المهلَكة الوقتَ الذي عُيِّن لهلاكهم، أي: ما تهلِك أمّة قبل مجيء أجلها، ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ ذلك الأجل ساعةً.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ عطفٌ على ﴿أَنشَأْنَا﴾،[1] لكن لا على معنى أنّ إرسالهم متراخٍ مِن إنشاء القرون المذكورة جميعًا؛ بل على معنى أنّ إرسال كلّ رسول متأخّر عن إنشاء قَرن مخصوص بذلك الرسول، كأنّه قيل: ثمّ أنشأنا مِن بعدهم قرونًا آخرين قد أرسلنا إلى كلّ قرن منهم رسولًا خاصًّا به. والفَصل بين المعطوفين بالجملة المعترِضة الناطقة بعدم تقدّم الأمم أجلَها المضروبَ لهلاكهم للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجهٍ إجمالي.

/ ﴿تَتْرَا﴾ أي: متواترين واحدًا بعد واحد، مِن "الوتر"، وهو الفرد. و"التاء" بدل مِن الواو، كما في "تَوْلَج"[2] و"تَيقُور".[3] والألف للتأنيث باعتبار أنّ الرسل جماعة. وقُرئ بالتنوين[4] على أنّه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالًا. [١٤٠و]

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ استئناف مبيِّن لمجيء كلّ رسول لأمّته، ولِما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة. والمراد بالمجيء إمّا التبليغ وإمّا حقيقة المجيء للإيذان بأنّهم كذّبوه في أوّل الملاقاة. وإضافة "الرسول" إلى "الأمّة" مع إضافة كلّهم فيما سبق إلى نون العظمة لتحقيق أنّ كلّ رسول جاءَ أمّته الخاصّة به، لا أنّ كُلّهم جاءوا كلّ الأمم، وللإشعار بكمال شناعتهم وضلالهم

---

[1] المؤمنون، ٤٢/٢٣.

[2] التَّوْلَج: الكِناس الذي يتّخذه الوحش في أصول الشجر، الأصل: "وَوْلَج"، فقُلبت الواو تاءً. لسان العرب لابن منظور، «دلج».

[3] التَّيقور: الوَقار، وأصله "وَيقور،" قلبت الواو تاء. الصحاح للجوهري، «وقر».

[4] قرأ بها أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

حيث كذّبت كلّ واحدة منهم رسولَها المعيّن لها. وقيل: لأنّ الإرسال لائِق بالمرسِل، والمجيءَ بالمرسَل إليهم.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك حسبما تبع بعضُهم بعضًا في مباشرة أسبابه التي هي الكفر والتكذيب وسائر المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم يبقَ منهم إلّا حكايات يَعتبر بها المعتبِرون. وهو اسم جمع للحديث، أو جمعُ "أُحدُوثة"، وهي ما يُتحدّث به تَلهّيًا، كـ"أعاجيب" جمع "أُعجُوبة"، وهي ما يُتعجّب منه، أي: جعلناهم أحاديثَ يُتحدّث بها تلهّيًا وتعجّبًا.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ اقتُصِر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان حسبما اقتُصِر على حكاية تكذيبهم إجمالًا. وأمّا القَرن الأَوّلون فحيث نُقل عنهم ما مرّ مِن الغلوّ وتجاوز الحدّ في الكفر والعدوان وُصِفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٤٥﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ هي الآيات التسع مِن اليد والعصا[1] والجراد والقمّل والضفادع والدم والسنين[2] ونقص الثمرات والطاعون. ولا مساغ لِعَدِّ "فَلْق البحر" منها، إذ المراد هي الآيات التي كذّبوها واستكبروا عنها.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجّة واضحة ملزِمةٍ للخصم، وهي إمّا العصا، وإفرادُها بالذكر مع اندراجها في الآياتِ لِما أنّها أمّ آياته عليه السلام وأولاها، وقد تعلّقت بها معجزات شتّى مِن انقلابها ثعبانًا وتلقّفِها لِما أفِكته السحرة، حسبما فُصّل في تفسير سورة طه.[3] وأمّا التعرّض لانفلاق البحر وانفجار العيون مِن الحَجر بضربها وحِراستها وصيرورتها شمعة وشجرة خضراء مثمرة / ودلوًا ورِشاءً وغير ذلك ممّا ظهر منها مِن قبلُ ومِن بعدُ في غير مَشهد فرعونَ وقومه[4] فغير ملائم لمقتضى المقام. [١٤٠ظ]

---

١ س + والطوفان [زِيد في الهامش بعلامة "صح"].
٢ م ط س – والسنين ["صح" في هامش م].
٣ طه، ٢٠/٢٠؛ طه، ٢٠/٦٩.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٨٩؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٨٨.

وإمّا نفس الآيات كقوله:

إلى المَلِك القَرم وابنِ الهُمام... إلخ[١]

عُبّر عنها بذلك على طريقة العطف تنبيهًا على جمعها لعنوانين جليلين وتنزيلًا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتي.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه، خُصّوا بالذكر لأنّ إرسال بني إسرائيل مَنوط بآرائهم، لا بآراء أعقابهم، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الانقياد، وتمرّدوا، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبّرين متمرّدين.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ عطفٌ على ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾،[٢] وما بينهما اعتراض مقرّر للاستكبار، أي: كانوا قومًا عادتهم الاستكبار والتمرّد، أي: قالوا فيما بينهم بطريق المناصَحة: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثُنّي "البشَرُ" لأنّه يُطلَق على الواحد، كقوله تعالى: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم، ١٧/١٩]، كما يُطلَق على الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم، ٢٦/١٩]، ولم يُثَنَّ "المِثْلُ" نظرًا إلى كونه في حكم المصدر.

وهذه القَصص كما ترى تدلّ على أنّ مدار شُبَه المنكرين للنبوّة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناءً على جهلهم بتفاصيل شئون الحقيقة البشريّة، وتباين طبقات أفرادها في مراقي الكمال ومَهاوي النقصان، بحيث يكون بعضها في أعلى علّيّين، وهم المختصّون بالنفوس الزكيّة، المؤيّدون بالقوّة القدسيّة، المتعلّقون لِصفاءِ جواهرهم بكِلا العالَمَين الروحاني والجسماني، يَتلقّون مِن جانب ويُلْقُون إلى جانب، ولا يَعوقهم التعلّق بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، وبعضُها في أسفل سافلين، كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام؛ بل هم أضلّ سبيلًا.

---

[١] وفي هامش م: تمامه:

وليثُ الكتائب في المزدحَم

وهو بغير نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٥/١؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٤٥١/١.

[٢] في الآية السابقة.

﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنّهم قصدوا بذلك التعريضَ بشأنهما عليهما السلام وحطَّ رتبتهما العليّة عن منصب الرسالة مِن وجه آخر غيرِ البشريّة. و"اللام" في ﴿لَنَا﴾ متعلّقة بـ﴿عَٰبِدُونَ﴾، قُدّمت عليه رعايةً للفواصل، والجملةُ حال مِن فاعل ﴿نُؤْمِنُ﴾ مؤكِّدة لإنكار الإيمان لهما بناءً على زعمهم الفاسد المؤسَّس على قياس الرياسة الدينيّة على الرياسات الدنيويّة الدائرة على التقدّم في نيل الحظوظ الدنيّة مِن المال والجاه، كدأب قريش حيث قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ[١] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وجهلِهم بأنّ مناط الاصطفاء للرسالة هو السَّبق في حيازة ما ذكر مِن النعوت العليّة، وإحرازِ الملَكات السنيّة جِبلّةً واكتسابًا.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فَتمُّوا[٢] على تكذيبهما، وأصرّوا واستكبروا استكبارًا، ﴿فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرَق في بحر قلزم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي: بعد إهلاكِهم وإنجاءِ بني إسرائيل مِن مَلَكتهم ﴿مُوسَى
[١٤١و] ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ. / وحيث كان إيتاؤه عليه السلام إيّاها لإرشاد قومه إلى الحقّ كما هو شأن الكتب الإلهيّة جُعِلوا كأنّهم أُوتُوها، فقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى طريق الحقّ بالعمل بما فيها مِن الشرائع والأحكام، وقيل: أريدَ: آتينا قومَ موسى، فحُذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ [يونس، ٨٣/١٠]، أي: مِن آل فرعونَ وملَئِهم. ولا سبيل إلى عود الضمير إلى "فرعونَ وقومِه"؛ لظهور أنّ التوراة إنّما نزلت بعد إغراقهم لبني إسرائيل.

---

[١] م ط س: أنزل.

[٢] تَمَّ على الأمر، وتَمَمَ عليه بإظهار الإدغام، أي: استمرّ عليه. لسان العرب لابن منظور، «تمم».

وأمّا الاستشهاد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص، ٤٣/٢٨]،[١] ممّا لا سبيل إليه ضرورةَ أن ليس المراد بـ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما يتناول "قومَ فرعون"؛ بل مَن قبلَهم مِن الأمم المهلَكة خاصّةً، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما سيأتي في سورة القصص.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝﴾

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ -وأيّةَ آيةٍ- دالّةً على عظيم قدرتنا بولادته منها مِن غير مَسيس بَشَر، فـ"الآية" أمرٌ واحد نُسِب إليهما، أو جعَلنا ابنَ مريم آيةً بأن تكلّم في المهد، فظهرت منه معجزات جمّة، وأمَّه آيةً بأنّها ولَدته مِن غير مَسيسٍ، فحُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها.

والتعبير عنهما بما ذُكر مِن العنوانَين -وهما كونه عليه السلام ابنَها وكونُها أمَّه عليه السلام- للإيذان مِن أوّل الأمر بحيثيّة كونهما آيةً، فإنّ نسبته عليه السلام إليها -مع أنّ النسَب إلى الآباء- دالّةٌ على أن لا أب له، أي: جعلنا ابن مريم وحدها مِن غير أن يكون له أب، وأمَّه التي وَلَدَتْه خاصّة مِن غير مشاركة الأب آيةً. وتقديمه عليه السلام لأصالته فيما ذُكر مِن كونه آية، كما أنّ تقديم أمّه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ٩١/٢١] لأصالتها فيما[٢] نُسب إليها مِن الإحصان والنفخ.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: أرضٍ مرتفعة. قيل: هي إيليا أرضُ بيت المقدس، فإنّها مرتفعة، وإنّها كَبِدُ الأرض وأقرب الأرض إلى السماءِ بثمانية عشر مِيلًا على ما يُروى عن كعب.[٣] وقيل: دمشق وغوطَتها. وقيل: فِلسطين والرَّملة. وقيل: مصر، فإنّ قُراها على الرُّبَى. وقُرِئ بكسر الراء[٤] وضمّها،[٥]

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨٩/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٥/٧.
٢ س: في ما.
٣ جامع البيان للطبري، ٥٥/١٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٩/٧.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيّب ونصر بن عاصم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.
٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٣٢/٢.

و"رُبَاوَةٍ" بالكسر[١] والضمّ.[٢]

[١٤١ظ] ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقرّ مِن أرض منبسطة / سهلة يستقرّ عليها ساكنوها. وقيل: ذاتِ ثمار وزروع لأجلها يستقرّ فيها ساكنوها. ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: وماءٍ معين؛ ظاهرٍ جارٍ، "فَعيل" مِن "مَعَنَ الماءُ" إذا جَرى، وأصله الإبعاد في المشي، أو مِن "الماعون"، وهو النفع؛ لأنّه نفّاع. أو "مفعول" مِن "عانَه" إذا أدركه بالعين، فإنّه لظهوره يدرَك بالعيون. وُصِفَ ماؤها بذلك للإيذان بكونه جامعًا لفنون المنافع مِن الشرب وسَقي ما يُسقَى مِن الحيوان والنبات بغير كُلفة، والتنزّهِ بمنظره المونِق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ حكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم على وجه الإجمال لِما خوطب به كلُّ رسول في عصره، جيء بها إثرَ حكاية إيواء عيسى عليه السلام وأمِّه إلى الربوة إيذانًا بأنّ ترتيب مبادي التنعّم لم يكن مِن خصائصه عليه السلام؛ بل إباحة الطيّبات شرع قديم جرى[٣] عليه جميع الرسل عليهم السلام ووُصُّوا به، أي: وقلنا لكلّ رسول: كُلْ مِن الطيّبات واعمل صالحًا، فعُبِّر عن تلك الأوامر المتعدّدة المتعلّقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالًا للإيجاز. وفيه مِن الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة مِن رفض الطيّبات ما لا يخفى.

وقيل: حكاية لِما ذُكر لعيسى عليه السلام وأمّه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناوُل ما رُزقا. وقيل: نداء وخطاب له، والجمع للتعظيم. وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدّي والكلبي رحمهم الله تعالى أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحدَه على دأب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع.[٤] وفيه إبانة لفضله وقيامِه مقام الكلّ في حيازة كمالاتهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٣ س: حرى.

٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٩١/٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٢٥/١٤.

و"الطيّبات" ما يُستطاب ويُستلذّ مِن مباحات المَأكل والفواكه حسبما ينبئ عنه سياق النظم الكريم، فالأمر للترفيه.

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي: عملًا صالحًا، فإنّه المقصود منكم والنافع عند ربّكم. ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٞ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور، مَسوق لبيانِ أنّ ملّة الإسلام والتوحيد ممّا أُمِر به كافّة الرسل والأمم. وإنّما أشيرَ إليها بـ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ للتنبيه على كمال ظهور أمرها في الصحّة والسداد، وانتظامِها بسبب ذلك في سِلك الأمور المشاهَدة.

﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ أي: ملّتكم وشريعتكم أيّها الرسل ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: / ملّةً [١٤٢و]
وشريعةً متّحدة في أصول الشرائع التي لا تتبدّل بتبدّل الأعصار. وقيل: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الأمم المؤمنة للرسل، والمعنى: إنّ هذه جماعتكم جماعةً واحدةً متّفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ مِن غير أن يكون لي شريك في الربوبيّة. وضمير المخاطَب فيه وفي قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ -أي: في شَقّ العصا والمخالفة بالإخلال بمَواجب ما ذكر مِن اختصاص الربوبيّة بي- للرسل والأمم جميعًا على أنّ الأمر في حقّ الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حقّ الأمم للتحذير والإيجاب. و"الفاء" لترتيب الأمر أو وجوبِ الامتثال به على ما قبله مِن اختصاص الربوبيّة به تعالى واتّحاد الأمّة، فإنّ كلًّا منهما موجِب للاتّقاء حتمًا.

وقُرئ: "وَأَنَّ هَذِهِ" بفتح "الهمزة"[١] على حذف "اللام"، أي: ولِأنّ هذه أمّتكم أمّةً... وأنا ربّكم فاتّقون، أي: اتّقوا، فـ﴿ٱتَّقُونِ﴾ كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة، ٤٠/٢]. وقيل: على العطف على ﴿مَا﴾، أي:

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

إنّي عليم بأنّ أمّتكم أمّة... إلخ. وقيل: على حذف فِعلٍ عاملٍ فيه، أي: واعلموا أنّ هذه أمّتكم... إلخ. وقُرئ: "وَأَنْ هَذِهِ"[1] على أنّها مخفّفة مِن "أنّ".

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ حكاية لِما ظهر مِن أمم الرسل بعدهم مِن مخالفة الأمر وشقّ العصا. والضمير لِما دلّ عليه الأمّة مِن أربابها، أو لها على التفسيرين. و"الفاء" لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم، أي: تقطّعوا أمر دينهم مع اتّحاده، وجعلوه قِطعًا متفرّقة وأديانًا مختلفة.

﴿بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا﴾ أي: قِطعًا، جمع "زَبور" بمعنى الفِرقة، ويؤيّده قراءة "زُبَرًا" بفتح "الباء"[2] جمع "زُبرة"، وهو حال مِن ﴿أَمۡرَهُم﴾، أو مِن واو ﴿تَقَطَّعُوٓاْ﴾، أو مفعول ثان له، فإنّه متضمِّن لمعنى "جَعلوا". وقيل: كُتُبًا، فيكون مفعولًا ثانيًا، أو حالًا مِن ﴿أَمۡرَهُم﴾ على تقدير المضاف، أي: مثلَ زُبُرٍ. وقُرئ بتخفيف الباء،[3] كـ"رُسْلٍ" في "رُسُل".

﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ مِن أولئك المتحزِّبين ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ مِن الدين الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ﴾ مُعْجَبون معتقِدون / أنّه الحقّ. [١٤٢ظ]

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ شُبّه ما هم فيه مِن الجهالة بالماء الذي يغمُر القامةَ؛ لأنّهم مَغمورون فيها لاعبون بها. وقُرئ: "غَمَرَاتِهِمْ".[4] والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و"الفاء" لترتيب الأمر بالترك على ما قبله مِن كونهم فرحين بما لديهم، فإنّ انهماكهم فيما هم فيه وإصرارَهم عليه مِن مَخائل كونهم مطبوعًا على قلوبهم، أي: اتركهم على حالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو حينُ قتلِهم،

---

[1] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وأبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

أو موتِهم على الكفر، أو عذابِهم، فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ونهيٌ له عن الاستعجال بعذابهم، والجزعِ مِن تأخيره. وفي التنكير والإبهام ما لا يخفى مِن التهويل.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أي: نعطيهم إيّاه ونجعله مدَدًا لهم. فـ﴿مَا﴾ موصولة، وقولُه تعالى: ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لها، وتقديم "المال" على "البنين" مع كونهم أعزّ منه قد مرّ وجهه في سورة الكهف،[١] لا خبرٌ لـ﴿أَنَّ﴾، وإنّما الخبر قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ على حذف الراجع إلى الاسم، أي: أيحسبون أنّ الذي نمدّهم به مِن المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم؟ على أنّ "الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ عطفٌ على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: كلّا لا نفعل ذلك؛ بل هم لا يشعرون بشيء أصلًا، كالبهائم لا فطنةَ لهم ولا شعور؛ ليتأمّلوا ويعرفوا أنّ ذلك الإمداد استدراج واستِجرار إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات. وقُرئ: "يُمِدُّهُمْ"[٢] على الغيبة، وكذلك "يُسَارِعُ"،[٣] و"يُسْرِعُ"،[٤] ويحتمل أن يكون فيهما ضمير المُمَدِّ به. وقُرئ: "يُسَارَعُ" مبنيًّا للمفعول.[٥]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ استئناف مَسوق لبيان مَن له المسارعة

---

١ الكهف، ١٨/٤٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٥٦٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وعبد الرحمن بن أبي بكرة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٥٦٨.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها ابن خالَوَيه عن بعضهم. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٠٠. وقال ابن الجوزي: «وقرأ أبو عمران الجوني وعاصم الجحدَري وابن السميفع: "يُسْرَعُ" بياء مرفوعة وسكون السين ونصب الراء مِن غير ألف». **زاد المسير** لابن الجوزي، ٣/٢٦٥. ورُوي كذلك في الشاذّ: "نُسْرِعُ" بالنون عن الحرّ النحوي. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي بكرة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٥٦٨.

في الخيرات إثرَ إقناط الكفّار عنها، وإبطالِ حسبانهم الكاذب، أي: مِن خوف عذابه حَذِرون.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ المنصوبةِ والمُنزَلةِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بتصديق مدلولها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ شِركًا جليًا ولا خفيًا، ولذلك أُخِّر عن الإيمان بالآيات. والتعرّض لعنوان الربوبيّة في المواقع الثلاثة للإشعار بعلّيّتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أي: يُعطون ما أعطَوه مِن الصدقات. وقُرئ: "يَأْتُونَ مَا أَتَوْا"،[1] أي: يفعلون ما فعلوه مِن الطاعات. وأيًا ما كان فصيغة الماضي في الصلة الثانية للدلالة على التحقّق، / كما أنّ صيغة المضارع في الأولى للدلالة على الاستمرار. [١٤٣و]

﴿وَقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُؤۡتُونَ﴾ أو "يَأْتُونَ"، أي: يُؤتون ما آتَوه، أو يفعلون مِن العبادات ما فعلوه، والحالُ أنّ قلوبهم خائفة أشدّ الخوف ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ أي: مِن أنّ رجوعهم إليه[2] عزّ وجلّ، على أنّ مناط الوجَل أن لا يُقبَل منهم ذلك، وأن لا يقع على الوجه اللائق، فيؤاخَذُوا به حينئذ، لا مجرّدَ رجوعهم إليه تعالى. وقيل: لأنّ مرجعهم إليه تعالى.

والموصولات الأربعة عبارةٌ عن طائفةٍ واحدةٍ مُتّصفةٍ بما ذُكِر في حيّز صِلاتها مِن الأوصاف الأربعة، لا عن طوائفَ، كلُّ واحدةٍ منها متّصفةٌ بواحدٍ

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عائشة وابن عبّاس رضي الله عنهم وقتادة والأعمش والحسن والنخعي. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٩/٧.

[2] وفي هامش م: خبر لـ"أنّ". «منه».

مِن الأوصاف المذكورة، كأنّه قيل: إنّ الذين هم مِن خشية ربّهم مشفِقون، وبآيات ربّهم يؤمنون... إلخ. وإنّما كُرّر الموصول إيذانًا باستقلال كلّ واحدة مِن تلك الصفات بفضيلة باهرة على حِيالها، وتنزيلًا لِاستقلالها منزلةَ استقلال الموصوف بها.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بها. وما فيه مِن معنى البعد للإشعار ببُعد رتبتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بما فُصِّل مِن النعوت الجليلة خاصّةً دون غيرهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: في نَيل الخيرات التي مِن جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران، ١٤٨/٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت، ٢٧/٢٩]، فقد أثبت لهم ما نُفي عن أضدادهم، خلا أنّه غُيّر الأسلوبُ حيث لم يُقَل: أولئك نسارع لهم في الخيرات؛ بل أُسنِد المسارعة إليهم إيماءً إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم.

وإيثار كلمةِ ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" للإيذان بأنّهم متقلّبون في فنون الخيرات، لا أنّهم خارجون عنها متوجِّهون إليها بطريق المسارعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ الآية [آل عمران، ١٣٣/٣].

﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ / أي: إيّاها سابقون، و"اللام" لتقوية العمل كما في قوله [١٤٣ظ]
تعالى: ﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٣/٢٣]، أي: ينالونها قَبل الآخرة، حيث عُجّلت لهم في الدنيا. وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ الطاعات. والمعنى: يَرغبون في الطاعات والعبادات أشدَّ الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السبقَ، أو لأجلها سابقون الناسَ، والأوّل هو الأَولى.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به "السابقون" مِن فعل الطاعات المؤدّي إلى نيل الخيرات ببيان سهولته،

وكونِه غيرَ خارج عن حدّ الوسع والطاقة، أي: عادتنا جارية على أن لا نكلّف نفسًا مِن النفوس إلّا ما في وسعها، على أنّ المراد استمرار النفي بمعونة المقام، لا نفيُ الاستمرار كما مرّ مرارًا.

أو للترخيص[1] فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنّه تعالى لا يكلّف عباده إلّا ما في وُسعهم، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وُسعَهم. قال مقاتل: «مَن لم يستطع القيام فليصلّ قاعدًا، ومَن لم يستطع القعود فليُومِ إيماءً».[2]

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾... إلخ تتمّة لِما قبله ببيان أحوال ما كُلِّفوه مِن الأعمال وأحكامها المترتّبة عليها مِن الحساب والثواب والعقاب، والمراد بـ"الكتاب" صحائف الأعمال التي يقرءونها عند الحساب حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية، ٢٩/٤٥]، أي: عندنا كتاب قد أُثبِت فيه أعمال كلّ أحد على ما هي عليه، أو أعمالُ السابقين والمقتصِدين جميعًا، لا أنّه أُثبت فيه أعمال الأوّلين، وأُهمل أعمال الآخرين، ففيه قَطع معذرتهم أيضًا.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ﴿يَنطِقُ﴾، أي: يُظهِر الحقّ المطابقَ للواقع على ما هو عليه ذاتًا ووصفًا، ويبيّنه للناظر كما يبيّنه النطق، ويُظهِره / للسامع، فيُظهِر [١٤٤و]
هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويُرتِّبُ عليها أجزيتَها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء إثرَ بيان لطفه في التكليف وكتب الأعمال، أي: لا يُظلَمون في الجزاء بنَقص ثواب أو بزيادة عذاب؛ بل يُجزَون بقدر أعمالِهم التي كُلِّفوها، ونطقت بها صحائفها بالحقّ. وقد جُوِّز أن يكون تقريرًا لِما قبله مِن التكليف وكتبِ الأعمال، أي: لا يُظلَمون بتكليف ما ليس في وُسعهم، ولا بعدم كَتب بعض أعمالهم التي مِن جملتها

---

١ السياق: سيقت للتحريض... أو للترخيص...

٢ اللباب لابن عادل، ٢٣٥/١٤. وفي تفسير مقاتل، ١٦٠/٣: «﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقول: لا نكلّف نفسًا مِن العمل إلّا ما أطاقت».

أعمال المقتصِدين بناءً على قصورها عن درجة أعمال السابقين؛ بل يُكتَب كلّ منها على مقاديرها وطبقاتها.

والتعبير عمّا ذُكر مِن الأمور بـ"الظلم" مع أنّ شيئًا منها ليس بظلمٍ على ما تقرّر مِن أنّ الأعمال الصالحة لا تُوجب أصل الثواب فضلًا عن إيجابِ مرتبةٍ معيّنةٍ منه حتّى يُعَدّ الإثابةُ بما دونها نقصًا، وكذلك الأعمال السيّئة لا تُوجب درجةً معيّنةً مِن العذاب حتّى يُعَدّ التعذيب بما فوقها زيادة، وكذا تكليفُ ما في الوُسع وكَتبُ الأعمال ليسا ممّا يجب عليه سبحانه حتّى يُعَدّ تركُهما ظلمًا لكمال تنزيه ساحة السبحان عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتِها باسمه.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إضراب عمّا قبله. والضمير للكفرة، لا للكلّ كما قبله، أي: بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مِن هذا الذي بُيّن في القرآن مِن أنّ لديه تعالى[1] كتابًا ينطق بالحقّ، ويُظهِر لهم أعمالهم السيّئةَ على رءوس الأشهاد فيُجزَون بها، كما يُنبئ عنه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾... إلخ [المؤمنون، ٦٦/٢٣]. وقيل: ممّا عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ سيّئة كثيرة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن كون قلوبهم في غفلة عظيمة ممّا ذُكر، / وهي فنونُ كفرهم ومعاصيهم التي مِن جملتها ما سيأتي مِن طعنهم في القرآن، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٧/٢٣]. وقيل: متخطّية لِما وُصف به المؤمنون مِن الأعمال الصالحة المذكورة، وفيه أنّه لا مزيّة في وصف أعمالهم الخبيثة بالتخطّي للأعمال الحسنة للمؤمنين. وقيل: متخطّية عمّا هم عليه مِن الشرك،[2] ولا يخفى بُعده لعدم جريان ذكره. [١٤٤ظ]

---

[1] س - تعالى.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٤.

﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ مستمرّون عليها، معتادون فعلها، ضارُّون بها، لا يكادون يَبرحونها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي: متنعّميهم، وهم الذين أمدّهم الله تعالى بما ذُكر مِن المال والبنين، وحتّى مع كونها غايةً لأعمالهم المذكورة، مبدأٌ لِما بعدها مِن مضمون الشرطيّة، أي: لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا رؤساءهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ قيل: هو القتل والأسر يومَ بدرٍ، وقيل: هو الجوع الذي أصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «اللّهمّ اشْدُدْ وَطأتَك على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف». فَقُحِطُوا حتّى أكلوا الكلابَ والجِيَفَ والعظامَ المحرَقة والأولاد.[1]

والحقّ أنّه العذاب الأخروي، إذ هو الذي يفاجِئون عنده الجُؤارَ، فيجابون بالردّ والإقناط عن النصر. وأمّا عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جُؤار حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون، ٧٦/٢٣]، فإنّ المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر مِن القتل والأسر حتمًا.

وأمّا عذاب الجوع فإنّ أبا سفيان وإن تضرّع فيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكن لم يَرُدَّ عليه بالإقناط، حيث رُوي أنّه عليه السلام قد دعا بكشفه فكُشِف عنهم ذلك.[2]

﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي: فاجَئُوا الصراخ بالاستغاثة مِن الله عزّ وجلّ كقوله تعالى: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل، ٥٣/١٦]، وهو جواب الشرط.

وتخصيص مترفيهم بما ذكر مِن الأخذ بالعذاب ومفاجأةِ الجُؤار مع عمومه لغيرهم أيضًا لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتِكاس أمرهم، وكونِ ذلك

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٣٧/١٤. وهو في صحيح البخاري، ١٦٠/١ (٨٠٤)؛ ١٣١/٦ (٤٨٢١)؛ وصحيح مسلم، ٤٦٦/١ (٦٧٥)؛ ٢١٥٦/٤ (٢٧٩٨).

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٣٩/١٧؛ والمستدرك للحاكم، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

أشقّ عليهم، ولأنّهم مع كونهم متمنِّعين مَحميّين بحماية غيرهم مِن المنَعة والحشَم حينَ لَقُوا ما لَقُوا مِن الحالة الفظيعة، فلأن يلقاها مَن عداهم مِن الحُماة والخدَم أولى وأقدم.

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ على إضمار القول مسوقًا لردّهم وتبكيتهم وإقناطِهم عمّا علّقوا به أطماعَهم الفارغة مِن الإغاثة والإعانة مِن جهته تعالى. وتخصيص ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بالذكر لتهويله والإيذانِ بتَفْويتِهم وقتَ الجُؤار. وقد جُوّز كونُه جواب الشرط، وأنت خبير بأنّ المقصود الأصلي في الجملة الشرطيّة هو الجواب، فيؤدّي ذلك إلى أن يكون مفاجأتُهم إلى الجؤار غيرَ مقصود أصلي.

/ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي عن الجؤار ببيان عدم [١٤٥و] إفادته ونفعه، أي: لا يلحقكم مِن جهتنا نصرة تُنجّيكم ممّا دَهِمكم.

وقيل: لا تُغاثون ولا تُمنَعون منّا،[١] ولا يساعده سباق النظم الكريم؛ لأنّ جُؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتّى يُرَدَّ عليهم بعدم منصوريّتهم مِن قِبَله، ولا سياقُه، فإنّ قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾... إلخ صريح في أنّه تعليل لِما ذكرنا مِن عدم لُحوق النصر مِن جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات، ولو كان النصر المنفيّ متوهَّمًا مِن الغير لَعُلِّل بعجزه وذُلّه، أو بعزّة الله تعالى وقوّته، أي: قد كانت آياتي تتلى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: تُعرِضون عن سماعها أشدَّ الإعراض، فضلًا عن تصديقها والعمل بها. و"النكوص": الرجوعُ قَهقَرى.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت الحرام، أو بالحرَم، والإضمارُ قبل الذكر لاشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنّهم خُدّامه وقُوّامه، أو بكتابي الذي عُبّر عنه بـ﴿آياتي﴾،

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٩٤/٣.

على تضمين "الاستكبار" معنى التكذيب، أو لأنّ استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه.

ويجوز أن يتعلّق "الباء" بقوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا﴾ أي: تسمُرون[١] بذكر القرآن وبالطعن فيه، حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يَسمُرون، وكانت عامّة سَمَرهم ذكر القرآن وتسميتَه سحرًا وشِعرًا. و"السامِر" كالحاضر في الإطلاق على الجمع. وقيل: هو مصدر جاء على لفظ الفاعل. وقُرئ: "سُمَّرًا"،[٢] و"سُمَّارًا".[٣]

وأن تتعلّق بقوله تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ مِن "الهَجْر" بالفتح، بمعنى الهذيان أو الترك، أي: تَهذون في شأن القرآن، أو تتركونه، أو مِن "الهُجْر" بالضمّ، وهو الفُحش، ويؤيّده قراءة "تُهْجِرُونَ" مِن "أهجَر في مَنطِقه" إذا أفحش فيه. وقُرئ: "تُهَجِّرُونَ"[٤] مِن "هَجّر" الذي هو مبالغة في "هَجَرَ" إذا هذَى.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

[١٤٥ظ] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ / ٱلْقَوْلَ﴾ "الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه، و"الفاء" للعطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: أَفَعلوا ما فعلوا مِن النكُوص والاستكبار والهَجر، فلم يتدبّروا القرآن ليعرفوا بما فيه مِن إعجاز النظم، وصحّةِ المدلول، والإخبارِ عن الغيب، أنّه الحقّ مِن ربّهم، فيؤمنوا به فضلًا عمّا فعلوا في شأنه مِن القبائح؟

و﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للإضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بآخر، و"الهمزةِ" لإنكار الوقوع، لا لإنكار الواقع، أي: بل أجاءهم مِن الكتاب ما لم يأتِ آباءهم الأوّلين حتّى استبدَعوه واستبعَدوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه

---

١ ط س: يسمرون.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وأبي حَيوة وابن مُحَيصن وعِكرمة والزعفراني ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧٢/٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وزيد بن علي وأبي رجاء وأبي نهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧٢/٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٧.

مِن الكفر والضلال. يعني: أنّ مَجيء الكتب مِن جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام سنّة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنّى إنكاره، وأنّ مَجيء القرآن على طريقته، فمِن أين ينكرونه؟

وقيل: أم جاءهم مِن الأمْن مِن عذابه تعالى ما لم يأتِ آباءَهم الأوّلين، كإسماعيل عليه السلام وأعقابه مِن عدنان وقحطان ومُضَر وربيعة وقُسّ والحارث بن كعب[1] وأسد بن خزيمة وتميم بن مرّة وتبّع وضبّة بن أُدّ، فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩﴾

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ إضراب وانتقال مِن التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بوجه آخر. و"الهمزة" لإنكار الوقوع أيضًا، أي: بل أَلَم يعرفوه عليه السلام بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق وكمال العلم مع عدم التعلّم مِن أحد وغيرِ ذلك ممّا حازه مِن الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام.

﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: جاحدون بنبوّته، فجحودهم بها مترتّب على عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام، ومِن ضرورة انتفاء المبنَى بطلانُ ما بُني عليه، أو فهم غير عارفين له عليه السلام، فهو تأكيد لِما قبله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ انتقال إلى توبيخ آخر. و"الهمزة" لإنكار الواقع كالأولى، أي: بل أيقولون: به جنّة، أي: جنون، مع أنّه أرجح الناس عقلًا، وأثقبُهم ذهنًا، وأتقنُهم رأيًا، وأوفرُهم رَزانةً؟

ولقد رُوعي في هذه التوبيخات الأربعة -التي اثنان منها متعلّقان بالقرآن، والباقيان به عليه السلام- الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، حيث وُبّخوا أوّلًا

[1] بنو الحارث بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم، وهم بطن مِن تميم مِن العدنانيّة، قيل: هم أشدُّ العرب بأسًا، كانوا لا يَغزون ولا يُغزون. انظر: أنساب الأشراف للبلاذُري، ٥/ ٣٢؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ١/ ٤٧.

بعدم التدبّر، وذلك يتحقّق مع كون القول غيرَ مُتَعَرَّضٍ له بوجه مِن الوجوه، [١٤٦و] / ثمّ وُبّخوا بشيءٍ لو اتّصف به القول لكان سببًا لعدم تصديقهم به، ثمّ وُبّخوا بما يتعلّق بالرسول صلّى الله عليه وسلّم مِن عدم معرفتهم به عليه السلام، وذلك يتحقّق بعدم المعرفة بخير ولا شرّ، ثمّ بما لو كان فيه عليه السلام ذلك لقدَح في رسالته عليه السلام.

﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ إضراب عمّا يدلّ عليه ما سبق، أي: ليس الأمر كما زعموا في حقّ القرآن والرسول عليه السلام؛ بل جاءهم عليه السلام بالحقّ، أي: الصدقِ الثابتِ الذي لا مَحيد عنه أصلًا، ولا مدخل فيه للباطل بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ﴾ مِن حيث هو حقّ، أيّ حقّ كان، لا لهذا الحقّ فقط، كما يُنبئ عنه الإظهار في موقع الإضمار.

﴿كَٰرِهُونَ﴾ لِما في جِبِلّتهم مِن الزيغ والانحراف المناسب للباطل، ولذلك كرِهوا هذا الحقّ الأبلَج، وزاغوا عن الطريق الأنهَج. وتخصيص أكثرِهم بهذا الوصف لا يقتضي إلّا عدمَ كراهة الباقين لكلّ حقّ مِن الحقوق، وذلك لا ينافي كراهتهم لهذا الحقّ المبين، فتأمّل.

وقيل: تقييد الحكم بالأكثر لأنّ منهم مَن ترك الإيمان استِنكافًا مِن توبيخ قومه، أو لِقِلّة فِطنته، وعدمِ تفكّره، لا لكراهته الحقَّ. وأنت خبير بأنّ التعرّض لعدم كراهة بعضهم للحقّ مع اتّفاق الكلّ على الكفر به ممّا لا يساعده المقام أصلًا.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٧١﴾

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ استئناف مَسوق لبيان أنّ أهواءهم الزائغة التي ما كرهوا الحقّ إلّا لعدم موافقته إيّاها مقتضيةٌ للطامّة، أي: لو كان ما كرهوه مِن الحقّ الذي مِن جملته ما جاء به عليه السلام موافقًا لأهوائهم الباطلة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلّيّة؛ لأنّ مناط النظام ليس إلّا ذلك. وفيه مِن تنويه شأن الحقّ والتنبيه على سموّ مكانه ما لا يخفى.

وأمّا ما قيل: لو اتّبع الحقّ الذي جاء به عليه السلام أهواءَهم وانقلب شِركًا لَجاء الله تعالى بالقيامة، ولَأهلَك العالَم ولم يؤخِّر،[١] ففيه أنّه لا يلائم فرضَ مَجيئه عليه السلام به، وكذا ما قيل: لو كان في الواقع إلهان؛[٢] لا يناسب المقام. وأمّا ما قيل: لو اتّبع الحقّ أهواءهم لَخرَج / عن الإلهيّة،[٣] ممّا لا احتمال له أصلًا. [١٤٦ظ]

﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ انتقال مِن تشنيعهم بكراهة الحقّ الذي به يقوم العالَم إلى تشنيعهم بالإعراض عمّا جُبِل عليه كلّ نفس مِن الرغبة فيما فيه خيرها. والمراد بـ"الذِكر" القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]، أي: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يُقبِلوا عليه أكملَ إقبال.

﴿فَهُمۡ﴾ بما فعلوا مِن النكوص ﴿عَن ذِكۡرِهِم﴾ أي: فخرهم وشرفهم خاصّةً ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ لا عن غير ذلك ممّا لا يوجِب الإقبال عليه والاعتناءَ به. وفي وضع الظاهر مَوضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريعٍ. و"الفاء" لترتيب ما بعدها مِن إعراضهم عن ذكرهم على ما قبلها مِن إيتاء ذكرهم، لا لترتيب الإعراض على الإيتاء مطلقًا، فإنّ المستتبع لكون إعراضهم إعراضًا[٤] عن ذكرهم هو إيتاء ذكرهم، لا الإيتاءُ مطلقًا.

وفي إسناد "الإتيان بالذكر" إلى "نون" العظَمة بعد إسناده إلى ضميره عليه السلام تنويهٌ لشأن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، وتنبيهٌ على كونه بمثابة عظيمة منه عزّ وجلّ.

وفي إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه عليه السلام بعنوان "الحقّيّة" وعند نسبته إليه تعالى بعنوان "الذِكر" مِن النكتة السرّيّة والحكمة العبقريّة ما لا يخفى؛ فإنّ التصريح بحقّيّته المستلزمةِ لحقّيّة مَن جاء به هو الذي يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطِلون في شأنه. وأمّا التشريف فإنّما يليق به تعالى، لا سيّما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحدُ المشرَّفين.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٩٦.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٢.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٢.

٤ م ط س - إعراضًا. ["صح" في هامش م]

وقيل: المراد بـ"الذِّكر" ما تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات، ١٦٨/٣٧]. وقيل: وَعظُهم، وأُيِّد ذلك بأنّه قُرئ: "بِذِكْرَاهُمْ".[١] والتشنيع على الأوّلِين أشدّ، فإنّ الإعراض عن وعظهم ليس في مثابة إعراضهم عن شرفهم، أو عن ذكرهم الذي يتمنَّونه في الشناعة والقباحة.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢﴾

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ انتقال مِن توبيخهم بما ذُكر مِن قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾[٢] إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنّه قيل: أم يزعمون أنّك تسألهم على أداء الرسالة ﴿خَرْجًا﴾ أي: جُعلًا، فلأجل ذلك لا يؤمنون بك.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: رزقُه في الدنيا وثوابُه في الآخرة، تعليل لنفي السؤال المستفاد مِن الإنكار، أي: لا تسألهم ذلك، فإنّ ما رزَقك الله تعالى في الدنيا والعُقبى خير لك مِن ذلك. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تعليل الحكم وتشريفه عليه السلام ما لا يخفى.

و"الخَرْج" بإزاء "الدَّخْل"، يقال لكلّ ما تُخرجه إلى غيرك. و"الخَراج" غالب في الضريبة على الأرض. وقيل: "الخَرْج": ما تبرّعتَ به، و"الخَراج": ما لَزِمك. وقيل: "الخَرْج" أخصّ مِن "الخَراج"، ففي النظم الكريم إشعار بالكثرة واللزوم. وقُرئ: "خَرْجًا فَخَرْجُ"،[٣] و"خَرَاجًا فَخَرَاجُ".[٤] ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تقرير لخيريّة خَراجه تعالى.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج تُوهم اتّهامَهم لك بوجهٍ مِن الوجوه، ولقد ألزمَهم الله عزّ وعلا[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧٥/٧.

٢ المؤمنون، ٧٠/٢٣.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

٥ س: تعالى.

وأزاحَ عِللهم في هذه الآيات، حيث حصر أقسام ما يؤدّي إلى / الإنكار والاتّهام، [١٤٧و]
وبيّن انتفاء ما عدا كراهتهم للحقّ وقلّة فطنتهم.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ٧٤﴾

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وُصِفوا بذلك تشنيعًا لهم بما هم عليه مِن الانهماك في الدنيا، وزعمِهم أن لا حياة إلّا الحياة الدنيا، وإشعارًا بعلّة الحكم، فإنّ الإيمان بالآخرة وخوفَ ما فيها مِن الدواهي مِن أقوى الدواعي إلى طلب الحقّ وسلوك سبيله.

﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: عن جنس الصراط ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لعادلون، فضلًا عن الصراط المستقيم، أو عن الصراط المستقيم الذي تدعوهم إليه. والأوّل أدلّ على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم، لِما أنّه يُنبئ عن كون ما ذهبوا إليه ممّا لا يطلق عليه اسم الصراط ولو كان مُعوجًّا.

﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾

﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ﴾ أي: قَحط وجَدب. ﴿لَّلَجُّواْ﴾ لتمادَوا ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ إفراطِهم في الكفر والاستكبار وعداوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ أي: عامِهين عن الهدى.

رُوي أنّه لمّا أسلم ثُمامة بن أثال الحنفي[١] ولحِق باليمامة، ومنع المِيرة[٢] مِن أهل مكّة، وأخذَهم الله تعالى بالسنين حتّى أكلوا العِلهزَ،[٣] جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال له: «أنشُدك اللهَ والرحِم، ألستَ تزعم

---

١ هو ثُمامة بن أثال بن النعمان اليمامي، مِن بني حنيفة، أبو أمامة (ت. ١٢هـ/٦٣٣م). الصحابي، كان سيّدَ أهل اليمامة. ولمّا ارتدّ أهل اليمامة في فتنة مسيلمة ثبت هو على إسلامه، ولحِق بالعلاء بن الحضرمي في جمع مِمّن ثبت معه، فقاتل معه المرتدّين مِن أهل البحرين، فلمّا ظفِروا اشترى ثُمامة حلّة كانت لكبيرهم، فرآها عليه ناس مِن بني قيس بن ثعلبة، فظنّوا أنّه هو الذي قتله وسلبه، فقتلوه. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥٢٥/١؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٠٠/٢.

٢ المِيرة، بالكسر: جَلب الطعام. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «مير».

٣ العَلهَز: الوبَر والدّم. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٣٩/١٧؛ و**المستدرك** للحاكم، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

أنك بُعِثت رحمةً للعالمين؟» قال: «بلى»، فقال: «قتلتَ الآباء بالسيف، والأبناءَ بالجوع»، فنزلت.[١]

والمعنى: لو كشفنا عنهم ما أصابهم مِن القَحط والهُزال برحمتنا إيّاهم ووجَدوا الخِصب لَارتدّوا إلى ما كانوا عليه مِن الإفراط في الكفر والاستكبار، ولَذهب عنهم هذا التملّق والإبلاس، وقد كان كذلك.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ استئناف مسوق للاستشهاد على مضمون الشرطيّة. والمراد بـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ ما نالَهم يوم بدر مِن القتل والأسر، وما أصابهم مِن فنون العذاب التي مِن جملتها القَحط المذكور. و"اللام" جواب قَسَم محذوف، أي: وباللهِ[٢] لقد أخذناهم بالعذاب، ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ بذلك، أي: لم يخضعوا ولم يتذلّلوا -على أنّه إمّا "استِفعال" مِن "الكَون"؛ لأنّ الخاضع ينتقل مِن كَون إلى كَون، أو "افتِعالٌ" مِن "السكون" قد أُشبِعت فتحتُه، كـ"مُنتَزاح" في "مُنتَزح"- بل أقاموا على ما كانوا عليه مِن العتوّ والاستكبار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ اعتراض مقرّر لمضمون ما قبله، أي: وليس مِن عادتهم التضرّع إليه تعالى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو عذاب الآخرة، كما ينبئ عنه التهويل بفتح الباب، والوصفُ بالشدّة. وقُرِئ: "فَتَّحْنَا" بالتشديد. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: متحيّرون آيِسون مِن كلّ خير، أي: مَحنّاهم بكلّ مِحنة مِن القتل والأسر والجوع وغير ذلك، فما رُئي منهم لينُ مَقادةٍ[٣] وتوجّهٍ إلى الإسلام قطّ.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٥٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٧/٣. وأخرجه بنحوه الطبري في جامع البيان، ٣٩/١٧؛ والحاكم في المستدرك، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

[٢] ط س: وتالله.

[٣] "لينُ مَقادة": مستعارٌ لسهولة تأتّي الحقّ، مِن قولهم: "هو يقود الخيلَ ويقتادها". الأساس: "قاد الفرس بمَقاودها"، وهو حبلٌ يُشدّ في العنق للقياد. فتوح الغيب للطيبي، ٦١٤/١٠.

وأمّا ما أظهره أبو سفيان فليس مِن الاستكانة له تعالى والتضرّع إليه تعالى في شيء، وإنّما هو نوع خُنوع إلى أن يتمّ غرَضه، فحاله كما قيل: «إذا جاع ضَغا،[١] وإذا شبع طغا».[٢] وأكثرهم مستمرّون على ذلك إلى أن يرَوا عذاب الآخرة، فحينئذ يُبلِسون.

وقيل: المراد بـ"الباب" الجوع، فإنّه أشدّ وأعمّ مِن القتل والأسر. والمعنى: أخذناهم أوّلًا بما جرى عليهم يوم بدر مِن قتل صناديدهم وأسرِهم، فما وُجد منهم تضرّع واستكانة حتّى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أطمّ وأتمّ، فأُبلِسوا الساعة، وخضعت رقابهم، وجاءك أعتاهم وأشدّهم شكيمةً في العِناد يستعطفك. والوجه هو الأوّل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٧٨﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتشاهدوا بها الآيات التنزيليّة والتكوينيّة ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكّروا بها ما تشاهدونها، وتعتبروا اعتبارًا لائقًا، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: شكرًا قليلًا غيرَ معتدّ به، تشكرون تلك النعم الجليلة لِما أنّ العمدة في الشكر صَرف تلك القوى التي هي في أنفسها نِعم باهِرة إلى ما خُلِقت هي له، وأنتم تُخِلّون بذلك إخلالًا عظيمًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٧٩﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ / أي: خلقكم وبثّكم فيها بالتناسل، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون يوم القيامة بعد تفرّقكم، لا إلى غيره، فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه. [١٤٧ظ]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٨٠﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مِن غير أن يشاركه في ذلك شيء مِن الأشياء،

---

١ ضَغا الثعلب والسنّور يَضغُو ضَغوًا وضُغاءً، أي: صاح. وكذلك صوت كلّ ذليل مَقهور. الصحاح للجوهري، «ضغا».

٢ في البيان والتبيين للجاحظ، ١١٦/٣: «قيل لعامر بن عبد قيس: ما تقول في الإنسان؟ قال: ما عسى أن أقول فيمَن إذا جاع ضرَع، وإذا شبع طغى».

﴿وَلَهُ﴾ خاصّةً ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو المؤثّر في اختلافهما، أي: تعاقبهما، أو اختلافِهما ازديادًا وانتقاصًا، أو لأمره وقضائه اختلافُهما.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تتفكّرون فلا تعقلون؟ أو أتتفكّرون فلا تعقلون بالنظر والتأمّل أنّ الكلّ منّا، وأنّ قدرتنا تعمّ جميع الممكنات التي مِن جملتها البعث؟ وقُرئ: "يَعْقِلُونَ"[١] على أنّ الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطَبين لغيرهم، وقيل: على أنّ الخطاب الأوّل لتغليب المؤمنين،[٢] وليس بذاك.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١﴾

﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ عطف على مُضمَر يقتضيه المقام، أي: فلم يعقِلوا؛ بل قالوا ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: آباؤهم ومَن دانَ بدِينهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢﴾

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تفسير لِما قبله مِن المُبهم، وتفصيلٌ لِما فيه مِن الإجمال، وقد مرّ الكلام فيه.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بالفعل مِن حيث إسناده إلى آبائهم، لا إليهم، أي: ووُعِد آباؤنا مِن قَبلُ، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَابَآؤُنَا﴾، أي: كائنين مِن قبلُ.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أكاذيبهم التي سطّروها، جمع "أُسطورة"، كـ"أُحدوثة" و"أُعجوبة". وقيل: جمع "أسطار" جمعِ "سَطَر".

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥﴾

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ مِن المخلوقات تغليبًا للعقلاء على غيرهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابُه محذوف ثقةً بدلالة الاستفهام عليه، أي: إن كنتم تعلمون

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٨٠/٧.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٤.

شيئًا ما فأخبِروني به، فإنّ ذلك كافٍ في الجواب. وفيه مِن المبالغة في وضوح الأمر وفي تجهيلهم ما لا يخفى، أو إن كنتم تعلمون ذلك فأخبِروني، وفيه استهانة بهم، وتقريرٌ لجَهلهم، ولذلك أُخبِر بجوابهم قبل أن يجيبوا حيث قيل: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأنَّ بديهةَ العقلِ تضطرُّهم إلى الاعترافِ بأنّه تعالى خالقُها.

﴿قُلْ﴾ أي: عند اعترافهم بذلك تبكيتًا لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك، أو أتقولون ذلك / فلا تتذكّرون أنّ مَن فطَر الأرض وما فيها ابتداءً قادرٌ [١٤٨و] على إعادتها ثانيًا؟ فإنّ البَدء ليس بأهون مِن الإعادة؛ بل الأمر بالعكس في قياس العقول. وقُرئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[١] على الأصل.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أُعيدَ "الربّ" تنويهًا لشأن العرش، ورفعًا لمحلّه مِن أن يكون تبعًا لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجودًا وذِكرًا. ولقد روعي في الأمر بالسؤال الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ بـ"اللام" نظرًا إلى معنى السؤال، فإنّ قولك: "مَن رَبُّه؟" و"لِمَن هو؟" في معنى واحد. وقُرئ هو وما بعده بغير لام[٢] نظرًا إلى لفظ السؤال.

﴿قُلْ﴾ إفحامًا لهم وتوبيخًا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك ولا تَقُون أنفسَكم عقابَه بعدم العمل بموجَب العلم، حيث تكفرون به، وتُنكرون البعث، وتُثبتون له شريكًا في الربوبيّة؟

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بغير نسبة. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٤. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة: "تَذَّكَّرُونَ" بتشديد الذال. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

٢ أي: "سَيَقُولُونَ اللهُ". قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممّا ذُكر وما لم يُذكر، أي: ملكه التامّ القاهر، وقيل: خزائنه. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي: يُغيث غيره إذا شاء، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: ولا يُغِيث أحد عليه، أي: لا يمنع أحد منه بالنصر عليه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئًا ما، أو ذلك، فأجيبوني على ما سبق.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: لله ملكوت كلّ شيء، وهو الذي يُجير ولا يُجار عليه، ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فمِن أين تُخدعون وتُصرَفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه مِن الغَيّ؟ فإنّ مَن لا يكون مسحورًا مختلّ العقل لا يكون كذلك.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا مَحيد عنه مِن التوحيد والوعدِ بالبعث، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما قالوا مِن الشرك وإنكار البعث.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ كما يقوله النصارى والقائلون: إنّ الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركه في الألوهيّة كما يقوله عبَدة الأوثان وغيرهم. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ جوابٌ لمُحاجّتهم، وجزاءٌ لشرطٍ قد حُذف لدلالة ما قبله عليه، أي: لو كان معه / آلهة كما يزعمون لَذهب [١٤٨ظ] كلّ واحد منهم بما خلقه، واستبدّ به،[١] وامتاز مُلكه عن مُلك الآخرين، ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجاري فيما بين الملوك. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

---

١ ط س - به.

فلم يكن بيده وحده ملكوت كلّ شيء، وهو باطلٌ لا يقول به عاقل قطّ مع قيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب الوجود واحدٍ بالذات.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يصفونه مِن أن يكون له أنداد وأولاد.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالجرّ على أنّه بدَل مِن الجلالة. وقيل: صفة لها. وقُرئ بالرفع[1] على أنّه خبر مبتدأ محذوف. وأيًّا ما كان فهو دليل آخر على انتفاء الشريك بناءً على توافقهم في تفرّده تعالى بذلك، ولذلك رُتِّب عليه بالفاء قولُه تعالى: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإنّ تفرّده تعالى بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ أي: إن كان لا بدّ مِن أن تُرينّي ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب الدنيوي المستأصِل، وأمّا العذاب الأخروي فلا يناسبه المقام. ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قرينًا لهم فيما هم فيه مِن العذاب.

وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وُعِدوه مِن العذاب، وكونِه بحيث يجب أن يستعيذ منه مَن لا يكاد يمكن أن يَحيق به، وردٌّ لإنكارهم إيّاه واستعجالِهم به على طريقة الاستهزاء به.

وقيل: أُمِر به عليه السلام هضمًا لنفسه. وقيل: لأنّ شُؤم الكفرة قد يَحيق بمَن وراءهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال، ٨/٢٥].

ورُوي أنّه تعالى أخبر نبيّه عليه السلام بأنّ له في أمّته نقمةً، ولم يطلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاء، وتكريرِ النداء.[2] وتصدير كلّ مِن الشرط والجزاء به لإبراز كمال الضراعة والابتهال.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٩.

[2] عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٤.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ۝٩٥﴾

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ مِن العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ ولكنّا نؤخّره لِعلمنا بأنّ بعضهم أو بعضَ أعقابهم سيؤمنون، أو لأنّا لا نعذّبهم وأنت فيهم. وقيل: قد أراه ذلك، / وهو ما أصابهم يوم بدر، أو فتح مكّة،[١] ولا يخفى بعده، فإنّ [١٤٩و] المتبادَر أن يكون ما يستحقّونه مِن العذاب الموعود عذابًا هائلًا مستأصِلًا لا يظهر على يديه عليه السلام للحكمة الداعية إليه.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهو الصفح عنها، والإحسان في مقابَلتها، لكن لا بحيث يؤدّي إلى وَهَن في الدين. وقيل: هي كلمة التوحيد، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الشرك. وقيل: هو الأمر بالمعروف، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ المنكر، وهو أبلغ مِن: "ادفع بالحسنة السيّئة"، لِما فيه مِن التنصيص على التفصيل. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول في الموضعين للاهتمام.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يصفونك به، أو بوصفهم إيّاك على خلاف ما أنت عليه. وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإرشادٌ له عليه السلام إلى تفويض أمره إليه تعالى.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وَساوسهم المغرية على خلاف ما أَمرت به مِن المحاسن التي مِن جملتها دفع السيّئة بالحسنة. وأصل "الهمز" النّخس، ومنه "مِهْماز الرائِض". شُبّه حثّهم للناس على المعاصي بهَمزِ الرائض الدوابَّ على الإسراع أو الوثب. والجمع للمرّات، أو لتنوّع الوساوس، أو لتعدّد المضاف إليه.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أُمر عليه السلام بأن يَعوذ به تعالى مِن حضورهم

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٤/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٨٢/٧.

بعد ما أُمر بالعوذ به مِن همزاتهم للمبالغة في التحذير عن ملابستهم. وإعادة الفعل[١] مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به، وعرضِ نهاية الابتهال في الاستدعاء، أي: أعوذ بك مِن أن يحضروني، ويَحوموا حولي في حال مِن الأحوال.

وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن -كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما-[٢] وحالِ حلول الأجل -كما رُوي عن عِكرمة رحمه الله-[٣] لأنّها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها.[٤]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يُبتدأ بها الكلام، دخلت على الجملة الشرطيّة، وهي مع ذلك غاية لِما قبلها، متعلّقة بـ﴿يَصِفُونَ﴾،[٥] وما بينهما اعتراض مؤكِّد للإغضاء بالاستعاذة به تعالى مِن الشياطين أن يُزِلُّوهُ عليه السلام عن الحِلم، ويُغرُوه على الانتقام، لكن لا بمعنى أنّه العامل فيه لفساد المعنى؛ بل بمعنى أنّه معمول لمحذوف يدلّ عليه ذلك. وتعلّقها بـ﴿كَٰذِبُونَ﴾[٦] في غاية البعدِ لفظًا ومعنى.

أي: يستمرّون على الوصف المذكور حتّى إذا جاء أحدَهم -أيَّ أحدٍ كان- الموتُ الذي لا مردّ له وظهرت له أحوال الآخرة ﴿قَالَ﴾ تحسّرًا على ما فرّط فيه مِن الإيمان والطاعة: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ أي: رُدَّني إلى الدنيا. و"الواو" لتعظيم المخاطَب، وقيل: لتكرير قوله: "ارجِعني"، كما قيل في:

قِـــفَـــا نَـــبــــكِ...[٧]

ونظائرِه.

---

١ م س - بأن يعوذ به تعالى مِن حضورهم بعد ما أُمر بالعَوذ به مِن همزاتهم للمبالغة في التحذير عن ملابستهم. وإعادة الفعل ["صح" في هامش م س].

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٤.

٥ المؤمنون، ٩٦/٢٣.

٦ المؤمنون، ٩٠/٢٣. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٤.

٧ مِن قول امرئ القيس في معلّقته:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومَنزِلِ
بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحَومَلِ

ديوان امرئ القيس، ص ٨. قال الزوزني: «يجوز أن يكون المراد به: قف قف، فإلحاق الألف أمارة دالّة على أن المراد تكرير اللفظ». شرح المعلّقات السبع للزوزني، ص ٣٥.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ أي: في الإيمان الذي تركته. لم يَنظمه في سِلك الرجاء كسائر الأعمال الصالحة بأن يقول: لعلّي أُومِن فأعمل... إلخ للإشعارِ بأنّه أمر مقرَّر الوقوع، غنيٌّ عن الإخبار بوقوعه / قطعًا، فضلًا عن كونه [١٤٩ظ] مرجوّ الوقوع، أي: لعلّي أعمل في الإيمان الذي آتي به البتّة عملًا صالحًا.

وقيل: فيما تركته مِن المال، أو مِن الدنيا. وعنه عليه السلام: «إذا عاين المؤمِن الملائكة قالوا: "أنُرجعك إلى الدنيا؟" فيقول: "إلى دار الهموم والأحزان؛ بل قُدومًا إلى الله تبارك وتعالى"، وأمّا الكافر فيقول: "ارجعوني"».[١]

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن طلب الرجعة واستبعاد لها. ﴿إِنَّهَا﴾ أي: قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾...[٢] إلخ ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا محالةَ لِتسلّط الحسرة عليه. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: أمامهم، والضميرُ لـ﴿أَحَدَهُمُ﴾، والجمع باعتبار المعنى؛ لأنّه في حكم "كلّهم"، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُوَل باعتبار اللفظ.

﴿بَرۡزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلّي عن الرجعة إلى الدنيا، لِما عُلم أنّه لا رجعةَ يوم البعث إلى الدنيا، وإنّما الرجعة يومئذ إلى الحياة الأخرويّة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، وهي النفخة الثانية التي يقع عندها البعث والنشور. وقيل: المعنى: فإذا نُفخ في الأجساد أرواحها، على أنّ ﴿ٱلصُّورِ﴾ جمع "الصورة"، لا القَرن، ويؤيّده القراءةُ بفتح الواو،[٣] وبه مع كسر الصاد.[٤]

---

١ جامع البيان للطبري، ١٧/١٠٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٥٦.

٢ س: ارجعوني.

٣ أي: "الصُّوَر". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠٣.

٤ أي: "الصِّوَر". قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رزين. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠٣.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف مِن فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفرّ المرء مِن أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، أو لا أنساب يفتخرون بها ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ كما هي بينهم اليوم ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا لاشتغال كلٍّ منهم بنفسه. ولا يناقضه قوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات، ٣٧/٥٠]؛ لأنّ هذا عند ابتداء النفخة الثانية، وذاك بعد ذلك.

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢﴾

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ مَوزونات حسناتِه مِن العقائد والأعمال، أي: فمَن كانت له عقائد صحيحة وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب، الناجون عن كلّ مَهروب.

﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾

﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ومَن لم يكن له مِن العقائد والأعمال ما له وزن وقدر عنده تعالى، وهم الكفّار لقوله تعالى: ﴿فَلَا[١] نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف، ١٨/١٠٥]، وقد مرّ تفصيل ما في هذا المقام مِن الكلام في تفسير سورة الأعراف.[٢] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ ضيّعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. واسم الإشارة في الموضعين عبارة عن الموصول، وجمعُه باعتبار معناه، كما أنّ إفراد الضميرين في الصِّلتين باعتبار لفظه. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل مِن الصلة، أو خبر ثانٍ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾

﴿تَلۡفَحُ / وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تحرقها. و"اللّفح" كـ"النفخ"، إلّا أنّه أشدّ تأثيرًا منه. [١٥٠و]
وتخصيص الوجوه بذلك لأنّها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي

---

[١] م ط س: ولا.
[٢] الأعراف، ٧/٨.

المؤدّية إلى النار، وهو السرّ في تقديمها على الفاعل. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ مِن شدّة الاحتراق. و"الكُلُوح": تقلّص الشفتين مِن الأسنان. وقُرِئ: "كَلِحُونَ".[١]

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥﴾

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول، أي: يقال لهم تعنيفًا وتوبيخًا وتذكيرًا لِما به استحقّوا ما ابتُلوا به مِن العذاب: ألم تكن آياتي تُتلى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ حينئذ.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ أي: مَلَكتنا ﴿شِقْوَتُنَا﴾ التي اقترفناها بسوء اختيارنا، كما ينبئ عنه إضافتها إلى أنفُسهم. وقُرئ: "شَقْوَتُنَا" بالفتح،[٢] و"شِقَاوَتُنَا" أيضًا بالفتح[٣] والكسر.[٤] ﴿وَكُنَّا﴾ بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحقّ، ولذلك فعلنا ما فعلنا مِن التكذيب.

وهذا كما ترى اعتراف منهم بأنّ ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم، وأمّا ما قيل مِن أنّه اعتذار منهم بغلبة ما كُتب عليهم مِن الشقاوة الأزليّة،[٥] فمَع أنّه باطل في نفسه -لِما أنّه لا يكتب عليهم مِن السعادة والشقاوة إلّا ما علم الله تعالى أنّهم يفعلونه باختيارهم ضرورةَ أنّ العلم تابع للمعلوم- يردّه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: أَخرِجنا مِن النار وأرجعنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنّا عليه مِن الكفر والمعاصي فإنّا متجاوِزون الحدّ في الظلم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٥ انظر: تفسير الرازي، ٢٩٦/٢٣.

ولو كان اعتقادهم أنّهم مجبورون على ما صدَر عنهم لَما سألوا الرجعةَ إلى الدنيا، ولَما وعَدوا الإيمان والطاعة؛ بل قولهم: ﴿فَإِنۡ عُدۡنَا﴾ صريح في أنّهم حينئذ على الإيمان والطاعة، وإنّما الموعود على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثباتُ عليهما، لا إحداثُهما.

﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾

﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي: اسكتوا في النار سكوتَ هوانٍ، وذِلّوا وانزجِروا انزجارَ الكلاب إذا زُجرَتْ. مِن "خَسأتُ الكلب" إذا زجرتَه "فخَسَأ"، أي: انزَجر. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: باستدعاء الإخراج مِن النار، والرجعِ إلى الدنيا.

وقيل: لا تُكَلِّمونِ في رفع العذاب،[١] ويردّه التعليل الآتي. وقيل: لا تُكلّمونِ رأسًا،[٢] وهو آخر كلام يتكلّمون به، ثمّ لا كلام بعد ذلك إلّا الشهيق والزفير والعِواء كعِواء الكلب، لا يَفهَمون ولا يُفهِمون،[٣] ويردّه الخطابات الآتية قطعًا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعليل لِما قبله مِن الزجر عن الدعاء، أي: إنّ الشأن. وقُرئ بالفتح،[٤] أي: لِأنَّ الشأن ﴿كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي﴾ وهم المؤمنون. وقيل: هم الصحابة. وقيل: أهل الصُّفّة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ﴿يَقُولُونَ﴾ في الدنيا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ أي: اسكتوا عن الدعاء بقولكم: ربّنا... إلخ؛ لأنّكم كنتم تستهزئون بالداعين بقولهم: ربنا آمنّا... إلخ، وتتشاغلون باستهزائهم ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٨/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٩٩/٣.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٤.

٣ عن الحسن في الكشف والبيان للثعلبي، ٥٨/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٤/١٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

أي: الاستهزاءُ بهم ﴿ذِكۡرِي﴾ مِن فَرط اشتغالكم باستهزائهم، ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ وذلك غاية الاستهزاء.

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ استئناف لبيان حُسن حالهم، وأنّهم انتفعوا بما آذَوهم، ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ بسبب صبرهم على أذيّتكم. وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ ثاني مفعولَي الجزاء، أي: جزيتُهم فوزَهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به. وقُرئ بكسر الهمزة[1] على أنّه تعليل للجزاء، وبيانٌ لكونه في غاية ما يكون مِن الحُسن.

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾

﴿قَٰلَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، أو الملَكُ المأمور بذلك تذكيرًا لِما لبثوا فيما سألوا الرجوع إليه مِن الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾... إلخ. وقُرئ: "قُلْ"[2] على الأمر للملَك: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي تدعون أن ترجعوا إليها ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييز لِـ﴿كَمۡ﴾.

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣﴾

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ استقصارًا لِمدّة لبثهم فيها ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ أي: المتمكّنين مِن العدّ، فإنّا بما دَهِمَنا مِن العذاب بمَعزِل مِن ذلك، أو الملائكة العادّين لأعمار العباد وأعمالهم. وقُرئ: "العَادِينَ" / بالتخفيف،[3] أي: المتعدّين، [١٥٠ظ]
فإنّهم أيضًا يقولون ما نقول، كأنّهم الأتباعُ يسمّون الرؤساءَ بذلك لظلمهم إيّاهم بإضلالهم. وقُرئ: "العَادِيِّينَ"،[4] أي: القدماء المعمِّرين، فإنّهم أيضًا يستقصِرون مدّة لبثهم.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضّل وعن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٦/٣.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

﴿قَٰلَ﴾ أي: الله تعالى، أو الملَك. وقُرئ: "قُلْ"،[1] كما سبق: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ تصديقًا لهم في ذلك ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: تعلمون شيئًا، أو لو كنتم مِن أهل العلم. والجواب محذوف ثقةً بدلالة ما سبق عليه، أي: لَعلِمتم يومئذ قِلّة لبثكم فيها كما علمتم اليومَ، ولَعمِلتم بموجَبه ولم تُخلِدوا إليها.

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ أي: ألم تعلموا شيئًا فحسبتم أنّما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتّى أنكرتم البعث؟ فـ﴿عَبَثٗا﴾ حال مِن نون العظمة، أي: عابثين، أو مفعول له، أي: إنّما خلقناكم للعبَث، ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّمَا﴾، فإنّ خَلقكم بغير بَعث مِن قَبيل العبَث، وإنّما خلقناكم لِنتعبَّدكم ونجازيكم على أعمالكم. وقُرئ: "تَرْجِعُونَ"[2] بفتح التاء مِن الرجوع.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظامٌ له تعالى ولشئونه التي تصرّف عليها عبادُه مِن البَدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجَب الحكمة البالغة، أي: ارتفع بذاته وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأحواله وأفعاله، وعن خلوّ أفعاله عن الحِكم والمصالح والغايات الحميدة ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي يحِقّ له المُلك على الإطلاق إيجادًا وإعدامًا، بَدءًا وإعادةً، إحياءً وإماتةً، عقابًا وإثابةً، وكلُّ ما سواه مَملوك له مَقهور تحت ملكوته.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنّ كلّ ما عداه عبيدُه، ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ فكيف بما تحته ومحاط به مِن الموجودات كائنًا ما كان. ووصفُه بالكرَم إمّا لأنّه منه ينزل الوحي الذي منه القرآن الكريم، أو الخير والبركة والرحمة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.

[1] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

وقُرئ: "الكَرِيمُ" بالرفع[١] على أنّه صفة "الربّ"، كما في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج، ١٥/٨٥].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يَعبُده إفرادًا أو إشراكًا ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة لازمة لـ﴿إِلَٰهًا﴾، كقوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام، ٣٨/٦]، جيء بها للتأكيد وبناء الحُكم عليه تنبيهًا على أنّ التديّن بما لا دليلَ عليه باطل، فكيف بما شهدَت بديهةُ العقول بخلافه. أو اعتراض بين الشرط والجزاء، كقولك: "مَن أحسنَ إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان فالله مُثيبه".

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ فهو مُجَازٍ له على قدر ما يستحقّه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: إنّ الشأن... إلخ. وقُرئ بالفتح[٢] على أنّه تعليل، أو خبر، ومعناه: حسابُه عدم الفلاح. والأصل: حسابُه أنّه لا يُفلح هو، فوُضع ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ موضع الضمير؛ لأنّ ﴿مَن يَدْعُ﴾ في معنى الجمع، وكذلك "حِسَابُهُ أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ" في معنى: حسابُهم أنّهم لا يفلحون.

بُدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وخُتِمت بنفي الفلاح عن الكافرين، ثمّ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالاستغفار والاسترحام فقيل: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ إيذانًا بأنّهما مِن أهمّ الأمور الدينيّة، حيث أُمِر به مَن قد غُفِر له ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخّر، فكيف بمَن عَداه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المؤمنين بشّرته الملائكة بالرَّوح والرَّيحان، وما تَقَرُّ به عينُه عند نزول ملك الموت».[٣] وعنه عليه السلام

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٨٣/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

أنّه قال: «لقد أُنزلت عليّ عشر آيات مَن أقامهنّ دخل الجنّة، ثمّ قرأ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون، ١/٢٣] حتّى ختم العشر».[١] ورُوي «أنّ أوّلها وآخرها مِن كنوز الجنّة، مَن عمل بثلاث آيات مِن أوّلها، واتّعظ بأربع مِن آخرها نجا وأفلح».[٢]

---

١ **سنن الترمذي**، ٣٢٦/٥ (٣١٧٣)؛ **المستدرك للحاكم**، ٧١٧/١ (١٩٦١).

٢ س + الحمد لله ربّ العالمين. | **الكشّاف للزمخشري**، ٢٠٧/٣؛ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ٩٧/٤. قال الزيلعي: «غريب جدًّا». **تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي**، ٤٠٩/٢.

سورة المؤمنون

مكيةٌ كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]. وفي «البحر»: هي مكيةٌ بلا خلافٍ[2]. واستُثْني منها كما في «الإتقان» قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿مُبْلِسُونَ﴾ [الآيات: ٦٤-٧٧][3] واستشكل الحكمُ على ما عَدَاه بكونه مكيًّا لِمَا فيه من ذكر الزكاة، وهي إنما فُرِضَتْ بالمدينة.

وأُجيبَ: بأنه بعد تسليم أنَّ ما ذكر فيه يدلُّ على فرضيتها يقال: إنَّ الزكاة كانت واجبةً بمكة والمفروضُ بالمدينة ذاتُ النصب، وستسمع تمام الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى.

وهي كما في كتاب «العَدَد» للداني و«مجمع البيان» للطبرسيِّ مئةٌ وثمان عشرة آيةً في الكوفي، ومئةٌ وسبع عشرة آيةً[4] في الباقي.

وقد مدح النبيُّ ﷺ العَشْرَ الأُوَلَ منها؛ فقد أخرج أحمد والترمذيُّ والنسائيُّ، والحاكمُ وصحَّحه، والضياءُ في «المختارة»، وغيرُهم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نَزَلَ على رسول الله ﷺ الوحيُ نسمع عند وجهه كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فأُنزِلَ عليه يوماً، فمَكَثْنا ساعةً، فسرِّي عنه، فاستقبل القبلةَ فرفع يديه فقال: «اللهمَّ زِدْنا ولا تَنْقُصْنا، وأَكْرِمْنا ولا تُهِنَّا، وأَعْطِنا ولا تَحْرِمْنا، وآثِرْنا ولا تُؤْثِرْ علينا، وارْضَ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢.

(٢) البحر ٦/ ٣٩٥.

(٣) الإتقان ١/ ٤٧.

(٤) كذا في الأصل و(م) وحاشية الشهاب ٦/ ٣١٨، والصواب: وتسع عشرة، كما في مجمع البيان ١٨/ ١٣٣، والبيان في عدِّ آي القرآن للداني ص١٩١، ومثله في الإتقان ١/ ٢١٤، والكشاف ٣/ ٢٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣١٨، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٢٣، وغيرها من كتب التفسير.

عَنَّا وأَرْضِنا» ثم قال: «لقد أُنْزِلَتْ عليَّ عَشْرُ آياتٍ مَن أقامهنَّ دَخَلَ الجنة» ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى ختم العشر[1].

ومناسَبتُها لآخِرِ السورة[2] قبلها ظاهرةٌ؛ لأنه تعالى خاطب المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟﴾ الآيةَ، وفيها: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] فناسَبَ أن يحقِّق ذلك فقال عزَّ قائلاً:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ والفلاحُ: الفوزُ بالمَرَام. وقيل: البقاءُ في الخير. والإفلاحُ: الدخولُ في ذلك، كالإبشار الذي هو الدخولُ بالبشارة، وقد يجيءُ متعدِّياً وعليه قراءةُ طلحةَ بنِ مصرِّفٍ وعمرو بن عبيد: «أُفلِحَ» بالبناء للمفعول[3].

و«قد» لثبوتِ أمرٍ متوقَّعٍ وتحقُّقِهِ، والظاهرُ أنه هنا الفلاحُ؛ لأنَّ «قد» دخلت على فِعْلِه وهو متوقَّعُ الثبوتِ من حال المؤمنين، وجَعَله الزمخشريُّ الإخبارَ بثباته[4]، وذلك لأنَّ الفلاح مستقبلٌ أُبرِزَ في مَعْرِضِ الماضي مؤكَّداً بـ «قد» دلالةً على تحقُّقه، فيفيدُ تحقُّقَ البشارةِ وثباتَها، كأنه قيل: قد تَحقَّقَ أنَّ المؤمنين من أهل الفلاح في الآخرة.

وجوِّز أن يكون جملةُ «قد أفلح» جوابَ قسم محذوفٍ، وقد ذكر الزجَّاج في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] أنه جوابُ القسم المذكورِ قبلَه بتقديرِ اللَّام[5].

وقرأ ورش عن نافع: «قَدَ افْلَحَ»[6] بإلقاءِ حركةِ الهمزة على الدال، وحَذْفِها

(١) مسند أحمد (٢٢٣)، وسنن الترمذي (٣١٧٣)، وسنن النسائي الكبرى (١٤٤٣)، والمستدرك ٢/ ٣٩٢، والأحاديث المختارة (٢٣٤)، وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء ٤/ ٤٦٠. قال النسائي: هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه. اهـ. وقال العقيلي: يونس بن سليم الصنعاني لا يتابع على حديثه ولا يعرف إلا به.

(٢) في (م): السور، وهو تصحيف.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٧، والبحر ٦/ ٣٩٥.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣١.

(٦) التيسير ص ٣٥.

لفظاً لالتقاء الساكنين ـ كما قال أبو البقاء ـ وهما: الهمزة الساكنةُ بعد نَقْلِ حركتها، والدالُ الساكنةُ بحسب الأصل لأنه لا يعتدُّ بحركتها العارِضة[1].

وقرأ طلحة أيضاً: «قد أُفْلَحُ» بضم الهمزة والحاء[2]، وإلقاءِ واوِ الجمع، وهي مخرَّجةٌ على لغةِ: أكلوني البراغيثُ. وقولُ ابن عطية: هي قراءةٌ مردودة[3]، مردودٌ.

وعن عيسى بن عمر قال: سمعتُ طلحة يقرأ: «قد أفلحوا المؤمنون» فقلت له: أَتَلْحَنُ؟ قال: نعم، كما لحنَ أصحابي. ولعل مراده: إنَّ مَرْجِعَ قراءتي الروايةُ، ومتى صَحَّتْ في شيءٍ، لا يكون لحناً في نفس الأمر وإن كان كذلك ظاهراً.

وإثباتُ الواوِ في الرسم مرويٌّ عن كتاب ابن خالويه[4]، وفي «اللوامح» أنها حُذفتْ في الدَّرْج لالتقاء الساكنين وحُملت الكتابةُ على ذلك، فهي محذوفةٌ فيها أيضاً، ونظير ذلك: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]. وقد جاء حذفُ الواو لفظاً وكتابةً والاكتفاءُ بالضمة الدالَّة عليها، كما في قوله:

ولـو أنَّ الأَطِـبَّـا كـانُ حـولـي وكـان مـع الأطـبـاء الأُسَـاةُ[5]

وهو ضرورةٌ عند بعض النحاة.

والمراد بالمؤمنين، قيل: إمَّا المصدِّقون بما عُلِمَ ضرورةً أنه من دين نبيِّنا ﷺ، من التوحيد والنبوَّةِ والحَشْرِ الجسماني والجزاءِ ونظائرها، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ وما عطف عليه صفاتٌ مخصِّصةٌ لهم.

---

(١) الإملاء ٤/ ٥٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣١٩.
(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: بفتح الهمزة وضم الحاء. ينظر الدر المصون ٨/ ٣١٤، والقراءات الشاذة ص ٩٧، والكشاف ٣/ ٢٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٣٦، والبحر ٦/ ٣٩٥. ووقع في (م): أفلحوا.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٦.
(٤) القراءات الشاذة ص ٩٧، وفيه ذكر الوجهين: ضم الحاء، وإثبات الواو، وينظر البحر ٦/ ٣٩٥.
(٥) مجالس ثعلب ص ٨٨، والإنصاف ١/ ٣٨٥، والكشاف ٣/ ٢٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٧/ ٥ و٩/ ٨، والخزانة ٥/ ٢٢٩.

وإما الآتونَ بفروعه أيضاً، كما يُنْبِئُ عنه إضافةُ الصلاة إليهم، فهي صفاتٌ موضِّحة أو مادِحةٌ لهم. وفي بعض الآثار ما يؤيِّد كونَها مخصِّصةً.

وجَعَلَ الزمخشريُّ[١] الإضافةَ للإشارة إلى أنهم هم المنتفعون بالصلاة دون المصلَّى له عز وجل.

والخشوعُ: التذلُّلُ مع خوفٍ وسكونٍ للجوارح، ولذا قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير وغيرُه: «خاشعون»: خائفون ساكنون[٢].

وعن مجاهد: أنه هنا غضُّ البصر وخَفْضُ الجَناح.

وقال مسلم بن يسار وقتادة: تنكيس الرأس.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: تَرْكُ الالتفات.

وقال الضحاك: وَضْعُ اليمين على الشمال.

وعن أبي الدرداء: إعظامُ المقام، وإخلاصُ المقال، واليقينُ التامُّ، وجَمْعُ الاهتمام.

ويَتْبعُ ذلك تَرْكُ الالتفاتِ وهو من الشيطان، فقد روى البخاريُّ وأبو داود والنسائيُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختِلاسٌ يَخْتَلِسُه الشيطانُ مِنْ صلاةِ العَبْدِ»[٣].

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أنه قال في مرضه: أَقْعِدوني أَقْعِدوني فإنَّ عندي وديعةً أَوْدَعَنِيها رسولُ الله ﷺ قال: «لا يَلْتفِتْ أحدُكم في صلاته، فإن كان لا بدَّ فاعلاً ففي غيرِ ما افْتَرضَ الله تعالى عليه»[٤].

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٥.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ١٠.

(٣) صحيح البخاري (٧٥١)، وسنن أبي داود (٩١٠)، وسنن النسائي ٣/ ٨، وهو عند أحمد (٢٤٧٤٦).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤١-٤٢، وهو من طريق الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحسن لم يسمع من أبي هريرة. ينظر المراسيل لابن أبي حاتم ص ٣٨.

وتَرْكُ العبث بثيابه أو شيءٍ من جسده، وإنكارُ منافاته للخشوع مكابَرةٌ، وقد أخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» لكنْ بسندٍ ضعيفٍ، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه رأى رجلاً يعبثُ بلحيته في صلاته فقال: «لو خَشَعَ قلبُ هذا خَشَعَتْ جَوَارِحُه»(١).

وتَرْكُ رَفْعِ البصر إلى السماء وإنْ كان المصلِّي أعمى، وقد جاء النهيُ عنه، فقد أخرج مسلم وأبو داود وابن ماجه عن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لينتهينَّ أقوامٌ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا تَرْجِعُ إليهم»(٢).

وكان قبل نزول الآية غيرَ منهيٍّ عنه، فقد أخرج الحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في «سننه»، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا صلَّى رفع بصره إلى السماء، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ فطأطأ رأسه(٣).

وتَرْكُ الاختصار: وهو وضعُ اليد على الخاصرة، وقد ذكروا أنه مكروه، وجاء عنه ﷺ: «الاختصارُ في الصلاة راحةُ أهلِ النار»(٤) أي: أنَّ ذلك فِعْلُ اليهود في

---

(١) نوادر الأصول ص ٣١٧، وأورده العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ١٥١ بهامش الإحياء)، والسيوطي في الجامع الصغير مع فيض القدير ٥/ ٣١٩، وضعفاه، وقال العراقي: والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب، رواه ابن أبي شيبة في المصنف، وفيه رجل لم يسمَّ. اهـ. وهو في مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٨٩ من طريق معمر، وفي مصنف عبد الرزاق (٣٣٠٩) من طريق الثوري، كلاهما عن رجل عن ابن المسيب.

(٢) صحيح مسلم (٤٢٨)، وسنن أبي داود (٩١٣)، وسنن ابن ماجه (١٠٤٥).

(٣) المستدرك ٢/ ٣٩٣، وسنن البيهقي ٢/ ٢٨٣، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لولا خلافٌ فيه على محمد، فقد قيل عنه مرسلاً ولم يخرجاه. اهـ. وقال الذهبي: الصحيح مرسل. وأخرج المرسل عبد الرزاق (٣٢٦١) و(٣٢٦٢)، وأبو داود في المراسيل (٤٥)، والبيهقي ٢/ ٢٨٣، وقال: هذا هو المحفوظ مرسل.

(٤) أخرجه ابن حبان (٢٢٨٦) من طريق عيسى بن يونس، عن هشام، عن محمد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قال ابن رجب في فتح الباري ٩/ ٣٧٠: كذا خرجه، وإنما رواه عيسى بن يونس عن عبيد الله بن الأزور عن هشام بهذا اللفظ، كذا رواه الطبراني [الأوسط (٦٩٢٥)]، والعقيلي [الضعفاء ٣/ ١١٨] من رواية عيسى بن يونس عنه، وقال العقيلي:
=

صلاتهم استراحةً، وهم أهلُ النار، لا أنَّ لهم فيها راحةً، كيف وقد قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

ومن أفعالهم أيضاً فيها التميُّل، وقد جاء النهي عنه؛ أخرج الحكيم الترمذيُّ من طريق القاسم بن محمد، عن أسماء بنت أبي بكر، عن أمِّ رومان والدةِ عائشةَ ﵄ قالت: رآني أبو بكر ﵁ أتميَّلُ في صلاتي، فزجرني زجرةً كدتُ أنصرفُ عن صلاتي، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم في الصلاة فليُسْكِنْ أطرافَه لا يتميَّل تميُّلَ اليهود، فإنَّ سكون الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة»[1].

وقال في «الكشاف»: من الخشوع أن يستعمل الآداب، وذَكَر من ذلك تَوقِّيَ كفِّ الثوب، والتمطِّيَ، والتثاؤبَ، والتغميضَ[2]، وتغطيةَ الفم، والسدلَ، والفرقعةَ، والتشبيكَ، وتقليبَ الحصى[3].

وفي «البحر» نقلاً عن «التحرير» أنه اختلف في الخشوع: هل هو من فرائض الصلاة، أو من فضائلها ومكمِّلاتها؟ على قولين، والصحيح الأولُ ومحلُّه القلب[4]. اهـ، والصحيح عندنا خلافه، نعم الحق أنه شرط القبول لا الإجزاء.

= لا يتابع عبيد الله بن الأزور على لفظه. اهـ. قلنا: ولم يرد في مطبوع العقيلي سوى التعليق دون الحديث، وجاء عند الطبراني: عبد الله بن الأزور، وينظر الميزان ٢/ ٣٩١ و٣/ ٣. وأخرج البخاري (١٢٢٠) من طريق يحيى عن هشام عن محمد عن أبي هريرة قال: نُهي أن يصلي الرجل مختصِراً.

(١) نوادر الأصول ص ١٨٤، وأخرجه أيضاً ابن عدي ٢/ ٦٢٠. وفي إسناده الحكم بن عبد الله بن سعد الأيلي، قال أحمد: أحاديثه كلها موضوعة، وقال ابن معين: ليس بثقة، وقال السعدي وأبو حاتم: كذاب. الميزان ١/ ٥٧٢.

(٢) جاء في هامش(م): قيل هو فعل اليهود، وجاء النهي عنه لكن من طريق ضعيف، وقال النووي: عندي أنه لا يُكره ما لم يخف ضرراً. انتهى. وربما يقال: إن فيه منعاً لتفريق الذهن، فيكون سبباً لحضور القلب والخشوع، ولذا أفتى ابن عبد السلام بأنه أولى إذا شَوَّشَ عدمُه خشوعَه أو حضورَ قلبه مع ربِّه عزَّ وجلَّ. اهـ منه.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٥.

(٤) البحر ٦/ ٣٩٥.

وفي «المنهاج» وشَرْحِهِ لابن حجر[١]: ويُسنُّ الخشوعُ في كلِّ صلاته؛ بقلبه بأنْ لا يُحْضِرَ فيه غيرَ ما هو فيه، وإنْ تَعَلَّقَ بالآخرة، وبجوارحه بأنْ لا يعبث بأحدها. وظاهرٌ أنَّ هذا[٢] مرادُ النوويِّ من الخشوع؛ لأنه سيذكر الأول بقوله: ويسنُّ دخولُ الصلاة بنشاطٍ وفراغِ قلبٍ، إلا أن يجعل ذلك سبباً له، ولذا خصَّه بحالة الدخول.

وفي الآية المرادُ كلٌّ منهما كما هو ظاهرٌ أيضاً، وكان سنَّةً لثناء الله تعالى في كتابه العزيز على فاعِلِيه، ولانتفاء ثواب الصلاة بانتفائه كما دلَّت عليه الأحاديثُ الصحيحة[٣]، ولأنَّ لنا وجهاً اختاره جمعٌ، أنه شرطٌ للصحة لكنْ في البعض، فيكره الاسترسالُ مع حديث النفس، والعبثُ كتسوية ردائه أو عمامته لغير ضرورةٍ من تحصيلِ سنَّةٍ أو دفعِ مَضرَّةٍ، وقيل: يَحْرُمُ. اهـ.

وللإمام في هذا المقام كلامٌ طويلٌ مَن أراده فليَرْجع إليه[٤].

وتقديم الظرف، قيل: لرعاية الفواصل. وقيل: ليقرِّبَ ذِكْرَ الصلاة مِن ذِكْرِ الإيمان؛ فإنهما أخوان، وقد جاء إطلاقُ الإيمان عليها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: للحصر، على معنى: الذين هم في جميع صلاتهم دون بعضها خاشعون.

وفي تقديم وَصْفِهم بالخشوع في الصلاة على سائر ما يُذْكَرُ بعدُ ما لا يخفى من التنويه بشأن الخشوع. وجاء أنَّ الخشوعَ أولُ ما يُرْفَعُ من الناس، ففي خبرٍ رواه الحاكم وصحَّحه: أنَّ عبادة بن الصامت قال: يوشكُ أن تدخل المسجدَ فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً[٥].

---

(١) تحفة المحتاج بشرح المنهاج على هامش حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي ٢/ ١٠١.

(٢) أي: خشوع الجوارح، كما في حواشي الشرواني.

(٣) أخرج مسلم (٤٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً، ثم انصرف فقال: «يا فلان، ألا تُحْسِنُ صلاتك؟ ألا ينظر المصلِّي إذا صلى كيف يصلي؟ فإنما يصلِّي لنفسه. . .». وأخرج البخاري (٧٤٢)، ومسلم(٤٢٤) من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أقيموا الركوع والسجود. . .»

(٤) ينظر تفسير الرازي ٢٣/ ٧٧-٧٩.

(٥) المستدرك ١/ ٩٩، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٦٥٣) وقال: حديث حسن غريب.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمدُ في «الزهد»، والحاكمُ وصحَّحه، عن حذيفة قال: أولُ ما تفقدون من دينكم الخشوعُ، وآخِرُ ما تفقدون من دينكم الصلاةُ، وتنتقضُ عُرَى الإسلام عروة عروة. الخبر(١).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ وهو ما لا يعتدُّ به من الأقوال والأفعال، وعن ابن عباس تفسيرُه بالباطل. وشاع في الكلام الذي يورَدُ لا عن رويةٍ وفكرٍ فيجري مجرى اللغاءِ، وهو صوتُ العصافير ونحوِها من الطير.

وقد يُسمَّى كلُّ كلامٍ قبيحٍ لغواً، ويقال فيه كما قال أبو عبيدة: لغوٌ ولَغاً، نحو عيب وعاب، وأنشد:

عن اللَّغا ورَفَثِ التكلُّم(٢)

﴿مُعْرِضُونَ﴾ في عامة أوقاتهم؛ لما فيه من الحالة الداعيةِ إلى الإعراض عنه، مع ما فيهم من الاشتغال بما يعنيهم، وهذا أبلغ من أن يقال: لا يَلْهُونَ، من وجوه: جَعْلُ الجملة اسميةً دالَّةً على الثبات والدوام، وتقديمُ الضميرِ المفيدُ لتقوِّي الحكم بتكريره، والتعبيرُ في المسند بالاسم الدالِّ كما شاع على الثبات، وتقديمُ الظرف عليه المفيدُ للحصر، وإقامةُ الإعراض مقامَ الترك ليدلَّ على تباعُدِهم عنه رأساً مباشرةً وتسبُّباً وميلاً وحضوراً، فإنَّ أصله أن يكون في عُرْضٍ(٣) - أي ناحيةٍ - غيرِ عُرْضِه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ الظاهرُ أنَّ المراد بالزكاة المعنى المصدريُّ - أعني التزكية - لأنه الذي يتعلَّق به فعلُهم، وأما المعنى الثاني وهو القَدْرُ الذي يُخْرِجُه المزكِّي، فلا يكون نفسُه مفعولاً لهم، فلا بد إذا أريد من تقديرِ مضافٍ، أي: لأداء

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٨١-٣٨٢، والزهد لأحمد ص ٢٢٤، والمستدرك ٤/ ٤٦٩. وقوله: وتنتقض عرى الإسلام.... لم يرد عند ابن أبي شيبة وأحمد.

(٢) في (م): التكليم، وهو تصحيف، والرجز للعجاج، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٧٠، وتهذيب اللغة ١٥/ ٧٧، والصحاح (رفث)، وتفسير الطبري ٣/ ٢٣٠ و٤/ ٣٤، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٢٦٩، والمحتسب ١/ ٢٤٧، والخصائص ١/ ٣٣، وقبله: وربِّ أسرابِ حجيجٍ كظَّمِ.

(٣) بضم فسكون. حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٠.

الزكاة فاعلون، أو تضمينِ «فاعلون» معنى: مؤدُّون، وبذلك فسَّره التبريزيُّ[1]. إلا أنه تعقَّبَ بأنه لا يقال: فعلتُ الزكاة، أي: أدَّيتُها.

وإذا أُريدَ المعنى الأولُ أدَّى وَصْفُهم بفعل التزكية إلى أداء العين بطريقِ الكناية التي هي أبلغ، وهذا أحدُ الوجوه للعدول عن: والذين يزكُّون، إلى ما في النظم الكريم.

وجميع ما مرَّ آنفاً في بيان أبلغية «والذين هم عن اللغو معرضون» من: والذين لا يلهون، جارٍ هنا، سوى الوجهِ الخامس اتفاقاً، والرابعِ عند بعضٍ؛ لأنَّ المقدَّم متعلِّقٌ تعلُّق الجارِّ والمجرور بما بعده، كيف واللامُ زائدةٌ لتقوية العمل من وجهين: تقديمِ المعمول، وكونِ العامل اسماً.

وقال بعضٌ آخَرُ[2]: يمكن جَرَيانُ مِثْلِه، حيث قدِّم المعمول مع ضَعْفِ عامله لا للتخصيصِ بل لكونه مصبَّ الفائدة، ويجوز اعتبارُ التخصيص الإضافيِّ أيضاً بالنسبة إلى الإنفاق فيما لا يليق.

ووَصْفُهم بذلك بعد وَصْفِهم بالخشوع في الصلاة؛ للدلالة على أنهم لم يَأْلوا جهداً بالعبادة البدنية والمالية، وتوسيطُ حديث الإعراض بينهما لكمالِ ملابَستِه بالخشوع في الصلاة، وإلَّا فأكثرُ ما تُذْكَرُ هاتان العبادتان في القرآن معاً بلا فاصلٍ.

وعن أبي مسلم[3] أنَّ الزكاة هنا بمعنى العملِ الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١].

واختار الراغب[4] أنَّ الزكاة بمعنى الطهارة، واللامُ للتعليل، والمعنى: والذين يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكِّيهم الله تعالى، أو ليزكُّوا أنفسَهم.

ونقل نحوه الطيبيُّ عن صاحب «الكشف» فقال: قال صاحب «الكشف»: معنى الآية: الذين هم لأَجْلِ الطهارة وتزكيةِ النفس عاملون الخيرَ، ويُرشِدُ إلى ذلك قولُه

---

(١) كما في البحر ٦/ ٣٩٦.
(٢) هو الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٢٠.
(٣) كما في البحر ٦/ ٣٩٦.
(٤) في مفرداته (زكا)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٢٠.

تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥] و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، فإنَّ القرآن يفسِّر بعضُه بعضاً، ولا ينبغي أن يُعْدلَ عن تفسير بعضه ببعضٍ ما أمْكَن.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ اقتران ذلك بالصلاة ينادي على أنَّ المراد وصفُهم بأداء الزكاة الذي هو عبادةٌ مالية. وتنظيرُ ما نحن فيه بالآيتين بعيدٌ لأنهما ليستا من هذا القبيل في شيء.

وربما يقال: الفصلُ بينهما يُشْعِرُ بما اختاره الراغب ومَن حذا حذوه، وأيضاً كونُ السورة مكيةً والزكاة فُرضَتْ بالمدينة يؤيِّدُهُ؛ لئلَّا يحتاجَ إلى التأويل بما مرَّ. فتدبَّر.

وأيًّا ما كان فالآيةُ في أعلى مراتبِ الفصاحةِ والبلاغة، وقولُ بعضِ زنادقة الأعاجم الذين حُرِموا ذَوْقَ العربية: ألَا قيل: مؤدُّون، بدل: «فاعلون»، مِن مَحْضِ الجهل والحماقةِ التي أَعْيَتْ مَن يداويها؛ فإنه لو فُرِضَ أنَّ القرآن ـ وحاشا لله سبحانه ـ كلامُ النبيِّ ﷺ فهو عليه الصلاة والسلام الذي مَخَضَتْ له الفصاحةُ زُبْدَها، وأعطَتْه البلاغةُ مِقْودَها، وكان ﷺ بين مَصاقعِ نقَّادٍ لم يألوا جهداً في طلبِ طَعْنٍ ليستريحوا به من طَعْنِ الصِّعاد[1]، وقد جاء نظيرُ ذلك في كلام أمية بن أبي الصَّلْتِ قال:

المُطْعِمونَ الطعامَ في السَّنَةِ الـ ... أزمة والفاعلون للزَّكَواتِ[2]

ولم يَردَّ عليه أحدٌ من فُصحاءِ العرب ولا أعابوه، واختار الزمخشريُّ في هذا حَمْلَ الزكاة على العين[3] وتقديرَ المضاف، دون الآية، وعلَّلَ بجَمْعِها وهو إنما يكون للعين دون المصدر.

وتُعقِّبَ بأنه قد جاء كثيرٌ من المصادر مجموعةً كالظنون والعلوم والحلوم

---

(١) جمع صَعْدة، وهي القناة، وقيل: القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى التثقيف. اللسان (صعد).

(٢) ديوان أمية ص ٣٠.

(٣) يعني في بيت أمية، أما في الآية فقد اختار فيها الحمل على المعنى. الكشاف ٣/ ٢٦، والفائق ٢/ ١١٩.

والأشغال وغير ذلك. وهي إذا اختلفت[١] فالأكثرون على جوازِ جَمْعِها، وقد اختلفت هاهنا بحسب متعلقاتها؛ فإنَّ إخراجَ النقد غيرُ إخراج الحيوان، وإخراج الحيوان غير إخراج النبات. فليحفظ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وَصْفٌ لهم بالعفَّة، وهو وإن استدعاه وَصْفُهم بالإعراض عن اللغو، إلَّا أنه جيءَ به اعتناءً بشأنه. ويجوز أن يقال: إنَّ ما تقدَّم وإن استَدْعَى وَصْفَهم بأصل العفة لكنْ جيءَ بهذا لِمَا فيه من الإيذان بأنَّ قوتهم الشهويةَ داعيةٌ لهم إلى ما لا يخفى، وأنهم حافظون لها عن استيفاءِ مقتضاها، وبذلك يتحقَّقُ كمالُ العفَّةِ.

واللامُ للتقوية كما مرَّ في نظيره، و«على» متعلِّقٌ بـ «حافظون» لتضمينه معنى مُمْسكون، على ما اختاره أبو حيان، والإمساكُ يتعدَّى بعلى كما في قوله تعالى ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧][٢].

وذهب جمعٌ إلى اعتبار معنى النفي المفهوم من الإمساك ليصحَّ التفريغ، فكأنه قيل: حافظون فروجَهُم لا يُرْسلونها على أحدٍ إلَّا على أزواجهم.

وقال بعضهم: لايَلزمُ ذلك لصحةِ العموم هنا، فيصحُّ التفريغ في الإيجاب.

وفي «الكشف»: الوجهُ أن يقال: ما في الآية من قبيل: حَفِظْتُ على الصبيِّ مالَه، إذا ضبطته[٣] مقصوراً عليه لا يتعدَّاه، والأصلُ: حافظون فروجَهم على الأزواج لا تتعدَّاهن، ثم قيل: غير حافظين إلَّا على الأزواج، تأكيداً على تأكيدٍ، وعلى هذا تضمينُ معنى النفي الذي ذكره الزمخشريُّ[٤] من السياق واستدعاءِ الاستثناءِ المفرَّغِ ذلك، ولم يؤخذ مما في الحفظ من معنى المنع والإمساك؛ لأنَّ حرفَ الاستعلاءِ يمنعه. انتهى، وفيه ما فيه.

---

(١) في (م): اختلف، والمثبت من الأصل والبحر ٦/ ٣٩٦، وهو الصواب.
(٢) البحر ٦/ ٣٩٦.
(٣) في (م): ضبطه، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٦/ ٣٢٠.
(٤) في الكشاف ٣/ ٢٦.

ويا ليت شعري كيف عَدَّ حَرْفَ الاستعلاء مانعاً عن ذلك، مع أنَّ كونَ الإمساكِ ممَّا يتعدَّى به أمرٌ شائع؟!

وقال الفرَّاء وتبعه ابنُ مالك وغيرُه: إنَّ «على» هنا بمعنى «مِن»، أي: إلَّا مِن أزواجهم، كما أنَّ «مِن» بمعنى «على» في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٧] أي: على القوم[١].

وقيل: هي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من ضميرِ «حافظون»، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أي: حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلَّا حال كونهم والينَ وقوَّامين على أزواجهم، من قولك: كان فلانٌ على فلانةٍ فمات عنها، ومنه قولُهم: فلانة تحت فلانٍ، ولذا سمِّيت المرأة فراشاً.

أو متعلِّقةٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه «غيرُ مَلُومِينَ»كأنه قيل: يُلامون إلَّا على أزواجهم، أي: يلامون على كلِّ مباشر إلا على ما أُطلقَ لهم فإنَّهم غيرُ ملومين عليه. وكلا الوجهين ذكرهما الزمخشريُّ[٢].

واعتُرض بأنهما متكلَّفان ظاهرٌ[٣] فيهما العجمة. وأُورِدَ على الأخير أنَّ إثباتَ اللَّومِ لهم في أثناء المدح غيرُ مناسبٍ، مع أنه لا يختصُّ بهم. وكونُ ذلك على فرض عصيانهم وهو مثلُ قوله تعالى: (فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ) إلخ، لا يدفعُه كما تُوهِّم.

ولا يجوز أن تتعلَّق بـ «ملومين» المذكورِ بعدُ؛ لما قال أبو البقاء[٤] من أنَّ ما بعد «إنَّ» لا يعمل فيما قبلها، وأنَّ المضاف إليه لا يعمل فيما قبله.

والمرادُ ممَّا ملكت أيمانُهم: السريَّات، والتخصيصُ بذلك للإجماع على عدم حِلِّ وَطْءِ المملوك الذكر. والتعبيرُ عنهنَّ بـ «ما» على القول باختصاصها بغير العقلاء؛ لأنهنَّ يُشْبِهْنَ السلع بيعاً وشراءً، أو لأنهنَّ لأُنوثتهنَّ المنبئةِ عن قلَّةِ عقولِهنَّ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١، ونقله المصنف عنه وعن ابن مالك بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٣٩٦.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٦.

(٣) في(م): ظاهراً. والمعترض هو أبو حيان، ينظر البحر ٦/ ٣٩٦، والدر المصون ٨/ ٣١٨.

(٤) في الإملاء ٤/ ٥١.

جارياتٌ مجرى غيرِ العقلاء، وهذا ظاهرٌ فيما إذا كنَّ مِن الجركس أو الروم أو نحوهم، فكيف إذا كن من الزنج والحبش وسائر السودان، فلَعَمْري إنهنَّ حينئذٍ إن لم يكنَّ مِن نوع البهائم فما نوعُ البهائم منهن ببعيد.

والآيةُ خاصَّةٌ بالرجال، فإن التَّسرِّيَ للنساء لا يجوزُ بالإجماع، وعن قتادة[١] قال: تَسرَّتِ امرأةٌ غلاماً، فذُكرتْ لعمر رضي الله عنه، فسألها: ما حَملكِ على هذا؟ فقالت: كنتُ أرى أنه يَحِلُّ لي ما يَحِلُّ للرجال من ملك اليمين. فاستشار عمر فيها أصحاب النبيِّ ﷺ، فقالوا: تأوَّلَتْ كتاب الله تعالى على غير تأويله. فقال رضي الله عنه: لا جَرَمَ لا أُحِلُّكِ لحرٍّ بعده أبداً. كأنه عاقبها بذلك، ودرأ الحدَّ عنها، وأمر العبدَ أنْ لا يَقْرَبَها.

ولو كانت المرأة متزوِّجةً بعبدٍ فملكته فأعتقته حالةَ الملكِ انفسخ النكاحُ عند فقهاء الأمصار، وقال النخعيُّ والشعبيُّ وعبيد الله بنُ عبد الله بن عتبة: يبقيان على نكاحهما[٢].

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليلٌ لِمَا يفيدُه الاستثناء من عدم حِفْظِ فروجهم من المذكورات، أي: فإنهم غيرُ ملومين على تَرْكِ حِفْظِها منهنَّ.

وقيل: الفاء في جواب شرطٍ مقدَّرٍ، أي: فإنْ بذلوا فروجهم لأزواجهم أو إمائهم فإنَّهم غيرُ ملومين على ذلك.

والمراد بيانُ جنسِ ما يَحِلُّ وطؤه في الجملة، وإلَّا فقد قالوا: يَحْرُمُ وَطْءُ الحائضِ، والأَمَةِ إذا زوِّجَتْ، والمُظاهِرِ منها حتى يكفِّر، وهذا مُجْمَعٌ عليه.

وفي الجمع بين الأختين من ملك اليمين، وبين المملوكة وعمَّتها أو خالتها، خلافٌ على ما في «البحر»[٣]، وذكر الآمديُّ في «الأحكام» أنَّ عليًّا كرم الله وجهه

---

(١) جاء في حاشية (م): أخرجه عبد الرزاق. اهـ منه. وهو في مصنف عبد الرزاق (١٢٨١٨).

(٢) ذكر قولهم ابن عبد البر في الاستذكار ١٦/ ٣١٧ ثم قال: ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار؛ لأنها بملكها عندهم يبطل النكاح بينهما، وليس ذلك بطلاق، وإنما هو فسخ للنكاح، وأنها لو أعتقته بعد ملكها له لم يراجعها إلا بنكاح جديد، ولو كانت في عدَّةٍ منه.

(٣) ٦/ ٣٩٧.

احتجَّ على جواز الجمع بين الأختين في الملك بقوله تعالى: (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ)[١].

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكورِ من الحدِّ المتَّسع، وهو أربعٌ من الحرائر وما شاء من الإماء. وانتصابُ «وراء» على أنه مفعولُ «ابتغى»، أي: خلافَ ذلك، وهو الذي ذهب إليه أبو حيان[٢].

وقال بعض المحققين: إنَّ «وراء» ظرفٌ لا يصلُحُ أن يكون مفعولاً به، وإنما هو سادٌّ مسدَّ المفعول به، ولذا قال الزمخشري: أي: فَمَنْ أَحْدَثَ ابتغاء وراء ذلك[٣].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان المتناهون فيه، كما يشير إليه الإشارةُ والتعريفُ وتوسيطُ الضمير المفيدُ لجَعْلِهم جنسَ العادين أو جميعَهم. وفي الآية رعايةُ لَفْظِ «مَن» ومعناها.

ويدخل فيما «وراء ذلك»: الزنا، واللواطُ، ومواقعةُ البهائم، وهذا مما لا خلافَ فيه.

واختلف في وَطْءِ جارية أبيحَ له وَطْؤُها، فقال الجمهور: هو داخلٌ فيما وراء ذلك أيضاً فيَحْرُمُ، وهو قول الحسن وابن سيرين، وروي ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما، فقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد الرزاق عنه أنه سئل عن امرأةٍ أَحلَّتْ جاريتها لزوجها، فقال: لا يَحِلُّ لك أن تطأ فرجاً ـ أي: غيرَ فَرْجِ زوجتك ـ إلا فرجاً إن شئتَ بعتَ، وإن شئتَ وَهَبْتَ، وإنْ شِئْتَ أعتقت[٤].

وعن ابن عباس أنه غير داخلٍ فلا يحرم، فقد أخرج عبد الرزاق عنه رضي الله عنه قال: إذا أَحلَّت امرأةُ الرجل أو ابنته أو أخته له جاريتها فَلْيُصِبْها وهي لها[٥].

---

(١) الأحكام ٢/ ٢٥٤، وفيه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣]. قال القرطبي ٦/ ١٩٤: ولم يلتفت أحد من أئمة الفتوى إلى هذا القول...، وينظر بقية كلامه ثمة.

(٢) في البحر ٦/ ٣٩٧.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٦.

(٤) مصنف عبد الرزاق (١٢٨٤٧)، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر ٥/ ٥، وعنه نقل المصنف.

(٥) مصنف عبد الرزاق (١٢٨٥٢).

وهو قول طاووس؛ أخرج عنه عبد الرزاق أيضاً أنه قال: هو أَحَلُّ من الطعام، فإن وَلَدتْ فولدُها للذي أُحِلَّت له، وهي لسيدها الأول[١].

وأخرج عن عطاء أنه قال: كان يُفْعَلُ ذلك، يُحِلُّ الرجلُ وليدتَه لغلامه وابنه وأخيه وأبيه، والمرأةُ لزوجها، وقد بلغني أنَّ الرجل يرسل وَليدتَه لصديقه[٢].

وإلى هذا ذهبت الشيعةُ، والآيةُ ظاهرةٌ في ردِّه؛ لظهور أنَّ المُعَارةَ للجماع ليست بزوجةٍ ولا مملوكةٍ، وكذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣] فإنَّ السكوت في معرض البيان يفيد الحصر، خصوصاً إذا كان المقام مقتضياً لذكر جميع ما لا يجبُ العدلُ فيه، وفي عدم وجوب العدل تكون العاريَّةُ أقدمَ من الكلِّ؛ إذ لا يجب فيها إلَّا تحمُّلُ منّةِ مالكِ الفرج فقط، وكذا قولُه سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] فإنه لو جازت العاريَّة لما كان خوف العنت والحاجة إلى نكاح الإماء وإلى الصبر على ترك نكاحهن متحقِّقاً، ونحوه قولُه سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] فإنه لو كانت العاريَّة جائزةً لم يؤمر الذين لا يجدون نكاحاً بالاستعفاف، ولعل الرواية السابقة عن ابن عباس غيرُ صحيحة.

وكذا اختلف في المتعة فذهبت الشيعة أيضاً إلى جوازها، ويُرَدُّ عليهم بما ذكرنا من الآيات الظاهرة في تحريم العاريَّة، وأخرج عبد الرزاق وأبو داود في «ناسخه» عن القاسم بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال: هي محرَّمةٌ في كتاب الله تعالى، وتلا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ الآية[٣].

وقرِّر وجهُ دلالة الآية على ذلك أنَّ المستمتَعَ بها ليست ملكَ اليمين ولا زوجةً، فوجب أن لا تحلَّ له، أمَّا أنها ليست ملك اليمين فظاهرٌ، وأمَّا أنها ليست زوجةً له

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٢٨٥١).

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٢٨٥٠)، وفيه ـ بعد قوله: والمرأة لزوجها ـ زيادة: وما أحب أن يفعل ذلك، وما بلغني عن ثَبْتٍ.

(٣) مصنف عبد الرزاق(١٤٠٣٦)، وعزاه لأبي داود السيوطي في الدر المنثور ٥/٥.

فلأنهما لا يتوارثان بالإجماع، ولو كانت زوجةً لحصل التوارُثُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ لهم أن يقولوا: إنها زوجةٌ يكشفُ الموت عن بينونتها قبيله، كما أنها تَبِينُ بانقضاء الأجل قضاءً لحقِّ التعليق والتأجيل، وحاصلُه منع استفسار في الملازمة، إن أُريدَ: لو كانت زوجةً حالَ الحياة، لم يُفِدْ، وإن أريد بعد الموت فالملازمةُ ممنوعةٌ. فإن قيل: لا تَبينُ بالموت كالنكاح المؤبَّد. أجيب بأنه قياسٌ في عينِ ما افترق النكاحان به، وهو فاسدٌ بالإجماع.

وتعقَّب هذا شيخُ الإسلام لخفاءِ معناه عليه، بأنه ليس للترديد معنىً محصّلٌ، ولو قيل: إن أريد: لو كانت زوجةً حالَ الحياة فالملازمةُ ممنوعةٌ، وإن أريد بعد الموت لم يُفِدْ، لكان له وجه. وقال هو في ردِّ الاستدلال: لهم أن يقولوا: إنها زوجةٌ له في الجملة، وأمَّا أنَّ كلَّ زوجةٍ تَرِثُ فهم لا يسلِّمونه[1].

وقال بعضهم: الحقُّ أنَّ الآية دليلٌ على الشيعة؛ فإنَّ ظاهر كلامهم أنها ليست بزوجة أصلاً حيث ينفون عنها لوازمَ الزوجية بالكلِّية، من العِدَّة، والطلاقِ، والإيلاء، والظهار، وحصولِ الإحصان، وإمكان اللِّعان، والنفقةِ، والكسوةِ، والتوارُثِ، ويقولون بجواز جَمْعِ ما شاء بالمتعة، ولا شكَّ أنَّ نفي اللازم دليلُ نَفْيِ الملزوم.

وتعقِّب: بأنَّ هذا حقٌّ لو سلِّم أنهم ينفُون اللوازمَ كلَّها، لكنه لا يسلَّم، ونفيُ بعضِ اللوازم لا يكفي في الردِّ عليهم إذا قالوا: إنَّ الزوجية قسمان: كاملةٌ وغيرُ كاملة، إذ بنفي ذلك البعض إنما ينتفي القسم الأول وهو لا يضرُّهم.

وقيل: الذي يقتضيه الإنصافُ أنَّ الآية ظاهرةٌ في تحريم المتعة، فإنَّ المستَمْتَعَ بها لا يقال لها زوجة في العرف، ولا يقصَدُ منها ما هو السرُّ في مشروعية النكاح من التوالُد والتناسُل لبقاء النوع، بل مجرَّدُ قضاءِ الوطر وتسكينِ دغدغة المنيِّ، ونحو ذلك، وزُعِمَ أنه يتمُّ الاستدلال بالآية بهذا الطرزِ على التحريم، سواءٌ نُفيتِ اللوازمُ أم لم تُنْفَ كما هو مذهبُ بعضِ القائلين بالحِلِّ، كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٢٥.

ولعل الأقرب إلى الإنصاف أن يقال: متى قيل بنفي اللوازم من حصول الإحصان، وحرمةِ الزيادة على الأربع، ونحو ذلك، كانت الآيةُ دليلاً على الحرمة؛ لأن المتبادر من الزوجية فيها الزوجيةُ التي يلزمها مثلُ ذلك، وهو كافٍ في الاستدلال على مثل هذا المطلب الفرعي، ومتى لم يُقَلْ بنفي اللوازم، ولم يفرِّقْ بينها وبين النكاح المؤبَّد إلا بالتوقيت وعَدَمِه، لم تكن الآيةُ دليلاً على التحريم.

هذا ولي هاهنا بحثٌ لم أرَ مَن تعرَّضَ له، وهو أنه قد ذُكر في الصحيحين أنَّ النبيَّ ﷺ حرَّم المتعة يوم خيبر[١]، وفي صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام حرَّمها يوم الفتح[٢]، ووفَّق ابن الهمام بأنها حرِّمت مرتين[٣]، مرةً يومَ خيبر ومرةً يومَ الفتح، وذلك يقتضي أنها كانت حلالاً قبل هذين اليومين، وقد سمعت آنفاً ما يدلُّ على أنَّ هذه الآيةَ مكيةٌ بالاتفاق، فإذا كانت دالَّةً على التحريم كما سمعتَ عن القاسم بن محمد، ورَوَى مثلَه ابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم والحاكمُ وصحَّحه عن عائشة رضي الله عنها[٤]، لزم أن تكون محرّمةً بمكة يوم نزلت الآية، وهو قبل هذين اليومين، فتكون قد حرِّمَتْ ثلاثَ مرَّاتٍ، ولم أرَ أحداً صرَّح بذلك[٥].

وإذا التزمناه يبقى شيءٌ آخَرُ، وهو عدمُ تماميةِ الاستدلال بها وحدها على تحريم المتعة لمن يعلم أنها أُحلَّت بعد نزولها كما لا يخفى. لا يقال: إنَّ للناس في المكيِّ والمدنيِّ اصطلاحاتٌ ثلاثةٌ: الأول أنَّ المكيَّ ما نزل قبل الهجرة والمدنيَّ ما نزل بعدها، سواءٌ نزل بالمدينة أم بمكةَ، عامَ الفتح أم عامَ حجةِ الوداع، أم بسَفَرٍ من الأسفار. الثاني: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة،

---

(١) صحيح البخاري (٤٢١٦)، وصحيح مسلم (١٤٠٧)، وأخرجه أحمد (٥٩٢)، وهو من حديث علي رضي الله عنه.
(٢) صحيح مسلم (١٤٠٦)، وأخرجه أحمد (١٥٣٣٧)، وهو من حديث سبرة بن معبد رضي الله عنه.
(٣) فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٣٨٥.
(٤) المستدرك ٢/ ٣٠٥ و٣٩٣، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٥، وأخرجه أيضاً الحارث في مسنده (٤٧٩ـ زوائد).
(٥) ومن العلماء مَن ذكر أن الأحاديث الواردة تقتضي التحليل والتحريم سبع مرات، وذكر لها أربع طرق في الصحيح وثلاثة في غيره. ينظر المفهم لأبي العباس القرطبي ٤/ ٩٢، وتفسير القرطبي ٦/ ٢١٦-٢١٧.

والمدنيَّ ما نزل بالمدينة، وعلى هذا تَثْبتُ الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكيٌّ ولا مدنيٌّ. الثالث: أن المكيَّ ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدنيَّ ما وقع خطاباً لأهل المدينة. وحينئذٍ يمكن أن تكون هذه الآية مكيةً بالاصطلاح الثاني وتكون نازلةً يوم الفتح يومَ حرِّمت المتعة في المرة الثانية، ولا يكونُ التحريم إلا مرتين، ويكون استدلالُ مَن استدلُّوا بها من الصحابة والتابعين وغيرِهم على التحريم ـ وإنْ علموا أنَّ المتعة أحلَّتْ بعد الهجرة في بعض الغزوات ـ مما لا غبار عليه. وإذا التُزِمَ هذا الاصطلاحُ في مكية جميع السورة المجمَع عليها حَسْبَما سمعتَ عن «البحر»[1] ينحلُّ إشكالُ حَمْلِ الزكاةِ على الزكاة الشرعية مع فرضيتها بالمدينة بأنْ يقال: إنَّ أوائل السورة نزلت بعد فَرضِيَّةِ الزكاة في المدينة عامَ الفتح في مكة = لأنَّا نقول: لا شبهةَ في أنه يمكنُ كونُ الآية مكيةً بالاصطلاح الثاني، وكونُها نازلةً يومَ الفتح، وكذلك يمكنُ كونُ كلِّ السورة أو أغلبِها مكيًّا بذلك الاصطلاح، وكلُّ ما بني على ذلك صحيحٌ بناءً عليه، إلا أنَّ المتبادر من المكيِّ والمدنيِّ المعنى المصطلحُ عليه أوَّلاً؛ لأن الاصطلاح الأول أشهرُ الاصطلاحات الثلاثة، كما قاله الجلال السيوطيُّ في «الإتقان»[2].

فالظاهر من قولهم: إنَّ هذه السورة مكيةٌ، أنها نزلت قبل الهجرة، بل قد صرَّح الجلالُ المذكورُ بأنها ـ إلَّا ما استُثني منها ممَّا سَمِعْتَه[3] ـ مكيةٌ على الاصطلاح الأول دون الثاني[4]، ولا يجزمُ مثلُه بذلك إلا عن وقوفٍ، فما ذُكِرَ مجرَّدُ تجويزِ أمرٍ لا يساعدُ على ثبوته صريحُ نقلٍ، بل النقلُ الصريحُ مساعدٌ على خلافه، وهو المرجعُ فيما نحن فيه.

فقد قال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: إنما يُرْجَعُ في معرفة المكيِّ والمدنيِّ لِحفْظِ الصحابة والتابعين[5]. وكونُهما قد يُعرفان بالقياس على ما ذكره الجعبريُّ

(١) سلف في بداية تفسير هذه السورة.
(٢) ١/ ٢٦.
(٣) في بداية تفسير السورة.
(٤) الإتقان ١/ ٤٣.
(٥) الإتقان ١/ ٢٧، وينظر الانتصار ١/ ٢٤٧.

وغيره ـ مع عدم جدواه ـ ليس بشيءٍ، نعم إذا جُعل استدلالُ الصحابيِّ أو التابعيِّ المطَّلعِ على إباحة المتعة بعد الهجرة بها قولاً باستثنائها عن أخواتها من آيات السورة، وحُكْماً عليها بنزولها بعد الهجرة دونهنَّ، فالأمرُ واضحٌ، وسَتَطَّلعُ أيضاً إن شاء الله تعالى على ما يوجب استثناء غير ذلك.

وبالجملة: متى قيل: المدارُ في أمثال هذه المقامات صريحُ النقل تعيَّن القولُ بأنَّ الآية مكيةٌ بمعنى أنها نزلت قبل الهجرة، وأشكل الاستدلال بها على تحريم المتعة بعد تحليلها بعد الهجرة؛ لكون دليلِ التحليل مخصِّصاً لعمومها، ومذهبُ الأئمة الأربعة جوازُ تخصيص عموم القرآن بالسنَّة مطلقاً، وهو المختارُ، ويُحتاجُ حينئذٍ إلى دليلٍ غيرِها على التحريم، وبعد ثبوت الدليل تكونُ هي دليلاً آخر بمعونته، وهذا الدليلُ الأخبارُ الصحيحةُ من تحريم رسول الله ﷺ إياها وقد تقدَّم بعضها، وفي صحيح مسلم عنه عليه الصلاة والسلام: «كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُم في الاستِمْتاعِ من النساء، وقد حَرَّمَ الله تعالى ذلك إلى يوم القيامة»[1].

وأخرج الحازميُّ[2] بسنده إلى جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، حتى إذا كنَّا عند العقبة مما يلي الشام جاءت نسوةٌ، فذكرنا تمتُّعنا وهنَّ يَطُفْنَ في رحالنا، فجاء رسول الله ﷺ فنظر إليهنَّ وقال: مَن هؤلاء النسوة؟ فقلنا: يا رسول الله، نسوة تمتَّعنا منهنَّ. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرَّتْ وجنتاه وتمعَّر وجهُه، وقام فينا خطيباً فَحمِدَ الله تعالى وأَثْنَى عليه، ثم نَهَى عن المتعة، فتَوَادَعْنا يومئذٍ الرجالُ والنساءُ، ولم نَعُدْ ولا نعودُ إليها أبداً.

وقد رَوَى تحريمَها عنه عليه الصلاة والسلام أيضاً عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، وجاء ذلك في صحيح مسلم[3]. ووقع ـ على ما قيل ـ إجماعُ الصحابة على أنها حرام، وصحَّ عند بعضٍ رجوعُ ابن عباس ﵄ إلى القول بالحرمة بعد قوله بحلِّها

---

(١) صحيح مسلم (١٤٠٦) من حديث سبرة بن معبد ﵁، وهو عند أحمد (١٥٣٣٧)، وسلف تخريجه قريباً.

(٢) في الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار ص٤٣٠.

(٣) صحيح مسلم (١٤٠٧)، وأخرجه أيضاً البخاري (٤٢١٦)، وأحمد (٥٩٢)، وسلف تخريجه قريباً.

مطلقاً[١]، أو وقتَ الاضطرار إليها[٢]. واستدلَّ ابن الهمام على رجوعه بما رواه الترمذيُّ عنه أنه قال: إنما كانت المتعة في أول الإسلام، كان الرجل يقدمُ البلدَ ليس له بها معرفةٌ، فيتزوَّجُ بقَدْرِ ما يرى أنه مقيمٌ، فتحفظُ له متاعَه وتُصلِحُ له شأنه، حتى إذا نزلت الآية: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ قال ابن عباس: فكلُّ فَرْجٍ سواهما فهو حرامٌ[٣].

ولا أدري ما عنَى بأول الإسلام، فإنْ عنى ما كان في مكة قبل الهجرة أفاد الخبر أنها كانت تُفعل قبلُ إلى أنْ نزلت الآية، فإنْ كان نزولُها قبل الهجرة، فلا إشكالَ في الاستدلال بها على الحرمة لو لم يكن بعدَ نزولِها إباحةٌ، لكنَّه قد كان ذلك، وإنْ عَنَى ما كان بعد الهجرة أوائلَها، وأنَّها كانت مُباحةً إذ ذاك إلى أنْ نزلت الآيةُ كان ذلك قولاً بنزول الآية بعد الهجرة، وهو خلافُ ما روي عنه من أنَّ السورة مكيةٌ، المتبادر منه الاصطلاح الأول، ولعله يُلتزم ذلك ويقال: إنَّ استدلاله بالآية قولٌ باستثنائها كما مرَّ آنفاً، أو يقال: إن هذا الخبر لم يصحَّ، ويؤيِّد هذا قولُ العلَّامة ابن حجر: إنَّ حكاية الرجوع عن ابن عباس لم تصحَّ، بل صحَّ كما قال بعضهم عن جمعٍ أنهم وافقوه في الحلِّ، لكن خالفوه فقالوا: لا يترتَّب على ذلك أحكامُ النكاح، وبهذا نازَعَ الزركشيُّ في حكاية الإجماع فقال: الخلافُ محقَّقٌ وإن ادَّعى جمعٌ نَفْيَه. انتهى. ويُفْهَمُ منه أنَّ ابن عباس يُدْخِلُ المستمتَعَ بها في الأزواج، وحينئذٍ لا تقوم الآيةُ دليلاً عليه[٤]. فتدبر.

---

(١) قال ابن العربي في القبس ٢/ ٧١٤: كان ابن عباس يقول بجوازها، ثم ثبت رجوعه عنها، فانعقد الإجماع على تحريمها.

(٢) أخرج الفاكهي في أخبار مكة (١٧١٢)، والخطابي في معالم السنن ٣/ ١٩١، والطبراني في الكبير (١٠٦٠١)، والحازمي في الاعتبار ص٤٣١، عن سعيد بن جبير أنه ذكر لابن عباس قول الشاعر:

أقول للركب إذ طال الثواء بنا ... يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس

في بضَّةٍ رَخصةِ الأطراف ناعمة ... تكون مثواك حتى مَرجِعِ الناس

فقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لا والله ما بهذا أفتيت ولا هذا أردت، وما أحللت منها إلا ما أحل الله من الميتة والدم ولحم الخنزير.

(٣) فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٣٨٦، والحديث في سنن الترمذي (١١٢٢).

(٤) تحفة المحتاج بهامش حواشي الشرواني وابن قاسم ٧/ ٢٢٤.

ونُسب القول بجواز المتعة إلى مالك رضي الله عنه، وهو افتراء عليه، بل هو كغيره من الأئمة قائلٌ بحرمتها، بل قيل: إنه زيادة على القول بالحرمة يوجبُ الحدَّ على المستمتِع[١]، ولم يُوجِبْه غيرُه من القائلين بالحرمة لمكان الشُّبهة.

وكذا اختلف في استمناء الرجل بيده، ويسمَّى الخضخضةَ، وجَلْدَ عُمَيْرَةَ[٢]، فجمهورُ الأئمة على تحريمه، وهو عندهم داخلٌ فيما «وراء ذلك». وكان أحمد بن حنبل يجيزُه لأنَّ المنيَّ فَضْلةٌ في البدن فجاز إخراجها عند الحاجة، كالفَصْد والحجامة[٣].

وقال ابن الهمام: يَحْرُمُ، فإنْ غلبته الشهوةُ ففعل إرادةَ تسكينِها به فالرجاءُ أنْ لا يعاقَبَ[٤].

ومن الناس مَن مَنَعَ دخوله فيما ذُكر، ففي «البحر»: كان قد جَرَى لي في ذلك كلامٌ مع قاضي القضاة أبي الفتح محمد بن علي بن مطيع القشيريِّ بن دقيق العيد، فاستَدلَّ على منع ذلك بهذه الآية، فقلت: إنَّ ذلك خرج مخرجَ ما كانت العرب تفعله من الزنى والتفاخُر به في أشعارها، وكان ذلك كثيراً فيهم بحيث كان في بغاياهم صاحباتُ راياتٍ، ولم يكونوا ينكرون ذلك، وأمَّا جَلْدُ عُميرةَ فلم يكن معهوداً فيهم، ولا ذَكَره أحدٌ منهم في شعرٍ فيما عَلِمْناه، فليس بمنْدَرِج فيما «وراء ذلك»[٥]. انتهى.

---

(١) قال أبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٩٣: اختلف أصحابنا إذا دخل في نكاح المتعة، هل يُحدُّ ولا يلحق به الولد، أو يدفع الحد بالشبهة ويلحق به الولد؟ على قولين، ولكن يعزَّر ويعاقب.

(٢) قال القرطبي في التفسير ١٥/ ١٢: وهذا لأنهم يكنون عن الذَّكَر بـ: عُميرَة، وفيه يقول الشاعر:

إذا حلَلْتَ بوادٍ لا أنيسَ به ... فاجْلِدْ عُميرةَ لا داءٌ ولا حَرَجُ

(٣) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٦/ ٣٩٧، ومثله في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٨، وتفسير القرطبي ١٥/ ١٢، والمنقول عن أحمد قولان، أصحهما أن الاستمناء حرام، والآخر مكروه عند الضرورة. ينظر القواعد لابن رجب ص٢٤٦، وفتاوى ابن تيمية ٣٤/ ٢٢٩ و٢٣١، والإنصاف للمرداوي ٢٦/ ٤٣٦، وكشاف القناع ٦/ ١٢٤.

(٤) فتح القدير ٢/ ٦٤.

(٥) البحر ٧/ ٣٩٧.

وأنت تعلم أنه إذا ثبت أنَّ جَلْدَ عُميرَةَ كنايةٌ عن الاستمناء باليد عند العرب كما هو ظاهرُ عبارة «القاموس»[١] فالظاهرُ أنَّ هذا الفعل كان موجوداً فيما بينهم وإن لم يكن كثيراً شائعاً كالزنى، فمتى كان ذلك من أفراد العامِّ لم يتوقَّفْ اندراجُه تحته على شيوعه كسائر أفراده.

وفي «الأحكام»[٢]: إذا كان من عادة المخاطَبين تناولُ طعام خاصٍّ مثلاً، فوَرَدَ خطابٌ عامٌّ بتحريم الطعام، نحو: حرَّمتُ عليكم الطعامَ، فقد اتفق الجمهور من العلماء على إجراء اللفظ على عمومه في تحريم كلِّ طعام على وجهٍ يدخل فيه المَعتادُ وغيرُه، وأنَّ العادة لا تكونُ مُنْزِلةً للعموم على تحريم المعتاد دون غيرِه، خلافاً لأبي حنيفة عليه الرحمة، وذلك لأنَّ الحجة إنما هي في اللفظ الوارد، وهو مستغرقٌ لكلِّ مطعومٍ بِلفْظِه ولا ارتباطَ له بالعوائد، وهو حاكمٌ على العوائد فلا تكون العوائدُ حاكمةً عليه. نعم لوكانت العادة في الطعام المعتادِ أكلُه قد خصَّصتْ بعُرْفِ الاستعمالِ اسمَ الطعام بذلك الطعام كما خصَّصتِ الدابةُ بذوات القوائم الأربع، لكان لفظُ الطعام منزلاً عليه دون غيره، ضرورةَ تنزيلِ مخاطَبةِ الشارع للعرب على ما هو المفهومُ لهم من لغتهم. والفرقُ أنَّ العادة أوَّلاً إنما هي مطَّردةٌ في اعتياد أكل ذلك الطعام المخصوص، فلا تكون قاضيةً على ما اقتضاه عمومُ لفظ الطعام، وثانياً هي مطَّردةٌ في تخصيص اسم الطعام بذلك الطعام الخاصِّ، فتكون قاضيةً على الاستعمال الأصلي. اهـ.

ومنه يعلم أنَّ الاستمناء باليد إنْ كانت[٣] قد جَرَتْ عادةُ العرب على إطلاق ما«وراء ذلك» عليه، دخل عند الجمهور وإن لم تَجْرِ عادتُهم على فعله، وإن كان لم تَجْرِ عادتُهم على إطلاق ذلك عليه وجرت على إطلاقه على ما عَدَاه من الزنا ونحوه،لم يدخل ذلك الفعلُ في العموم عند الجمهور.

ومن الناس مَن استدلَّ على تحريمه بشيءٍ آخر، نحو ما ذكره المشايخ من قوله ﷺ: «ناكحُ اليدِ ملعونٌ»[٤].

(١) مادة (عمر).
(٢) للآمدي ٢/ ٣٥٨.
(٣) في(م): كان.
(٤) لا أصل له، كما في المصنوع ص ١٩٩، وكشف الخفاء ٢/ ٤٣١.

وعن سعيد بن جبير: عذَّب الله تعالى أمةً كانوا يعبثون بمذاكيرهم.

وعن عطاء: سمعتُ قوماً يُحشَرون وأيديهم حبالَى، وأظنُّ أنهم الذين يَسْتَمْنونَ بأيديهم. والله تعالى أعلم.

وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطْلَبُ من محلِّه، ولا يخفى أنَّ كلَّ ما يدخل في العموم تفيد الآية حرمةَ فِعْلِه على أبلغ وجه، ونظيرُ ذلك إفادةُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]حرمةَ فعل الزنا. فافهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ قائمون بِحِفْظِها وإصلاحها، وأصلُ الرعي: حفظُ الحيوان؛ إمَّا بغذائه الحافِظِ لحياته، أو بذَبِّ العدو عنه، ثم استُعمل في الحفظ مطلقاً.

والأماناتُ جمعُ أمانة، وهي في الأصل مصدرٌ، لكنْ أريدَ بها هنا ما اؤتُمِنوا[(١)] عليه؛ إذ الحفظُ للعين لا للمعنى، وأمَّا جَمْعُها فلا يُعيِّنُ ذلك؛ إذ المصادرُ قد تُجمَعُ كما قدَّمنا غيرَ بعيدٍ.[(٢)]

وكذا العهدُ مصدرٌ أريدَ به ما عُوهِدَ عليه لذلك.

والآيةُ عند أكثر المفسرين عامَّةٌ في كلِّ ما اؤتُمِنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس، كالتكاليف الشرعية، والأموالِ المودَعةِ، والأيمان والنذور والعقود ونحوها. وجُمِعَتِ الأمانةُ دون العهد، قيل: لأنها متنوِّعةٌ متعدِّدةٌ جداً بالنسبة إلى كلِّ مكلَّفٍ من جهته تعالى، ولا يكاد يخلو مكلَّفٌ من[(٣)] ذلك، ولا كذلك العهد.

وجوَّز بعضُ المفسِّرين كونَها خاصةً فيما اؤتمنوا عليه وعُوهدوا من جهة الناس، وليس بذاك.

ويجوز عندي أن يراد بالأمانات ما ائتَمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى، والمرادُ برَعْيِها حِفْظُها عن التصرُّف بها على خلافِ أَمْرِه عز وجل. وأن

---

(١) في (م): ائتمن.

(٢) ينظر ما سلف ص١٤-١٥ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل: عن.

يراد بالعهد ما عاهدهم الله تعالى عليه[1] مما أمرهم به سبحانه بكتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، والمرادُ برَعْيِه حفظُهُ عن الإخلال به، وذلك بفِعْلِه على أكمل وجه. فحِفْظُ الأمانات كالتخلية، وحفظُ العهد كالتحلية. وكأنه جلَّ وعلا بعد أن ذَكَر حِفْظَهم لفروجهم ذَكَر حِفْظَهم لِمَا يشملُها وغيرَها.

ويجوز أن تعمَّم الأماناتُ بحيث تَشْمَلُ الأموال ونحوَها، وجمعها لِمَا فيها من[2] التعدُّد المحسوس المشاهَدِ. فتأمَّلْ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرٍو في رواية: «لأمانتهم» بالإفراد[3].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ المكتوبةِ عليهم، كما أخرج ابن المنذر عن أبي صالح، وعبد بن حميد عن عكرمة[4].

﴿يُحَافِظُونَ﴾ بتأديتها في أوقاتها بشروطها وإتمامِ ركوعها وسجودها وسائرِ أركانها، كما روي عن قتادة.

وأخرج جماعةٌ عن ابن مسعودٍ أنه قيل له: إنَّ الله تعالى يُكْثِرُ ذِكْرَ الصلاة في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ قال: ذاك على مواقيتها. قالوا: ما كنَّا نرى ذلك إلَّا على فِعْلِها وعدمِ تركها؟ قال: تَرْكُها الكفر[5].

وقيل المحافظةُ عليها: المواظبةُ على فِعْلِها على أكمل وجهٍ. وجيءَ بالفعل دون الاسم كما في سائر رؤوسِ الآي السابقة لِمَا في الصلاة من التجدُّد والتكرُّر، ولذلك جُمِعَتْ في قراءةِ السبعة ما عدا الأخوين[6]. وليس ذلك تكريراً لِمَا وَصَفَهم به أولاً من الخشوع في جنس الصلاة؛ للمغايرة التامة بين ما هنا وما هناك كما لا يخفى.

---

(١) قوله: عليه، ليس في الأصل.
(٢) في (م): لمن.
(٣) التيسير ص ١٥٨ عن ابن كثير، والمشهور عن أبي عمرو الجمع.
(٤) ذكرهما السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٥.
(٥) أخرجه ابن المنذر في الأوسط ٢/ ٣٨٦، والطبراني في الكبير(٨٩٣٨).
(٦) التيسير ص ١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٨. والأخوان هما حمزة والكسائي.

وفي تصدير الأوصافِ وخَتْمِها بأمر الصلاة تعظيمٌ لشأنها، وتقديمُ الخشوع للاهتمام به؛ فإنَّ الصلاة بدونه كَلَا صلاةٍ بالإجماع، وقد قالوا: صلاةٌ بلا خشوعٍ جَسَدٌ بلا روحٍ.

وقيل: تقديمه لعموم ما هنا له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين باعتبار اتِّصافهم بما ذُكر من الصفات، وإيثارُها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم، ونُزولِهم منزلةَ المشارِ إليهم حسًّا، وما فيه من معنى البُعْدِ للإيذان بعلوِّ طبقتهم، وبُعْدِ درجتهم في الفضل والشرف.

أي: أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ أي: الأحِقَّاءُ أنْ يُسَمَّوا ورَّاثاً[١] دون مَن عَدَاهم ممن لم يتَّصِفْ بتلك الصفات من المؤمنين. وقيل: ممن وَرِثَ رغائبَ الأموالِ والذخائرِ وكرائمَها.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، أو عطفُ بيانٍ، أو بدلٌ، وأيًّا ما كان ففيه بيانٌ لِمَا يرثونه، وتقييدٌ للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً.

والفردوسُ أعلى الجنان، أخرج عبد بن حميد، والترمذيُّ ـ وقال: حسن صحيح غريب ـ عن أنس ﷺ، أنَّ الرُّبيِّع بنت النَّضر[٢] أتت رسولَ الله ﷺ وكان ابنُها الحارث بن سراقة أصيب يومَ بدرٍ، أصابه سهمٌ غَرْبٌ، فقالت: أخبرني عن حارثةَ، فإنْ كان أصاب الجنة احْتَسَبْتُ وصَبَرْتُ، وإن كان لم يُصِبِ الجنة اجتهدتُ في الدعاء. فقال النبيُّ ﷺ: «إنها جِنانٌ في جنة، وإنَّ ابنَكِ أصابَ الفِرْدَوسَ الأعلى، والفردوسُ ربوةُ الجنةِ وأَوْسَطُها وأَفْضَلُها»[٣]. وعلى هذا لا إشكالَ في

---

(١) في الأصل: وارثاً.

(٢) في الأصل و(م): نضير، والصواب ما أثبتناه، وهي أخت أنس بن النضر وعمة أنس بن مالك ﷺ. ينظر فتح الباري ٦/ ٢٦.

(٣) سنن الترمذي (٣١٧٤) وسقط من مطبوعه كلمة: غريب، وهي مثبتة في تحفة الأشراف ١/ ٣١٨، وتحفة الأحوذي ٩/ ١٨، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٦، لكن قوله: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، ليس من كلام النبي ﷺ وإنما هو مدرج من قول قتادة كما جاء مصرحاً به عند البيهقي ٩/ ١٦٧. والحديث في مسند أحمد (١٣٢٠٠)، وصحيح البخاري(٢٨٠٩) دون قول قتادة.

الحصر على ما أشرنا إليه أولاً؛ فإنَّ غيرَ المتَّصِفِ بما ذُكر من الصفات وإنْ دخل الجنة لا يَرِثُ الفردوسَ التي هي أفضلُها، وبتقديرِ إرثه إياها فهو ليس حقيقاً بأن يسمَّى وارثاً؛ لما أنَّ ذلك إنما يكون في الأغلب بعد كدٍّ ونَصَبٍ.

وإرثُهم إياها من الكفار، حيث فوَّتوها على أنفسهم؛ لأنه تعالى خَلَق لكلٍّ منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار؛ أخرج سعيد بن منصور وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلَّا وله منزلان: منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإذا مات فدخل النار وَرِثَ أهلُ الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ)»[١].

وقيل: الإرثُ استعارةٌ للاستحقاق، وفي ذلك من المبالغة ما فيه؛ لأنَّ الإرثَ أقوى أسبابِ الملك. واختيرَ الأولُ لأنه تفسيرُ رسول الله عليه الصلاة والسلام على ما صحَّحه القرطبي[٢].

﴿هُمْ فِيهَا﴾ أي: في الفردوس، وهو ـ على ما ذكره ابن الشحنة ـ مما يؤنَّثُ ويذكَّر، وذكر بعضُهم أن التأنيث باعتبارِ أنه اسمٌ للجنة أو لطبقتها العليا، وقد تقدَّم لك تمامُ الكلام في الفردوس[٣]. ﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يُخْرَجون منها أبداً.

والجملةُ إمَّا مستأنَفةٌ مقرِّرةٌ لِمَا قبلَها، وإما حالٌ مقدَّرةٌ من فاعلِ «يرثون» أو مفعولِه، كما قال أبو البقاء[٤]؛ إذ فيها ذِكْرُ كلٍّ منهما، ومعنى الكلام: لا يموتون ولا يُخْرَجون منها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ١٢﴾ لـمَّـا ذكـر سبـحـانـه أولاً أحـوالَ السُّعداءِ عقَّبه بذكر مبدئهم ومآلِ أمرهم في ضِمْنِ ما يعمُّهم وغيرَهم، وفي ذلك إعظامٌ للمنَّة عليهم، وحثٌّ على الاتِّصاف بالصفات الحميدة، وتحمُّلِ مُؤَنِ التكليفات الشديدة. أوْ لمَّا ذَكَر إرْثَ الفردوس عقَّبه بذِكْرِ البعثِ لتَوقُّفِه عليه. أو

(١) سنن ابن ماجه(٤٣٤١)، وتفسير الطبري ١٧/ ١٥، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٥/٦. وصحح إسناده ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢.

(٢) يعني: تصحيح القرطبي لحديث أبي هريرة عند تفسير هذه الآية. تفسير القرطبي ١٥/١٦.

(٣) ١٦/ ٥٠.

(٤) في الإملاء ٤/٥١.

لمَّا حثَّ على عبادته سبحانه وامتثالِ أمره عقَّبه بما يدلُّ على ألوهيته؛ لتوقُّفِ العبادة على ذلك. ولعل الأولَ أولى في وجهِ مناسبةِ الآية لِمَا قبلها، ويجوز أن يكون مجموعَ الأمور المذكورة.

واللامُ واقعةٌ في جواب القسم، والواوُ للاستئناف، وقال ابن عطية: هي عاطفةٌ جملةَ كلامٍ على جملةٍ، وإن تَبايَنَتا في المعاني[1]. وفيه نظر.

والمراد بالإنسان الجنسُ، والسلالةُ من سَلَلْتُ الشيءَ من الشيء: إذا استخرجته منه، فهي ما سُلَّ من الشيء واستُخْرِجَ منه، فإنَّ فُعالة اسمٌ لِمَا يَحصُلُ من الفعل، فتارةً تكون مقصودةً منه ـ كالخلاصة ـ وأخرى غيرَ مقصودةٍ منه كالقُلامة والكُناسة، والسُّلالةُ من قبيل الأول فإنها مقصودةٌ بالسَّلّ. وذكر الزمخشريُّ أنَّ هذا البناء يدلُّ على القلَّة[2].

و«من» الأولى ابتدائيةٌ متعلِّقةٌ بالخَلْقِ، و«من» الثانية يحتمل أن تكون كذلك، إلا أنها متعلِّقةٌ بـ «سُلالة» على أنها بمعنى مسلولة، أو متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفة لـ «سلالة»، ويحتمل أن تكون على هذا تبعيضيةً، وأن تكون بيانيةً. وجوِّز أن يكون «من طين» بدلاً أوعَطْفَ بيانٍ بإعادةِ الجارِّ. وخَلْقُ جنس الإنسان مما ذكر باعتبارِ خَلْقِ أولِ الأفراد وأصلِ النوع ـ وهو آدم عليه السلام ـ منه، فيكون الكلُّ مخلوقاً من ذلك خَلْقاً إجماليًّا في ضِمْنِ خَلْقِه كما مرَّ تحقيقُهُ.

وقيل: خَلْقُ الجنس من ذلك باعتبارِ أنه مبدأٌ بعيد لأفراد الجنس؛ فإنهم من النطف الحاصلةِ من الغذاء الذي هو سلالةُ الطين وصفوته، وفيه وصفُ الجنس بوصفِ أكثر أفراده، لأنَّ خَلْقَ آدم عليه السلام لم يكن كذلك، أو يقال: تُرِكَ بيانُ حاله عليه السلام لأنه معلوم، واقتُصِرَ على بيان حال أولاده، وجاء ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس.

وقيل: المراد بالطين آدم عليه السلام، على أنه من مجاز الكون، والمرادُ بالسلالة النطفةُ، وبالإنسان الجنسُ، ووَصْفُه بما ذكر باعتبار أكثر أفراده، أو يقال

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٧.

كما قيل آنفاً. ولا يخفى خفاءُ قرينةِ المَجَازِ، وعدمُ تبادُرِ النطفة من السلالة.

وقيل: المراد بالإنسان آدم عليه السلام، وروي ذلك عن جماعة. وما ذهبنا إليه أولاً أولى.

والضميرُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ عائدٌ على الجنس باعتبار أفراده المغايِرَةِ لآدم عليه السلام، وإذا أريد بالإنسان أولاً آدمُ عليه السلام فالضميرُ على ما في «البحر» عائدٌ على غير مذكورٍ، وهو ابنُ آدم، وجاز لوضوح الأمر وشهرته، وهو كما ترى، أو على الإنسان والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: ثم جَعَلْنا نَسْلَه.

وقيل: يراد بالإنسان أَوّلاً آدمُ عليه السلام، وعند عَوْدِ الضمير عليه: ما تناسل منه على سبيل الاستخدام.

ومن البعيد جدّاً أن يراد بالإنسان أفرادُ بني آدم والضمير عائدٌ عليه، ويقدَّر مضافٌ في أول الكلام، أي: ولقد خلقنا أصل الإنسان.. إلخ. ومثلُه أن يراد بالإنسان الجنسُ أو آدمُ عليه السلام والضمير عائدٌ على «سلالة»، والتذكير بتأويل: المسلول، أو الماء، أي: ثم صيَّرنا السلالة نطفة[1].

والظاهرُ أنَّ «نطفة» في سائر الوجوه مفعولاً ثانياً[2] للجعل على أنه بمعنى التصيير، وهو على الوجه الأخير ظاهرٌ، وأمَّا على وجه عودِ الضمير على الإنسان، فلا بدَّ من ارتكاب مجاز الأَوْل بأنْ يراد بالإنسان ما سيصير إنساناً.

ويجوز أن يكون الجعلُ بمعنى الخلق المتعدِّي إلى مفعول واحد، ويكون «نطفة» منصوباً بنزع الخافض، واختاره بعض المحققين، أي: ثم خلقنا الإنسان من نطفةٍ كائنةٍ ﴿فِى قَرَارٍ﴾ أي: مستقَرٌّ، وهو في الأصل مصدرٌ من قرَّ يقرُّ قراراً، بمعنى ثَبَتَ ثبوتاً، وأطلق على ذلك مبالغةً، والمرادُ به الرَّحِمُ، ووَصْفُه بقوله تعالى: ﴿مَّكِينٍ ١٣﴾ أي: متمكِّنٍ ـ مع أنَّ المتمكِّن وصفُ ذي المكان، وهو النطفة هنا ـ على سبيل المجاز كما يقال: طريقٌ سائر.

---

(١) البحر ٦/ ٣٩٨.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: مفعولٌ ثانٍ.

وجوّز أن يقال: إنَّ الرَّحِمَ نفسَها متمكِّنةٌ، ومعنى تمكُّنِها أنها لا تنفصلُ لثقل حملها، أو لا تَمجُّ ما فيها، فهو كنايةٌ عن جَعْلِ النطفة مُحْرَزةً مصونةً، وهو وجهٌ وجيهٌ.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: دماً جامداً، وذلك بإفاضة أعراض الدم عليها، فتصيِّرها دماً بحسب الوصف، وهذا من باب الحركة في الكيف.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: قطعةَ لحم بقَدْرِ ما يُمضَغُ، لا استبانةَ ولا تمايُزَ فيها، وهذا التصييرُ - على ما قيل - بحسب الذات، كتصيير الماء حجراً وبالعكس، وحقيقتُه إزالة الصورة الأولى عن المادة وإفاضةُ صورةٍ أخرى عليها، وهو من باب الكون والفساد، ولا يخلو ذلك من الحركة في الكيفية الاستعدادية، فإن استعداد الماء مثلاً للصورة الأولى الفاسدة يأخذ في الانتقاص، واستعداده للصورة الثانية الكائنة يأخذ في الاشتداد، ولا يزال الأول ينقصُ والثاني يشتدُّ إلى أنْ تنتهي المادةُ إلى حيث تزول عنها الصورة الأولى، فتحدثُ فيها الثانية دفعةً، فتتوارد هذه الاستعداداتُ التي هي من مقولة الكيف على موضوع واحد.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ غالبَها ومعظمَها، أو كلَّها ﴿عِظَٰمًا﴾ صغاراً وعظاماً، حَسْبَما تقتضيه الحكمة، وذلك التصيير بالتصليب لما يراد جَعْلُه عظاماً من المضغة، وهذا أيضاً تصييرٌ بحَسَبِ الوَصْفِ، فيكون من الباب الأول.

وفي كلام العلّامةِ البيضاويِّ إشارةٌ ما إلى مجموعِ ما ذكرنا، وهو يستلزمُ القول بأنَّ النطفة والعلقة متَّحدان في الحقيقة، وإنما الاختلافُ بالأعراض كالحمرة والبياض مثلاً. وكذا المضغةُ والعظامُ متَّحدان في الحقيقة وإنما الاختلاف بنحو الرخاوة والصلابة. وأنَّ العلقة والمضغة مختلفان في الحقيقة كما أنهما مختلفان بالأعراض[1].

والظاهرُ أنه تتعاقَبُ في جميع هذه الأطوار على مادَّةٍ واحدةٍ صورٌ حَسبَ تعاقُبِ الاستعدادات، إلى أن تنتهي إلى الصورة الإنسانية، ونحن نقول به إلى أن يقوم الدليل على خلافه، فتدبر.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٣، وفيه: «ثم خلقنا النطفة علقة» بأن أَحلْنا النطفة البيضاء علقة حمراء، «فخلقنا العلقة مضغة» فصيرناها قطعة لحم، «فخلقنا المضغة عظاماً» بأن صلَّبناها.

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ﴾ المعهودةَ ﴿لَحْمًا﴾ أي: جَعَلْناه ساتراً لكلٍّ منها كاللباس، وذلك اللحمُ يحتملُ أن يكون من لحم المُضغةِ بأنْ لم تُجْعَلْ كلُّها عظاماً بل بعضُها، ويبقى البعضُ فيمدُّ على العظام حتى يسترها، ويحتملُ أن يكون لحماً آخر خَلَقه الله تعالى على العظام من دمٍ في الرَّحِم.

وجَمْعُ «العظام» دون غيرها مما في الأطوار لأنها متغايرةٌ هيئةً وصلابةً بخلاف غيرها، ألا ترى عظم الساق، وعظمَ الأصابع، وأطرافَ الأضلاع؟ وعِدَّةُ العظام مطلقاً ـ على ما قيل ـ مئتان وثمانيةٌ وأربعون عظماً، وهي عِدَّةُ: رحم، بالجُمَّل الكبير[1]، وجَعَلَ بعضُهم هذه عدَّةَ أجزاءِ الإنسان، والله تعالى أعلم.

وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبان والمفضَّل والحسن وقتادة وهارون والجعفيُّ، ويونس عن أبي عمرو، وزيد بنُ علي رضي الله عنهما بإفراد «العظام» في الموضعين[2]؛ اكتفاءً باسم الجنس الصادق على القليل والكثير مع عدم اللبس، كما في قوله:

كلوا في بعض بَطْنِكم تَعِفُّوا[3]

واختصاصُ مثلِ ذلك بالضرورة ـ على ما نُقِلَ عن سيبويه[4] ـ لا يخلو عن نظر. وفي الإفراد هنا مشاكلةٌ لِمَا ذكر قبلُ في الأطوار كما ذكره ابن جنِّي[5].

وقرأ السلميُّ، وقتادة أيضاً، والأعرج والأعمش ومجاهدٌ وابن محيصن بإفراد الأول وجمع الثاني[6].

---

(١) لأن الراء بحساب الجمّل مئتان، والحاء ثمانية، والميم أربعون، فيكون المجموع مئتين وثمانية وأربعين بحساب الجمَّل، وينظر لمعنى الجمَّل الكبير كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ١/ ٥٨٢.

(٢) التيسير ص ١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٨ عن ابن عامر وأبي بكر، وذكرها عنهم جميعاً أبو حيان في البحر ٦/ ٣٩٨.

(٣) وعجزه: فإن زمانكم زمن خميص. والبيت في الكتاب ١/ ٢١٠، والخزانة ٧/ ٥٣٧، قال البغدادي: الخميص: الجائع، والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها.

(٤) نقله عنه أبو حيان في البحر ٦/ ٣٩٨، وينظر الكتاب ١/ ٢١٠.

(٥) في المحتسب ٢/ ٨٧.

(٦) المحتسب ٢/ ٨٧، والبحر ٦/ ٣٩٨.

وقرأ أبو رجاء، وإبراهيم بن أبي بكر، ومجاهدٌ أيضاً بجَمْعِ الأول وإفراد الثاني[1].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ مُبايناً للخَلْقِ الأوَّلِ مباينةً ما أَبْعَدَها، حيث جُعِلَ حيواناً ناطقاً سميعاً بصيراً، وأُوْدِعَ كلَّ عضوٍ منه وكلَّ جزءٍ عجائبَ وغرائبَ لا تُدْرَكُ بوصفٍ، ولا تُبْلَغ بشرحٍ، ومن هنا قيل:

وتَـزْعُـمُ أنـك جـرمٌ صـغـيـر وفـيـك انْـطَوى الـعـالـمُ الأكـبـرُ[2]

وقيل: الخلقُ الآخرُ الروحُ، والمرادُ بها: النفسُ الناطقة، والمعنى: أنشأنا له ـ أو فيه ـ خَلْقاً آخر، والمتبادرُ من إنشاء الروح خَلْقُها، وظاهرُ العطف بـ «ثم» يقتضي حدوثَها بعد حدوث البدن، وهو قولُ أكثر الإسلاميين، وإليه ذهب أرسطو.

وقيل: إنشاؤها نَفْخُها في البدن، وهو عند بعضٍ عبارةٌ عن جَعْلِها متعلِّقةً به، وعند أكثر المسلمين جعلها ساريةً فيه. وإذا أُريدَ بالروح الروحُ الحيوانيةُ، فلا كلامَ في حدوثها بعد البدن وسريانها فيه.

وقيل: الخَلْقُ الآخَرُ القوى الحسَّاسة.

وقال الضحاك ـ ويكاد يُضْحَكُ منه ـ فيما أخرجه عنه عبد بن حميد[3]: الخلق الآخر الأسنانُ والشعر، فقيل له: أليس يُولَدُ وعلى رأسه الشعر؟ فقال: فأين العانةُ والإبط.

وما أشرنا إليه من كون «ثم» للترتيب الزمانيِّ هو ما يقتضيه أكثر استعمالاتها، ويجوزُ أن تكون للترتيب الرُّتْبي؛ فإنَّ الخَلْقَ الثاني أعظمُ من الأول ورتبتُه أعلى.

وجاءت المعطوفاتُ الأُوَلُ بعضُها بـ «ثم» وبعضها بالفاء، ولم يَجِئْ جميعُها بـ «ثم» أو بالفاء مع صحة ذلك في مثلها؛ للإشارة إلى تفاوُتِ الاستحالات، فالمعطوفُ بـ «ثم» مُسْتَبعدٌ حصولُه مما قبله، فجُعِلَ الاستبعادُ عقلاً أو رتبةً بمنزلة التراخي والبعدِ الحسيِّ؛ لأنَّ حصول النطفة من أجزاءٍ ترابيةٍ غريبٌ جدًّا، وكذا

---

(١) البحر ٦/ ٣٩٨، وهي في المحتسب ٢/ ٨٧ عن مجاهد وحده.

(٢) البيت في الديوان المنسوب لعلي ﷺ ص ٥٧ برواية: وتحسب. . .

(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٦.

جَعْلُ النطفة البيضاء السيالة دماً أحمرَ جامداً بخلاف جَعْلِ الدم لحماً مشابهاً له في اللون والصورة، وكذا تصليب المضغة حتى تصير عظماً، وكذا مدُّ لحمها عليه ليستره، كذا قيل، ولا يخلو عن قيل وقال.

واستدلَّ الإمام أبو حنيفة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ﴾ إلخ على أنَّ مَن غَصَبَ بيضةً فأفْرخَتْ عنده، لَزِمه ضمانُ البيضة لا الفرخِ؛ لأنه خَلْقٌ آخر.

قال في «الكشف»: وفي هذا الاستدلال نظرٌ على أصل مُخالِفيهِ؛ لأنَّ مُباينتَه للأول لا تُخْرِجُه عن ملكه عندهم.

وقال صاحب «التقريب»: إنَّ تضمينه للفرخ لكونه جزءاً من المغصوب لا لكونه عينَه أو مسمًّى باسمه.

وفي هذا بحثٌ، وفي المسألة خلافٌ كثيرٌ وكلامٌ طويل يُطلب من كتب الفروع المبسوطة.

وقال الإمام: قالوا: في الآية دلالةٌ على بطلان قول النظّام: إنَّ الإنسان هو الروحُ لا البدن، فإنه تعالى بيَّن فيها أنَّ الإنسان مركَّبٌ من هذه الأشياء. وعلى بطلان قول الفلاسفة: إنَّ الإنسان لا ينقسم، وإنه ليس بجسم[1].

وكأنهم أرادوا أنَّ الإنسان هو النفسُ الناطقةُ، والروحُ الأمرية المجرَّدةُ، فإنها التي ليست بجسم عندهم ولا تقبل الانقسام بوجهٍ، وليست داخل البدن ولا خارجه.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى وتقدَّس شأنُه سبحانه في علمه الشامل وقدرته الباهرة، و«تبارك» فعلٌ ماضٍ لا يتصرَّفُ، والأكثرُ إسنادهُ إلى غير مؤنَّثٍ.

والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخالِ الروعة، والإشعارِ بأنَّ ما ذُكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية، وللإيذان بأنَّ حقَّ كلِّ مَن سَمِعَ ما فصِّل من آثار قدرته عزَّ وجلَّ، أو لاحَظَه، أن يُسارِعَ إلى التكلُّم به إجلالاً وإعظاماً لشؤونه جل وعلا.

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٨٥.

﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ نعتٌ للاسم الجليل، وإضافةُ أفعل التفضيل محضةٌ، فتفيدُه تعريفاً إذا أضيف إلى معرفةٍ على الأصح.

وقال أبو البقاء[1]: لا يجوزُ أن يكون نعتاً لأنه نكرةٌ وإنْ أضيفَ؛ لأنَّ المضاف إليه عوضٌ عن «مِن»، وهكذا جميع بابِ أفعل منك، وجَعَلَه بدلاً، وهو يقلُّ في المشتقَّات، أو خبرَ مبتدأ مقدَّرٍ، أي: هو أحسنُ الخالقين، والأصلُ عدمُ التقدير.

وتمييز[2] أفعل محذوفٌ لدلالةِ «الخالقين» عليه، أي: أحسنُ الخالقين خَلْقاً، فالحُسْنُ للخَلْقِ، قيل: نظيرُه قوله ﷺ: «إنَّ الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال»[3] أي: جميلٌ فِعْلُه، فحُذفَ المضافُ وأقيم المضافُ إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً فاستتر.

والخَلْقُ بمعنى التقدير، وهو وصفٌ يطلَقُ على غيره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقول زهير:

ولأَنْـتَ تَـفْـري مـا خَـلَـقْـتَ وبـعـ ... ـضُ الـقـومِ يَـخْـلـقُ ثـم لا يَـفْـري[4]

وفي معنى ذلك تفسيرُه بالصنع كما فعل ابنُ عطية[5]. ولا يصحُّ تفسيره بالإيجاد عندنا؛ إذ لا خالقَ بذلك المعنى غيرُه تعالى إلا أن يكون على الفرض والتقدير، والمعتزلة يفسِّرونه بذلك لقولهم بأن العبد خالقٌ لأفعاله وموجِدٌ لها استقلالاً، فالخالقُ الموجِدُ متعدِّدٌ عندهم، وقد تكفَّلت الكتب الكلامية بردِّهم.

ومعنى حُسْنِ خَلْقِهِ تعالى: إتقانُه وإحكامُه، ويجوز أن يراد بالحُسْنِ مقابلة القبح، وكلُّ شيءٍ منه عز شأنه حسنٌ لا يتَّصِفُ بالقبح أصلاً من حيث إنه منه، فلا دليل فيه للمعتزلة بأنه تعالى لا يخلق الكفر والمعاصي كما لا يخفى.

روي أنَّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ، فأَمْلَى عليه ﷺ قولَه تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ) حتى إذا بلغ عليه الصلاة والسلام: (ثُمَّ

---

(١) في الإملاء ٤/ ٥١.
(٢) في (م): وتميز، وهو تصحيف.
(٣) سلف ٦/ ٤٤١.
(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ٩٤، والخزانة ٦/ ٣٢٣. والفري: القطع. اللسان (فري)، وسلف ٢/ ١٢.
(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨.

أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ) نطق عبدُ الله بقوله تعالى: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ) إلخ قبل إملائه، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هكذا نزلت» فقال عبد الله: إن كان محمدٌ نبيًّا يوحَى إليه فأنا نبيٌّ يوحَى إليَّ. فارتدَّ ولَحِقَ بمكة كافراً، ثم أسلم قبل وفاته عليه الصلاة والسلام وحَسُنَ اسلامه[1]. وقيل: مات كافراً[2].

وطعن بعضُهم في صحَّةِ هذه الرواية، بأنَّ السورة مكيةٌ وارتدادُه بالمدينة كما تقتضيه الرواية.

وأجيب بأنه يمكن الجمعُ بأن تكون الآيةُ نازلةً بمكة واستَكْتَبها ﷺ إياه بالمدينة، فكان ما كان، أو يُلتزمُ كونُ الآية مدنيةً لهذا الخبر. وقوله: إنَّ السورة مكيةٌ، باعتبار الأكثر، وعلى هذا يكون اقتصارُ الجلال السيوطيِّ على استثناء قوله تعالى: (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم) إلى قوله سبحانه: (مُبْلِسُونَ) قصوراً، فتذكَّر.

وتُروَى هذه الموافقةُ عن معاذ بن جبل؛ أخرج ابن راهويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبرانيُّ في «الأوسط»، وابنُ مردويه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أَمْلَى عليَّ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: (خَلْقًا ءَاخَرَ) فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ) فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: مِمَّ ضحكتَ يا رسول الله؟ قال: «بها خُتِمَتْ»[3].

ورويتْ أيضاً عن عمر رضي الله عنه؛ أخرج الطبرانيُّ، وأبو نعيم في «فضائل الصحابة»، وابنُ مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا نزلت: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

---

(١) الكشاف ٣/٢٨. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١١٥: كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس، وعزاه الواحدي إلى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وفي الإصابة ٦/١٠١ أنه أسلم وشهد فتح مصر مع عمرو بن العاص، ثم ولاه عثمان على مصر، وكان محموداً في ولايته، وغزا ثلاث غزوات: إفريقية وذات الصواري والأساود، وقُبض وهو يصلي الصبح.

(٣) المعجم الأوسط (٤٦٥٧) وعزاه لابن راهويه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/٧، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: في إسناده جابر الجعفي وهو ضعيف جدًّا.

سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى آخر الآية، قال عمر رضي الله عنه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فنزلت كما قال[1].

وأخرج ابن عساكر وجماعةٌ عن أنس: أنَّ عمر رضي الله عنه كان يفتخر بذلك، ويذكُر أنها إحدى موافقاته الأربع لربِّه عز وجل[2].

ثم إنَّ ذلك من حُسْنِ نَظْمِ القرآن الكريم، حيث تدلُّ صدورُ كثيرٍ من آياته على أعجازها، وقد مُدِحَتْ بعضُ الأشعار بذلك فقيل:

قصائدُ إنْ تكن تُتْلَى على ملأ صدورُها عُلِمَتْ منها قوافيها[3]

لا يقال: فقد تكلَّم البشر ابتداءً بمثل نَظْمِ القرآن الكريم وذلك قادحٌ في إعجازه؛ لِمَا أنَّ الخارج عن قدرة البشر ـ على الصحيح ـ ما كان مقدارَ أقصرِ سورةٍ منه، على أن إعجاز هذه الآية الكريمة منوطٌ بما قبلها كما تُعْرِبُ عنه الفاء فإنها اعتراضٌ تذييليٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذُكِرَ من الأمور العجيبة، حَسْبَما يُنْبِئُ عنه ما في اسم الإشارة من معنى البُعْدِ المُشْعِرِ بعلوِّ رتبةِ المشارِ إليه، وبُعْدِ منزلته في الفضل والكمال، وكونه بذلك ممتازاً منزَّلاً منزلةَ الأمور الحسية.

﴿لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: لصائرون إلى الموت لا محالة، كما يُؤْذِنُ به اسميةُ الجملة، و«إنَّ»، واللامُ، وصيغةُ النعت الذي هو للثبوت.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما، وابن أبي عبلة، وابن محيصن: «المائتون»[4] وهو اسمُ فاعلٍ يرادُ به الحدوث، قال الفراء وابن مالك: إنما يقال: مائتٌ، في الاستقبال فقط[5].

---

(١) المعجم الأوسط (٥٦٦٢)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/٧.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٤٤/١١٣-١١٤، وأخرجه أيضاً الطيالسي ص ٩-١٠. وأصله عند أحمد (١٥٧)، والبخاري (٤٠٢) بلفظ: وافقت ربي في ثلاث، فذكرها ولم يذكر هذه فيها.

(٣) البيت لابن نباتة السعدي كما في المثل السائر ٢/٣٢٩، ويتيمة الدهر ٢/٤٤٨، وصدره عندهم: خذها إذا أنشدت في القوم من طرب...

(٤) القراءات الشاذة ص ٩٧، والكشاف ٣/٢٨، والبحر ٦/٣٩٩.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/٢٣٢، ونقله المصنف عنه وعن ابن مالك بواسطة أبي حيان في البحر ٦/٣٩٩.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ عند النفخة الثانية ﴿تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ من قبوركم للحساب، والمجازاةِ بالثواب والعقاب، ولم يؤكِّد سبحانه أمر البعث تأكيدَه لأمر الموت مع كثرة المتردِّدين فيه والمُنْكِرين له، اكتفاءً بتقديم ما يُغني عن كثرة التأكيد، ويشيدُ أركان الدعوى أتمَّ تشييد، من خَلْقِه تعالى الإنسانَ من سلالةٍ من طين، ثم نَقْلِه من طورٍ إلى طورٍ، حتى أنشأه خَلْقاً آخر يستغرقُ العجائب ويستجمع الغرائب، فإنَّ في ذلك أدلَّ دليلٍ على حكمته، وعظيم قدرته عز وجل على بَعْثِه وإعادته، وأنه جل وعلا لا يُهْمِلُ أمره ويتركهُ بعد موته نَسْياً منسيًّا مستقرًّا في رَحِمِ العدم كأن لم يكن شيئاً.

ولمَّا تضمَّنت الجملةُ السابقةُ المبالغةَ في أنه تعالى شأنُه أَحْكَم خَلْقَ الإنسان وأَتْقَنه، بالغَ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالَّة على موته ـ مع أنه غير مُنْكرٍ ـ لِمَا أنَّ ذلك سببٌ لاستبعاد العقل إياه أشدَّ استبعاد، حتى يوشك أن ينكرَ وقوعَه مَن لم يُشاهِدْه وسَمِع أنَّ الله جلَّ جلالُه أَحْكَم خَلْقَ الإنسان وأَتْقَنه غايةَ الإتقان.

وهذا وجهٌ دقيقٌ لزيادة التأكيد في الجملة الدالة على الموت وعدمِ زيادته في الجملة الدالَّة على البعث لم أرَ أني سُبِقْتُ إليه.

وقيل في ذلك: إنه تعالى شأنُه لمَّا ذكر في الآيات السابقة من التكليفات ما ذَكَر، نبَّه على أنه سبحانه أَبْدعَ خَلْقَ الإنسان وقلَّبه في الأطوار حتى أَوْصَلَه إلى طورٍ هو غايةُ كماله، وبه يصحُّ تكليفُه بنحو تلك التكليفات، وهو كونُه حيًّا عاقلاً سميعاً بصيراً، وكان ذلك مستدعياً لذكر طورٍ يقع فيه الجزاءُ على ما كلَّفه تعالى به، وهو أنْ يُبعثَ يوم القيامة، فنبَّه سبحانه عليه بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فالمقصودُ الأهمُّ بعد بيان خَلْقِه وتأهُّله للتكليف بيانُ بَعْثِه، لكنْ وسّط حديث الموت لأنه برزخٌ بين طوره الذي تأهَّل به للأعمال التي تستدعي الجزاء وبين بَعْثِه، فلا بدَّ من قَطْعِه للوصول إلى ذلك، فكأنه قيل: أيها المخلوق العجيبُ الشأنِ، إنَّ ماهيتك وحقيقَتك تَفْنَى وتَعْدَمُ، ثم إنَّها بعينها من الأجزاء المتفرِّقة، والعظام البالية، والجلودِ المتمزِّقة المتلاشية في أقطار الشرق والغرب تُبعثُ وتُنْشَرُ ليوم الجزاء؛ لإثابةِ مَن أَحْسَنَ فيما كلَّفناه به، وعقابِ مَن أساء فيه، فالقرينة الثانية ـ وهي الجملة الدالَّةُ على البعث ـ لم تفتقر إلى التوكيد افتقارَ الأولى وهي الجملةُ الدالَّة على الموت؛ لأنها كالمقدِّمة لها، وتوكيدُها راجعٌ إليها، ومنه يُعْلَمُ

سرُّ نَقْلِ الكلام من الغيبة إلى الخطاب. انتهى، وفيه من البعد ما فيه.

وقيل: إنَّما بُولِغَ في القرينة الأولى لتَمادي المخاطبين في الغفلة، فكأنَّهم نزلوا منزلةَ المنكِرينَ لذلك، وأُخْلِيتِ الثانيةُ لوضوح أدلتها وسُطوع براهينها، قال الطيبيُّ: هذا كلامٌ حسن لو ساعد عليه النظمُ الفائق.

وربما يقال: إنَّ شدةَ كراهةِ الموت طبعاً، التي لا يكاد يَسْلَمُ منها أحدٌ، نزلت منزلةَ شدةِ الإنكار، فبولغَ في تأكيد الجملة الدالَّة عليه، وأما البعثُ فمن حيث إنه حياةٌ بعد الموت لا تكرهُه النفوس، ومن حيث إنه مظنةٌ للشدائد تكرهُه، فلمَّا لم يكن حالُه كحال الموت ولا كحال الحياة، بل بينَ بينَ، أُكِّدت الجملةُ الدالَّة عليه تأكيداً واحداً. وهذا وجهٌ للتأكيد لم يذكره أحدٌ من علماء المعاني، ولا يضرُّ فيه ذلك إذا كان وجيهاً في نفسه.

وتكريرُ حرف التراخي للإيذان بتفاوُتِ المراتب. وقد تضمَّنت الآيةُ ذكرَ تسعة أطوارٍ، ووقع الموتُ فيها الطورَ الثامن، ووافق ذلك أن مَن يولدُ لثمانية أشهر مِن حَمْلِه قلَّما يعيش، ولم يذكر سبحانه طورَ الحياةِ في القبر؛ لأنه من جنس الإعادة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ بيانٌ لخَلْقِ ما يحتاجُ إليه بقاؤهم إثرَ بيانِ خَلْقِهم. وقيل: استدلالٌ على البعث. أي: خَلَقْنا في جهة العلوِّ من غير اعتبارِ فوقيَّتِها لهم؛ لأنَّ تلك النسبةَ إنَّما تَعْرِضُ بعد خَلْقِهم.

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ هي السماوات السبع، و«طرائق» جمع طريقة بمعنى مطروقة، من طرقَ النعلَ والخوافي: إذا وضع طاقاتها بعضَها فوق بعضٍ، قاله الخليل والفرَّاء والزجَّاج(١)، فهذا كقوله تعالى: ﴿طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣] ولكلٍّ من السبع نسبةٌ وتعلُّقٌ بالمطارقة فلا تغليب(٢).

---

(١) ذكره عنهم الرازي في تفسيره ٢٣/ ٨٧ بلفظ: وإنما قيل لها ـ يعني السماوات ـ طرائق لتَطَارُقِها، بمعنى كون بعضها فوق بعض؛ يقال: طارَقَ الرجل بين نعليه: إذا أطبق نعلاً على نعلٍ، وطارَقَ بين ثوبين: إذا لبس ثوباً فوق ثوب. وينظر العين ٥/ ٩٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٢، وللزجاج ٤/ ٩، ومفردات الراغب (طرق).

(٢) هذا رد على من قال: إن السماء الدنيا ليست من الطرائق إذ لا سماء تحتها، فجَعْلُها منها من باب التغليب. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٤.

وقيل: جمع طريقة بمعناها المعروف، وسمِّيت السماوات بذلك لأنها طرائقُ الملائكة عليهم السلام في هبوطهم وعُروجِهم لمصالح العباد، أو لأنها طرائقُ الكواكب في مسيرها.

وقال ابن عطية: يجوز أن يكون الطرائق بمعنى المبسوطات، من طرقتُ الحديد مثلاً: إذا بسطته[1]. وهذا لا ينافي القول بكُرَيَّتِها.

وقيل: سمِّيتْ طرائقَ لأنَّ كلَّ سماءٍ طريقةٌ وهيئةٌ غير هيئةِ الأخرى. وأنت تعلم أن الظاهر أنَّ الهيئة واحدةٌ، نعم أَوْدَعَ الله تعالى في كلِّ سماءٍ ما لم يُوْدِعْه سبحانه في الأخرى، فيجوزُ أن تكون تسميتها طرائق لذلك.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ أي: عن جميع المخلوقات التي من جُمْلَتِها السماواتُ السبعُ ﴿غَٰفِلِينَ ⑰﴾ مُهْمِلين أمرَه، بل نُفيضُ على كلٍّ ما تقتضيه الحكمةُ.

ويجوز أن يراد بالخلق الناس، والمعنى: أنَّ خَلْقَنا السماوات لأجل منافعهم، ولسنا غافلين عن مصالحهم.

و«أل» على الوجهين للاستغراق. وجوِّز أن تكون للعهد على أنَّ المراد بالخَلْقِ المخلوقُ المذكور، وهو السماوات السبع، أي: وما كنَّا عنها غافلين، بل نحفظُها عن الزوال والاختلال وندبِّر أمرها، والإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بشأنها. وإفرادُ الخَلْقِ على سائر الأوجُه لأنه مصدرٌ في الأصل، أو لأنَّ المتعدِّد عنده تعالى في حُكْمِ شيءٍ واحد.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ هو المطر عند كثير من المفسرين، والمراد بالسماء جهةُ العلوِّ، أو السحابُ. أو معناها المعروف، ولا يُعجز الله تعالى شيء، وكان الظاهرُ على هذا: منها، بدل: «السماء»؛ ليعود الضميرُ على الطرائق، إلا أنه عدل عن الإضمار[2] لأنَّ الإنزال منها لا يُعتبر فيه كونُها طرائقَ، بل مجرَّد كونها جهةَ العلوِّ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ بنحوه.

(٢) في الأصل و(م): إلا أنه عدل عنه إلى الإضمار، والصواب ما أثبتناه، وجاء في تفسير أبي السعود ٦/ ١٢٨ (والكلام فيه بنحوه): والعدول عن الإضمار.

وتقديم الجارِّ والمجرور على المفعول الصريح للاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ صفةُ «ماء»، أي: أنزلنا ماءً متلبِّساً بمقدارٍ ما يكفيهم في حاجِهم[1] ومصالحهم، أو بتقديرٍ لائقٍ لاستجلاب منافعهم ودفعِ مضارِّهم، وجوِّز على هذا أن يكون في موضع الحال من الضمير، وقيل: هو صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إنزالاً متلبِّساً بذلك، وقيل في الجارِّ والمجرور غير ذلك.

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلناه ثابتاً قارًّا فيها، ومن ذلك ماءُ العيون ونحوِها، ومعظمُ الفلاسفة يزعمون أنَّ ذلك الماء من انقلاب البخار المحتبِس في الأرض ماءً إذا مال إلى جهةٍ منها وبرد، وليس لماءِ المطر دخلٌ فيه، وكونُه من السماء باعتبارِ أنَّ لأشعةِ الكواكب التي فيها مدخلاً فيه من حيث الفاعلية.

وقال ابن سينا في «نجاته»[2]: هذه الأبخرةُ المحتبِسةُ في الأرض إذا انبعثت عيوناً أمدَّتِ البحار بصَبِّ الأنهار إليها، ثم ارتفع من البحار والبطائح وبطون الجبال خاصةً أبخرةٌ أخرى، ثم قطرت ثانياً إليها، فقامت بدل ما يتحلَّلُ منها على الدور دائماً.

وما في الآية يؤيِّد ما ذهب إليه أبو البركات البغداديُّ منهم فقد قال في «المعتبر»[3]: إنَّ السبب في العيون والقنوات وما يجري مجراها هو ما يسيلُ من الثلوج ومياه الأمطار؛ لأنَّا نجدها تزيدُ بزيادتها وتنقصُ بنقصانها، وإن استحالةَ الأهوية والأبخرة المنحصرة في الأرض لا مدخل لها في ذلك، فإنَّ باطن الأرض في الصيف أشدُّ برداً منه في الشتاء، فلو كان ذلك سببَ استحالتها لوجَبَ أن تكون العيون والقنوات ومياهُ الآبار في الصيف أزيدَ، وفي الشتاء أَنْقصَ، مع أنَّ الأمر بخلاف ذلك على ما دلَّت عليه التجربةُ. انتهى.

---

(١) جمع حاجة، وكذا حاجات وحِوَج وحوائج. القاموس (حوج).

(٢) كتاب النجاة، لخَّص فيه ابن سينا كتابه الشفاء. ينظر كشف الظنون ٢/ ١٩٢٩، وأبجد العلوم ٢/ ٣٦٦.

(٣) المعتبر في المنطق لأبي البركات هبة الله بن علي بن ملكا، العلَّامة الفيلسوف، شيخ الطب، اليهودي كان، ثم أسلم في أواخر عمره، توفي سنة نيف وخمسين وخمس مئة. السير ٢٠/ ٤١٩.

واختار القاضي حسين المَيْبُذي[1] أنَّ لكلٍّ من الأمرين مدخلاً، واعتَرَضَ على دليل أبي البركات بأنه لا يدلُّ إلا على نفي كون تلك الاستحالة سبباً تاماً، وأمَّا على أنها لا مدخل لها أصلاً فلا.

والحقُّ ما يشهد له كتابُ الله تعالى، فهو سبحانه أعلم بخَلْقِه، وكلُّ ما يذكره الفلاسفة في أمثال هذه المقامات لا دليلَ لهم عليه يفيدُ اليقينَ كما أشار إليه شارح «حكمة العين».

وقيل: المراد بهذا الماء: ماءُ أنهارٍ خمسة؛ فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «أنْزَلَ الله تعالى من الجنَّة إلى الأرض خمسةَ أنهارٍ: سَيْحون وهو نهرُ الهند، وجَيْحون وهو نهر بَلْخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر، أنزلها الله تعالى من عينٍ واحدةٍ من عيون الجنة، من أسفل درجةٍ من درجاتها، على جناحَيْ جبريلَ عليه السلام، فاستَوْدَعها الجبالَ، وأجْراها في الأرض، وجعَلَها منافعَ للناس في أصناف معايشهم، وذلك قولهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي الْأَرْضِ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوجَ ومأجوجَ أرسل الله تعالى جبريلَ عليه السلام، فرفع من الأرض القرآن والعِلْمَ كلَّه، والحَجَرَ من ركن البيت، ومقامَ إبراهيم عليه السلام، وتابوتَ موسى عليه السلام بما فيه، وهذه الأنهارَ الخمسة، فيرفع كلَّ ذلك إلى السماء، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ فإذا رُفعت هذه الأشياء من الأرض فَقَدَ أهلُها خيرَ الدنيا والآخرة» ولا يخفى على المتتبِّع أنَّ هذا الخبر أخرجه ابن مردويه والخطيب بسندٍ ضعيف[2].

---

(١) في الأصل و(م): المبيدي، والصواب ما أثبتناه، وهو حسين بن معين الدين المعروف بقاضي مير، عالم بالحكمة والطبيعيات، أصله من مَيْبُذ قرب مدينة يزد (من أعمال فارس)، من تلاميذ الجلال الدواني، له تصانيف عربية وفارسية، توفي سنة (٩١٠هـ). هدية العارفين ١/ ٣١٦، والأعلام ٢/ ٢٦٠.

(٢) تاريخ بغداد ١/ ٥٧-٥٨، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٨، وعنه نقل المصنف، وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ٣/ ٣٤-٣٥، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٦. قال ابن عدي: هذا حديث غير محفوظ، بل منكر المتن.

نعم حديثُ: «أربعة أنهارٍ من الجنة: سَيْحانُ وجَيْحانُ ـ وهما غيرُ سَيْحون وجَيْحون؛ لأنهما نهران بالعواصم عند المَصِّيصةِ وطَرَسوس[١]، وسَيْحون وجَيْحون نهرا الهند وبَلْخ كما سمعت، على ما قاله عبد البر[٢] ـ والفراتُ والنيل»[٣]، صحيحٌ لكنَّ الكلام في تفسير الآية بذلك.

وعن مجاهد أنه حمل الماء على ما يعمُّ ماءَ المطرِ وماءَ البحر، وقال: ليس في الأرض ماءٌ إلا وهو من السماء. وأنت تعلم أنَّ الأوفق بالأخبار وبما يذكر بعدُ في الآية الكريمة كونُ المرادِ به ما عدا ماءَ البحر.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ﴾ أي: على إزالته بإخراجه عن المائية، أو بتغويره بحيث يَتعذَّرُ استخراجهُ، أو بنحو ذلك ﴿لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾ كما كنَّا قادرين على إنزاله، فالجملةُ في موضع الحال. وفي تنكير «ذهابٍ» إيماءٌ إلى كثرة طرقه؛ لعموم النكرة وإن كانت في الإثبات، وبواسطة ذلك تُفْهَم المبالغة في الإثبات.

وهذه الآيةُ أكثرُ مبالغةً من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠].

وذكر صاحبُ «التقريب» ثمانية عشر وجهاً للأبلغية:

الأول: أن ذلك على الفرض والتقدير، وهذا على[٤] الجزم، على معنى أنه أدلُّ على تحقيق ما أوعد به وإن لم يقع.

الثاني: التوكيد بـ «إنَّ».

الثالث: اللام في الخبر.

الرابع: أنَّ هذه في مطلق الماء المنزل من السماء، وتلك في ماءٍ مضافٍ إليهم.

---

(١) كما في النهاية (جيح)، يعني أنهما يقعان جنوب تركيا. ينظر أطلس تاريخ الإسلام (خريطة رقم: ٦٠ و ٧٢).

(٢) وقاله النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٦.

(٣) أخرجه أحمد (٧٨٨٦)، ومسلم(٢٨٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة».

(٤) قوله: على، ليس في (م).

الخامس: أنَّ الغائر قد يكون باقياً بخلاف الذاهب.

السادس: ما في تنكير «ذهاب» من المبالغة.

السابع: إسناده هاهنا إلى مُذْهِبٍ بخلافه ثمَّة، حيث قيل: «غوراً».

الثامن: ما في ضمير المعظّم نفسه من الروعة.

التاسع: ما في «قادرون» من الدلالة على القدرة عليه، والفعلُ الواقع من القادر أبلغ.

العاشر: ما في جَمْعِه.

الحادي عشر: ما في لفظ «به» من الدلالة على أنَّ ما يمسكه فلا مرسلَ له.

الثاني عشر: إخلاؤه من التعقيب بإطماعٍ، وهنالك ذَكَرَ الإتيانَ المُطْمِع.

الثالث عشر: تقديم ما فيه الإيعاد وهو الذهاب على ما هو كالمتعلَّق له أو متعلَّقه على المذهبين البصري والكوفي.

الرابع عشر: ما بين الجملتين الاسمية والفعلية من التفاوت ثباتاً وغيره.

الخامس عشر: ما في لفظ «أصبح» من الدلالة على الانتقال والصيرورة.

السادس عشر: أن الإذهاب هاهنا مصرح به. وهنالك مفهومٌ من سياق الاستفهام.

السابع عشر: أنَّ هنالك نفيُ ماءٍ خاصٍّ، أعني: المعين، بخلافه هاهنا.

الثامن عشر: اعتبارُ مجموع هذه الأمور التي يكفي كلٌّ منها مؤكِّداً.

ثم قال: هذا ما يَحضُرنا الآن والله تعالى أعلم. اهـ، وفي النفس من عدِّ الأخير وجهاً شيءٌ.

وقد يزاد على ذلك فيقال:

التاسع عشر: إخبارُه تعالى نفسه به من دون أمرٍ للغير هاهنا، بخلافه هنالك فإنَّه سبحانه أَمَرَ نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك.

العشرون: عدمُ تخصيص مخاطَبٍ هاهنا، وتخصيصُ الكفار بالخطاب هنالك.

الحادي والعشرون: التشبيهُ المستفادُ من جَعْلِ الجملة حالاً كما أشرنا إليه فإنه يفيدُ تحقيقَ القدرة، ولا تشبيهَ ثَمة.

الثاني والعشرون: إسنادُ القدرة إليه تعالى مرَّتين.

وقد زاد بعض أجِلَّة أهل العَصْرِ العاصِرِينَ سُلَافَ[١] التحقيق من كرم أذهانهم الكريمة أكْرمَ عصرٍ، أعني به ثالثَ الرافعيِّ والنواوي، أخي الملّا محمد أفندي الزَّهاوي فقال:

الثالث والعشرون: تضمينُ الإيعاد هنا إيعادَهم بالإبعاد عن رحمة الله تعالى؛ لأنَّ «ذَهَبَ به» يستلزمُ مصاحبةَ الفاعل المفعولَ، وذهابُ الله تعالى عنهم مع الماء بمعنى ذهابِ رحمته سبحانه عنهم، ولَعْنِهم وطَرْدِهم عنها، ولا كذلك ما هناك.

الرابع والعشرون: أنه ليس الوقتُ للذهاب معيَّناً هنا، بخلافه في «إن أصبح» فإنه يُفْهَمُ منه أنَّ الصيرورة في الصبح على أحد استعمالي أصبح ناقصاً.

الخامس والعشرون: أنَّ جهة الذهاب به ليست معيَّنةً بأنها السفل.

السادس والعشرون: أنَّ الإيعاد هنا بما لم يُبْتَلوا به قطُّ، بخلافه بما هنالك.

السابع والعشرون: أنَّ المُوْعَدَ به هنا إنْ وقع فهم هالكون ألبتة.

الثامن والعشرون: أنه لم يبق هنا لهم متشبَّثٌ ولو ضعيفاً في تأميل امتناعِ المُوْعَدِ به، وهناك حيث أسند الإصباح غوراً إلى الماء، ومعلومٌ أنَّ الماء لا يصبح غوراً بنفسه كما هو تحقيقُ مذهب الحكيم أيضاً، احتمل أن يتوهَّموا[٢] الشرطيةَ مع صِدْقِها ممتنعةَ المَقْدَمِ، فيأمنوا وقوعه.

التاسع والعشرون: أنَّ المُوْعَدَ به هنا يحتملُ في بادي النظر وقوعه حالاً، بخلافه هناك فإنَّ المستقبل متعيِّنٌ لوقوعه لمكان «إنْ»، وظاهرٌ أنَّ التهديد بمحتمل الوقوع في الحال أهولُ، وبمتعيِّن[٣] الوقوع في الاستقبال أهون.

---

(١) السُّلاف: الخمر. القاموس (سلف).

(٢) في (م): يتوهم.

(٣) في (م): ومتعين.

الثلاثون: أنَّ ما هنا لا يحتمل غير الإيعاد، بخلافِ ما هناك فإنه يحتمل ـ ولو على بُعْدٍ[١] ـ أن يكون المراد به الامتنان بأنه: إنْ أصبح ماؤكم غوراً فلا يأتيكم بماءٍ مَعينٍ سوى اللهِ تعالى، ويؤيِّده ما سُنَّ بعدَه من قولِ: اللهُ ربُّنا وربُّ العالمين[٢]. انتهى، فتأمَّلْ ولا تَغْفَلْ، واللهُ تعالى الهادي لأسرار كتابه.

واختيرت المبالغةُ هاهنا ـ على ما قاله بعضُ المحقِّقين[٣] ـ لأنَّ المقام يقتضيها؛ إذ هو لتَعْدادِ آيات الآفاق والأنفس على وجهٍ يتضمَّن الدلالةَ على القدرة والرحمة مع كمال عظمةِ المتَّصفِ بهما، ولذا ابتُدئ بضمير العظمة مع التأكيد، بخلافِ ما ثَمة فإنه تتميمٌ للحثِّ على العبادة والترغيبِ فيها، وهو كافٍ في ذلك.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء، وهو ظاهرٌ فيما عليه السلف، وقال الخَلَف: المرادُ: أنشأنا عنده.

﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ قدَّمهما لكثرتهما وكثرةِ الانتفاع بهما، لاسيما في الحجاز والطائف والمدينة.

﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكَّهون بها وتتنعَّمون زيادةً على المعتاد من الغذاء الأصلي. والمرادُ بها: ما عدا ثمراتِ النخيل والأعناب.

﴿وَمِنْهَا﴾ أي: من الجنات، والمرادُ: من زروعها وثمارها، و«من» ابتدائية، وقيل: إنها تبعيضية ومضمونُها مفعولُ ﴿تَأْكُلُونَ ١٩﴾ والمرادُ بالأكل معناه الحقيقيُّ. وجوِّز أن يكون مجازاً أو كنايةً عن التعيُّش مطلقاً، أي: ومنها تُرزقون وتُحَصِّلون معايشكم، من قولهم: فلانٌ يأكل من حرفته.

وجوِّز أن يعود الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمراتها أنواعٌ من الفواكه ـ الرُّطَب، والعِنَب، والتمر، والزبيب، والدِّبس من كلٍّ منهما، وغير

---

(١) في (م): علم، وهو تصحيف.

(٢) لم نقف على هذه السنة، وفي تفسير الجلالين أنه يستحب أن يقال عقب «معين»: الله ربُّ العالمين.

(٣) هو الشهاب في الحاشية ٦/٣٢٨.

ذلك ـ وطعامٌ تأكلونه، فثمرتهما جامعةٌ للتفكُّه والغذاء، بخلافِ ثمرةِ ماعَدَاهما، وعلى هذا تكون الفاكهة مطلقةً على ثمرتهما.

وذكر الراغب في الفاكهة قولين: الأول: أنها الثمار كلُّها. والثاني: أنها ما عدا العنب والرمَّان[١]. وصاحبُ «القاموس»[٢] اختار الأول، وقال: قولُ مُخْرِجِ التمرِ والرمانِ منها مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] باطلٌ مردود، وقد بيَّنتُ ذلك مبسوطاً في «اللَّامِعِ المُعْلَمِ العُجَاب»[٣]. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ للفقهاء خلافاً في الفاكهة، فذهب الإمامُ أبو حنيفة إلى أنها التفاحُ والبطيخُ والمشمشُ والكمثرى ونحوُها، لا العنبُ والرمانُ والرُّطَبُ، وقال صاحباه: هذه[٤] المستثنياتُ أيضاً فاكهةٌ. وعليه الفتوى. ولا خلافَ ـ كما في القهستانيِّ نقلاً عن الكرمانيِّ ـ في أنَّ اليابسَ منها، كالزبيب والتمر وحبِّ الرمان، ليس بفاكهةٍ[٥].

وفي «الدر المختار»: أنَّ الخلافَ بين الإمام وصاحبيه خلافُ عصرٍ، فالعبرةُ فيمَن حلف لا يأكلُ الفاكهةَ العرفُ، فيحنث بأكل ما يعدُّ فاكهةً عُرفاً، ذَكرَ ذلك الشُّمُّنِي وأقرَّه الغزيُّ[٦].

ولا يخفى أن شيئاً واحداً يقال له فاكهة في عرفِ قومٍ ولا يقال له ذلك في عرفِ آخرين، ففي «النهر» عن «المحيط»: ما رُوي من أنَّ الجوزَ واللَّوزَ فاكهةٌ فهو في عُرْفِهم، أمَّا في عُرْفِنا فإنه لا يؤكَلُ للتفكُّه[٧]. اهـ.

---

(١) مفردات الراغب (فكه).

(٢) مادة (فكه).

(٣) اللامع المعلم العجاب الجامع بين المُحْكَم والعُباب، ثم لخَّصه وسماه: القاموس المحيط. مفتاح السعادة لطاشكُبْرِي زاده ١/ ١١٩.

(٤) قوله: هذه، ليس في (م).

(٥) حاشية ابن عابدين ٣/ ٧٧٧.

(٦) الدر المختار ١/ ٤٠٤، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٧٧٧، والغزي هو شمس الدين محمد بن عبد الله بن أحمد بن تمرتاش الغزي الحنفي المتوفى سنة (١٠٠٤هـ) صاحب كتاب: تنوير الأبصار وجامع البحار، والذي شرحه الحصكفي في: الدر المختار. ينظر كشف الظنون ١/ ٥٠١.

(٧) حاشية ابن عابدين ٣/ ٧٧٧.

ثم إنّي لم أرَ أحداً من اللغويين ولا من الفقهاء عدَّ الدبس فاكهةً، فتدبَّر ولا تغفل.

﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطفٌ على «جنات»، وقرىء بالرفع[1] على أنه مبتدأ خبرُه محذوف، والأَوْلَى تقديره مقدَّماً، أي: [ومما][2] أنشأنا لكم شجرةٌ.

﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهو جبلُ موسى عليه السلام الذي ناجى ربَّه سبحانه عنده، وهو بين مصر وأَيْلَة، ويقالُ لها اليوم: العَقَبة. وقيل: بفلسطين من أرض الشام، ويقال له: طور سينين.

وجمهورُ العرب على فتح سين سَيناء والمدّ، وبذلك قرأ عمر بن الخطاب ﷺ، ويعقوب، وأكثرُ السبعة[3]، وهو اسم للبقعة.

والطورُ اسمٌ للجبل المخصوص أو لكلِّ جبلٍ، وهو مضافٌ إلى «سيناء» كما أجمعوا عليه، ويقصد تنكيرُه على الأول كما في سائر الأعلام إذا أضيفت، وعلى الثاني يكون طورُ سيناء كمنارة المسجد.

وجوِّز أن يكون كامرئ القيس، بمعنى أنه جُعِلَ مجموعُ المضاف والمضافِ إليه عَلَماً على ذلك العَلَم.

وقيل: سيناء اسمٌ لحجارة بعينها أضيفَ الجبلُ إليها لوجودها عنده، وروي هذا عن مجاهد[4].

وفي «الصحاح»: طور سيناء جبلٌ بالشام، وهو طورٌ أضيفَ إلى سيناء وهو شجر[5]. وقيل: هو اسم الجبل، والإضافة من إضافة العامِّ إلى الخاصِّ كما في

(١) القراءات الشاذة ص ٩٧، والكشاف ٣/ ٢٩.

(٢) ما بين حاصرتين من الكشاف ٣/ ٢٩، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٥، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٢٨.

(٣) هي قراءة عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر من السبعة. التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨. وذكرها عن عمر ﷺ أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠١.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٣٠٦، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٠، وعنه نقل المصنف.

(٥) الصحاح (سنن).

جبل أحد. وحَكَى هذا القول في «البحر» عن الجمهور[(١)]، لكنْ صحَّح القولُ بأنه اسم البقعة.

وهو ممنوعٌ من الصرف للألف الممدودة فوزنه فعلاء كصحراء. وقيل: مُنع من الصرف للعَلَمية والعُجْمة. وقيل: للعَلَمية والتأنيث بتأويل البقعة، ووزنُه فَيْعَال لا فَعْلال؛ إذ لا يوجد هذا الوزنُ في غير المضاعف في كلام العرب إلا نادراً كخَزْعَال لظَلْعِ الإبل؛ حكاه الفرَّاء[(٢)]، ولم يُثْبِتْه أبو البقاء[(٣)].

والأكثرون على أنه ليس بعربيٍّ بل هو إمَّا نبطيٌّ أو حَبَشي، وأصل معناه: الحَسَن أو المبارك.

وجوَّز بعضٌ أن يكون عربيًّا من السَّناء بالمدِّ وهو الرفعة، أو السَّنَا بالقصر وهو النور.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ المادتين مختلفتان؛ لأنَّ عين السَّناء أو السَّنا نونٌ، وعين سيناء ياء[(٤)].

ورُدَّ بأن القائل بذلك يقول: إنه فَيْعال، ويَجْعَلُ عينَه النونَ وياءَه مزيدةً وهمزتَه منقلبةً عن واو.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو والحسن: «سِيناء» بكسر السين والمدِّ[(٥)]، وهي لغةٌ لبني كنانة، وهو أيضاً ممنوعٌ من الصرف للألف الممدودةِ عند الكوفيين؛ لأنهم يُثْبِتون أنَّ همزة فعلاء تكون للتأنيث. وعند البصريين ممنوعٌ من الصرف للعَلَمية والعُجْمة، أو العَلَميةِ والتأنيث؛ لأن ألف فعلاء عندهم لا تكون للتأنيث بل

(١) البحر ٦/ ٤٠٠.
(٢) كما في تهذيب اللغة ٣/ ٢٧٥، والإملاء ٢/ ٥٢. قال الأزهري: سلمة عن الفراء: ناقةٌ بها خَزْعال، أي: ظَلْع، وليس في الكلام مثله. اهـ. وفي التاج (خزعل): زاد غيره قَسْطال للغبار، وخَرْطال للحَبّ. اهـ. والظَّلع، قال صاحب القاموس(ظلع): ظَلَعَ البعيرُ: غَمَزَ في مشيه.
(٣) في الإملاء ٢/ ٥٢.
(٤) البحر ٦/ ٤٠١.
(٥) التيسير ص١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨.

للإلحاق بفِعْلال، كعِلْباء[١] وحِرْباء، وهو ملحقٌ بقِرْطاس وسِرْداح[٢]، وهَمْزتُه منقلبةٌ عن واوٍ أو ياء؛ لأنَّ الإلحاق يكون بهما.

وقال أبو البقاء: همزةُ سِيناء بالكسر أصلٌ، مثل: حِمْلاق، وليست للتأنيث إذ ليس في الكلام مثلُ حِمراء، والياءُ أصلٌ إذ ليس في الكلام سنأ[٣].

وجوَّز بعضُهم أن يكون فِيعالًا كديماس.

وقرأ الأعمش: «سَيْنا» بالفتح والقصر[٤]. وقرئ: «سِينا» بالكسر والقصر[٥]، فألفُه للتأنيث إن لم يكن أعجميًا.

والمراد بهذه الشجرة: شجرةُ الزيتون، وتخصيصُها بالذكر من بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافعَ معروفةٍ.

وقد قيل: هي أول شجرة نَبتَتْ بعد الطوفان، وتعمِّر كثيراً، ففي «التذكرة»[٦] أنها تدومُ ألفَ عام، ولا تَبعُدُ صحَّته لكن علَّله بقوله: لتعلُّقها بالكوكب العالي، وهو بعيدُ الصحة.

وفي «تفسير الخازن»: قيل: تبقى ثلاثة آلافِ سنةٍ[٧].

وتخصيصُها بالوصف بالخروج من الطور مع خروجها من سائر البقاع أيضاً ـ وأكثرُ ما تكون في المواضع التي زاد عرضُها على ميلها، واشتدَّ بَرْدُها،

(١) العلباء: عصب عنق البعير. القاموس (علب).
(٢) السِّرْداح: الناقة الطويلة، أو الكريمة، أو العظيمة، أو السمينة، أو القوية الشديدة التامة. القاموس (سردح).
(٣) الإملاء ٤/ ٥٢، وسقط من مطبوعه: إذ ليس في الكلام مثل حمراء والياء أصل، ولفظ المصنف موافق لما نقله السمين في الدر ٨/ ٣٢٦ عن أبي البقاء، ووقع بدل سنأ في الأصل ومطبوع الإملاء: سيناء، وفي (م): سناء، والمثبت من الدر المصون، وقال السمين: يعني مادة سين ونون وهمزة.
(٤) القراءات الشاذة ص ٩٧، والدر المصون ٨/ ٣٢٦.
(٥) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٦، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٢٨.
(٦) التذكرة النصيرية في الهيئة لنصير الدين محمد بن محمد الطوسي، وشرحها الشريف علي بن محمد الجرجاني. كشف الظنون ١/ ٣٩١.
(٧) تفسير الخازن ٣/ ٣٥-٣٦.

وكانت جبليةً ذا تربة بيضاءَ أو حمراء ـ لتعظيمها، أو لأنه المنشأ الأصليُّ لها. ولعل جَعْلَه للتعظيم أولى، فيكون هذا مدحاً لها باعتبار مكانها.

وقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ مدحاً لها باعتبارِ ما هي عليه في نَفْسِها، والباءُ للمُلابسة والمصاحبة، مثلُها في قولك: جاء بثيابِ السَّفر، وهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من ضمير الشجرة، أي: تَنْبتُ مُلْتبِسةً بالدُّهن، وهو عصارةُ كلِّ ما فيه دسم، والمرادُ به هنا الزيتُ، وملابَستُها به(١) باعتبار ملابسةِ ثمرها؛ فإنه المُلابِسُ له في الحقيقة.

وجوِّز أن تكون الباءُ متعلِّقةً بالفعل معدِّيةً له، كما في قولك: ذهبتُ بزيد، كأنه قيل: تُنبتُ الدُّهنَ، بمعنى: تتضمَّنهُ وتحصِّلُه. ولا يخفى أنَّ هذا وإنْ صحَّ إلَّا أنَّ إنباتَ الدُّهن غيرُ معروفٍ في الاستعمال.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وسلامٌ وسهلٌ ورُوَيسٌ والجحدريُّ: «تُنْبِتُ» بضمِّ التاء المثنَّاة من فوق وكَسْرِ الباء(٢) على أنه من باب الإفعال، وخرِّج ذلك على أنه مِن أَنْبتَ بمعنى نَبتَ، فالهمزةُ فيه ليستْ للتعدية، وقد جاء كذلك(٣) في قول زهير:

رأيتُ ذوي الحاجات حولَ بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أَنْبتَ البقلُ(٤)

وأنكر ذلك الأصمعيُّ وقال: إنَّ الرواية في البيت: نَبتَ، بدون همزةٍ، مع أنه يحتمل أن تكون همزةُ أَنْبتَ فيه إن كانت للتعدية بتقديرِ مفعولٍ، أي: أَنْبتَ البقلُ ثَمَره، أو: ما يأكلون، ومنهم مَن خرَّج ما في الآية على ذلك، وقال: التقدير: تُنْبِتُ زيتونَها بالدهن، والجارُّ والمجرورُ على هذا في موضع الحال من المفعول أو من الضمير المستتر في الفعل.

وقيل: الباءُ زائدةٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

---

(١) قوله: به، ليس في الأصل.
(٢) التيسير ص ١٥٩ عن ابن كثير وأبي عمرو، وقراءة رويس في النشر ٢/ ٣٢٨.
(٣) في الأصل: ذلك.
(٤) شرح ديوان زهير ص١١١، وفيه: القطين: أهل الرجل وحَشَمه، أو الساكن النازل في الدار. وسلف البيت ١٤/ ٤٢.

ونسبةُ الإنبات إلى الشجرة بل وإلى الدهن مجازيةٌ. قال الخفاجيُّ[١]: ويحتملُ تعديةُ أَنْبتَ بالباء لمفعولٍ ثانٍ.

وقرأ الحسن والزهريُّ وابن هرمز: «تُنْبَتُ» بضمِّ أوله وفَتْحِ ما قبلَ آخرِه مبنيًّا للمفعول[٢]، والجارُّ والمجرور في موضع الحال.

وقرأ زرّ بنُ حبيش: «تُنْبِتُ» من الإفعال «الدُّهنَ» بالنصب[٣].

وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب: «بالدِّهان» جمع دهنٍ[٤]، كرِماح جمع رمح.

وما رَوَوْا من قراءة عبد الله: «تُخْرِجُ الدُّهْنَ»[٥]. وقراءةِ أبيٍّ: «تُثْمِرُ بالدُّهن»[٦] محمولٌ على التفسير على ما في «البحر»؛ لمخالفته سوادَ المصحف المجمَعِ عليه، ولأن الرواية الثابتة عنهما كقراءة الجمهور[٧].

﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾ معطوفٌ على الدهن، ومغايرتُه له التي يقتضيها العطفُ باعتبار المفهوم، وإلا فذاتُهما واحدةٌ عند كثيرٍ من المفسرين، وقد جاء كثيراً تنزيلُ تغايُرِ المفهومين منزلةَ تغايُرِ الذاتين، ومنه قولُه:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَام وليثِ الكتيبة في المُزْدَحَمْ[٨]

والمعنى: تنبتُ بالشيءِ الجامع بين كونه دهناً يُدْهَنُ به ويُسْرَجُ منه، وكونِه إداماً يُصْبَغُ فيه الخبز، أي: يُغْمَسُ للائتدام، قال في «المُغْرِب»: يقال: صَبَغَ الثوبَ

---

(١) في الحاشية ٦/ ٣٢٦، وما قبله منه.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٧، والمحتسب ٢/ ٨٨، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٠، والكشاف ٣/ ٢٩، والبحر ٦/ ٤٠١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠، والبحر ٦/ ٤٠١.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٠، والبحر ٦/ ٤٠١.

(٥) البحر ٦/ ٤٠١، وهي في الكشاف ٣/ ٢٩ برواية: «تُخْرِجُ الدهنَ وصبغَ الآكلين». وفي المحتسب ٢/ ٨٨ بلفظ: «تَخْرجُ بالدُّهن»..

(٦) القراءات الشاذة ص ٩٧، والكشاف ٣/ ٢٩، والبحر ٦/ ٤٠١.

(٧) البحر ٦/ ٤٠١.

(٨) معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٥، والخزانة ١/ ٤٥١، وسلف ٢/ ٣٥٠.

بصِبْغٍ حَسَنٍ وصِباغٍ، ومنه الصِّبغُ والصِّباغُ من الإدام، لأن الخبز يُغْمَسُ فيه ويلوَّنُ به كالخلِّ والزيتِ[(١)]. وظاهرُ هذا اختصاصُه بكلِّ إدامٍ مائعٍ، وبه صرَّح في «المصباح»[(٢)].

وصرَّح بعضهم بأن إطلاق الصبغ على ذلك مجازٌ، ولعل في كلام «المغرب» نوعُ إشارةٍ إليه.

وروي عن مقاتل أنه قال: الدهن الزيتُ، والصبغُ الزيتون. وعلى هذا يكون العطف من عَطْفِ المتغايرين ذاتاً، وهو الأكثر في العطف. ولا بد أن يقال عليه: إنَّ الصبغ الإدامُ مطلقاً وهو ما يؤكلُ تبعاً للخبز في الغالب مائعاً كان أم جامداً، والزيتونُ أكثر ما يأكله الفقراء في بلادنا تبعاً للخبز، والأغنياء يأكلونه تبعاً لنحو الأرز، وقلَّما يأكلونه تبعاً للخبز.

وأنا مشغوفٌ به مُذْ أنا يافعٌ، فكثيراً ما آكلُه تبعاً واستقلالاً، وأمَّا الزيتُ فلم أر في أهل بغداد مَن اصْطَبغَ منه، وشذَّ مَن أكل منهم طعاماً هو فيه، وأكثرهم يعْجَبُ ممن يأكلُه، ومنشأُ ذلك قلَّةُ وجوده عندهم، وعدمُ إلفهم له، فتَعافُه نفوسُهم. وقد كنتُ قديماً تعافُه نفسي وتدريجاً أَلِفْتُه والحمد لله تعالى، فقد كان ﷺ يأكله، وصحَّ أنه ﷺ طُبخ له لسانُ شاةٍ بزيتٍ فأكَل منه[(٣)].

وأخرج أبو نعيم في «الطب» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيتَ وادَّهِنوا به، فإنه شفاءٌ من سبعين داءً منها الجذام»[(٤)].

وأخرج الترمذيُّ في الأطعمة عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «كلوا الزيتَ وادَّهنوا به، فإنه يخرجُ من شجرةٍ مباركة»[(٥)].

---

(١) المغرب للمطرزي ص٤٦٦.
(٢) مادة (صبغ).
(٣) لم نقف عليه.
(٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٢٤٧، ورمز لضعفه.
(٥) سنن الترمذي (١٨٥١)، قال الترمذي: هذا حديث لا يعرف إلا من حديث عبد الرزاق، وكان يضطرب فيه، فربما يذكر فيه: عن عمر عن النبي ﷺ، وربما رواه على الشك فقال: أحسبه عن عمر عن النبي ﷺ، وربما قال: عن زيد بن أسلم عن أبيه عن النبي ﷺ مرسلاً.
=

لكن قال بعضُهم: هذا الأمرُ لمن قدرَ على استعماله ووافق مزاجَه، وهو كذلك، فلا اعتراضَ على مَن لم يوافق مزاجه في عدم استعماله، بل الظاهرُ حرمةُ استعماله عليه إن أضرَّ به، كما قالوا بحرمة استعمال الصفراويِّ للعسل، ولا فرق في ذلك بين الأكل والادِّهان، فإنّ الادِّهان به[١] قد يضرُّ كالأكل.

قال ابن القيم: الدهنُ في البلاد الحارَّة كالحجاز من أسباب حِفْظِ الصحة وإصلاحِ البدن، وهو كالضروريِّ لأهلها، وأمَّا في البلاد الباردة فضارٌّ، وكثرةُ دهنِ الرأس بالزيت فيها فيه خطرٌ على البصر[٢]. انتهى.

وقرأ عامر بن عبد الله: «وصباغاً»[٣] وهو بمعنى «صِبْغٍ» كما مرَّت إليه الإشارة ومنه دِبْغ ودِباغ، ونَصْبُه بالعطف على موضعِ «بالدهن». وفي تفسير ابن عطية: وقرأ عامر بن عبد قيس: «ومتاعاً للآكلين»[٤] وهو محمولٌ على التفسير.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ بيانٌ للنعم الواصلةِ إليهم من جهة الحيوان إثرَ بيانِ النعم الفائضة عليهم[٥] من جهة الماء والنبات، وقد بيَّن أنها مع كونها في نفسها نعمةً ينتفعون بها على وجوهٍ شتَّى عبرةٌ لا بدَّ من أن يَعتبروا بها، ويستدلُّوا بأحوالها على عظيمِ قدرةِ الله عز وجل وسابغِ رحمته، ويَشْكُروه ولا يَكْفُروه، وخصَّ هذا بالحيوان لِمَا أنَّ محلَّ العبرة فيه أظهر.

وقوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ تفصيلٌ لِمَا فيها من مواقع العبرة،

= وصوب ابن معين في تاريخه (٥٩٥- رواية الدوري) أن يكون عن زيد مرسلاً (ويعني بالمرسل المنقطع). وله شاهد لا يفرح به من حديث أبي أسيد في مسند أحمد (١٦٠٥٤)، وفي إسناده مجهول. وآخر لا يُفرح به أيضاً من حديث أبي هريرة عند ابن ماجه (٣٣٢٠) وفي إسناده عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، وهو متروك كما قال الحافظ في التقريب.

(١) قوله: به، ليس في الأصل.

(٢) زاد المعاد ٤/ ٢٨٢.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٩٧، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٠١ برواية: «وصباغٍ»، وكذا ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩ لكن دون نسبة، ورواية النصب ذكرها ابن خالويه والزمخشري وأبو حيان عن الأعمش بلفظ: «وصبغاً».

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠.

(٥) قوله: عليهم، ساقط من (م).

و«ما في بطونها» عبارةٌ إمَّا عن الألبان ف «من» تبعيضية، والمرادُ بالبطون الأجوافُ، فإنَّ اللبن في الضروع. أو عن العَلَفِ الذي يتكوَّن منه اللبنُ ف «مِن» ابتدائية والبطونُ على حقيقتها. وأيًّا ما كان فضمير «بطونها» للأنعام باعتبارِ نسبةِ ما للبعض إلى الكلِّ، لا للإناث منها على الاستخدام[١]؛ لأنَّ عموم ما بعدها يأباه.

وقرئ بفتح النون[٢]، وبالتاء أي: تَسْقيكم الأنعام[٣].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذُكر من أصوافها وأشعارها وأوبارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١﴾ الظاهرُ أنَّ الأكل على معناه الحقيقيِّ، و«من» تبعيضيةٌ لأنَّ من أجزاء الأنعام ما لا يؤكل. وتقديمُ المعمول للفاصلة، أو للحصر الإضافيِّ بالنسبة إلى الحمير ونحوِها، أو الحصر باعتبارِ ما في «تأكلون» من الدلالة على العادة المستمرة. وكأن هذا بيانٌ لانتفاعهم بأعيانها، وما قبله بيانٌ لانتفاعهم بمرافقها وما يَحصُلُ منها.

ويجوز عندي ـ ولم أرَ مَن صرَّح به ـ أن يكون الأكل مجازاً أو كنايةً عن التعيُّش مطلقاً كما سمعتَ قبلُ، أي: ومنها تُرزقون وتحصِّلون مَعايِشَكم.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾ في البرِّ والبحر بأنفسكم وأثقالكم، وضمير «عليها» للأنعام باعتبار نسبة ما للبعض إلى الكلِّ أيضاً. ويجوز أن يكون لها باعتبارِ أنَّ المراد بها الإبلُ على سبيل الاستخدام؛ لأنها هي المحمولُ عليها عندهم، والمناسِبةُ للفلك فإنها سفائن البَرِّ؛ قال ذو الرُّمَّة في صيدحه:

سفينةُ بَرٍّ تحت خدِّي زِمامُها[٤]

---

(١) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٢) هي قراءة نافع وابن عامر وأبي بكر ويعقوب. التيسير ص ١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤.

(٣) هي قراءة أبي جعفر. النشر ٢/ ٣٠٤.

(٤) وصدره: طُروقاً وجِلْبُ الرَّحْل مشدودةٌ به، وهو في الديوان ٢/ ١٠٠٤، والخزانة ٣/ ٤٢٠، وصيدح هي ناقة ذي الرمة. قال البغدادي: الطروق مصدر طرق، أي: أتى ليلاً. وجلب الرحل بكسر الجيم وضمها: عيدانه وخشبه، وقوله: به، أي: بالجلب، يريد أنه كان نزل عن ناقته آخر الليل، وجعل زمامها تحت خده ونام.

وهذا مما لا بأس به. وأمَّا حَمْلُ الأنعام من أول الأمر على الإبل فلا يناسبُ مقام الامتنان ولا سياقَ الكلام، وفي الجمع بينها[(١)] وبين الفُلْكِ في إيقاع الحمل عليها مبالغةٌ في تحمُّلها للحَمْلِ، قيل: وهذا هو الداعي إلى تأخير هذه المنفعة ـ مع كونها من المنافع الحاصلة منها ـ عن ذكر منفعة الأكل المتعلِّقة بعينها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروعٌ في بيان إهمال الناسِ وتَرْكِهم النظرَ والاعتبارَ فيما عدَّد سبحانه من النِّعم، وما حاقهم[(٢)] من زوالها، وفي ذلك تخويفٌ لقريش.

وتقديمُ قصة نوحٍ عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهُهُ، وفي إيرادها إثرَ قوله تعالى: (وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) من حُسْنِ الموقعِ ما لا يوصف، وتصديرُها بالقَسَم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها.

والكلامُ في نسب نوح عليه السلام وكميةِ لبثه في قومه ونحوِ ذلك قد مرَّ[(٣)]، والأصحُّ أنه عليه السلام لم تكن رسالته عامةً، بل أُرسل إلى قوم مخصوصين.

﴿فَقَالَ﴾ متعطِّفاً عليهم ومُسْتَميلاً لهم إلى الحق: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه وحده، كما يُفْصِحُ عنه قولهُ تعالى في سورة هود: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الآية: ٢٦] وتركُ التقييد به للإيذان بأنها هي العبادة فقط، وأما العبادة مع الإشراك فليست من العبادة في شيءٍ رأساً.

وقولُه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليل العبادة المأمور بها، أو تعليلِ الأمر بها، و«غيرُه» بالرفع صفةٌ لـ «إله» باعتبارِ محلِّه الذي هو الرفعُ على أنه فاعلٌ بـ «لكم»، أو مبتدأٌ خبره «لكم»، أو محذوفٌ و«لكم» للتخصيص والتبيين، أي: مالكم في الوجود إلهٌ غيرهُ تعالى.

---

(١) في (م): بينهما، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ١٢٩، والكلام منه.

(٢) قوله: حاقهم، ضمَّنه معنى أصابهم. فعدَّاه بنفسه، وأصله أن يتعدَّى بالباء. حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٧.

(٣) عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأعراف.

وقرئ: «غيرِه» بالجرِّ[1] اعتباراً لِلَفْظِ «إله».

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الهمزةُ لإنكارِ الواقع واستقباحه، والفاءُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، أي: أتعرفون ذلك ـ أي: مضمونَ قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ـ فلا تتقون عذابَه تعالى الذي يستوجبه ما أنتم عليه مِن تَرْكِ عبادته سبحانه وحده، وإشراكِكم به عز وجل في العبادة ما لا يستحقُّ الوجودَ لولا إيجادُ اللهِ تعالى إياه، فضلاً عن استحقاق العبادة، فالمنكَرُ عدمُ الاتِّقاء مع تحقُّق ما يُوجبه.

ويجوز أن يكون التقدير: ألا تلاحظون فلا تتَّقون، فالمنكَرُ كِلَا الأمرين، فالمبالغةُ حينئذٍ في الكمية، وفي الأول في الكيفية.

وتقديرُ مفعولِ: «تتقون» حَسْبما أَشَرْنا إليه أَوْلى من تقدير بعضِهم إياه: زوالَ النعم، ولا نسلِّم أنَّ المقام يقتضيه كما لا يخفى.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ أي: الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وصف الملأ بالكفر مع اشتراك الكلِّ فيه؛ للإيذان بكمال عراقتهم وشدةِ شكيمتهم فيه، وليس المراد من ذلك إلَّا ذمَّهم دون التمييز عن أشرافٍ آخرين آمنوا به عليه السلام؛ إذ لم يؤمن به أحدٌ من أشرافهم كما يُفْصِحُ عنه قول: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] وقال الخَفَاجيُّ: يصحُّ أن يكون الوصفُ بذلك للتمييز وإن لم يؤمن بعضُ أشرافهم وقتَ التكلُّم بهذا الكلام؛ لأنَّ من أهله عليه السلام المتَّبِعينَ له أشرافاً، وأمَّا قول: «ما نراك» إلخ فعلَى زعمهم، أو لقلَّة المتَّبعين له من الأشراف[2].

وأيًّا ما كان فالمعنى: فقال الملأ لعوامِّهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الجنس والوصفِ من غير فرقٍ بينكم وبينه، وَصَفوه عليه السلام بذلك مبالغةً في وضع رتبته العالية، وحطِّها عن منصب النبوَّة.

ووَصَفوه بقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ إغضاباً للمخاطَبين عليه ـ عليه السلام ـ وإغراءً لهم على معاداته. والتفضُّلُ: طلبُ الفضل، وهو كنايةٌ عن السيادة، كأنه قيل: يريد أن يَسُودَكم ويتقدَّمكم بادِّعاء الرسالة مع كونه مثلَكم.

---

(١) هي قراءة الكسائي وأبي جعفر. التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٧٠.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٧.

وقيل: صيغةُ التفعُّل مستعارةٌ للكمال، فإن[1] ما يتكلَّف له يكون على أكمل وجهٍ، فكأنه قيل: يريد كمالَ الفضل عليكم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بيانٌ لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زَعْمِهم الفاسد بعد تحقيق بشريَّته عليه السلام، أي: ولو شاء الله تعالى إرسالَ الرسول لأَرْسلَ رسلاً من الملائكة، وإنما قيل: «لأنزل» لأنَّ إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال، فمفعولُ المشيئة مطلقُ الإرسال المفهومِ من الجواب لا نفسُ مضمونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾ [النحل: ٩] ولا بأس في ذلك.

وأما القولُ بأنَّ مفعول المشيئة إنما يُحذف إذا لم يكن أمراً غريباً وكان مضمونَ الجزاء، فهو ضابطةٌ للحذف المطَّرد فيه لا مطلقاً، فإنه كسائر المفاعيل يحذف ويقدَّر بحسب القرائن، وعلى هذا يجوزُ أن يقال: التقدير: ولو شاء الله تعالى عبادتَه وحده لأنزل ملائكةً يبلِّغوننا ذلك عنه عز وجل، وكأنَّ هذا منهم طعنٌ في قوله عليه السلام لهم: «اعبدوا الله» وكذا قوله تعالى: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بل هو طعنٌ فيما ذكر على التقدير الأول أيضاً، وذلك بناء على أنَّ «هذا» إشارةٌ إلى الكلام المتضمِّنِ الأمرَ بعبادة الله عز وجل خاصةً، والكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: ما سمعنا بمثلِ هذا الكلام في آبائنا الماضين قبل بعثته عليه السلام، وقدِّر المضافُ لأنَّ عدم السماع بكلام نوح المذكور لا يصلح للردِّ؛ فإنَّ السماع بمثله كافٍ للقبول.

وقيل: الإشارة إلى نفس هذا الكلام مع قطع النظر عن المشخِّصات، فلا حاجة إلى تقدير المضاف، وهو كلامٌ وجيه.

ثم إنَّ قولهم هذا إمَّا لكونهم وآبائهم في فترةٍ، وإمَّا لفَرْطِ غلوِّهم في التكذيب والعناد، وانهماكهم في الغيِّ والفساد. وأيًّا ما كان ينبغي أن يكون هو الصادر عنهم في مبادي دعوته عليه السلام كما تُنْبِئُ عنه الفاء الظاهرة في التعقيب في قوله تعالى: (فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا) إلخ.

---

(١) في (م): فإنه.

وقيل: «هذا» إشارةٌ إلى نوحٍ عليه السلام، على معنى: ما سمعنا بخبرِ نبوَّته. وقيل: إلى اسمه، وهو لفظُ «نوح»، والمعنى: لو كان نبيًّا لكان له ذكرٌ في آبائنا الأوَّلين.

وعلى هذين القولين يكون قولُهم المذكورُ من متأخِّري قومه المولودين بعد بعثته بمدةٍ طويلةٍ، فيكون المرادُ من آبائهم الأوَّلين مَن مضى قبلهم في زمنه عليه الصلاة والسلام، وصدورُ ذلك عنهم في أواخر أمره عليه السلام. وقيل: بعد مضيِّ آبائهم، ولا يلزم أن يكون في الأواخر.

وعليهما أيضاً يكون قولُهم: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: جنونٌ، أو جنٌّ يخبلونه، ولذلك يقول ما يقول ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾ فاحتَمِلوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ لعله يفيقُ مما هو فيه = محمولاً على تَرامي أحوالِهم في المكابرة والعناد، وإضرابهم عمَّا وَصَفُوه عليه السلام به من البشرية وإرادةِ التفضُّل إلى وَصْفِه بما ترى، وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلاً وأرزنُهم قولاً.

وهو على ما تقدَّم محمولٌ على تناقُضِ مقالاتهم الفاسدةِ، قاتلهم الله تعالى أنَّى يؤفكون.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قال عليه السلام بعد ما سمع منهم هذه الأباطيل؟ فقيل: قال لما رآهم قد أصرُّوا على ما هم فيه، وتمادَوا على الضلال حتى يئس من إيمانهم بالكلِّية وقد أوحي إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكهم بالمرَّة بناءً على أنه حكايةٌ إجماليةٌ لقوله عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ إلخ [نوح: ٢٦].

والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ للسببية أو للبدل، و«ما» مصدرية، أي: بسببِ تكذيبهم إياي أو بَدَلَ تكذيبهم. وجوِّز أن تكون الباء آليةً و«ما» موصولة، أي: انصرني بالذي كذبوني به، وهو العذابُ الذي وعدتُهم إياه ضِمْنَ قولي: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] وحاصله: انصرني بإنجاز ذلك، ولا يخفَى ما في حَذْفِ مثلِ هذا العائد من الكلام.

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن: «ربُّ» بضمِّ الباء[1]، ولا يخفى وجهه.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عقيبَ ذلك، وقيل: بسبب ذلك ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ «أنْ» مفسِّرةٌ لِمَا في الوحي من معنى القول.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ مُلْتَبِساً بمزيدِ حِفْظِنا ورعايتِنا لك من التعدِّي، أو من الزيغ في الصنع ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وأمرِنا وتعليمنا لكيفية صُنْعِها.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع الفلك، والمرادُ بالأمر العذابُ كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] فهو واحدُ الأمور، لا الأمرُ بالركوب فهو واحدُ الأوامر كما قيل، والمرادُ بمجيئه كمالُ اقترابِه أو ابتداءُ ظهوره، أي: إذا جاء إثر تمام الفلك عذابُنا.

وقوله سبحانه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ بيانٌ وتفسيرٌ لمجيء الأمر؛ روي أنه قيل له عليه السلام: إذا فار التنورُ اركبْ أنت ومَن معك. وكان تنورَ آدمَ عليه السلام فصار إلى نوح عليه السلام، فلما نبع منه الماء أخبرته امرأتُه فركبوا.

واختلفوا في مكانه؛ فقيل: كان في مسجد الكوفة، أي: في موضعه عن يمين الداخل من باب كندة اليوم.

وقيل: كان في عين وردة من الشام[2]. وقيل: بالجزيرة قريباً من الموصل.

وقيل: التنورُ وجهُ الأرض.

وقيل: «فار التنور» مَثَلٌ كـ : حَمِيَ الوطيس.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه فسَّر «فار التنور» بـ : طَلَع الفجر، فقيل: معناه: إنَّ فَوَرانَ التنورِ كان عند طلوع الفجر، وفيه بُعْدٌ. وتمامُ الكلام في ذلك قد تقدَّم لك[3].

---

(١) البحر ٦/ ٤٠٢، والمشهور عن أبي جعفر كسر الباء.

(٢) أخرج هذا القول ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعين وردة: هي رأس عين، المدينة المشهورة بالجزيرة، وبقربها يقع جبل طورزيتا عند قنطرة الخابور. ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٧ و١٨٠.

(٣) ١٢/ ٥٢.

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أَدْخِلْ فيها، يقال: سَلَكَ فيه، أي: دَخَلَ فيه، وسَلَكَه فيه، أي: أَدْخَلَه فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢].

﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: من كلِّ أمة ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي فردين مزدوجين، كما يُعْرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿اثْنَيْنِ﴾ فإنه ظاهرٌ في الفردين دون الجمعين.

وقرأ أكثر القرَّاء: «من كلِّ زوجين» بالإضافة[1] على أنَّ المفعول «اثنين»، أي: اسلُكْ من كلِّ أُمَّتي الذكرِ والأنثى[2] واحدين مزدوجين، كجمل وناقة، وحصان ورَمَكَةٍ. وروي أنه عليه السلام لم يحمل في الفلك من ذلك إلَّا ما يلد ويبيضُ، وأمَّا ما يتولَّد من العفونات كالبقِّ والذباب والدود فلم يحمل شيئاً منه. ولعل نحوَ البغال ملحقةٌ في عدم الحمل بهذا الجنس؛ لأنه يحصل بالتوالُد من نوعين، فالحملُ منهما مُغْنٍ عن الحمل منه إذا كان الحملُ لئلَّا ينقطع النوع كما هو الظاهر فيحتاجَ إلى خَلْقٍ جديد كما خُلِقَ في ابتداء الأمر.

والآيةُ صريحةٌ في أنَّ الأمر بالإدخال كان قبل صُنْعِه الفلك، وفي سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ [الآية: ٤٠] فالوجهُ أن يُحْمَلَ على أنه حكايةٌ لأمرٍ آخَرَ تنجيزيٍّ وَرَدَ عند فوران التنور الذي نِيطَ به الأمرُ التعليقيُّ اعتناءً بشأن المأمور به، أو على أنَّ ذلك هو الأمرُ السابق بعينه، لكنْ لمَّا كان الأمرُ التعليقيُّ قبل تحقُّق المعلَّق به في حقِّ إيجاب المأمور به بمنزلة العدم، جُعِلَ كأنه إنما حَدَثَ عند تحقُّقِه، فحُكِيَ على صورة التنجيز.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ قيل: عطفٌ على «اثنين» على قراءة الإضافة، وعلى «زوجين» على قراءة التنوين، ولا يخفى اختلالُ المعنى عليه، فهو منصوبٌ بفعلٍ معطوفٍ على «فاسلك» أي: واسْلُكْ أهلَكَ.

والمرادُ بهم أُمَّةُ الإجابة الذين آمنوا به عليه الصلاة والسلام سواءٌ كانوا من ذوي قرابته أم لا، وجاء إطلاق الأهل على ذلك. وإنما حُمِلَ عليه هنا دون المعنى المشهور ليَشْمَلَ من آمَنَ ممن ليس ذا قرابة، فإنهم قد ذُكروا في سورة هود، والقرآنُ

---

(١) لم يقرأ بالتنوين سوى حفص، والباقون بالإضافة. التيسير ص ١٢٤، والنشر ٢/ ٢٨٨.
(٢) أي: طائفتيهما. حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٨.

يفسِّر بعضُه بعضاً، وعلى هذا يكون قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ استثناءً منقطعاً.

واختار بعضُهم حَمْلَ الأهل على المشهور، وإرادةَ امرأته وبنيه منه كما في سورة هود، وحينئذ يكون الاستثناءُ متصلاً كما كان هناك، وعدمُ ذكرِ مَن آمَنَ للاكتفاء بالتصريح به ثمةَ، مع دلالة ما في الاستثناء وكذا ما بعده على أنه ينبغي إدخالُهُ.

وتأخيرُ الأمر بإدخال الأهل على التقديرين عمَّا ذُكر من إدخال الأزواج؛ لأنَّ إدخالَ الأزواج يحتاج إلى مُزاولةِ الأعمال منه عليه السلام، وإلى معاونة أهله إياه، وأمَّا هم فإنما يدخلون باختيارهم، ولأنَّ في المؤخَّر ضربُ تفصيلٍ بذكر الاستثناء وغيرِه، فتقديمهُ يُخِلُّ بتجاوُبِ النظم الكريم.

والمرادُ بالقولِ: القولُ بالإهلاك، والمرادُ بسَبْقِ ذلك تحقُّقهُ في الأزل، أو كتابةُ ما يدلُّ عليه في اللوح المحفوظ قبل أنْ تُخلقَ الدنيا. وجيءَ بـ «على» لكون السابق ضارًّا، كما جيءَ باللام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] لكون السابق نافعاً.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: لا تكلِّمني فيهم بشفاعةٍ وإنجاءٍ لهم من الغرق ونحوِه، وإذا كان المرادُ بهم مَن سَبَقَ عليه القولُ، فالإظهارُ في مقام الإضمار لا يَخْفَى وجهه.

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ تعليلٌ للنهي، أو لِمَا يُنْبِئُ عنه من عدم قبول الشفاعة لهم، أي: إنهم مَقْضيٌّ عليهم بالإغراق لا محالةَ؛ لظلمهم بالإشراك وسائرِ المعاصي، ومَن هذا شأنهُ لا ينبغي أن يُشْفَعَ له أو يُشَفَّعَ[1] فيه، وكيف ينبغي ذلك وهلاكُه من النعم التي يؤمرُ بالحمد عليها، كما يُؤْذِنُ به قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ فإنَّ الحمد على الإنجاء منهم متضمِّنٌ للحمد على إهلاكهم.

وإنما قيل ما ذُكر ولم يُقَلْ: فقل الحمد لله الذي أهلك القوم الظالمين؛ لأنَّ نعمة الإنجاء أتمُّ.

---

(١) بالتشديد، والتشفيع: قبول الشفاعة. حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٩.

وقال الخفاجيُّ: إن في ذلك إشارةً إلى أنه لا ينبغي المَسرَّةُ بمصيبةِ أحدٍ ولو عدوًّا من حيث كونُها مصيبةً له؛ بل لِمَا تضمَّنته من السلامة من ضَرَرِه، أو تطهيرِ الأرض من وسخِ شِرْكِه وإضلاله(١).

وأنت تعلم أنَّ الحمد هنا رديفُ الشكر فإذا خُصَّ بالنعمة الواصلة إلى الشاكر لا يصحُّ أن يتعلَّق بالمصيبة من حيث إنها مصيبةٌ، وهو ظاهر. وفي أمرِه عليه السلام بالحمد على نجاة أتباعه إشارةٌ إلى أنه نعمةٌ عليه أيضاً.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ في الفلك ﴿مُنزَلًا﴾ أي: إنزالاً، أو موضعَ إنزالٍ ﴿مُّبَارَكًا﴾ يتسبَّبُ لمزيدِ الخير في الدارين ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ٢٩﴾ أي: مَن يُطْلَقُ عليه ذلك.

والدعاءُ بذلك إذا كان بعد الدخول فالمرادُ إدامةُ ذلك الإنزال، ولعل المقصود إدامةُ البركة، وجوَّز أن يكون دعاءً بالتوفيق للنزول في أبرك منازِلِها لأنها واسعةٌ. وإن كان قبل الدخول فالأمرُ واضحٌ. وروى جماعةٌ عن مجاهد أنَّ هذا دعاءٌ أُمِرَ نوحٌ عليه السلام أن يقوله عند النزول من السفينة، فالمعنى: ربِّ أنزلني منها في الأرض منزلاً.. إلخ، وأخذ منه قتادةُ نَدْبَ أن يقول راكبُ السفينة عند النزول منها: «رب أنزلني» إلخ.

واستظهر بعضُهم الأولَ إذ العطفُ ظاهرٌ في أنَّ القولين وقتَ الاستواء.

وأعاد «قل» لتعدُّد الدعاء، والأولُ متضمِّنٌ دفعَ مضرَّةٍ ولذا قدِّم، وهذا لجَلْبِ منفعة.

وأَمَره عليه السلام أن يَشْفَعَ دعاءه ما يطابقه من ثنائه عز وجل توسُّلاً به إلى الإجابة، فإنَّ الثناء على المحسن يكون مستدعياً لإحسانه، وقد قالوا: الثناءُ على الكريم يغني عن سؤاله.

وإفرادُه عليه السلام بالأمر مع شركة الكلِّ في الاستواء لإظهار فَضْلِه عليه السلام، وأنه لا يليقُ غيره منهم للقرب من الله تعالى والفوزِ بعزِّ الحضور في مقام الإحسان، مع الإيماء إلى كبريائه عز وجل، وأنه سبحانه لا يخاطبُ كلَّ أحدٍ من

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٩.

عباده، والإشعارِ بأنَّ في دعائه عليه السلام وثنائه مندوحةً عمَّا عداه.

وقرأ أبو بكر والمفضَّل وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبان: «مَنْزلاً» بفتح الميم وفتح الزاي[1]، أي: مكانَ نزولٍ.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «مَنْزِلاً» بفتح الميم وكسر الزاي[2]؛ قال أبو عليٍّ[3]: يحتمل أن يكون المَنْزِل على هذه القراءة مصدراً، وأن يكون موضعَ نزول.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مما فُعِلَ به عليه السلام وبقومه ﴿لَآيَٰتٍ﴾ جليلة يَستدِلُّ بها أولو الأبصار، ويَعتَبِرُ ذوو الاعتبار.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ «إنْ» مخفَّفةٌ من «إنّ»، واللام فارقةٌ بينها وبين «إن» النافية، وليست «إن» نافيةً واللامُ بمعنى «إلّا». والجملةُ حاليةٌ، أي: وإن الشأنَ كنَّا مصيبين قومَ نوحٍ ببلاءٍ عظيم وعقابٍ شديد، أو مختبرين بهذه الآيات عبادَنا لننظُرَ مَن يَعتبِرُ ويتذكَّر، والمرادُ: معاملين معاملةَ المختبر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد إهلاكِ قوم نوحٍ عليه السلام ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ هم عادٌ أو ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هودٌ أو صالحٌ عليهما السلام، والأولُ هو المأثورُ عن ابن عباس ﵄، وإليه ذهب أكثر المفسرين، وأيِّد بقوله تعالى حكايةً عن هود: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وبمجيءِ قصةِ عادٍ بعد قصةِ قومِ نوحٍ في سورة الأعراف وسورةِ هود وغيرِهما.

واختار أبو سليمان الدمشقيُّ والطبريُّ الثاني[4]، واستدلَّا عليه بذكر الصيحة

---

(١) كذا في الأصل و(م): وفتح الزاي، وهو خطأ، والصواب: وكسر الزاي، كما في البحر ٦/ ٤٠٢، والكلام منه، وقراءة أبي بكر في التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨، وسيذكرها المصنف لاحقاً على الصواب.

(٢) وقرأ الباقون: «مُنْزَلاً» بضم الميم وفتح الزاي. التيسير ص١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨.

(٣) في الحجة ٥/ ٢٩٤.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٤٠ وما بعدها، وذكره عن أبي سليمان الدمشقي ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧١. وذكره عنه وعن الطبري أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٣.

آخر القصة[1]، والمعروفُ أن قوم صالح هم المهلَكون بها دون قوم هود، وسيأتي الجوابُ عنه إن شاء الله تعالى.

وجعل القرن ظرفاً للإرسال كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ [الرعد: ٣٠] لا غايةً له كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩] للإيذان من أول الأمر أنَّ مَن أُرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم، بل إنما نشأ فيما بين أظْهُرِهم.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرةٌ؛ لتضمُّن الإرسال معنى القول، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله، وجوِّز كونُها مصدريةً، ولا مانعَ من وَصْلِها بفعل الأمر وقبلها جارٌّ مقدَّر، أي: أرسلنا فيهم رسولاً بأن اعبدوا الله وحده.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ الكلام فيه كالكلام في نظيره المارِّ في قصة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ بيانٌ لهم.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بلقاءِ ما فيها من الحساب والثواب والعقاب، أو بالمعاد، أو بالحياة الثانية، صفةٌ للملأ جيءَ بها ذمًّا لهم، وتنبيهاً على غلوِّهم في الكفر، ويجوزُ أن تكون للتمييز إنْ كان في ذلك القرن مَن آمن من الأشراف.

وتقديمُ «من قومه» هنا على الصفة مع تأخيره في القصة السابقة؛ لئلَّا يطولَ الفصلُ بين البيان والمبيَّن لو جيء به بعد الصفة وما في حيِّزها ممَّا تَعلَّقَ بالصلة، مع ما في ذلك من توهُّمِ تعلُّقه بالدنيا[2]، أو يُفْصَلَ[3] بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه لو جيء به بعد الوصف وقبل العطف، كذا قيل.

---

(١) لم نقف على هذا الاستدلال عن الطبري أو عن أبي سليمان الدمشقي، وذكره أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٣، والشهاب في الحاشية ٦/ ٣٢٩ دون نسبة.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٩: توهُّم تعلُّقه بالذين كفروا، وهو الأنسب بالسياق.

(٣) قوله: يفصلَ، معطوف على قوله: يطولَ.

وتعقّب بأنه لا حاجةَ إلى ارتكاب جَعْلِ «الذين» صفةً للملأ وإبداءِ نكتةٍ للتقديم المذكور مع ظهورِ جوازِ جَعْلِه صفةً لـ «قومه».

ورُدَّ بأنَّ الداعي لارتكابه عطفُ قوله تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ـ أي: نعَّمناهم ووسَّعنا عليهم فيها ـ على الصلة، فيكون صفة معنى للموصوف بالموصول، والمتعارَفُ إنما هو وصفُ الأشراف بالمترفين دون غيرهم، وكذا الحالُ إذا لم يعطف وجُعِلَ حالاً من ضمير «كذَّبوا».

وأنت تعلم أنَّا لا نسلِّم أنَّ المتعارَفَ إنما هو وصفُ الأشراف بالمترفين، ولئن سلَّمنا فوصْفُهم بذلك قد يبقى مع جَعْلِ الموصول صفةً لقومه بأن يُجعل جملة «أترفناهم» حالاً من «الملأ» بدون تقديرِ «قد» أو بتقديرها، أي: قال الملأ في حقِّ رسولنا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلخ في حال إحساننا عليهم.

نَعَم، الظاهرُ لفظاً عطفُ جملةِ «أترفناهم» على جملةِ الصلة، والأبلغُ معنًى جَعْلُها حالاً من الضمير؛ لإفادته الإساءة إلى مَن أَحْسَنَ وهو أقوى في الذمّ.

وجيءَ بالواو العاطفة في «وقال الملأ» هنا ولم يُجَأْ بها بل جيء بالجملة مستأنفةً استئنافاً بيانيًا في موضعٍ آخر؛ لأنَّ ما نحن فيه حكايةٌ لتفاوُتِ ما بين المقالتين، أعني: مقالةَ المرسَلِ ومقالةَ المرسَلِ إليهم، لا حكايةُ المقاوَلةِ؛ لأنَّ المرسَلَ إليهم قالوا ما قالوا بعضهم لبعضٍ، وظاهرٌ إباءُ ذلك الاستئناف، وأما هنالك فيحقُّ الاستئنافُ؛ لأنه في حكاية المقاوَلةِ بين المرسَلِ والمرسَلِ إليهم، واستدعاءُ مقامِ المخاطبةِ ذلك بيِّنٌ. كذا في «الكشف»، ولا يحسمُ مادةَ السؤال؛ إذ يقال معه: لمَ حُكِي هنالك المقاولةُ وهنا التفاوُتُ بين المقالتين، ولم يُعكس؟

ومثلُ هذا يَرِدُ على مَن علَّل الذكر هنا والتركَ هناك بالتفنُّن، بأن يقال: إنه لو عكس بأنْ تَرَكَ هنا وذَكَر هناك لحصل التفنُّن أيضاً. وأنا لم يظهر لي السرُّ في ذلك.

وأما الإتيانُ بالواو هنا والفاء في «فقال الملأ» في قصة نوح عليه السلام، فقد قيل: لعله لأنَّ كلام الملأ هنا لم يتَّصل بكلام رسولهم، بخلافِ كلام قومِ نوحٍ عليه السلام، والله تعالى أعلمُ بحقائق الأمور.

ولا يخفى ما في قولهم: «ما هذا» إلخ من المبالغة في توهين أمرِ الرسول عليه السلام وتهوينِه، قاتلهم الله ما أجهلهم!

وقولهُ تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣﴾ تقريرٌ للمماثلةِ، والظاهرُ أنَّ «ما» الثانية موصولةٌ، والعائدُ إليها ضميرٌ مجرورٌ حُذف مع الجارِّ لدلالة ما قبله عليه، والحذفُ هنا مثلُه في قولك: مررتُ بالذي مررتَ، في استيفاء الشرائط، وحسَّنه هنا كونُ «تشربون» فاصلةً.

وفي «التحرير»: زعم الفرَّاء[1] حذفَ العائد المجرور مع الجارِّ في هذه الآية، وهذا لا يجوزُ عند البصريين، والآيةُ إمَّا لا حَذْفَ فيها، أو فيها حذفُ المفعولِ فقط؛ لأنَّ «ما» إذا كانت مصدريةً لم تَحْتَجْ إلى عائد، وإن كانت موصولة فالعائدُ المحذوفُ ضميرٌ منصوبٌ على المفعولية متَّصلٌ بالفعل، والتقدير: مما تشربونه. اهـ.

وهذا تخريجٌ على قاعدة البصريين، ويفوتُ عليه فصاحةُ معادلة التركيب، على أنَّ الوجه الأول مُحوِجٌ إلى تأويل المصدر باسم المفعول، وبعد ذلك يحتاج إلى تكلُّفٍ لصحة المعنى، ويحتاج إلى ذلك التكلُّف على الوجه الثاني أيضاً؛ إذ لا يشربُ أحدٌ من مشروبهم، ولا من الذي يشربونه، وإنما يشرب من فردٍ آخَرَ من الجنس، فلا بد من إرادة الجنس على الوجهين.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما ذكر من الأحوال والصفات، أي: إن امْتَثَلْتُم بأوامره ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ۝٣٤﴾ عقولَكم، ومغبونون في آرائكم، حيث أذللتُم أنفسكم. واللامُ موطِّئةٌ للقسم، وجملةُ «إنكم لخاسرون» جوابُ القسم، و«إذاً» فيما أَميلُ إليه ظرفيةٌ متعلِّقةٌ بما تدلُّ عليه النسبة بين المبتدأ والخبر من الثبوت، أو بالخبر واللامُ لا تمنع عن العمل في مثل ذلك. وجوابُ الشرط محذوفٌ دلَّ عليه المذكور.

قال أبو حيان: ولو كان هذا هو الجواب للَزِمَتِ الفاءُ فيه بأن يقال: فإنكم.. إلخ، بل لو كان بالفاء في تركيبٍ غيرِ القرآن الكريم لم يكن ذلك التركيبُ جائزاً إلَّا عند الفراء، والبَصْريون لا يجيزونه وهو عندهم خطأ[2]. اهـ.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٢٣٤، وكلام صاحب التحرير ذكره أيضاً أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٤.

(٢) البحر ٦/ ٤٠٤.

وذكر بعضُهم أنَّ «إذاً» هنا للجزاء والجواب، وتَكلَّف لذلك، ولا يدعو إليه سوى ظنِّ وجوبِ اتِّباع المشهور، وأنَّ الحقَّ في أمثال هذه المقامات منحصِرٌ فيما عليه الجمهور، وفي «همع الهوامع» وكذا في «الإتقان» للجلال السيوطيِّ في هذا البحث ما ينفعُك مراجعتُه فراجِعْه[1].

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لتقريرِ ما قبلَه، مِن زَجْرِهم عن اتِّباعه عليه السلام بإنكار وقوعِ ما يدعوهم للإيمان به واستبعادِه.

وقولُه تعالى: ﴿أَنَّكُمْ﴾ على تقديرِ حرفِ الجرِّ، أي: بأنكم، ويجوزُ أن لا يقدَّر، نحو: وعدتُكَ الخير.

﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ بكسر الميم، من مات يَمات، وقرئ بضمِّها[2] من مات يموت.

﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي: وكان بعضُ أجزائكم من اللحم ونظائره تراباً، وبعضُها عظاماً نَخِرةً مجرَّدةً عن اللحوم والأعصاب، وتقديمُ التراب لعراقته في الاستبعاد، وانقلابِه من الأجزاء البادية. أو: وكان متقدِّموكم تراباً صرفاً ومتأخِّروكم عظاماً.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ﴾ تأكيد لـ «أنكم» الأولِ لطول الفَصْلِ بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: ﴿مُّخْرَجُونَ ۝٣٥﴾، و«إذا» ظرفٌ متعلِّقٌ به، أي: أيعدُكم أنكم مُخْرَجون من قبوركم أحياءً كما كنتُم أولاً إذا متُّم وكنتم تراباً. واختار هذا الإعرابَ الفرَّاءُ والجَرْميُّ والمبرِّدُ[3]. ولا يلزمُ من ذلك كونُ الإخراج وقتَ الموت كما لا يَخْفَى، خلافاً لِمَا توهَّمه أبو نزار الملقَّبُ بمَلِك النحاة[4]، وردَّه السَّخاويُّ

(١) الإتقان ١/ ٤٧٥.

(٢) قرأ بكسر الميم نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف، والباقون بضمها. التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤، والمقتضب ٢/ ٣٥٦، وذكره عنهم النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٥٥، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٤. والجرمي هو صالح بن إسحاق.

(٤) هو الحسن بن صافي بن عبد الله البغدادي الفقيه الأصولي، المصنف في الأصلين والنحو وفنون الأدب، توفي سنة (٥٦٨هـ). شذرات الذهب ٦/ ٣٧٦.

ونَقَلَه عنه الجلال السيوطيُّ في «الأشباه»[١].

والمنقولُ عن سيبويه[٢]: أنَّ«أنكم» بدلٌ من «أنكم» الأولِ، وفيه معنى التأكيد، وخبر «أنَّ» الأولى محذوفٌ لدلالة خبر الثانية عليه، أي: أيعدُكم أنكم تُبعثون إذا متم، وهذا الخبر المحذوفُ هو العامل في «إذا». ولا يجوز أن يكون هو الخبرُ لأنَّ ظرف الزمان لا يُخْبَر به عن الجثة، وإذا أوِّل بحذف المضاف ـ أي: أنَّ إخراجَكم إذا متُّم ـ جاز، وكان المبرِّد يأبى البدل لكونه من غيرِ مستقلٍّ؛ إذ لم يذكر خبر «أنَّ» الأولى.

وذهب الأخفش[٣] إلى أنَّ: «أنكم مخرجون» مقدَّرٌ بمصدرٍ مرفوعٍ بفعلٍ محذوفٍ، تقديره: يَحدثُ إخراجُكم، فعلى هذا التقدير يجوز أن تكون الجملة الشرطية خبرَ «أنكم» الأول، ويكونُ جواب «إذا» ذلك الفعلَ المحذوف، ويجوز أن يكون ذلك الفعلُ هو خبر «أن» ويكون عاملاً في «إذا».

وبعضُهم[٤] يَحْكي عن الأخفش أنه يجعل «أنكم مخرجون» فاعلاً بـ «إذا» كما يُجعَلُ الخروجُ في قولك: يومَ الجمعة الخروجُ، فاعلاً بـ : يومَ، على معنى: يستقرُّ الخروجُ يومَ الجمعة.

وجوَّز بعضهم أن يكون «أنكم مخرجون» مبتدأً، و«إذا متم» خبراً، على معنى: إخراجُكم إذا متُّم، وتُجعل الجملة خبرَ «أن» الأولى، قال في «البحر»: وهذا تخريجٌ سهلٌ لا تكلُّفَ فيه[٥]. ونَسَبه السخاويُّ في «سفر السعادة» إلى المبرِّد[٦]. والذي يقتضيه جزالةُ النظم الكريم ما ذكرناه عن الفرَّاء ومَن معه.

وفي قراءة عبد الله: «أيعدُكم إذا متُّم» بإسقاط «أنكم» الأولى[٧].

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ٦/ ٦٠، وسفر السعادة لعلم الدين السخاوي ٢/ ٧٧٩.
(٢) في الكتاب ٣/ ١٣٢-١٣٣.
(٣) كما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٦، والبحر ٢/ ٧٨١.
(٤) هو السخاوي في سفر السعادة وسفير الإفادة ٢/ ٧٨٣.
(٥) البحر ٦/ ٤٠٤.
(٦) سفر السعادة وسفير الإفادة لعلم الدين السخاوي ٢/ ٧٨١.
(٧) الكشاف ٣/ ٣٢، والبحر ٦/ ٤٠٤.

﴿هَيْهَاتَ﴾ اسمٌ لبَعُدَ، وهو في الأصل اسمُ صوتٍ، وفاعلُه مستترٌ فيه يرجع للتصديق، أو الصحة، أو الوقوع، أو نحوِ ذلك مما يُفْهِمُه السياق، فكأنه قيل: بَعُدَ التصديقُ أو الصحةُ أو الوقوعُ، وقولُه تعالى: ﴿هَيْهَاتَ﴾ تكريرٌ لتأكيد البعد، والغالبُ في هذه الكلمة مجيئُها مكرَّرةً، وجاءت غيرَ مكرَّرةٍ في قول جرير:

وهيهاتَ خِلٌّ بالعقيق نُواصِلُهْ[1]

وقوله سبحانه: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بيانٌ لمرجع ذلك الضمير، فاللام متعلِّقةٌ بمقدَّرٍ كما في سقياً له، أي: التصديق أو الوقوع المتَّصِفُ بالبُعْدِ كائنٌ لما توعدون، ولا ينبغي أن يقال: إنه متعلِّقٌ بالضمير الراجع إلى المصدر كما في قوله:

وما الحربُ إلَّا ما علمتُم وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ[2]

فإنَّ إعمال ضمير المصدر وإن ذهب إليه الكوفيون نادرٌ جدًّا لا ينبغي أن يُخرَّج عليه كلامُ الله تعالى، وقيل: لم يثبت والبيتُ قابلٌ للتأويل، وهذا كلُّه مع كون الضمير بارزاً، فما ظنُّك إذا كان مستتراً؟

والقولُ بأنَّ الفاعل محذوفٌ وليس بضميرٍ مستترٍ، وهو مصدرٌ كالوقوع والتصديق، والجارُّ متعلِّقٌ به، مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه أصلاً، لا سيما إذا كان ذلك المصدر المحذوفُ معرَّفاً كما لا يخفى.

ويجوز أن يكونَ الفاعل ضميرَ البُعْدِ واللام للبيان، كأنه قيل: فُعِلَ البُعْدُ ووَقَعَ، ثم قيل: لماذا؟ فقيل: لما توعدون.

وقيل: فاعلُ «هيهات»: «ما توعدون»، واللامُ سيفُ خطيب، وأيِّد بقراءة ابن أبي عبلة: «هيهات هيهات ما توعدون» بغير لامٍ[3]. وردَّ بأنها لم تُعْهَدْ زيادتُها في الفاعل.

---

(١) وصدره: فهيهات هيهات العقيق ومَن به، وهو في الديوان ٢/ ٩٦٥، والخصائص ٣/ ٤٢، وشرح المفصل ٤/ ٣٥، والدر المصون ٨/ ٣٣٥، وجاءت الرواية في الديوان بإبدال الهاء الأولى في هيهات همزة.

(٢) البيت لزهير، وهو في ديوانه ص ١٨. وقال مَن استدل بالبيت: أي: وما الحديث عنها بالحديث المرجَّم، قالوا: فعنها متعلق بالضمير. شرح قطر الندى ص ٤٣٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٣، والبحر ٦/ ٤٠٥.

وقيل: هيهات بمعنى: البُعْدُ، وهو مبتدأ مبنيٌّ اعتباراً لأصله، خبرُه «لما توعدون»، أي: البعدُ كائنٌ لما توعدون، ونُسب هذا التفسير للزجّاج[(١)].

وتعقَّبه في «البحر» بأنه ينبغي أن يكون تفسيرَ معنًى لا تفسيرَ إعرابٍ؛ لأنه لم تثبت مصدريةُ «هيهات»[(٢)].

وقرأ هارون عن أبي عمرو: «هيهاتاً هيهاتاً» بفتحهما منوَّنتين للتنكير[(٣)]، كما في سائر أسماء الأفعال إذا نوِّنت، فهو اسمُ فعلٍ نكرة. وقيل: هو على هذه القراءة اسمٌ متمكِّنٌ منصوبٌ على المصدرية.

وقرأ أبو حيوة والأحمر بالضم والتنوين[(٤)]، قال صاحب «اللوامح»[(٥)]: يحتمل على هذا أن تكون «هيهات» اسماً متمكِّناً مرتفعاً بالابتداء، و«لِمَا توعدون» خبره، والتكرارُ للتأكيد، ويحتمل أن يكون اسماً للفعل والضمُّ للبناء، مثل: حَوْبُ، في زجر الإبل، لكنه نوِّن لكونه نكرةً. اهـ.

وقيل: هو اسمٌ متمكِّنٌ مرفوعٌ على الفاعلية، أي: وقع بُعْدٌ.

وعن سيبويه: أنها جمعٌ كبيضات[(٦)]، وأخذ بعضُهم منه تَسَاويَ مفرديهما في الزِّنة، فقال: مفردُها هَيْهَة كبيضة.

وفي روايةٍ عن أبي حيوةَ أنه ضمَّهما من غير تنوين[(٧)]، تشبيهاً لهما بـ: قَبْلُ وبَعْدُ في ذلك.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٣.

(٢) البحر ٦/ ٤٠٥.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٧، والبحر ٦/ ٤٠٤.

(٤) القراءات الشاذة ص ٩٧، والمحتسب ٢/ ٩٠، والبحر ٦/ ٤٠٤. والأحمر هو عنبسة بن النضر أبو عبد الرحمن اليشكري، المقرئ النحوي، قرأ على أصحاب حمزة. طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٦٠٥.

(٥) كما في البحر ٦/ ٣٤١.

(٦) ينظر الكتاب ٣/ ٢٦١، والبحر ٦/ ٤٠٥.

(٧) القراءات الشاذة ص ٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٣، والبحر ٦/ ٤٠٤.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ بالكسر فيهما من غير تنوين[١]، وروي هذا عن عيسى، وهو لغةٌ في تميم وأسد. وعنه أيضاً وعن خالد بن إلياس أنهما قرأا بكسرهما والتنوين[٢].

وقرأ خارجة بن مصعب عن أبي عمرو والأعرج، وعيسى أيضاً، بالإسكان فيهما[٣]، فمنهم مَن يُبقي التاءَ ويقفُ عليها كما في مُسْلِمات، ومنهم مَن يُبَدِلُها هاءً تشبيهاً بتاء التأنيث ويقف على الهاء[٤].

وقيل: الوقفُ على الهاء لاتِّباع الرسم[٥]، والذي يُفْهَمُ من «مجمع البيان»[٦] أن «هيهاتَ» بالفتح تكتب بالهاء كأرطاة، وأصلُها هَيْهَيَة كزَلْزَلَة، قُلبت الياء الثانية ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها، وكذا «هيهاتٌ» بالرفع والتنوين، وهي على هذا اسمٌ معربٌ مفرد، ومتى اعتبرت جمعاً كُتبت بالتاء وذلك إذا كانت مكسورة، منوَّنةً أو غيرَ منوَّنةٍ، ونَقَلَ ذلك عن ابن جنِّي[٧].

وقرئ: «أَيْهاهْ» بإبدال الهمزة من الهاء الأولى والوقفِ بالسكون على الهاء[٨].

والذي أميلُ إليه أنَّ جميع هذه القراءات لغاتٌ والمعنى واحد. وفي هذه الكلمة ما يزيد عن أربعين لغةً، وقد ذُكر ذلك في «التكميل لشرح التسهيل»[٩] وغيرِه.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أصلُه: إنِ الحياةُ إلَّا حياتُنا الدنيا، ثم وُضع الضميرُ موضعَ الحياة؛ لأن الخبر يدلُّ عليها ويبيِّنها، فالضميرُ عائدٌ على متأخِّرٍ، وعَوْدُه

---

(١) النشر ٢/ ٣٢٨ عن أبي جعفر، وقرأ باقي العشرة بفتح التاء.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٧، والبحر ٦/ ٤٠٤-٤٠٥، والدر المصون ٨/ ٣٣٨.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٧، والمحتسب ٢/ ٩٠، والبحر ٦/ ٤٠٥.
(٤) وقف البزي والكسائي بالهاء والباقون بالتاء. التيسير ص ٦٠، والنشر ٢/ ١٣١.
(٥) الدر المصون ٨/ ٣٤٠، وذكر الداني في المقنع ص ٨١ أنهم رسموا «هيهات هيهات» بالتاء. وقال علم الدين السخاوي في كتاب الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ٤٥٦: وهاؤه مشبَّهة بتاء التأنيث، ولذلك وقف عليها بالهاء مَن وقف، وهو في المصحف بالتاء.
(٦) ١٨/ ١٤٩.
(٧) ينظر المحتسب ٢/ ٩١-٩٢.
(٨) الإملاء ٤/ ٥٦، والدر المصون ٨/ ٣٣٨.
(٩) لأبي حيان، وقد أشار لذلك أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٥.

كذلك جائزٌ في صُوَرٍ، منها إذا فسِّر بالخبر كما هنا، كذا قالوا.

واعتُرض: بأنَّ الخبر موصوفٌ، فتلاحَظُ الصفة في ضميره كما هو المشهور في الضمير الراجع إلى موصوف، وحينئذٍ يصير التقدير: إنْ حياتُنا الدنيا إلا حياتُنا الدنيا.

وأجيب: بأن الضمير قد يعود إلى الموصوف بدون صفته، وهذا في الآخرة يعود إلى القول بأنَّ الضمير عائدٌ على ما يُفْهَمُ من جنس الحياة؛ ليفيدَ الحملُ ما قصدوه من نفي البعث، فكأنهم قالوا: لا حياةَ إلا حياتُنا الدنيا، ومن ذلك يُعلم خطأُ مَن قال: إنه كشعري شعري[1]، ومن هذا القبيل - على رأيٍ - قولُهم: هي العرب تقول ما شاءت، وقولُه:

هي النفسُ ما حمَّلْتَها تَتحمَّلُ ... ولِلدَّهرِ أيامٌ تجورُ وتَعْدِلُ[2]

وفي «الكشف»: ليس المعنى: النفسُ النفسُ؛ لأنه لا يَصْلُحُ الثاني حينئذٍ تفسيراً والجملةُ بعدها بياناً، بل الضمير راجعٌ إلى معهودٍ ذهنيٍّ أُشيرَ إليه ثم أُخبر بما بعده، كما في: هذا أخوك. انتهى، فتأمَّل ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ جملةٌ مفسِّرة لِمَا ادَّعَوْه من أنَّ الحياة هي الحياةُ الدنيا، وأرادوا بذلك: يموت بعضُنا ويُولَدُ بعضٌ وهكذا، وليس المرادُ بالحياة حياةً أخرى بعد الموت؛ إذ لا تَصْلُحُ الجملة حينئذٍ للتفسير، ولا يذمُّ قائلها، وناقضَتْ قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾.

وقيل: أرادوا بالموت العدمَ السابق على الوجود، أو أرادوا بالحياة بقاءَ أولادهم؛ فإنَّ بقاء الأولاد في حكم حياة الآباء، ولا يخفى بعدُه.

ومثلُه على ما قيل - وأنا لا أراه كذلك - أنَّ القوم كانوا قائلين بالتناسُخ، فحياتُهم بتعلُّق النفس التي فارقت أبدانَهم بأبدانٍ أُخَرَ عنصريةٍ تنقَّلَتْ في الأطوار حتى استعدَّتْ لِأنْ تتعلَّق بها تلك النفسُ المفارِقةُ، فزيدٌ - مثلاً - إذا مات تتعلَّق

---

(١) قطعة من رجز لأبي النجم العجلي في ديوانه ص ٩٩، وتمامه: أنا أبو النجم وشعري شعري، وسلف ٢/ ٤١٧ و٧/ ٣١٠.

(٢) البيت لعلي بن الجهم، وهو في ديوانه ص ١٦٢.

نفسُه ببدنٍ آخَرَ قد استعدَّ في الرحم للتعلُّق، ثم يولد، فإذا مات أيضاً تتعلَّقُ نفسُه ببدنٍ آخَرَ كذلك، وهكذا إلى ما لا يتناهى، وهذا مذهبٌ لبعض التناسخية، وهم مِلِّيون ونِحَليُّون.

ويمكن أن يقال: إنَّ هذا على حدِّ قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] على قولٍ، فإنَّ العطف فيه بالواو وهي لا تقتضي الترتيب، فيجوز أن تكون الحياة التي عَنَوْها الحياةَ التي قبل الموت، ويحتمل أنهم قالوا: نحيا ونموت، إلا أنه لمَّا حُكي عنهم قيل: «نموت ونحيا» ليكون أَوْفَقَ بقوله تعالى: (إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)، ثم المراد بقولهم: «وما نحن» إلخ استمرارُ النفي وتأكيده.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدَّعيه من إرساله تعالى إياه، وفيما يَعِدُنا مِن أنَّ الله تعالى يبعثنا ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ بمصدِّقين فيما يقوله، والمرادُ أيضاً استمرارُ النفي وتأكيدُه.

﴿قَالَ﴾ أي: رسولُهم عند يأسه من إيمانهم، بعد ما سلك في دعوتهم كلَّ مسلكٍ متضرِّعاً إلى الله عز وجل: ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: بسبب تكذيبهم إياي وإصرارِهم عليه، أو بَدَلَ تكذيبهم. ويجوز أن تكون الباء آليةً وما موصولةً كما مرَّ في قصة نوحٍ عليه السلام.

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابةً لدعائه، وعِدَةً بما طلب: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن زمانٍ قليل، فـ «ما» صلةٌ بين الجارِّ والمجرور جيءَ بها لتأكيد معنى القلَّة، و«قليلٍ» صفةٌ لزمانٍ حُذِفَ واستغني به عنه، ومجيئه كذلك كثيرٌ. وجوِّز أن تكون «ما» نكرةً تامةً، و«قليل» بدلاً منها، وأن تكون نكرةً موصوفةً بـ «قليل».

و«عن» بمعنى بَعْدَ هنا، وهي متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وتعلُّقها بكلٍّ من الفعل والوصف محتملٌ، وجاز ذلك مع توسُّط لامِ القسم؛ لأنَّ الجارَّ كالظَّرْفِ يُتوسَّعُ فيه ما لا يتوسَّع في غيره.

وقال أبو حيان: جمهورُ أصحابنا على أنَّ لام القسم لا يتقدَّمها معمولُ ما بعدَها سواءٌ كان ظرفاً أم جارًّا ومجروراً أم غيرَهما، وعليه يكون ذلك متعلِّقاً بمحذوفٍ

يدلُّ عليه ما قبلَه، والتقدير: عمَّا قليل تُنْصَرُ، أو ما بعده، أي: يُصْبِحون عمَّا قليلٍ لَيُصْبِحُنَّ.. إلخ، ومذهبُ الفرَّاء وأبي عبيدةَ أنه يجوز تقديمُ معمولِ ما في حيِّز هذه اللام عليها مطلقاً[1].

و«يصبح» بمعنى يصير، أي: بالله تعالى لَيَصيرُنَّ نادمين على ما فعلوا من التكذيب بعد زمانٍ قليل، وذلك وقتَ نزول العذاب في الدنيا ومُعاينتِهم له، وقيل: بعد الموت.

وفي «اللوامح»[2] عن بعضهم: «لَتُصْبِحُنَّ» بتاءٍ على المخاطبة، فلو ذهب ذاهبٌ إلى أنَّ القول من الرسول إلى الكفار بعد ما أُجيب دعاؤه لكان جائزاً.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحةُ جبريل عليه السلام، صاح عليه السلام بهم فدمَّرهم، وهذا على القول بأنَّ القرنَ قومُ صالحٍ عليه السلام ظاهرٌ، ومَن قال: إنهم قومُ هودٍ عليه السلام، أَشْكَلَ ظاهرُ هذا عليه، بناءً على أن المصرَّح به في غير هذه السورة أنهم أُهلكوا بريحٍ عاتيةٍ. وأجاب بأنَّ جبريل عليه السلام صاح بهم من الريح كما روي في بعض الأحاديث[3]، وفي ذكر كلٍّ على حِدَةٍ إشارةٌ إلى أنَّ كلًّا لو انفرد لتدميرهم لكفى.

ويَجوزُ أن يُراد بالصيحة العقوبةُ الهائلةُ والعذابُ المُصْطَلِمُ، كما في قوله:

صاح الزمان بآل برمك صيحةً ... خرُّوا لشدَّتها على الأذقان[4]

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بالأخذ، أي: بالأمر الثابت الذي لا مَدْفعَ له، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]. أو بالعدل من الله عز وجل، من قولك: فلانٌ يقضي بالحقِّ، إذا كان عادلاً في قضاياه. أو بالوعد الصِّدق الذي وُعِدَه الرسولُ في ضِمْنِ قوله تعالى: (عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ).

---

(١) البحر ٦/ ٣٠٥ دون قوله: أو ما بعده أي يصبحون عما قليل ليصبحن.. إلخ.

(٢) كما في البحر ٦/ ٣٠٥.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٣١، وذكره القرطبي ١٥/ ٤٤ عن التفاسير.

(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ٩٩، والبحر ٦/ ٤٠٦، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٣٥، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٣١. وروى ابن عساكر في تاريخه ١٢/ ٣١ أن أبا تمام أنشده في أبيات يخاطب بها الأمير عبد الله بن طاهر برواية: صاح الزمان بآل قومك صيحة....

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗ﴾ أي: كغثاء السيل، وهو ما يَحمِلُه من الورق والعيدان البالية، ويُجمع على أغثاء شذوذاً، وقد تُشدَّد ثاؤه كما في قول امرئ القيس:

كأنَّ ذُرَى رأسِ المُجَيْمِرِ(١) غدوةً من السيل والغثَّاء فَلْكةُ مِغْزَلِ(٢)

﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ يَحْتمِلُ الإخبارَ والدعاءَ، والبعدُ ضدُّ القُرْبِ، والهلاكُ، وفِعْلُهما ككَرُمَ وفَرِحَ، والمتعارَفُ الأولُ في الأول، والثاني في الثاني، وهو منصوبٌ بمقدَّرٍ، أي: بَعُدُوا بُعْداً من رحمة الله تعالى، أو من كلِّ خيرٍ، أو من النجاة، أو هلكوا هلاكاً. ويجب حذفُ ناصب هذا المصدر عند سيبويه فيما إذا كان دُعائيًا، كما صرَّح به في «الدرِّ المَصُون»(٣).

واللامُ لبيانِ مَن دعي عليه، أو أُخْبِرَ ببُعْدِه، فهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ لا بـ «بُعْداً»، ووضع الظاهر موضعَ الضمير إيذاناً بأنَّ إبعادهم لظلمهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: بعد هلاكهم ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢﴾ هم عند أكثر المفسرين قومُ صالحٍ وقومُ لوطٍ وقومُ شعيبٍ وغيرُ ذلك.

﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تتقدَّم أمةٌ من الأمم المهلَكةِ الوقتَ الذي عيِّن لهلاكهم، فـ «مِن» سيفُ خطيبٍ جيءَ بها لتأكيد الاستغراق المستفادِ من النكرة الواقعة في سياق النفي، وحاصلُ المعنى: ما تهلك أمةٌ من الأمم قبل مجيءِ أجلها ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٤٣﴾ ذلك الأَجَلَ ساعةً. وضمير الجمع عائدٌ على «أمة» باعتبار المعنى.

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ عطفٌ على «أنشأنا»، لكنْ لا على معنى أنَّ إرسالهم متراخٍ عن إنشاء القرون المذكورة جميعاً، بل على معنى أنَّ إرسالَ كلِّ رسولٍ متأخِّرٌ عن إرسالِ قرنٍ مخصوصٍ بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين قد أرسلنا إلى كلِّ قرنٍ منهم رسولاً خاصًّا به.

---

(١) جاء في هامش(م): من جبال بني أسد. اهـ منه.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٥، وشرح المعلقات للنحاس ١/ ٤٨، وللتبريزي ص٧٠، ورواية الديوان: كأن طمية المجيمر غدوة. . .، وهي رواية الأصمعي كما ذكر ذلك التبريزي، والمجيمر: أرض لبني فزارة، وطمية: جبل في بلادهم، يقول: قد امتلأ المجيمر، فكأن الجبل في الماء فلكة مغزل؛ لما جمع السيل حوله من الغثاء.

(٣) ٨/ ٣٤٤، ونقله المصنف عنه وعن سيبويه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٣٢.

والفصلُ بين المعطوفَيْنِ بالجملة المعترضة للمسارعة إلى بيانِ هلاكِ أولئك القرون على وجهٍ إجماليٍّ. وتعليقُ الإرسال بالرسل نظيرُ تعليقِ القتل بالقتيل في: مَن قتل قتيلاً، وللعلماء فيه توجيهاتٌ.

﴿تَتْرَا﴾ من المُواتَرةِ، وهو التَّتابُعُ مع فصلٍ ومهلةٍ على ما قاله الأصمعيُّ، واختاره الحريريُّ في «الدرة»[1].

وفي «الصحاح»: المُواتَرةُ: المتابعةُ، ولا تكون المواترةُ بين الأشياء إلَّا إذا وقعت بينها فترةٌ، وإلَّا فهي مُدَارَكة [ومواصَلة][2]. ومثلُه في «القاموس»[3].

وعن أبي عليٍّ أنه قال: المواترةُ أن يتبعَ الخبرُ الخبرَ والكتابُ الكتابَ، فلا يكون بينهما فصلٌ كثير[4].

ونَقَلَ في «البحر» عن بعضٍ: أنَّ المواترةَ التابعُ بغير مُهْلةٍ[5]. وقيل: هو التتابعُ مطلقاً.

والتاء الأولى بدلٌ من الواو كما في تُراثٍ وتُجَاهٍ، ويدلُّ على ذلك الاشتقاق. وجمهورُ القرَّاء والعربِ على عدم تنوينه، فألِفُه للتأنيث كألفِ دَعْوَى وذِكْرَى.

وهو مصدرٌ في موضع الحال، والظاهرُ أنه حالٌ من المفعول، والمراد كما قال أبو حيان والراغب وغيرُهما: ثم أرسلنا رسلنا متواترين[6].

وقيل: حالٌ من الفاعل، والمراد: أرسلنا متواترين[7].

وقيل هو صفةٌ لمصدرٍ مقدَّرٍ، أي: إرسالاً متواتراً.

وقيل: مفعولٌ مطلقٌ لـ «أرسلنا»؛ لأنه بمعنى واتَرْنا.

---

(١) درة الغوَّاص ص ٧-٨.
(٢) الصحاح (وتر)، وما بين حاصرتين منه.
(٣) مادة (وتر).
(٤) الحجة ٥/ ٢٩٥.
(٥) البحر ٦/ ٣٩٣.
(٦) البحر ٦/ ٤٠٧، ومفردات الراغب (تترى).
(٧) كذا في الأصل و(م)، والصواب: مواترين. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٤، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٣٢.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وقتادةُ وأبو جعفر وشعبةُ[1] وابنُ محيصنٍ والإمام الشافعيُّ عليه الرحمة: «تترًى»: بالتنوين[2]، وهو لغةُ كنانةَ، قال في «البحر»: وينبغي عند مَن ينوِّنُ أن تكون الألفُ فيه للإلحاق، كما في أَرْطى وعَلْقى، لكنَّ ألفَ الإلحاق في المصادر نادرة[3]. وقيل: إنَّها لا توجَدُ فيها.

وقال الفرَّاء: يقال: تَتْرٌ في الرفع، وتَتْرٍ في الجرِّ، وتَتْراً في النصب، فهو مثلُ صَبْرٍ ونَصْرٍ، ووزنُه فَعْلٌ لا فَعْلَى، ومتى قيل: تَتْرى بالألف فألفُه بدلُ التنوين كما في: صَبَرْتُ صبراً، عند الوقف[4].

ورُدَّ بأنه لم يُسمع فيه إجراءُ الحركات الثلاث على الراء، وعلى مدَّعيه الإثبات، وأيضاً كَتْبُه بالياء يأبى ذلك.

وما ذكرنا من مصدريةِ «تترى» هو المشهور، وقيل: هو جمعٌ، وقيل: اسمُ جمع. وعلى القولين هو حالٌ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لمجيءِ كلِّ رسول لأمته، ولِمَا صَدَرَ عنهم عند تبليغِ الرسالة. والمرادُ بالمجيء: إما التبليغُ، وإما حقيقةُ المجيء؛ للإيذان بأنهم كذَّبوه في أول الملاقاة.

وإضافة الرسول إلى الأمة مع إضافة كلِّهم فيما سبق إلى نون العظمة؛ لتحقيق أنَّ كلَّ رسولٍ جاء أمته الخاصةَ به، لا أنَّ كلَّهم جاؤوا كلَّ الأمم، وللإشعار بكمال شناعةِ المكذِّبينَ وضلالِهم، حيث كذَّبوا الرسول المعيَّن لهم.

وقيل: أضاف سبحانه الرسول مع الإرسال إليه عز وجل، ومع المجيءِ إلى المرسَلِ إليهم، لأنَّ الإرسال الذي هو مبدأُ الأمر منه تعالى، والمجيءَ الذي هو منتهاهُ إليهم.

---

(١) في البحر ٦/ ٤٠٧ (والكلام منه): وشيبة.
(٢) التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨ عن ابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر.
(٣) البحر ٦/ ٣٩٤، والدر المصون ٨/ ٣٤٥. والأرطى: شجر ثمره مرٌّ وعروقه حمر، الواحدة أرطاة. والعلقى: نبتٌ يكون واحداً وجمعاً، يتخذ منه المكانس، ويشرب طبيخه للاستسقاء. القاموس (أرط) و(علق).
(٤) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٦.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك، حَسْبَما تَبِعَ بعضُهم بعضاً في مباشرة سببه، وهو تكذيبُ الرسول.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع أُحدوثة، وهو ما يُتَحدَّثُ به تعجُّباً وتَلهِّياً، كأعاجيبَ جمع أُعجوبة، وهو ما يُتَعجَّبُ منه، أي: جعلناهم أحاديثَ يُتحدَّثُ بها على سبيل التعجُّب والتلهِّي. ولا تقال الأحدوثة عند الأخفش[1] إلَّا في الشر.

وجوِّز أن يكون جَمْعَ حديثٍ، وهو جمعٌ شاذٌّ مخالفٌ للقياس، كقطيع وأقاطيع، ويسمِّيه الزمخشريُّ اسمَ جمع[2]، والمراد: أنَّا أهلكناهم ولم يَبْقَ إلا خبرُهم.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ اقتصر هاهنا على وَصْفِهم بعَدَمِ الإيمان حَسْبَما اقتصر على حكاية تكذيبهم إجمالاً. وأما القرونُ الأوَّلون فحيث نُقِلَ عنهم ما مرَّ من الغلوِّ وتَجاوُزِ الحدِّ في الكفر والعدوان وُصفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالآيات المعهودة، وهي الآياتُ التسعُ، وقد تقدَّم الكلام في تفصيلها وما قيل فيه[3]. و«هارون» بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، وتعرَّضَ لأُخوَّتِه لموسى عليهما السلام للإشارة إلى تبعيَّتِه له في الإرسال.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: حجةٍ واضحةٍ، أو مُظْهِرةٍ للحق. والمرادُ بها عند جمعٍ العصا، وإفرادُها بالذكر مع انْدِراجها في الآيات لتفرُّدها بالمزايا حتى صارت كأنها شيءٌ آخَرُ.

وجوِّز أن يراد بها الآياتُ، والتعاطُفُ مِن تَعاطُفِ المتَّحدَيْنِ في الماصدق لتغايُرِ مدلوليهما، كعَطْفِ الصفة على الصفة مع اتِّحاد الذات، وقد مرَّ نظيره آنفاً[4]، أو هو من باب قولك: مررتُ بالرجل والنَّسمةِ المباركة، حيث جرِّد من نفس الآيات سلطانٌ مبينٌ وعُطِفَ عليه مبالغةً، والإتيان به مفرداً لأنه مصدرٌ في الأصل، أو للاتحاد في المراد.

(١) كما في البحر ٦/ ٤٠٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٣.
(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الإسراء.
(٤) ينظر ما سلف ص٥٤ من هذا الجزء.

وعن الحسن: أنَّ المراد بالآيات: التكاليفُ الدينيةُ، وبالسلطان المبين: المُعْجِز.

وقال أبو حيان: يجوزُ أن يراد بالآيات نفسُ المعجزاتِ، وبالسلطان المبين كيفيةُ دلالتها؛ لأنها وإن شاركت آيات الأنبياء عليهم السلام في أصل الدلالة على الصدق، فقد فارَقَتْها في قوة دلالتها على ذلك[1]. وهو كما ترى.

ويمكن أن يقال: المراد بالسلطان تَسَلُّطُ موسى عليه السلام في المحاورة والاستدلالِ على الصانع عز وجل، وقوة الجأش والإقدام.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه، خُصُّوا بالذكر لأنَّ إرسال بني إسرائيل ـ وهو مما أُرْسِلا عليهما السلام لأَجْلِه ـ منوطٌ بآرائهم. ويمكنُ أن يراد بالملأ قومُه، فقد جاء استعمالُه بمعنى الجماعة مطلقاً.

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الانقياد لِمَا أُمروا به ودُعوا إليه، من الإيمانِ وإرسالِ بني إسرائيل وتركِ تعذيبهم، وليست الدعوة مختصةً بإرسال بني إسرائيل وإطلاقهم من الأسر، ففي سورة «النازعات»: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [الآيات: ١٧-١٩] وأيضاً فيما نحن فيه ما يدلُّ على عدم الاختصاص.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ متكبِّرين، أو: مُتَطاوِلين بالبغي والظلم، والمرادُ: كانوا قوماً عادتُهم العلوُّ.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عطفٌ على «استكبروا» وما بينهما اعتراضٌ مقرِّرٌ للاستكبار، والمرادُ: فقالوا فيما بينهم بطريق المناصحة: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثنَّى البشر لأنه يطلَقُ على الواحد، كقوله تعالى: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ويطلق على الجمع كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦] ولم يثنِّ «مِثْل» نظراً إلى كونه في حكم المصدر. ولو أفرد البشر لصحَّ؛ لأنه اسمُ جنسٍ يطلق على الواحد وغيره، وكذا لو ثنَّى المِثْلَ فإنه جاء مُثنًّى في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣] ومجموعاً في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] نظراً إلى أنه في

---

(١) البحر ٦/٤٠٧.

تأويل الوصف، إلَّا أن المرجِّح لتثنية الأول وإفرادِ الثاني الإشارةُ بالأول إلى قلَّتهما وانفرادِهما عن قومهما مع كثرة الملأ واجتماعِهم، وبالثاني إلى شدة تماثُلهم حتى كأنهم من البشرين شيءٌ واحد، وهو أدلُّ على ما عَنَوه.

وهذه القصص كما ترى تدلُّ على أنَّ مدار شُبهِ المنكرين للنبوَّة قياسُ حالِ الأنبياء عليهم السلام على أحوالهم، بناءً على جَهْلِهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية، وتبايُنِ طبقات أفرادها في مَرَاقي الكمال ومَهَاوي النقصان، بحيث يكون بعضُها في أعلى علِّيين وهم المختصُّون بالنفوس الزكية، المؤيَّدون بالقوة القدسية، المتعلِّقون لصفاء جواهرهم بكِلَا العالَمينِ: اللطيف والكثيف، فيتلقَّون من جانبٍ، ويلقون إلى جانب، ولا يعوقُهم التعلُّق بمصالح الخَلْقِ عن التبتُّل إلى حضرة الحقِّ. وبعضُها في أسفل سافلين، وهم كأولئك الجَهَلةِ الذين هم كالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلاً.

ومن العجب[1] أنهم لم يرضَوْا للنبوَّة ببشرٍ، وقد رضي أكثرُهم للإلهية بحجرٍ، فقاتَلَهم الله تعالى ما أَجْهَلَهم!

والهمزةُ للإنكار، أي: لانؤمنُ لبشرين مثلنا ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يَعْنُونَ سائرَ بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ خادمون مُنقادون لنا كالعبيد، ففي «عابدون» استعارةٌ تبعيةٌ نظراً إلى مُتعارَفِ اللغة.

ونقل الخفاجيُّ عن الراغب أنه صرَّح بأنَّ العابد بمعنى الخادم حقيقةٌ[2]. وقال أبو عبيدة: العربُ تسمِّي كلَّ مَن دان للملك عابداً[3].

وجوَّز الزمخشريُّ الحملَ على حقيقة العبادة؛ فإنَّ فرعون كان يدَّعي الإلهية فادَّعى للناس العبادة على الحقيقة[4].

واعترِضَ بأنَّ الظاهر أنَّ هذا القولَ من الملأ، وهو يأبى ذلك، وكونُهم قالوه

(١) في الأصل: العجيب.
(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٣.
(٣) مجاز القرآن ٢/ ٥٩.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٣.

على لسان فرعون كما يقول خواصُّ ملك: نحن ذوو رعيةٍ كثيرة ومُلْكٍ طويلٍ عريض، ومرادُهم: إنَّ ملكنا ذو رعية. . إلخ، خلافُ الظاهر.

وقيل عليه أيضاً: على تقدير أن يكون القائلُ فرعونَ، لا يلزمُ من ادِّعائه الإلهية عبادةُ بني إسرائيل له، أو كونُه يعتقد أو يدَّعي عبادتَهم على الحقيقة له.

وأنت تعلم أنه متى سلِّم أنَّ القائل فرعونُ، وأنه يدَّعي الإلهية، لا يقدح في إرادته حقيقةَ العبادة عدمُ اعتقادِه ذلك؛ لأنه على ما تدلُّ عليه بعضُ الآثار كثيراً ما يُظْهِرُ خلافَ ما يُبْطِنُ، حتى إنها تدلُّ على أنَّ دعواه الإلهية من ذلك. نعم الأَوْلَى تفسيرُ «عابدون» بخادمون، وهو مما يصحُّ إسنادُه إلى فرعون وملئه، وكأنهم قصدوا بذلك التعريضَ بشأن الرسولين عليهما السلام، وحطَّ رُتْبتِهما العَليَّةِ عن منصب الرسالة من وجهٍ آخرَ غيرِ البشرية.

واللام في «لنا» متعلِّقةٌ بـ «عابدون» قدِّمت عليه رعايةً للفواصل، وقيل: للحَصْرِ، أي: لنا عابدون لا لهما.

والجملةُ حالٌ من فاعلِ «نؤمن»، مؤكِّدةٌ لإنكار الإيمان لهما، بناءً على زَعْمِهم الفاسدِ المؤسَّسِ على قياس الرياسة الدينية على الرياسة الدنيوية، الدائرةِ على التقدُّم في نيلِ الحظوظ الدنيوية من المال والجاه، كدأب قريش حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وجَهْلِهم بأنَّ مناط الاصطفاء للرسالة هو السَّبْقُ في حيازة النعوتِ العَليَّةِ والمَلَكاتِ السَّنِيَّة التي يتفضَّلُ الله تعالى بها على مَن يشاءُ مِن خَلْقِه.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فاستمرُّوا على تكذيبهما، وأصرُّوا واستكبروا استكباراً ﴿فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ بالغرق في بحر القلزم، والتعقيبُ باعتبارِ آخِرِ زمانِ التكذيب الذي استمرُّوا عليه.

وقيل: تعقيبُ التكذيب بذلك بناءً على أنَّ المراد: محكوم عليهم بالإهلاك. وقيل: الفاء لمحض السببية، أي: فكانوا بسبب تكذيب الرسولين من المهلكين.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي[1]: بعد إهلاكهم وإنجاء بني إسرائيل من مملكتهم ﴿مُوسَى

(١) قوله: أي، ليس في (م).

﴿الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة. وحيث كان إيتاؤه عليه السلام إياها لإرشاد قومه إلى الحقِّ كما هو شأنُ الكتب الإلهية، جُعلوا كأنهم أُوتوها، فقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: إلى طريق الحقِّ عِلْماً وعملاً، لِمَا تضمَّنته من الاعتقاديات والعمليات.

وجوِّز أن يكون الكلام على تقدير مضافٍ، أي: آتينا قومَ موسى، وضمير «لعَلهم» عائدٌ عليه.

وقيل: أُريدَ بموسى عليه السلام قومُه، كما يقال تميم وثقيف للقبيلة.

وتعقِّب بأنَّ المعروف في مثله إطلاقُ أبي القبيلة عليهم، وإطلاقُ موسى عليه السلام على قومه ليس من هذا القبيل، وإن كان لا مانع منه.

ولم يجعل ضمير «لعلهم» لفرعون وملئه؛ لظهور أنَّ التوراة إنما أنزلت بعد إغراقهم لبني إسرائيل، وقد يُستَشهَدُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣] بناء على أنَّ المراد بالقرون الأولى ما يعمُّ فرعون وقومه ومَن قبلهم من المهلَكين، كقوم نوح وهود، لا ما يخصُّ مَن قبلهم من الأمم المهلكين؛ لأنَّ تقييد الإخبار بإتيانه عليه السلام الكتاب بأنه بعد إهلاك مَن تقدَّم من الأمم معلومٌ، فلو لم يدخل فرعونُ وقومُه لم يكن فيه فائدة، كما قيل.

ولم يذكر هارون مع موسى عليهما السلام اقتصاراً على مَن هو كالأصل في الإيتاء. وقيل: لأنَّ الكتاب نزل بالطور وهارون عليه السلام كان غائباً مع بني إسرائيل.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً﴾ أيَّة آيةٍ دالَّة على عظيم قدرتنا، بولادته منها من غيرِ مسيسِ بشرٍ، فالآيةُ أمرٌ واحدٌ مشتركٌ بينهما فلذا أُفرِدَتْ، وجوِّز أن يكون الكلامُ على تقدير مضاف، أي: جعلنا حالَ ابن مريم وأمه آيةً، أو جعلنا ابن مريم وأمَّه ذَوَيْ آيةٍ، وأن يكون على حذف آية من الأول لدلالة الثاني عليه أو بالعكس، أي: جعلنا ابنَ مريم آيةً لِمَا ظهر فيه عليه السلام من الخوارق، كتكلُّمه في المهد بما تكلَّم صغيراً، وإحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص وغيرِ ذلك كبيراً، وجعلنا أمَّه آيةً بأن وَلَدتْ من غيرِ مسيسٍ، وقال الحسن: إنها عليها السلام تكلَّمت في

صغرها أيضاً، حيث قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] ولم تلتقم ثدياً قط.

وقال الخفاجيُّ: لك أن تقول: إنَّما يُحتاجُ إلى توجيه إفرادِ الآية بما ذُكر إذا أُريدَ أنها آيةٌ على قدرة الله تعالى، أما إذا كانت بمعنى المعجزة أو الإرهاص فلا؛ لأنها إنما هي لعيسى عليه السلام لنبوَّته دون مريم[1]. اهـ.

ولا يخفى ما فيه، والوجهُ عندي ما تقدَّم. والتعبيرُ عن عيسى عليه السلام بابن مريم، وعن مريم بأمِّه؛ للإيذان من أول الأمر بحيثيةِ كونهما آيةً، فإنَّ نسبته عليه السلام إليها ـ مع أنَّ النسبَ إلى الآباء ـ دالَّةٌ على أنْ لا أب له، أي: جعلنا ابنَ مريم وحدها من غيرِ أن يكون له أبٌ، وأمَّه التي وَلَدتْه خاصةً من غير مشاركةِ الأبِ، آيةً.

وتقديمهُ عليه السلام لأصالته فيما ذكر من كونه آيةً، كما قيل: إنَّ تقديم أمِّه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] لأصالتها فيما نُسب إليها من الإحصان والنفخ.

ثم اعْلَمْ أنَّ الذي أجمع عليه الإسلاميون أنه ليس لمريم ابنٌ سوى عيسى عليه السلام، وزعم بعض النصارى قاتلهم الله تعالى أنها بعد أن وَلَدتْ عيسى تزوَّجت بيوسف النجار، وولدت منه ثلاثة أبناء.

والمعتمَدُ عليه عندهم أنها كانت في حالِ الصِّغَرِ خطيبةَ يوسف النجار، وعَقَدَ عليها ولم يَقْرَبْها، ولمَّا رأى حَمْلَها بعيسى عليه السلام همَّ بتَخْلِيتها، فرأى في المنام مَلَكاً أَوْقَفَه على حقيقة الحالِ، فلمَّا وَلَدتْ بقيتْ عنده مع عيسى عليه السلام، فجعل يربِّيه ويتعهَّدُه مع أولادٍ له من زوجةٍ غيرِها، فأما هي فلم يكن يَقْرَبُها أصلاً.

والمسلمون لا يسلِّمون أنها كانت معقوداً عليها ليوسف، ويسلِّمون أنها كانت خطيبتَه، وأنه تعهَّدها وتعهَّد عيسى عليه السلام، ويقولون: كان ذلك لقرابته منها.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ أي: جعلناهما يأويان ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ هي ما ارتفع من الأرض دون الجبل.

---

(١) بنحوه في حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٤.

واختلف في المراد بها هنا، فأخرج وكيعٌ وابنُ أبي شيبة وابنُ المنذر وابنُ عساكر بسندٍ صحيح عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾: أُنْبِئْنا أنها دمشق(١).

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن سلام، وعن يزيد بن شجرة الصحابيِّ، وعن سعيد بن المسيّب، وعن قتادة عن الحسن، أنهم قالوا: الربوة هي دمشق(٢).

وفي ذلك حديثٌ مرفوعٌ أخرجه ابن عساكر عن أبي أمامة بسندٍ ضعيف(٣).

وأخرج جماعةٌ عن أبي هريرة أنه قال: هي الرملة من فلسطين(٤). وأخرج ذلك ابن مردويه(٥) من حديثه مرفوعاً.

وأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» وجماعةٌ عن مرَّة البهزيّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الرَّبوة الرملة»(٦).

وأخرج ابن جرير وغيرُه عن الضحاك أنه قال: هي بيتُ المقدس(٧).

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١/ ٢٠٣ و٢٠٤، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٠.
(٢) تاريخ ابن عساكر ١/ ٢٠٤-٢٠٨. وخبر عبد الله بن سلام أخرجه أيضاً الرامهرمزي في المحدِّث الفاصل ص ٤٧٥، وهو من طريق عبد الوهاب بن عبد المجيد، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن سلام. قال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ٦٦: لم يتابع عبد الوهاب على رواية هذا الحديث، رواه ليث بن أبي سليمان والثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك والدراوردي وسليمان بن بلال، كلهم عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، ليس أحد منهم يقول: عن عبد الله بن سلام... ويحتمل أن يكون سمِّي لعبد الوهاب عبد الله بن سلام ولم يسمَّ لهم.
(٣) تاريخ ابن عساكر ١/ ٢٠٣. والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٠، وأخرجه أيضاً تمام في فوائده (١٥٥٢). وفي إسناده مسلمة بن علي، قال عنه الذهبي: شامي واهٍ، وقال دحيم: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: لا يشتغل به. الميزان ٤/ ١٥٩.
(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٤٦، والطبري ١٧/ ٥٣ و٥٤.
(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ١٠.
(٦) المعجم الأوسط (٦٦٩٥)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٧/ ٥٣-٥٤. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٧٢: فيه من لم أعرفهم.
(٧) لم نقف عليه عند الطبري، وذكره عن الضحاك ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وذكر البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٠ عنه أنه قال: هي غوطة دمشق.

وأخرج هو وغيره أيضاً عن قتادة أنه قال: كنَّا نحدِّث أنَّ الربوة بيت المقدس[١]. وذكروا عن كعب أنَّ أرضه كبدُ الأرض وأقربُها إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، ولذا كان المعراج، ورُفع عيسى عليه السلام منه، وهذا القولُ أوفقُ بإطلاق الربوة على ما سمعتَ من معناها.

وأخرج ابنُ المنذر وغيره[٢] عن وهب، وابنُ جريرٍ وغيرُه عن ابن زيد: الربوةُ مصر[٣].

وروي عن زيد بن أسلم أنه قال: هي الإسكندرية.

وذكروا أن[٤] قرى مصر كلٌّ واحدةٍ منها على ربوةٍ مرتفعةٍ؛ لعموم النيل في زيادته جميعَ أرضها، فلو لم تكن القرى على الربى لغرقت.

وذُكر أنَّ سبب هذا الإيواء أنَّ ملك ذلك الزمان عزم على قتل عيسى عليه السلام، ففرَّتْ به أمُّه إلى أحد هذه الأماكن التي ذُكرت، كذا في «البحر»[٥].

ورأيت في إنجيل متّى أنَّ عيسى عليه السلام لمَّا وُلد في بيت لحم في أيام هيرودس الملك، وافى جماعةٌ من المجوس من المشرق إلى أورشليم يقولون: أين المولودُ ملكُ اليهود؟ فقد رأينا نجمه في المشرق وجئنا لنسجدَ له. فلما سمع هيرودس اضطرب، وجمع رؤساء الكهنةِ وكتبةَ الشعب فسألهم: أين يولد المسيح؟ فقالوا: في بيت لحم. فدعا المجوس سرًّا وتحقَّق منهم الزمان الذي ظهر لهم فيه النجم، وأرسلهم إلى بيت لحم وقال لهم: اجْهَدوا في البحث عن هذا المولود، فإذا وجدتُموه فأخْبِروني لأسجُدَ له معكم. فذهبوا فوجدوه مع مريم، فسجدوا وقرَّبوا القرابين، ورأوا في المنام أن لا يرجعوا إلى هيرودس، فذهبوا إلى كُورَتِهم، ورأى يوسفُ في المنام مَلَكاً يقول له: قم فخذ الطفل وأمَّه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، فإنَّ هيرودس قد عزم على أن يطلب الطفل ليُهْلِكَه. فقام

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٥-٤٦.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٩.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٩، وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٥.
(٤) في (م): أي. وهو تصحيف.
(٥) ٦/ ٤٠٨.

وأخذ الطفلَ وأمَّه ليلاً ومضى إلى مصر، وكان هناك إلى وفاة هيرودس، فلمّا توفّي رأى يوسفُ المَلَكَ في المنام يقول له: قُمْ فخُذِ الطفل وأمَّه واذهب إلى أرض إسرائيل، فقد مات مَن يطلب نَفْسَ الطفل. فقام وأخذهما وجاء إلى أرض إسرائيل، فلما سمع أن أرشلاوس قد ملك على اليهودية بعد أبيه هيرودس، خاف أن يذهب هناك، فأُخبِرَ في المنام وذهب إلى تخوم الجليل فسكن في مدينة تُدْعَى: ناصرة(١). اهـ. فإن صحَّ هذا كان الظاهر أنَّ الربوة في أرض مصر، أو ناصرة من أرض الشام، والله تعالى أعلم.

وقرأ أكثر القراء: «رُبوة» بضم الراء(٢)، وهي لغة قريش.

وقرأ أبو إسحاق السَّبيعيُّ: «رِبوةٍ» بكسرها(٣). وابن أبي إسحاق: «رُبَاوة» بضم الراء وبالألف(٤). وزيد بن علي رضي الله عنهما والأشهب العقيلي والفرزدق والسُّلميُّ في نَقْلِ صاحب «اللوامح» بفتحها وبالألف(٥). وقرئ بكسرها وبالألف(٦).

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستقرٌّ من أرضٍ منبسطةٍ، والمرادُ أنها في وادٍ فسيحٍ تنبسطُ به نفسُ مَن يأوي إليه. وقال مجاهد: ذات ثمارٍ وزروع، والمراد أنها محلٌّ صالحٌ لقرار الناس فيه؛ لِمَا فيه من الزروع والثمار، وهو أنسبُ بقوله تعالى: ﴿وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ أي: وماءٍ معينٍ، أي جارٍ، ووزنُه فعيل على أنَّ الميم أصلية من مَعَنَ بمعنى جرى، وأصلُه الإبعاد في الشيءِ، ومنه أَمْعَنَ النظر. وفي «البحر»: مَعَنَ الشيءُ مَعانةً: كَثُرَ(٧). أو من الماعون، وإطلاقُهُ على الماء الجاري لنَفْعِه.

وجوِّز أن يكون وزنُه مفعول كمَخِيطٍ، على أنَّ الميم زائدة، من عانه: أدركه

---

(١) إنجيل متى ص ٣٨-٤٠.

(٢) هي قراءة العشرة عدا ابن عامر وعاصم، فقد قرأا بفتح الراء. التيسير ص ٨٣، والنشر ٢/ ٢٢٢.

(٣) البحر ٦/ ٤٠٨، وعزاها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٩٨ لابن عباس.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٥، والكشاف ٣/ ٣٣، والبحر ٦/ ٤٠٨، والكلام منه، ووقع في الأصل و(م): رباة، والمثبت من المصادر.

(٥) البحر ٦/ ٤٠٨، وهي في القراءات الشاذة ص٩٨ عن الفرزدق.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٣، والبحر ٦/ ٤٠٨.

(٧) البحر ٦/ ٣٩٤.

بعينه، كركَبَه: إذا ضربه بركُبتِه، وإطلاقُهُ على الماء الجاري لِمَا أنه في الأغلب يكون ظاهراً مشاهَداً بالعين، ووصف الماء بذلك لأنه الجامعُ لانشراح الصدر وطيبِ المكان وكثرةِ المنافع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ حكايةٌ لرسول الله ﷺ على وجهِ الإجمال لِمَا خوطِبَ به كلُّ رسولٍ في عصره، جيء بها إثر حكايةِ إيواءِ عيسى وأمِّه عليهما السلام إلى الربوة، إيذاناً بأنَّ ترتيب مبادي النعم لم تكن من خصائص عيسى عليه السلام، بل إباحةُ الطيبات شرعٌ قديمٌ جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام ووُصُّوا به، أي: وقلنا لكلِّ رسولٍ: كُلْ من الطيبات واعْمَلْ صالحاً، فعبَّر عن تلك الأوامر المتعدِّدة المتعلِّقة بالرسل بصيغةِ الجمع عند الحكاية إجمالاً للإيجاز.

أو حكايةٌ لِمَا ذُكر لعيسى وأمِّه عليهما السلام عند إيوائهما إلى الربوة؛ ليقتديا بالرسل في تناوُل ما رُزقا، كأنه قيل: آويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعينٍ، وقلنا أو قائلينَ لهما هذا، أي: أعْلَمْناهما أو معلِّميهما أن الرسل كلَّهم خوطبوا بهذا فكُلا واعملا اقتداءً بهم.

وجوِّز أن يكون نداءً لعيسى عليه السلام، وأمراً له بأن يأكل من الطيبات، فقد جاء في حديثٍ مرسلٍ عن حفص بن أبي جبلة عن النبي ﷺ، أنه قال في قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ) إلخ: «ذاك عيسى ابنُ مريم كان يأكل من غَزْلِ أمه»[1].

وعن الحسن ومجاهدٍ وقتادةَ والسدِّيِّ والكلبيِّ أنه نداءٌ لرسول الله ﷺ، وخطابٌ له، والجمعُ للتعظيم. واستَظْهرَ ذلك النيسابوريُّ[2]. وما وقع في «شرح التلخيص» تبعاً للرضيِّ من أنَّ قَصْدَ التعظيم بصيغة الجمع في غير ضمير المتكلِّم لم

(١) أخرجه عبدان في كتاب الصحابة كما في الإصابة ٣/ ٤٠، والدر المنثور ٥/ ١٠. وجاء في هامش (م): والمشهور أنه كان يأكل من بطن البرية. اهـ منه. قلنا: أخرج ابن المبارك في الزهد (٥٦٣) عن أبي هريرة ﷺ موقوفاً أن عيسى عليه السلام كان يقول لأصحابه: كلوا من بقل البرية.

(٢) في تفسيره ١٨/ ٢٤.

يقع في الكلام القديم خطأً؛ لكثرته في كلام العرب مطلقاً، بل في جميع الألسنة، وقد صرَّح به الثعالبيُّ في «فقه اللغة»[(١)].

والمراد بالطيبات على ما اختاره شيخُ الإسلام[(٢)] وغيرُه: ما يُسْتَطاب ويُستلذُّ من مباحات المأكل والفواكه، واستَدلَّ له بأنَّ السياق يقتضيه، والأمرُ عليه للإباحة والترفيه، وفيه إبطالٌ للرهبانية التي ابتَدَعَتْها النصارى.

وقيل: المراد بالطيبات ما حلَّ، والأمرُ تكليفيٌّ، وأيِّد بتعقيبه بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي: عملاً صالحاً، وقد يؤيَّد بما أخرجه أحمد في «الزهد»، وابنُ أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصحَّحه، عن أمِّ عبد الله أختِ شداد بن أوس ﵄، أنها بعثت إلى النبيِّ ﷺ بقدحِ لبنٍ عند فِطْرِه وهو صائمٌ فردَّ إليها رسولها: أنَّى لكِ هذا اللبن؟ قالت: من شاةٍ لي. فردَّ إليها رسولَها: أنَّى لكِ الشاة؟ فقالت: اشتريتُها من مالي. فشرب منه عليه الصلاة والسلام، فلما كان من الغد أتته أمُّ عبد الله فقالت: يا رسول الله، بعثت إليك بلبن فردَدْتَ إلي الرسول فيه؟ فقال ﷺ لها: «بذلك أُمِرَتِ الرسلُ قبلي، أنْ لا تأكلَ إلَّا طيِّباً، ولا تعملَ إلَّا صالحاً»[(٣)].

وكذا بما أخرجه مسلم والترمذيُّ وغيرُهما عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طيِّباً، وإنَّ الله تعالى أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ) وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعثَ أغبرَ، ومَطْعَمُه حرامٌ، ومَشْرَبُهُ حرامٌ، ومَلْبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، فأنَّى يُستجاب لذلك»[(٤)].

---

(١) ينظر فقه اللغة ص ٣٠٠، والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٥.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ١٣٨.

(٣) الزهد لأحمد ص ٤٧٦، والمستدرك ٤/ ١٢٥-١٢٦، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٠، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ٢٥/ (٤٢٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٩١: فيه أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف. وقال الذهبي في التلخيص: ابن أبي مريم واهٍ.

(٤) صحيح مسلم (١٠١٥)، وسنن الترمذي (٢٩٨٩)، وهو عند أحمد (٨٣٤٨).

وتقديمُ الأمرِ بأكلِ الحلال لأنَّ أكل الحلال مُعِيْنٌ على العمل الصالح، وجاء في بعض الأخبار: أنَّ الله تعالى لا يقبلُ عبادةَ مَن في جوفه لقمةٌ من حرام[(١)]. وصحَّ: «أيّما لحمٍ نبَتَ من سُحْتٍ فالنارُ أولى به»[(٢)].

ولعل تقديمَ الأمر الأول على تقدير حَمْلِ الطيب على ما يُسْتلَذُّ من المباحات؛ لأنه أَوْفقُ بقوله تعالى: (وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) وفي الأمر بعده بالعمل الصالح حثٌّ على الشكر.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٌ ۝٥١﴾ فأجازيكم عليه. وفي «البحر»: أنَّ هذا تحذيرٌ للرسل عليهم السلام في الظاهر والمرادُ أتباعُهم[(٣)].

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: الملَّةَ والشريعةَ، وأُشيرَ إليها بـ «هذه» للإشارة إلى كمال ظهور أمرها في الصِّحَّة والسَّدَادِ، وانتظامِها بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهَدة.

﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملَّتكم وشريعتُكم. والخطابُ للرسل عليهم السلام على نحو ما مرَّ. وقيل: عامٌّ لهم ولغيرهم، وروي ذلك عن مجاهد.

والجملةُ على ما قال الخفاجيُّ عطفٌ على جملة «إنِّي بما تعملون عليم»[(٤)] فالواو من المَحْكيِّ.

وقيل: هي من الحكاية وقد عَطَفتْ قولاً على قول، والتقديرُ: قلنا: يا أيها الرسل كلوا.. إلخ وقلنا لهم: إن هذه أمتكم. ولا يخفى بعدُه.

وقيل: الواو ليست للعطف والجملةُ بعدها مستأنفةٌ غيرُ معطوفةٍ على ما قبلها. وهو كما ترى.

وقوله سبحانه: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حالٌ مُبيِّنةٌ من الخبر، والعاملُ فيها معنى الإشارة،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٩٥) بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ٢٦٠: إسناده فيه نظر. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٩١: أخرجه الطبراني في الصغير، وفيه من لم أعرفهم.
(٢) سلف ٧/ ٢٠٦.
(٣) البحر ٦/ ٤٠٨.
(٤) حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٦.

أي: أُشيرُ إليها في حال كونها شريعةً متَّحدةً في الأصول التي لا تتبدَّلُ بتبدُّلِ الأعصار.

وقيل: «هذه» إشارةٌ إلى الأمم الماضية[1] للرسل، والمعنى: إنَّ هذه جماعتُكم جماعةً واحدةً متَّفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ أي: مِن غير أن يكون لي شريكٌ في الربوبية، وهذه الجملةُ عطفٌ على جملةِ «إنَّ هذه» إلخ، المعطوفةِ على ما تقدَّم، وهما داخلان في حيِّزِ التعليلِ للعمل الصالح؛ لأنَّ الظاهر أنَّ قوله سبحانه: (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) تعليلٌ لذلك. ولعل المراد بالعمل الصالح ما يشمل العقائد الحقَّةَ والأعمالَ الصحيحة، واقتضاءُ المجازاة والربوبية لذلك ظاهرٌ، وأمَّا اقتضاءُ اتِّحاد الشريعة في الأصول التي لا تتبدَّلُ لذلك فباعتبارِ أنه دليلُ حقِّيةِ العقائد، وحقِّيتُها تقتضي الإتيانَ بها، والإتيانُ بها يقتضي الإتيانَ بغيرها من الأعمال الصالحة، بل قيل: لا يصحُّ الاعتقادُ مع تَرْكِ العمل. وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُونِ ۝٥٢﴾ كالتصريح بالنتيجة، فيكون الكلامُ نظيرَ قولك: العالَمُ حادِثٌ لأنه متغيِّرٌ، وكلُّ متغيِّرٍ حادثٌ، فالعالَم حادثٌ.

وفي «إرشاد العقل السليم»[2]: أنَّ ضمير المخاطَب[3] في قوله تعالى: (رَبُّكُمْ) وفي قوله سبحانه: (فَاتَّقُونِ) للرسل والأمم جميعاً، على أنَّ الأمر في حقِّ الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حقِّ الأمة للتحذير والإيجاب، والفاءُ لترتيب الأمر أو وجوبِ الامتثال به على ما قبله من اختصاص الربوبية به سبحانه واتحادِ الأمة، فإنَّ كلًّا منهما موجبٌ للاتقاء حتماً، والمعنى: فاتَّقونِ في شقِّ العصا والمخالفةِ بالإخلال بموجب ما ذُكر [من اختصاص الربوبية بي].

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «وأنَّ» بفتح الهمزة وتشديدِ النون[4]، وخُرِّجَ على تقدير حرف الجرِّ، أي: ولِأنَّ هذه.. إلخ، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «اتقون».

---

(١) في تفسير أبي السعود ٦/١٣٨ (والكلام منه): المؤمنة، بدل: الماضية.

(٢) هو تفسير أبي السعود ٦/١٣٨، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) في (م): الخطاب.

(٤) التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/٣٢٨، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.

قال الخفاجيُّ[(١)]: والكلامُ في الفاء الداخلة عليه كالكلام في فاء قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وهي للسببية وللعطف[(٢)] على ما قبله وهو «اعملوا»، والمعنى: اتَّقوني لأنَّ العقول متفقةٌ على ربوبيَّتي والعقائد الحقَّة الموجبة للتقوى. انتهى، ولا يخلو عن شيءٍ.

وجوِّز أن يكون «أنَّ هذه» إلخ على هذه القراءة معطوفاً على «ما تعملون»، والمعنى: إنِّي عليمٌ بما تعملون وبأنَّ هذه أمتُكم أمةً واحدة.. إلخ، فهو داخلٌ في حيِّز المعلوم. وضعِّف بأنه لا جزالةَ في المعنى عليه.

وقيل: هو معمولٌ لفعلٍ محذوفٍ، أي: واعلموا أنَّ هذه أمتُكم.. إلخ، وهذا المحذوف معطوفٌ على «اعملوا». ولا يخفى أنَّ هذا التقديرَ خلافُ الظاهر.

وقرأ ابن عامر: «وأنْ» بفتح الهمزة وتخفيفِ النون[(٣)] على أنها المخفَّفةُ من الثقيلة، ويُعلم توجيهُ الفتح مما ذكرنا.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ الضمير لِمَا دلَّ عليه الأمَّةُ من أربابها إن كانت بمعنى الملَّة، أو لها إن كانت بمعنى الجماعة، وجوِّز أن يراد بالأمَّة أوَّلاً الملَّةُ، وعند عَوْدِ الضمير عليها الجماعةُ، على أنَّ ذلك من باب الاستخدام، والمراد حكايةُ ما ظهر من أمم الرسل عليهم السلام من مخالفة الأمر. والفاءُ لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم.

وتقطَّع بمعنى قطَّع كتقدَّم بمعنى قدَّم؛ والمراد بأمرهم: أمرُ دينهم، إمَّا على تقدير مضافٍ، أو على جَعْلِ الإضافة عهديةً، أي: قطَّعوا أمرَ دِينهم وجعلوه أدياناً مختلفةً مع اتِّحادِه.

وجوِّز أن يراد بالتقطُّع التفرُّق، و«أمرَهم» منصوبٌ بنزع الخافض، أي: فتفرقوا وتحزبوا في أمرهم، ويجوز أن يكون «أمرَهم» على هذا نصباً على التمييز عند الكوفيين المجوِّزين تعريفَ التميز.

---

(١) في الحاشية ٦/ ٣٣٦.

(٢) في الحاشية: أو للعطف.

(٣) التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨.

﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: قِطَعاً، جمع زبورٍ بمعنى فِرْقة، ويؤيِّده أنه قرئ: «زُبَراً» بضمِّ الزاي وفتح الباء[1]، فإنه مشهورٌ ثابتٌ في جمع زُبْرةٍ بمعنى قطعة. وهو حالٌ من «أمرهم»، أو من واوِ «تقطَّعوا»، أو مفعولٌ ثَانٍ له، فإنه مضمَّنٌ معنى جَعَلوا.

وقيل: هو جمع زبور بمعنى كتاب، من زَبَرْتُ بمعنى: كتبتُ، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «تقطَّعوا» المضمَّنِ معنى الجَعْلِ، أي: قطَّعوا أمرَ دينهم جاعلينَ له كتباً.

وجوِّز أن يكون حالاً من «أمرهم» على اعتبار «تقطَّعوا» لازماً، أي: تفرَّقوا في أمرهم حالَ كونه مثلَ الكتبِ السماوية عندهم. وقيل: إنها حالٌ مقدَّرةٌ. أو منصوبٌ بنزع الخافض، أي: في كتبٍ. وتفسيرُ «زبراً» بكُتُب، رواه جماعةٌ عن قتادة كما في «الدر المنثور»[2]، ولا يَخْفَى خفاءُ المعنى عليه، ولا يكاد يستقيم إلَّا بتأويلٍ، فتدبَّر.

وقرىء: «زُبْراً» بإسكان الباء للتخفيف[3]، كرُسْلٍ في رُسُل.

وجاء «فتقطَّعوا» هنا بالفاء إيذاناً بأنَّ ذلك اعْتَقَبَ الأمرَ، وفيه مبالغةٌ في الذمِّ كما أشرنا إليه. وجاء في سورة الأنبياء بالواو فاحْتَمَلَ معنى الفاءِ واحْتَمَلَ تأخُّر تقطُّعهم عن الأمر.

وجاء هنا «وأنا ربُّكم فاتقون» وهو أبلغُ في التخويف والتحذير مما جاء هناك من قوله تعالى هناك: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] لأنَّ هذه جاءت عقيبَ إهلاك طوائفَ كثيرين، قومِ نوحٍ والأممِ الذين من بعدهم، وفي تلك السورة وإنْ تقدَّمت أيضاً قصةُ نوحٍ وما قبلها فإنه جاء بعدها ما يدلُّ على الإحسان واللُّطْفِ التَّامِّ في قصة أيوب وزكريا ومريم، فناسَبَ الأمر بالعبادة لمن هذه صفته عز وجل، قاله أبو حيان[4].

---

(١) نسبها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٣٠٣، لابن عامر، لكن بخلاف بين أصحاب هشام راوي ابن عامر. وهي في القراءات الشاذة ص ٩٩ عن أبي عمرو.
(٢) ٥/ ١٠.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٩، والكشاف ٣/ ٣٤.
(٤) في البحر ٦/ ٤٠٩.

وما ذَكره أوّلاً غيرُ وافٍ بالمقصود، وما ذكره ثانياً قيل عليه: إنَّه مبنيٌّ على أنَّ الآية تذييلٌ للقصص السابقة، أو لقصةِ عيسى عليه السلام، لا ابتداءُ كلامٍ، فإنه حينئذٍ لا يفيدُ ذلك إلَّا أنْ يُرادَ أنه وقع في الحكاية لهذه المناسبة، فتأمَّل.

﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ من أولئك المتحزِّبينَ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الأمر الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ مسرورون مُنْشَرِحو الصدرِ، والمرادُ أنهم مُعْجَبون به، معتقدون أنه الحقُّ، وفي هذا من ذمِّ أولئك المتحزِّبين ما فيه.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ خطابٌ له ﷺ في شأن قريشٍ الذين تقطَّعوا في أمر الدِّين الحق. والغمرةُ: الماء الذي يَغْمُرُ القامةَ، وأصلُها من الستر، والمراد بها الجهالةُ بجامع الغَلبةِ والاستهلاك، وكأنه لمَّا ذكر سبحانه في ضِمْنِ ما كان من أمم الأنبياء عليهم السلام توزُّعَهم، واقتسامَهم ما كان يجب اجتماعُه واتفاقُ الكلمة عليه من الدِّين، وفرحَهم بفِعْلِهم الباطلِ ومُعْتَقَدِهم العاطل، قال لنبيِّه ﷺ: فإذ ذاك دَعْهم في جَهْلِهم هذا الذي لا جَهْلَ فوقه، تخليةً وخذلاناً ودلالةً على اليأس من أن يَنْجَعَ القولُ فيهم. وضمَّن التسليةَ في ذكر الغاية، أعني قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ فإنَّ المراد بذلك: حين قَتْلِهم، وهو يومُ بدرٍ على ما روي عن مقاتل، أو موتِهم على الكفر الموجِبِ للعذاب، أو عذابِهم. وفي التنكير والإبهام ما لا يخفى من التهويل.

وجوَّز أن يقال: شَبَّه حالَ هؤلاء، مع ما هم عليه من محاولة الباطل والانغماسِ فيه، بحالِ مَن يَدخُلُ في الماء الغامر للَّعبِ، والجامعُ تضييعُ الوقت بعد الكَدْحِ في العمل، والكلامُ حينئذٍ على منوال سابقِه، أعني قولَه تعالى: (كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) لمَّا جُعِلوا فَرِحين غروراً جُعِلوا لاعبين أيضاً، والأولُ أَظْهرُ، وقد يُجعَلُ الكلامُ عليه أيضاً استعارةً تمثيليةً، بل هو أَوْلى عند البُلَغاء كما لا يخفى[1].

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وأبو حيوة والسُّلميُّ: «في غمراتهم» على الجمع؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ غمرةً[2].

---

(١) ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٧.

(٢) البحر ٦/ ٤٠٩، وهي في القراءات الشاذة ص ٩٨ دون نسبة.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أي: الذي نُعطيهم إياه ونجعلُه مدداً لهم، فـ «ما» موصولةٌ اسم «أنَّ»، ولا يَضُرُّ كونُها موصولةً؛ لأنَّها في الإمام كذلك[1] لسرٍّ لا نعرفُه.

وقولُه تعالى: ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥﴾ بيانٌ لها، وتقديمُ المالِ على البنينَ مع كونهم أعزَّ منه قد مرَّ وجهُه[2].

وقولُه سبحانه: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ خبرُ «أنَّ»، والراجعُ إلى الاسم محذوفٌ، أي: أيحسبون أنَّ الذي نُمِدُّهم به من المال والبنين نسارعُ به لهم فيما فيه خيرُهم وإكرامُهم، على أنَّ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحِه، وحُذف هذا العائدُ لطول الكلام مع تقدُّمِ نظيره في الصلة، إلَّا أنَّ حذفَ مثله قليلٌ.

وقال هشام بن معاوية[3]: الرابطُ هو الاسمُ الظاهرُ، وهو «الخيرات»، وكأنَّ المعنى: نسارعُ لهم فيه، ثم أُظْهِرَ فقيل: في الخيرات، وهذا يتمشَّى على مذهب الأخفش في إجازته نحوَ: زيدٌ قام أبو عبد الله، إذا كان أبو عبد الله كنيةً لزيد.

قيل: ولا يجوزُ أن يكون الخبر «من مال وبنين»؛ لأنَّ الله تعالى أمدَّهم بذلك، فلا يُعاب ولا يُنْكَر عليهم اعتقادُ المددِ به كما يفيدُه الاستفهامُ الإنكاريُّ.

وتعقِّب بأنه لا يَبْعدُ أن يكون المراد: ما نجعلُه مدداً نافعاً لهم في الآخرة ليس المالَ والبنين بل الاعتقاد والعمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. وفيه ما فيه.

وما ذكرنا من كونِ «ما» موصولةً هو الظاهرُ، ومَن جوَّز كونَها مصدريةً وجَعَلَ المصدر الحاصلَ بعد السَّبْكِ اسمَ «أنَّ»، وخبَرها «نسارع» على تقدير: مسارَعةٌ، بناءً على أنَّ الأصل: أنْ نسارعَ، فحذفت «أنْ» وارْتَفعَ الفعلُ = لم يُوفِّ القرآنَ الكريم حقَّه.

---

(١) ينظر المقنع للداني ص ٧٣-٧٤.

(٢) ١٥/ ٢٨٦.

(٣) هو هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفي صاحب الكسائي، وكلامه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٧، والبحر ٦/ ٤٠٩، والكلام منه.

وكذا مَن جَعَلَها كافّةً كالكسائيِّ، ونَقَلَ ذلك عنه أبو حيان، وجوَّز عليه الوقفَ على«بنين» معلِّلاً بأنَّ ما بعدَ «يحسب» قد انتظم مسنداً ومسنداً إليه من حيث المعنى، وإن كان في تأويل مفردٍ[1]، وهو كما ترى.

وقرأ ابن وثاب: «إنَّما نُمِدُّهم» بكسر همزة «إنَّ». وقرأ ابن كثير في روايةٍ: «يُمدُّهم» بالياء[2].

وقرأ السُّلميُّ وعبدُ الرحمن بن أبي بَكْرَةَ: «يُسارِعُ» بالياء وكَسْرِ الراء[3]، فإن كان فاعلُه ضميرَه تعالى فالكلامُ في الرابط على ما سمعت، وإن كان ضميرَ الموصول فهو الرابطُ.

وعن ابن أبي بكرة المذكورِ أنه قرأ: «يُسارَعُ» بالياء وفتح الراء مبنيًّا للمفعول[4].

وقرأ الحُرُّ النحويُّ: «نُسْرِعُ» بالنون مضارعُ أسرعَ[5].

وقرئ على ما في «الكشاف»: «يُسْرِعُ» بالياء مضارعُ أَسْرَعَ أيضاً[6]، وفي فاعله الاحتمالان المشارُ إليهما آنفاً.

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام، أي: كلّا، لا نفعلُ ذلك بل لا يشعرون، أي: ليس من شأنهم الشعورُ، إنْ هم إلَّا كالأنعام بل هم أضلُّ، حتى يتأمَّلوا ويتفكَّروا في ذلك، أهو[7] استدراجٌ أم مسارعةٌ ومبادرةٌ في

(١) البحر ٦/ ٤٠٩.
(٢) القراءتان في البحر ٦/ ٤٠٩، والثانية في القراءات الشاذة ص ٩٨.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٤، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٧، والبحر ٦/ ٤١٠. وعبد الرحمن بن أبي بكرة البصري تابعي، وكان أول مولود في الإسلام بالبصرة، توفي سنة(٩٦هـ). من رجال التهذيب.
(٤) المحتسب ٢/ ٩٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٧، والبحر ٦/ ٤١٠.
(٥) المحتسب ٢/ ٩٤، والبحر ٦/ ٤١٠. والحُرُّ النحوي هو ابن عبد الرحمن، سمع أبا الأسود الدؤلي، وعنه طلب إعراب القرآن. بغية الوعاة ١/ ٤٩٣.
(٦) الكشاف ٣/ ٣٥، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٩٨.
(٧) في (م): هو.

الخيرات؟ ومن هنا قيل: مَن يَعْصِ الله تعالى ولَمْ يَرَ نقصاناً فيما أعطاه سبحانه من الدنيا، فليَعْلَم أنه مستدرَجٌ قد مُكِرَ به. وقال قتادةُ: لا تعتبروا الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبروهم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الكلامُ فيه نظيرُ ما مرَّ في نظيره في سورة «الأنبياء»[1]، بَيْدَ أنَّ في استمرار الإشفاق هنا في الدنيا والآخرة للمؤمنين تردُّداً.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المُنزلَةِ، والمنصوبةِ في الآفاق والأنفس، والباءُ للمُلابسة وهي متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: يصدِّقون، والمرادُ التصديقُ بمدلولها؛ إذ لا مدحَ في التصديق بوجودها، والتعبيرُ بالمضارع دون الاسم للإشارة إلى أنه كلَّما وَقَفوا على آيةٍ آمنوا بها وصدَّقوا بمدلولها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فيُخْلِصون العبادةَ له عز وجل، فالمرادُ نفيُ الشرك الخفيِّ كالرياء بالعبادة، كذا قيل.

وقد اختار بعضُ المحقِّقين التعميم، أي: لا يشركون به تعالى شركاً جليًّا ولا خفيًّا ولعله الأَوْلَى، ولا يُغْني عن ذلك وصفُهم بالإيمان بآيات الله تعالى.

وجوَّز أن يراد مما سبق وصفُهم بتوحيد الربوبية، ومما هنا وصفُهم بتوحيد الألوهية، ولم يقتصر على الأول لأنَّ أكثر الكفار متَّصفون بتوحيد الربوبية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] ولا يأباه التعرُّضُ لعنوان الربوبية؛ فإنه في المواضع الثلاثة للإشعار بالعلِّية، وذلك العنوانُ يَصْلُحُ لِأَنْ يكونَ علَّةً لتوحيدِ الألوهية كما لا يخفى.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ أي: يُعْطُون ما أَعْطَوا من الصدقات ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفةٌ من أنْ لا يُقبلَ منهم، وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخَذوا به.

وقرأت عائشةُ وابنُ عباسٍ وقتادةُ والأعمشُ والحسنُ والنخعيُّ: «يأتون ما أتوا»[2] من الإتيان لا الإيتاءِ فيهما. وأخرج ابن مردويه وسعيد بن منصور عن

---

(١) ١٧/ ٥٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٥، والبحر ٦/ ٤١٠.

عائشة أنه ﷺ قرأ كذلك(١). وأطْلقَ عليها المفسرون: قراءة رسول الله عليه الصلاة والسلام، يَعْنُونَ أنَّ المحدِّثين نقلوها عنه ﷺ ولم يَرْوِها القرَّاءُ من طُرُقهم. والمعنى عليها: يفعلون من العبادات ما فعلوه وقلوبُهم وَجِلةٌ.

وروي نحوُ هذا عن رسول الله ﷺ؛ فقد أخرج أحمد والترمذيُّ وابن ماجه، والحاكم وصحَّحه، وابنُ المنذر وابن جَرير وجماعةٌ عن عائشةَ ﵂ قالت: قلتُ: يا رسول الله، قولُ الله: «والذين يأتون ما أتوا وقلوبُهم وجلةٌ» أهو الرجل يسرقُ ويزني ويشربُ الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى؟ قال: «لا، ولكنه الرجلُ يصومُ ويتصدَّقُ ويصلِّي، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى أنْ لا يتقبَّلَ منه»(٢).

وجملةُ: «قلوبُهم وَجِلةٌ» في القراءتين في موضع الحال من ضمير الجمع في الصلة الأولى، والتعبيرُ بالمضارع فيها للدلالة على الاستمرار، وفي الثانية للدلالة على التحقُّق.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ بتقدير اللام التعليلية، وهي متعلِّقةٌ بـ «وجلة» أي: خائفةٌ من عدم القبول، وعدمِ الوقوعِ على الوجه اللائق؛ لأنَّهم راجعون إليه تعالى ومبعوثون يوم القيامة، وحينئذٍ تنكشف الحقائق، ويحتاج العبد إلى عملٍ مقبولٍ لائقٍ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وجوِّز أن يكون بتقديرِ «من» الابتدائية التي يتعدَّى بها الوجل، أي: وجلةٌ من أنَّ رجوعهم إليه عز وجل، على أنَّ مَنَاطَ الوجل أنْ لا يُقبل ذلك منهم، وأن لا يقع على الوجه اللائق، فيؤاخَذوا به حينئذٍ، لا مجرَّدُ رجوعهم إليه عز وجل.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٢، وأخرجه مطولاً أحمد (٢٤٦٤١)، والدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (٨٥)، وإسناده ضعيف.

(٢) مسند أحمد (٢٥٧٠٥)، وسنن الترمذي (٣١٧٥)، وسنن ابن ماجه (٤١٩٨)، وتفسير الطبري ١٧/ ٧٠-٧١، والمستدرك ٢/ ٣٩٣-٣٩٤، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١١. وقد ورد هذا الحديث في المصادر المذكورة على القراءة المشهورة، أي: «والذين يؤتون ما آتوا». ولكن الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٥، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤١٠ قد ذكراه مثل المصنف في شرح قراءة: «والذي يأتون ما أتوا». وينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٨-٤٦٩، وغرائب القرآن للنيسابوري ١٨/ ٢٨.

وقد يؤيِّد الوجهُ الأول بقراءة الأعمش: «إنهم» بكسر الهمزة[١].

ولعل التعبير بالجملة الاسمية المخبَرِ فيها بالوصف دون الفعل المضارع للمبالغة في تحقُّق الرجوع، حتى كأنه من الأمور الثابتة المستمرَّة، كذا قيل.

وجوِّز على بُعْدٍ أن يكون المراد من الرجوع المذكور الرجوعَ إليه عز وجل بالعبودية، فوَجْهُ التعبير بالجملة الاسمية عليه أظهرُ من أن يخفى، ووجهُ تعليل الخوف من عدمِ القبول وعدمِ وقوع فِعْلِهم ـ كائناً ما كان ـ على الوجه اللائق بأنهم راجعون إليه تعالى بالعبودية، عدمُ وجوبِ قبولِ عملهم عليه تعالى حينئذٍ؛ لأنه سبحانه مالكٌ، وللمالك أن يفعل بملكه ما يشاء، وظهورُ نَقْصِهم ـ كيف كانوا ـ عن كماله جل جلاله، والناقصُ مظنةٌ أن لا يأتي بما يليق بالكامل، لا سيما إذا كان ذلك الكاملُ هو الله عز وجل، الذي لا يتناهي كمالُه. ولا أراك تَرَى في هذا الوجه كلفاً سوى كلفِ البُعْدِ فتأمَّل.

ثم إنَّ الموصولات الأربع ـ على ما قاله شيخ الإسلام وغيرُه ـ عبارةٌ عن طائفةٍ واحدةٍ متَّصفةٍ بما ذكر في حيِّز صِلَاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائفَ كلٌّ واحدةٍ منها متَّصفةٌ بواحدٍ من الأوصاف المذكورة، كأنه قيل: إنَّ الذين هم من خشية ربِّهم مشفقون، وبآيات ربِّهم يؤمنون.. إلخ. وإنما كرِّر الموصول إيذاناً باستقلال كلٍّ واحدةٍ من تلك الصفات بفضيلةٍ باهرةٍ على حيالها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلةَ استقلال الموصوف بها[٢]، وهذا جارٍ على كلتا القراءتين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾.

وللعلَّامة الطيبيّ في هذا المقامِ كلامٌ لا أظنك تستطيبهُ، كيف وفيه القولُ بأنَّ الذين هم بربِّهم لا يشركون، والذين يأتون ما أتوا وقلوبُهم وجلةٌ، هم العاصون من أمة محمدٍ ﷺ، وهو غاية البُعْدِ.

وقد ذكر الإمامُ أنَّ الصفة الرابعة نهايةُ مقاماتِ الصدِّيقين[٣].

---

(١) البحر ٦/ ٤١١.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٤٠.

(٣) تفسير الرازي ٢٣/ ١٠٧.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَن ذُكر باعتبار اتِّصافهم بتلك الصفات، وما فيه من معنى البُعْدِ للإشعار ببُعْدِ رُتْبتهم في الفضل، وهو مبتدأٌ خبرهُ قولُه تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والجملةُ من المبتدأ وخبرِه خبرُ «إنَّ»، والكلامُ استئنافٌ مسوقٌ لبيان مَن له المسارعةُ في الخيرات إثرَ إقناطِ الكفار عنها، وإبطالِ حسبانهم الكاذب، أي: أولئك المنعوتون بما فصِّل من النعوت الجليلة خاصةً دون أولئك الكفرة يسارعون في نيل الخيرات، التي من جملتها الخيراتُ العاجلةُ الموعودةُ على الأعمال الصالحة، كما في قوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] وقوله سبحانه: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فقد أَثْبتَ لهم ما نَفَى عن أضدادهم، خلا أنه غيَّر الأسلوب حيث لم يقل: أولئك يُسارَعُ لهم في الخيرات، بل أَسْندَ المسارعةَ إليهم إيماءً إلى استحقاقهم لنيلِ الخيرات بمحاسن أعمالهم، وإيثارُ كلمة «في» على كلمة «إلى»؛ للإيذانِ بأنهم متقلِّبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجِّهون إليها بطريق المسارعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٣].

﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للخيرات التي مِن جملتها ما سمعت، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ وهو إمَّا منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أي: فاعلون السبقَ، أو مفعولُه محذوف، أي: سابقون الناسَ أو الكفارَ، وهو يتعدَّى باللام وبـ «إلى»، فيقال: سبقتُ إلى كذا ولكذا. والمرادُ بسَبْقِهم إلى الخيرات: ظفرُهم بها ونيلُهم إياها، وجعل أبو حيان هذه الجملةَ تأكيداً للجملة الأولى[1].

وقيل: «سابقون» متعدٍّ للضمير بنفسه واللامُ مَزيدةٌ، وحسَّن زيادتَها كونُ العامل فرعيًّا وتقدُّمُ المعمولِ المضمَرِ، أي: وهم سابقون إياها، والمراد بسَبْقِهم إياها لازمُ معناه أيضاً، وهو النَّيل، أي: وهم ينالونها قبل الآخرة حيث عجِّلت لهم في الدنيا، فلا يَردُ ما قيل: إنَّ سَبْقَ الشيءِ الشيءَ يدلُّ على تقدُّم السابق على المسبوق، فكيف يقال: هم يسبقون الخيرات؟ والاحتياجُ إلى إرادة اللازم على هذا الوجه أشدُّ منه على الوجه السابق، ولهذا مع التزام الزيادة فيه قيل: إنه وجهٌ متكلَّف.

---

(١) البحر ٦/ ٤١١.

وجوِّز أن يكون المراد بالخيرات الطاعاتِ، وضميرُ «لها» لها أيضاً، واللامُ للتعليل، وهو متعلِّقٌ بما بعده، والمعنى: يرغَبون في الطاعات والعبادات أشدَّ الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السَّبْقَ، أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب أو إلى الجنة.

وجوِّز على تقديرِ أنْ يُراد بالخيرات الطاعات أن يكون «لها» خبرَ المبتدأ، و«سابقون» خبراً بعد خبر، ومعنى «هم لها»: أنهم مُعَدُّون لفعل مثلها من الأمور العظيمة، وهذا كقولك لمن يُطْلَبُ منه حاجةٌ لا تُرْجَى من غيره: أنت لها، وهو من بليغ كلامهم، وعلى ذلك قوله:

مشكلاتٌ أَعْضَلتْ ودَهَتْ يا رسول الله أنت لها[1]

ورجَّح هذا الوجهَ الطبريُّ بأنَّ اللام متمكِّنةٌ في هذا المعنى[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما هو ظاهرٌ في جَعْلِ «لها» خبراً، وإنْ لم يكن ظاهراً في جَعْلِ الضمير للخيرات بمعنى الطاعات، ففي «البحر» نقلاً عنه أنَّ المعنى: سَبَقتْ لهم السعادةُ في الأزل فهم لها[3].

وأنت تعلمُ أنَّ أكثر هذه الأوجُهِ خلافُ الظاهر، وأنَّ التفسير الأول للخيرات أحسنُ طباقاً للآية المتقدِّمة.

ومن الناس مَن زعم أنَّ ضمير «لها» للجنة، ومنهم مَن زعم أنه للأمم، وهما[4] كما ترى.

---

(١) ذكره الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٣٨، ولم نقف عليه عند غيره. وقد استدل الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٥ لهذا القول بقول الشاعر: أنت لها أحمد من بين البشر، وأورده في أساس البلاغة (غبر) برواية:

أنت لها منذرُ من بين البَشَرْ داهيةُ الدهر صمَّاءُ الغَبَر

وهو بهذه الرواية في الصحاح (غبر)، وجمهرة الأمثال ١/ ٤٥٠، ومجمع الأمثال ١/ ٤٤ منسوب للحرمازي يمدح المنذر بن الجارود.

(٢) البحر ٦/ ٤١١، وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٧٢-٧٣.

(٣) البحر ٦/ ٤١١.

(٤) في (م): وهو.

وقرأ الحرُّ النحويُّ: «يُسْرعون» مضارعُ أسرع[١]، يقال: أسرعتُ إلى الشيءِ وسَرِعْتُ إليه بمعنىً واحد. و«يسارعون» كما قال الزجّاج أبلغُ من «يُسْرِعون»[٢]. ووجِّه بأنَّ المفاعَلَة تكون من اثنين فتقتضي حثَّ النفس على السَّبْقِ لأن مَن عارضك في شيءٍ تشتهي أنْ تَغْلِبه فيه.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقتْ للتحريض على ما وُصف به أولئك المشارُ إليهم من فعل الطاعات، ببيان سهولته وكونِه غير خارجٍ عن حدِّ الوُسْعِ والطاقة[٣]، أي: عادتُنا جاريةٌ على أنْ لا نكلِّفَ نفساً من النفوس إلَّا ما في وُسْعِها وقَدْرِ طاقتها، على أنَّ المراد استمرارُ النفي بمعونة المقام لا نفيُ الاستمرار. أو للترخيص فيما هو قاصِرٌ عن درجة أعمال أولئك ببيان أنه تعالى لا يكلِّف عباده إلَّا ما في وسعهم، فإنْ لم يبلغوا في فِعْلِ الطاعات مراتبَ السابقينَ، فلا عليهم بعدُ أن يبذلوا طاقتهم ويَسْتَفْرِغوا وُسْعَهم.

قال مقاتل: مَن لم يستطع القيام فليصلِّ قاعداً، ومَن لم يستطع القعودَ فلْيُوْمِ إيماءً.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ تتمةٌ لِمَا قبله ببيانِ أحوال ما كلَّفوه من الأعمال، وأحكامِها المترتِّبة عليها من الحساب والثواب والعقاب، والمراد بالكتاب صحائفُ الأعمال التي يقرؤونها عند الحساب، حَسْبَما يُؤْذِنُ به الوصفُ، فهو كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

و«الحقُّ»: المطابقُ للواقع، والنطقُ به مجازٌ عن إظهاره، أي: عندنا كتابٌ يُظْهِرُ الحقَّ المطابقَ للواقع على ما هو عليه ذاتاً ووَصْفاً، ويُبيِّنُهُ للناظر كما يُبيِّنُه النطقُ ويُظْهِرُه للسامع، فيظهر هناك جلائلُ الأعمال ودقائقها، ويترتَّبُ عليها أَجْزِيتها إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤١١، والكلام منه.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧، والكلام من البحر ٦/ ٤١١.
(٣) في (م): والطاعة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ١٤١، والكلام منه.

وقيل: المراد بالكتاب صحائفُ يقرؤونها، فيها ما ثبت لهم في اللوح المحفوظ من الجزاء، وهو دون القول الأول. وأَدْوَنُ منه ما قيل: إنَّ المراد به القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لبيان فَضْلِه عز وجل وعَدْلِه في الجزاء على أتمِّ وجهٍ، إثْرَ بيانِ لُطفِه سبحانه في التكليف وكَتْبِ الأعمال على ما هي عليه، أي: لا يظلمون في الجزاء بنقصِ ثوابٍ أو زيادةِ عذابٍ، بل يُجزون بقَدْرِ أعمالهم التي كلِّفوها ونَطَقَتْ بها صحائفها بالحقِّ.

وجوِّز أن يكون تقريراً لِمَا قبلُ من التكليف وكَتْبِ الأعمال، أي: لا يظلمون بتكليفِ ما ليس في وُسْعِهم، ولا بكَتْبِ بعضِ أعمالهم التي من جملتها أعمالُ غيرِ السابقين بناءً على قصورها عن درجة أعمال السابقين، بل يكتب كلٌّ منها على مقاديرها وطبقاتها.

وقوله عز وجل: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إضرابٌ عمَّا قَبْلَه، ورجوعٌ إلى بيان حالِ الكَفرةِ، فالضميرُ للكفرة، أي: بل قلوبُ الكَفرةِ في غَفْلةٍ وجَهالةٍ من هذا الذي بيِّن في القرآن، من أنَّ لديه تعالى كتاباً يَنطِقُ بالحقِّ، ويُظْهِرُ لهم أعمالَهم السيئةَ على رؤوس الأشهاد، فيُجْزَوْنَ بها كما يُنْبِئُ عنه ما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: (قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) إلخ.

وقيل: الإشارةُ إلى القرآن الكريم وما بيِّن فيه مطلقاً، وروي ذلك عن مجاهد.

وقيل: إلى ما عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة، وروي هذا عن قتادة. وقيل: إلى الدِّين بجملته. وقيل: إلى النبيِّ ﷺ. والأولُ أظهر.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ سيئةٌ كبيرةٌ ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر، من كَوْنِ قلوبِهم في غمرةٍ مما ذكر، وهي فنونُ كُفْرِهم ومعاصيهم التي من جملتها طعنُهم في القرآن الكريم، المشارُ إليه في قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وأخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن ابن عباس: أنَّ المراد بالغمرة الكفرُ والشكُّ، وأن «ذلك» إشارةٌ إلى هذا المذكور، والمعنى: لهم أعمالٌ [سيئة] دون الكفر(١).

---

(١) الدر المنثور ٥/١٢، وما بين حاصرتين منه.

وأخرج ابنُ جرير وغيرُه[١] عن قتادة: أنَّ «ذلك»كـ «هذا» إشارةٌ إلى ما وُصف به المؤمنون من الأعمال الصالحة، أي: لهم أعمالٌ متخطِّيةٌ لِمَا وُصِفَ به المؤمنون، أي: أضداد ما وُصفوا به مما وقع في حيِّز الصِّلات، وهذا غايةُ الذمِّ لهم.

﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: مستمرُّون عليها، معتادون فِعْلَها، ضارُّون بها، لا يُفْطَمون عنها. و«عاملون» عاملٌ في الضمير قبله واللامُ للتقوية.

هذا وقال أبو مسلم[٢]: إنَّ الضمير في قوله تعالى: «بل قلوبهم»[٣] إلخ عائد على المؤمنين الموصوفين بما تقدَّم من الصفات، كأنه سبحانه قال بعد وَصْفِهم: ولا نكلِّف نفساً إلا وُسْعَها، ونهايتُه ما أتى به هؤلاء المشفقون، ولدينا كتابٌ يحفظُ أعمالَهم ينطقُ بالحقِّ فلا يُظْلَمون، بل يوفَّى عليهم ثوابُ أعمالهم، ثم وَصَفَهم سبحانه بالحيرة في قوله تعالى: (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ)، فكأنه عز وجل قال: وهم مع ذلك الوَجَلِ والخوفِ كالمتحيِّرينَ في أعمالهم، أهي مقبولةٌ أم مردودة؟ (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ) أي: لهم أيضاً من النوافل ووجوهِ البرِّ سوى ما هم عليه. انتهى.

قال الإمام[٤]: وهو الأَوْلى؛ لأنه إذا أَمْكَنَ ردُّ الكلام إلى ما يتَّصِلُ به مِن ذِكْرِ المشفقين، كان أَوْلى مِن ردِّه إلى ما بَعُدَ منه، خصوصاً وقد يرغبُ المرء في فِعْلِ الخير بأنْ يذكر أنَّ أعماله محفوظةٌ، كما يحذرُ بذلك من الشرِّ، وقد يوصفُ المرء لشدَّةِ فِكْرِه في أمرِ آخرته بأنَّ قلبه في غمرةٍ، ويرادُ أنه قد استولى عليه الفِكْرُ في قبول عمله أو ردِّه، وفي أنه هل أدَّاه كما يجب أو قصَّر، و«هذا» على هذا إشارةٌ إلى إشفاقهم ووَجَلِهم. انتهى، ولا يخفَى ما فيه على مَن ليس قلبُه في غَمْرةٍ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ «حتى» على ما في «الكشاف» هي التي يُبْتَدأُ بعدَها الكلامُ، وهي مع ذلك غايةٌ لِما قبلها[٥]، كأنه قيل: لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا. . . إلخ.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٧٥-٧٦، والدر المنثور ٥/ ١٢.
(٢) كما في تفسير الرازي ٢٣/ ١٠٩.
(٣) في الأصل و(م): بل هم، والصواب ما أثبتناه.
(٤) في تفسيره ٢٣/ ١٠٩.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٦٩ و٣/ ٣٦، والبحر ٦/ ٤١٢.

وقال ابن عطية: هي ابتداءٌ لا غير، و«إذا» الأولى والثانيةُ يمنعان من أن تكون غايةً لـ «عاملون»[(١)]. وفيه نظر.

و«إذا» شرطيةٌ شَرْطُها «أخذنا»، وهي مضافةٌ إليه، وجزاؤها قولُه تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وهي معمولةٌ له، و«إذا» فيه فُجائيةٌ نائبةٌ منَابَ الفاء.

وقال الحوفيُّ[(٢)]: «حتى» غايةٌ، وهي عاطفةٌ، و«إذا» ظرفٌ يضاف إلى ما بعده فيه معنى الشرط، و«إذا» الثانيةُ في موضع جواب الأولى، ومعنى الكلام عاملٌ في «إذا» الأولى، والعاملُ في الثانية «أخذنا». انتهى.

وهو كلام مخبّط يَبْعدُ صدورُه من مثل هذا الفاضل.

والمترف: المتوسِّعُ في النعمة. والمرادُ بالعذاب: ما أصابهم يومَ بدرٍ من القتل والأسر، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة، وقد قُتل وأُسر في ذلك اليوم كثيرٌ من صناديدهم ورؤسائهم.

والجُؤارُ مثلُ الخُوَار، يقال: جَأَرَ الثورُ يَجْأَرُ، إذا صاح. وجأر الرجل إلى الله تعالى: إذا تضرَّع بالدعاء، كما في «الصحاح»[(٣)]. وفي «الأساس»: جَأَرَ الداعي إلى الله تعالى: ضجَّ ورَفَع صوتَه[(٤)].

والمراد به الصراخُ، إمَّا مطلقاً أو باستغاثة. وضميرا الجمع راجعان على ما رجع إليه[(٥)] الضمائر السابقة في «مترفيهم» و«لهم» و«قلوبهم» وغيرها، وهم كفارُ أهلِ مكةَ، لكنْ بإرادةِ مَن بقي منهم بعدَ أخذِ المترفين بالقتل.

قال ابن جريج: المعذَّبون قتلى بدرٍ، والذين يجأرون أهلُ مكةَ؛ لأنهم ناحوا واستغاثوا.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩.
(٢) كما في البحر ٦/ ٤١٢.
(٣) مادة (جأر).
(٤) أساس البلاغة (جأر).
(٥) في الأصل: عليه.

وفي «إنسان العيون»[١]: أنَّ[٢] قريشاً ناحوا على قتلاهم في بدرٍ شهراً، وجزَّ نساؤهم شعورَهُنَّ، وكنَّ يأتين بفرسِ الرجل أو راحلتِهِ ويستُرْنها بالستور، وينُحْن حولها ويخرجن بها إلى الأزقَّة، إلى أن أُشير عليهم بترك ذلك خوفَ الشماتة.

وقال الربيع بن أنس: المرادُ بالجُؤار الجزعُ؛ إذ هو سببُ الصراخ. وفيه بعدٌ لخفاءِ قرينةِ المجاز.

وعن الضحاك: أنَّ المراد بالعذاب عذابُ الجوع. وذلك أنه ﷺ دعا عليهم فقال: «اللهمَّ اشدُدْ وَطْأتَكَ على مُضر، اللهمَّ اجْعَلْها عليهم سنينَ مثلَ سنيِّ يوسفَ» فاستُجيبَ له عليه الصلاة والسلام، فأصابتهم سنةٌ أكلوا فيها الجِيَفَ والجلودَ والعظامَ المحرقة والعِلْهِز[٣].

وفي الأخبار ما يدلُّ على أن ذلك كان قبل الهجرة، وفيها أيضاً ما يدلُّ على أنه كان بعدها[٤]، ووفَّق البيهقيُّ[٥] بأنه لعله كان مرَّتين. وسيأتي ذلك قريباً[٦] إن شاء الله تعالى.

وتخصيصُ المترفين بالذِّكر لأنه إذا جاع المترفُ جاع غيرُه من بابِ أَوْلَى.

وقيل: المراد بالعذاب عذابُ الآخرة، وتخصيصُ المترفين بما ذكر لغايةِ ظهور انعكاسِ حالهم وانتكاسِ أمرهم، وكونِ ذلك أشقَّ عليهم، ولأنهم مع كونهم متمنِّعين محميِّين بحمايةِ غيرهم من المَنَعَةِ والحَشَم لَقُوا ما لَقُوا من الحالة الفظيعة، فَلَأنْ يلقاها مَن عَدَاهم من الحُماة والخَدَم أَوْلَى وأَقْدَمُ.

وقال شيخ الإسلام: إنَّ هذا القولَ هو الحقُّ، لأنَّ العذاب الأُخرويَّ هو الذي

---

(١) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، للشيخ علي الحلبي. كشف الظنون ١/ ١٨٠.
(٢) في (م): أو، وهو تصحيف.
(٣) العلهز: طعام من الدم والوبر، كان يتخذ في المجاعة. القاموس (علهز). وذكر هذا القول عن الضحاك البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٢، والقرطبي ١٥/ ٦٢، وينظر ما سيأتي ص١٢٢ وما بعدها من هذا الجزء.
(٤) في الأصل و(م): قبلها، والصواب ما أثبتناه، وينظر ما سيأتي ص١٢٢ وما بعدها من هذا الجزء.
(٥) في دلائل النبوة ٢/ ٣٢٩.
(٦) ص١٢٢ وما بعدها من هذا الجزء.

يفاجئون عنده الجؤار، فيجابون بالردِّ والإقناطِ من النصر، وأمَّا عذابُ يوم بدرٍ فلم يوجد لهم عنده جؤارٌ حَسْبَما يُنْبِئُ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] فإنَّ المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يومَ بدرٍ من القتل والأسر حتماً، وأمَّا عذابُ الجوع فإنَّ قريشاً وإنْ تضرَّعوا فيه إلى رسول الله ﷺ، لكنْ لم يَرُدَّ عليهم بالإقناط، حيث روي أنه عليه الصلاة والسلام دعا بكَشفِه، فكُشِفَ عنهم ذلك[1]. انتهى، وستعلمُ إن شاء الله تعالى ما فيه، نَعَمْ حَمْلُ العذابِ على ذلك أوفقُ بجَعْلِ ما في حيِّز «حتى» غايةً لِمَا قبلها.

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ على تقدير القول، أي: قلنا لهم ذلك، والكلام استئنافٌ مسوقٌ لبيان إقناطهم وعدمِ انتفاعِهم بجؤارهم، والمراد باليوم الوقتُ الحاضرُ الذي اعتراهم فيه ما اعتراهم، والتقييدُ بذلك لزيادة إقناطهم، والمبالغةِ في إفادة عَدمَ نَفْعِ جُؤارِهم.

وقال شيخ الإسلام[2]: إنَّ ذلك لتهويل اليوم، والإيذانِ بتفويتهم وقت الجؤار.

والمراد بالقول ـ على ما قيل ـ ما كان بلسان الحال، كما في قوله:

امتلأ الحوضُ وقال قَطْني[3]

وجوِّز أن يراد به حقيقةُ القول، وصدورُه إمَّا من الله تعالى، وإمَّا من الملائكة عليهم السلام. والظاهرُ على هذا الوجه أن يكون القول في الآخرة، وكونُه في الدنيا مع عدم إسماعِهم إياه لا يخلو عن شيءٍ. وتقديره فعل الأمر مسنداً إلى ضميره ﷺ، أي: قل لهم مِن قِبَلِنا: لا تجأروا، بعيدٌ جداً.

ومن الناس مَن جوَّز كونَ القولِ المقدَّرِ جوابَ «إذا» الشرطية، وحينئذٍ يكون «إذا هم يجأرون» قيداً للشرط، أو بدلاً من «إذا» الأولى، وعلى الأول المعنى: أخذنا مترفيهم وقتَ جؤارِهم، أو حالَ مفاجأتهم، لجواز أن تكون «إذا» ظرفيةً أو

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٤٢.

(٢) في تفسيره ٦/ ١٤٢.

(٣) وعجزه: مهلاً رويداً قد ملأت بطني، وهو في الصحاح (قطط)، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٦٤ وفيه: ملأً رويداً، وسلف عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

فجائيةً حينئذٍ. ولم يجوِّز جَعْلُ النهي المذكورِ جواباً لخلوِّه عن الفاء اللازمة فيه إذا وقع كذلك.

وتعقِّب هذا القولُ بأنه لا يخفى أنَّ المقصود الأصليَّ من الجملة الشرطية هو الجواب، فيؤدِّي ذلك إلى أن يكون مفاجأتُهم الجؤارَ غيرَ مقصودٍ أصليٍّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ تعليلٌ للنهي عن الجؤار ببيانِ عدمِ نَفْعِه. و«مِن» ابتدائيةٌ، أي: لا يلحقُكم منَّا نصرة تُنْجِيكم مما أنتم فيه. وجوِّز أن تكون «من» صلةَ النصر وضمِّن معنى المنع، أو تجوِّز به عنه، أي: لا تُمنعون منَّا.

وتعقِّب بأنه لا يساعدُه سباقُ النظم الكريم؛ لأنَّ جؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتى يردَّ عليهم بعدم منصوريتهم مِن قِبَلِه تعالى، ولا سياقُه فإنَّ قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخره صريحٌ في أنه تعليلٌ لعدم لحوقِ النصر من جهته تعالى بسببِ كفرهم بالآيات، ولو كان النصر المنفيُّ متوهَّماً من الغير لعُلِّلَ بعَجْزِه، أو بعزَّةِ الله تعالى وقوَّته.

وأنت تعلم أنهم المشركون الذين شركاؤهم نُصْب أعينهم، ولم يقيَّد الجؤارُ بكونه إلى الله تعالى، وأمرُ التعليل سهلٌ. وقد يقال: المعنى على هذا الوجه: دَعُوا[1] الصُّراخَ فإنَّه لا يمنعكم منَّا، ولا ينفعكم عندنا، فقد ارتَكَبْتُم أمراً عظيماً وإثماً كبيراً لا يدفعُه ذلك. ثم لا يخفى ما في كلام المتعقِّب بعد.

والمراد: قد كانت آياتي تُتْلَى عليكم قبلَ أن يَأْخُذَ مترفيكم العذابُ ﴿فَكُنتُمْ﴾ عند تلاوتها ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: تُعْرِضون عن سماعها أشدَّ الإعراض، فضلاً عن تصديقها والعملِ بها.

والنكوص: الرجوع. والأعقابُ: جمع عقب، وهو مؤخَّرُ الرِّجْل، ورجوعُ الشخص على عقبه: رجوعُه في طريقه الأُولى، كما يقال: رجع عوده على بدئه[2].

---

(١) في (م): دعوى، وهو تصحيف.

(٢) يجوز في «عود» الرفع والنصب، أما الرفع فعلى قولك: رجع وعودُه على بدئه، أي: وهذه حالُه. والنصب إما على كونه مفعولاً كقولك: ردَّ عودَه على بدئه، أو حالاً لأن معناه: رجع ناقضاً مجيئه، ومثله: كلَّمتُه فاه إلى فيَّ، أي: مشافهةً، ويجوز أن تقول: فوه إلى فيَّ. الكامل للمبرد ١/ ٣٧٢.

وجَعَلَ بعضُهم التقييدَ بالأعقاب من باب التأكيد، كما في: بَصُرْتُه بعيني، بناءً على أنَّ النكوصَ: الرجوعُ قَهْقَرى وعلى الأعقاب. وأيًّاما كان فهو مستعارٌ للإعراض.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «تنكُصون» بضمِّ الكاف[1].

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت الحرام، والباءُ للسببية، وسوَّغ هذا الإضمارَ مع أنه لم يَجْرِ له ذكرٌ اشتهارُ استكبارِهم وافتخارِهم بأنهم خدَّامُ البيت وقوَّامه، وهذا ما عليه جمهورُ المفسرين. وقريبٌ منه كونُ الضمير للحَرَمِ.

وقال في «البحر»: الضميرُ عائدٌ على المصدر الدالِّ عليه «تنكصون»[2].

وتعقِّب بأنه لا يفيدُ كثيرَ معنًى، فإنَّ ذلك مفهومٌ مِن جَعْلِ «مستكبرين» حالاً. واعتُرض عليه بما فيه بحثٌ.

وذكر منذر بن سعيد[3]: أنَّ الضمير لرسول الله ﷺ، ويحسِّنُه أنَّ في قوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) دلالةً عليه عليه الصلاة والسلام، والباءُ إمَّا للتعدية على تضمين الاستكبار معنى التكذيب، أو جَعْلِه مجازاً عنه، وإمَّا للسببية لأنَّ استكبارهم ظهر ببعثته ﷺ.

وجوِّز أن يعود على القرآن المفهومِ من الآيات، أو عليها باعتبارِ تأويلها به، وأمرُ الباء كما سمعتَ آنفاً.

وجوِّز أن تكون متعلِّقةً بقوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا﴾ أي: تَسْمُرون بذكر القرآن والطعنِ به، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يَسْمُرون، وكانت عامَّةُ سمرهم ذِكْرَ القرآن وتسميتَه سِحْراً وشعراً، والمعنى على ذلك وإن لم يعلَّق به «به».

ويجوز على تقديرِ تعلُّقه بـ «سامراً» عودُ الضمير على النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وكذا يجوزُ كونُ المعنى عليه وإن لم يعلَّق به.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/١٤٩، والبحر ٦/٤١٢، وهي في القراءات الشاذة ص ٩٩ عن ابن مسعود.
(٢) أي: مستكبرين بالنكوص والتباعُد من سماع الآيات. البحر ٦/٤١٢.
(٣) كما في البحر ٦/٤١٣.

وقيل: هي متعلِّقةٌ بـ «تهجرون». وفيه من البعد ما فيه.

ونصب «سامراً» على الحال، وهو اسم جمعٍ كالحاجِّ والحاضر والجامل والباقر. وقيل: هو مصدرٌ وقع حالاً على التأويل المشهور، فهو يشملُ القليلَ والكثيرَ باعتبارِ أصله. ولا يخفى أنَّ مجيءَ المصدر على وزن فاعل نادرٌ، ومنه العافيةُ والعاقبة.

والسَّمَر في الأصل: ظلُّ القمر، وسمِّي بذلك على ما في «المُطْلِع» لسُمْرتِه. وفي «البحر»: هو ما يقع على الشجر من ضوء القمر(١). وقال الراغب(٢): هو سوادُ الليل، ثم أُطلق على الحديث بالليل.

وفسَّر بعضُهم السامر بالليل المظلم، وكونُه هنا بهذا المعنى، وجَعْلُه منصوباً بما بعده على نزع الخافض، ليس بشيءٍ.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وأبو حيوة وابن محيصن وعكرمةُ والزعفرانيُّ، ومحبوبٌ عن أبي عمرو: «سُمَّراً» بضمِّ السين وشدِّ الميم مفتوحة(٣)، جمع سامر.

وابن عباس أيضاً وزيد بن علي، وأبو رجاء، وأبو نهيك: «سُمَّاراً» بزيادة ألفٍ بعد الميم(٤)، وهو جمع سامر أيضاً، وهما جمعان مَقيسان في مثل ذلك.

﴿تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ من الهَجْرِ بفتحٍ فسكون بمعنى القَطْعِ والتَّرْكِ، والجملةُ في موضع الحال، أي: تاركين الحقَّ، أو القرآنَ، أو النبيَّ ﷺ. وعن ابن عباس: تهجرون البيتَ ولا تَعْمُرونه بما يليقُ به من العبادة.

وجاء الهَجْرُ بمعنى الهَذَيان، كما في «الصحاح» يقال: هَجَرَ المريضُ يَهْجُر هَجْراً: إذا هَذَى(٥). وجوِّز أن يكون المعنى عليه، أي: تَهذون في شأن القرآن، أو

---

(١) البحر ٦/ ٣٩٤.

(٢) في مفرداته (سمر).

(٣) القراءات الشاذة ص٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٦، والبحر ٦/ ٤١٣، والكلام منه. والمشهور عن أبي عمرو: «سامراً» كقراءة الجمهور.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٧، والبحر ٦/ ٤١٣، والكلام منه.

(٥) الصحاح (هجر).

النبيِّ عليه الصلاة والسلام، أو أصحابه ﷺ، أو ما يعمُّ جميعَ ذلك. وفي «الدر المصون»: أنَّ ما كان بمعنى الهَذَيان هو الهَجَر بفتحتين[١].

وجوَّز أن يكون من الهُجْرِ بضمٍّ فسكون، وهو الكلام القبيح، قال الراغب: الهُجْرُ: الكلام المهجورُ لقُبْحِه، وهَجَر فلانٌ: إذا أتى بهُجْرٍ من الكلام عن قَصْدٍ، وأَهْجَر المريض إذا أتى بذلك من غير قصدٍ[٢].

وفي «المصباح»: هَجَر المريضُ في كلامه: هَذَى، والهُجْر بالضم اسمٌ ومصدرٌ بمعنى الفُحش من هَجَر كقَتَلَ، وفيه لغةٌ أخرى: أَهْجَرَ بالألف[٣]. وعلى هذه اللغة قراءة ابن عباس وابن محيصن ونافع وحميد: «تُهْجِرون» بضم التاء وكَسْرِ الجيم[٤]، وهي تُبْعِدُ كونَ «تَهْجُرون» في قراءة الجمهور من الهَجْرِ بمعنى القَطْع.

وقرأ ابن أبي عاصم بالياء على سبيل الالتفات[٥]. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس أيضاً، وزيد بن علي ﷺ، وعكرمة، وأبو نهيك، وابن محيصن أيضاً، وأبو حيوة: «تهجِّرون» بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم وشدِّها[٦]، على أنه من مُضاعَفِ هَجَر من الهَجْرِ بالفتح أو بالضَّم، فالمعنى: تَقْطَعون، أو تَهْذُون، أو تَفْحُشون كثيراً.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحِه، والفاءُ للعطف على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام، أي: أَفعَلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يتدبَّروا القرآنَ ليعلموا بما[٧] فيه من وجوه الإعجاز أنه الحقُّ من ربِّهم فيؤمنوا به.

و«أم» في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ منقطعةٌ، وما فيها من معنى «بل» للإضراب والانتقالِ من التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بآخَرَ.

(١) الدر المصون ٨/ ٣٥٩.
(٢) مفردات الرغب (هجر)، وفيه: وأهجر فلان إذا أتى بهُجر... وهجر المريض...
(٣) المصباح (هجر)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٣٩.
(٤) التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٩ عن نافع، وذكرها عنهم أبو حيان في البحر ٦/ ٤١٣.
(٥) أي: «يَهْجُرون». البحر ٦/ ٤١٣، والدر المصون ٨/ ٣٥٩.
(٦) القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٣.
(٧) في الأصل: مما، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ١٤٣، والكلام منه.

والهمزةُ لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع، أي: بل أجَاءهُم من الكتاب ما لم يأتِ آباءَهم الأولين حتى استبعَدوه فوَقَعوا فيما وَقَعوا فيه من الكفر والضلال؟ بمعنى أنَّ مجيءَ الكتب من جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام لينذروا بها الناسَ سُنَّةٌ قديمةٌ له تعالى لا تكاد تُنكَرُ، وأنَّ مجيء القرآن على طريقته، فمِمَّ ينكرونه.

وقيل: المعنى: أفلم يتدبَّروا القرآن ليخافوا عند تدبُّر آياته وأقاصيصه مثلَ ما نزل بمن قبلهم من المكذبين، أم جاءهم من الأمن ما لم يأتِ آباءهم الأولين حين خافوا الله تعالى فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه، فالمراد بآباءهم المؤمنون، كإسماعيل عليه السلام، وعدنان، وقحطان، وكأنَّ وَصْفَهم بالأوَّلينَ على هذا لإخراج الأقربين.

وفي الخبر: «لا تسبُّوا مُضَرَ وربيعة فإنهما كانا مُسْلِمينِ، ولا تسبُّوا قسّاً فإنه كان مسلماً، ولا تسبُّوا الحارث بن كعب ولا أسد بن خزيمة ولا تميم بن مرٍّ فإنهم كانوا على الإسلام، وما شَكَكْتُم في شيءٍ فلا تشكُّوا في أنَّ تبّعاً كان مسلماً»[1].

وروي أنَّ ضبَّةَ بن أد كان مسلماً، وكان على شرطة سليمان بن داود عليهما السلام[2].

وفي «الكشف»: إنْ جُعِلَ فائدةُ التدبُّرِ استعقابَ العلم، فالهمزةُ في المنقطعة للتقرير وإثبات أنهم مُصِرُّون على التقليد، فلذلك لم يتدبَّروا ولم يعلموا، وإنْ جُعِلَتِ الاعتبارَ والخوفَ، فالهمزةُ فيها للإنكار أو التقرير تهكُّماً. اهـ فتدبر. ثم لا يخفى أن إسناد المجيء إلى الأمن غيرُ ظاهرٍ ظهورَ إسناده إلى الكتاب، وبهذا تنحطُّ درجةُ هذا الوجه عن الوجه الأول.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٦، ولم نقف عليه بهذا السياق، وأخرج البلاذري في أنساب الأشراف ١/ ٣٥ عن الحسن عن النبي ﷺ: «لا تسبوا ربيعة ومضر فإنهما قد أسلما». وأخرج نحوه عن عبيد الله بن خالد أنه بلغه أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا...». وأخرج أبو جعفر بن حبيب في تاريخه «المحبر» كما في فتح الباري ٧/ ١٦٤ من حديث ابن عباس قال: كان عدنان ومعد وربيعة ومضر وخزيمة وأسد على ملة إبراهيم. وأخرج أحمد (٢٢٨٨٠)، والطبراني في الكبير (٦٠١٣) من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ: «لا تسبوا تُبَّعاً فإنه كان مسلماً». وأخرجه الطبراني في الكبير(١١٧٩٠) من حديث ابن عباس ﷺ، وأخرج الطبري ٢١/ ٥٠ عن عائشة ﷺ قالت: لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً.

(٢) الكشاف٣/٣٦.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بوجهٍ آخَرَ، والهمزةُ لإنكار الوقوع أيضاً، أي: بل أَلَمْ يعرفوه[١] عليه الصلاة والسلام بالأمانة والصدق وحُسْنِ الأخلاق، إلى غير ذلك من الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام.

وقد صحَّ أنَّ أبا طالب يومَ نكاح النبيِّ ﷺ خَطَبَ بمحضَرِ رؤساء مضر وقريش، فقال: الحمد لله الذي جَعَلَنا من ذريةِ إبراهيم وزَرْعِ إسماعيل وضِئْضِئِ معد، وعُنْصُرِ مُضَرَ، وجَعَلَنا حَضَنَةَ بيتهِ وسُوَّاسَ حَرَمِه، وجَعَل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكَّام على الناس. ثم إنَّ ابنَ أخي هذا محمد بنَ عبد الله لا يُوزَنُ برجلٍ إلَّا رَجَحَ به، فإنْ كان في المال قُلٌّ[٢] فإنَّ المال ظلٌّ زائلٌ وأمرٌ حائلٌ، ومحمدٌ مَن قد عرفتُم قرابَته، وقد خطب خديجة بنتَ خويلد وبذل لها من الصَّداقِ ما آجِلُه وعاجِلُه من مالي كذا، وهو واللهِ بعد هذا له نبأٌ عظيمٌ وخطرٌ جليل[٣].

وفي هذا دليلٌ واضحٌ على أنهم عرفوه ﷺ بغاية الكمال، وإلَّا لأنكروا قولَ أبي طالب فيه عليه الصلاة والسلام ما قال.

﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الفاءُ سببيةٌ؛ لتسبُّب الإنكار عن عدم المعرفة، فالجملةُ داخلةٌ في حيِّز الإنكار، ومآلُ المعنى: هم عرفوه بالكمال اللائق بالأنبياء عليهم السلام، فكيف ينكرونه. واللامُ للتقوية، وتقديمُ المعمول للتخصيص أو الفاصلة، والكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: منكرون لدَعْواه، أو لرسالته عليه الصلاة السلام.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ انتقالٌ إلى توبيخٍ آخَرَ، والهمزةُ لإنكار الواقع كالأولى، أي: بل أيقولون به جِنةٌ ـ أي: جنونٌ ـ مع أنه عليه الصلاة والسلام أرجحُ الناس عقلاً وأثقبُهم رأياً، وأوفرُهم رزانةً.

وقد رُوعيَ في هذه التوبيخات الأربع ـ التي اثنان منها متعلِّقان بالقرآن، والباقيان به عليه الصلاة والسلام ـ الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى كما بيَّنه شيخُ الإسلام[٤].

---

(١) في الأصل: تعرفوه.
(٢) القُل: القِلَّة. القاموس (قلل).
(٣) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ١/ ٧٤.
(٤) في تفسيره ٦/ ١٤٤.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضرابٌ عمَّا يدلُّ عليه ما سبق، أي: ليس الأمرُ كما زعموا في حقِّ القرآن والرسول ﷺ، بل جاءهم بالحق، أي: بالصدق الثابت الذي لا مَحيدَ عنه، والمرادُ به التوحيد ودينُ الإسلام الذي تضمَّنه القرآن، ويجوز أن يراد به القرآن.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ لِمَا في جبلَّتهم من كمال الزيغ والانحراف، والظاهرُ أنَّ الضمائر لقريش، وتقييدُ الحكم بأكثرهم لأنَّ منهم مَن أبى الإسلام واتِّباع الحقِّ حذراً من تعيير قومه أو نحوِ ذلك، لا كراهةً للحقِّ من حيث هو حقٌّ، فلا يَرِدُ ما قيل: إنَّ مَن أحبَّ شيئاً كره ضدَّه، فمن أَحبَّ البقاء على الكفر فقد كره الانتقال إلى الإيمان ضرورةً.

وقال ابن المنير: يحتملُ أن يُحمَلَ الأكثرُ على الكلِّ كما حُمِلَ القليلُ على النفي[١]. وفيه بُعدٌ.

وكذا ما اختاره من كونِ ضميرِ «أكثرهم» للناس كافةً لا لقريشٍ فقط، فيكون الكلام نظيرَ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣][٢].

وقد يقال: حيث كان المراد إثباتَ الكراهية للحقِّ على سبيل الاستمرار، وعَلِمَ الله تعالى أنَّ فيهم مَن يؤمنُ ويتَّبعُ الحقَّ، لم يكن بدٌّ من تقييد الحكم بالأكثر.

والظاهرُ بناءً على القاعدة الأغلبية في إعادة المعرفة أنَّ الحقَّ الثاني عينُ الحقِّ الأول، وأظهرَ في مقام الإضمار لأنه أَظْهَرُ في الذمِّ، والضميرُ ربما يُتَوَهَّم عَوْدُه للرسول عليه الصلاة والسلام.

وقيل: اللَّامُ في الأول للعهد، وفي الثاني للاستغراق أو للجنس، أي: وأكثرُهم للحقِّ أيِّ حقٍّ كان لا لهذا الحقِّ فقط ـ كما يُنْبئُ عنه الإظهارُ ـ كارهون، وتخصيصُ أكثرهم بهذا الوصفِ لا يقتضي إلَّا عدمَ كراهةِ بعضهم لكلِّ حقٍّ من الحقوق، وذلك لا ينافي كراهتَهم لهذا الحقِّ. وفيه بحثٌ؛ إذ لا يكادُ يَسْلَمُ أنَّ أكثرهم كارهون لكلِّ حقٍّ.

(١) الانتصاف ٣/ ٣٧.

(٢) المصدر السابق.

وكذا الظاهرُ أنْ يُرادَ بالحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الحقُّ الذي جاء به النبيُّ ﷺ، وجَعْلُ الاتِّباعِ حقيقيًّا والإسنادِ مجازيًّا، وقيل: مآلُ المعنى: لو اتَّبع النبيُّ ﷺ أهواءهم فجاءهم بالشرك بدلَ ما أُرسل به ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لخرَّب الله تعالى العالَم، وقامت القيامةُ لفَرْطِ غضبه سبحانه، وهو فرضُ محالٌ من تبديله عليه الصلاة والسلام ما أُرسل به من عنده.

وجوِّز أن يكون المرادُ بالحقِّ الأمرَ المطابقَ للواقع في شأن الألوهية، والاتِّباعُ مجازاً عن الموافقة، أي: لو وافق الأمرُ المطابقُ للواقع أهواءهم بأنْ كان الشرك حقًّا، لفسدت السماواتُ والأرضُ حَسْبَما قرِّر في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولعل الكلام عليه اعتراضٌ للإشارة إلى أنهم كرهوا شيئاً لا يمكن خلافهُ أصلاً، فلا فائدة لهم في هذه الكراهة.

واعتُرِضَ بأنه لا يناسبُ المقام، وفيه بحث.

وكذا ما قيل: إنَّ ما يوافقُ أهواءهم هو الشركُ في الألوهية؛ لأنَّ قريشاً كانوا وثنيةً. وهو لا يستلزمُ الفساد، والذي يستلزمُه إنَّما هو الشركُ في الربوبية كما تزعمه الثَّنويةُ، وهم لم يكونوا كذلك كما ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وجوِّز أن يكون المعنى: لو وافَقَ الحقُّ مطلقاً أهواءهم، لخرجتِ السماواتُ والأرضُ عن الصلاح والانتظام بالكلِّية، والكلامُ استطرادٌ لتعظيم شأن الحقِّ مطلقاً، بأنَّ السماواتِ والأرضَ ما قامت ولا مَن فيهنَّ إلا به، ولا يخلو عن حُسْنٍ.

وقيل: المراد بالحقِّ هو الله تعالى. وقد أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بنُ حميد وابنُ جريرٍ وابنُ المنذرِ وابنُ أبي حاتمٍ عن أبي صالح(١). وحكاه بعضهم عن ابن جُريجٍ، والزمخشريُّ(٢) عن قتادة. والمعنى عليه: لو كان الله تعالى يتَّبعُ أهواءهم

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٨٩، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٣.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٧.

ويفعل ما يريدون، فيشرعُ لهم الشركَ ويأمرهم به، لم يكن سبحانه إلهاً، فتَفْسُدُ السماواتُ والأرض.

وهذا مبنيٌّ على أنَّ شَرْعَ الشركِ نقصٌ يجب تنزيهُ الله تعالى عنه، وقد ذكَرَ ذلك الخفاجيُّ، وذَكَرَ أنه قام الدليلُ العقليُّ عليه، وأنه لا خلافَ فيه[1].

ولعل الكلامَ عليه اعتراضٌ أيضاً للإشارة إلى عدم إمكان إرسالِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام إليهم بخلاف ما جاء به مما لا يكرهونه، فكراهتُهم لِمَا جاء به عليه الصلاة والسلام لا تُجْديهم نَفْعاً، فالقول بأنه بعيدٌ عن مقتضَى المقام ليس في محلِّه.

وقيل: المعنى عليه: لو فعل الله تعالى ما يوافق أهواءهم لاختلَّ نظامُ العالم؛ لِمَا أنَّ آراءهم متناقضةٌ. وفيه إشارةٌ إلى فسادِ عقولهم، وأنهم لذلك كرهوا ما كرهوه من الحقِّ الذي جاءهم[2] به عليه الصلاة والسلام. وهو كما ترى.

وقرأ ابن وثاب: «ولوُ اتَّبع» بضم الواو[3].

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقالٌ من تشنيعهم بكراهةِ الحقِّ إلى تشنيعهم بالإعراض عمَّا جُبِلَ عليه كلُّ نفسٍ من الرغبة فيما فيه خيرُها، والمرادُ بالذكر: القرآن الذي هو فخرُهم وشرفُهم حَسْبَما ينطقُ به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: بل أتيناهم بفَخْرِهم وشَرَفِهم الذي كان يجب عليهم أن يُقْبِلوا عليه أَكْملَ إقبالٍ، ويَقْبَلوا ما فيه أكملَ قبولٍ.

﴿فَهُمْ﴾ بما فعلوا من النكوص ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ أي: فَخْرِهم وشرفهم خاصةً ﴿مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ لا عن غير ذلك مما لا يوجب الإقبال عليه والاعتناء به. وفي وَضْعِ الظاهر موضعَ الضمير مزيدُ تشنيعٍ لهم وتقريعٍ. والفاء لترتيب ما بعدها من إعراضهم عن ذِكْرِهم على ما قبلها من الإتيان بذكرهم.

ومَن فسَّر «الحقَّ» في قوله تعالى: (بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ) بالقرآن الكريم، قال هنا:

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣٤١.
(٢) في (م): جاء.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٧، والبحر ٦/ ٤١٤.

في إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تنويهٌ بشأن النبيِّ ﷺ، وتنبيهٌ على كونه عليه الصلاة والسلام بمثابةٍ عظيمةٍ منه عز وجل.

وفي إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه ﷺ بعنوان الحقِّيَّة، وعند نسبته إليه تعالى بعنوان الذكر، من النكتة السَّرِيةِ والحكمةِ العبقرية ما لا يخفى؛ فإنَّ التصريح بحقِّيته المستلزمةِ لحقِّيةِ مَن جاء به هو الذي يقتضيه مقامُ حكايةِ ما قاله المُبْطِلون في شأنه، وأما التشريفُ فإنما يليقُ به تعالى، لا سيما رسول الله ﷺ أحدُ المشرَّفين.

وقيل: المراد بذكرهم ما تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٨-١٦٩] فكأنه قيل: بل آتيناهم الكتاب الذي تمنَّوه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ المراد بالذكر الوعظُ، وأيِّد بقراءة عيسى: «بذكراهم» بألف التأنيث[1].

ورجِّح القولان الأوَّلان بأنَّ التشنيع عليهما أشدُّ، فإنَّ الإعراض عن وَعْظِهم ليس بمثابة إعراضهم عن شرفهم وفخرهم، أو عن كتابهم الذي تمنَّوه، في الشناعة والقباحة.

وقيل: إنَّ الوعظ فيه بيانُ ما يَصْلُحُ به حالُ مَن يُوْعَظُ، فالتشنيعُ بالإعراض عنه لا يَقْصُرُ عن التشنيع بالإعراض عن أحد ذينك الأمرين، ولا يخفى ما فيه من المكابرة.

وقرأ ابن أبي اسحاق وعيسى بن عمر، ويونس عن أبي عمرو: «بل أتيتُهم» بتاء المتكلِّم. وابنُ أبي إسحاق وعيسى أيضاً وأبو حيوةَ والجحدريُّ وابن قطيبٍ وأبو رجاء: «بل أتيتَهم» بتاء الخطاب للرسول ﷺ[2].

وأبو عمرو في روايةٍ: «آتيناهم» بالمدِّ[3]، ولا حاجةَ على هذه القراءة الى ارتكابِ مجازٍ أو دعوى حذفِ مضافٍ كما في قراءة الجمهور على تقدير جَعْلِ الباء للمصاحَبة.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٤.
(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص ٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٤.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٥١، والبحر ٦/ ٤١٤.

وقرأ قتادة: «نذكِّرُهم» بالنون مضارع ذكَّر[١].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ) فهو انتقالٌ إلى توبيخٍ آخر، وغيّر للخطاب لمناسبته ما بعده، وكأن المراد: أم يزعمون أنك تسألُهم على أداء الرسالة ﴿خَرْجًا﴾ أي: جعلاً، فلأَجْلِ ذلك لا يؤمنون بك.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: رزقُه في الدنيا وثوابُه في الآخرة، تعليلٌ لنفي السؤال المستفادِ من الإنكار، أي: لا تسألهم ذلك فإنَّ ما رزقك الله تعالى في الدنيا والعُقْبَى خيرٌ من ذلك لسعته ودوامه، وعدمِ تحمُّل منَّة الرجال فيه.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تعليل الحكم وتشريفه ﷺ مالا يخفى.

والخَرْجُ بإزاءِ الدَّخْلِ، يقال لكلِّ ما تُخْرِجُه إلى غيرك، والخراجُ غالبٌ في الضريبة على الأرض، ففيه إشعارٌ بالكثرة واللزوم فيكون أبلغ، ولذلك عبَّر به عن عطاء الله تعالى.

وكذا على ما قيل من أنَّ الخرج ما تبرَّعْتَ به، والخراجَ مالَزِمَك، واللزومُ بالنسبة إليه تعالى إنما هو لفضل وعده عز وجل. وقيل: الخرجُ أعمُّ من الخراج، وساوَى بينهما بعضُهم.

وقرأ ابن عامر: «خَرْجاً فخَرْجُ»، وحمزةُ والكسائيُّ: «خراجاً فخَرَاجُ»[٢] للمشاكلة.

وقرأ الحسن وعيسى: «خراجاً فخَرْجُ»[٣]، وكأنَّ اختيارَ «خراجاً» في جانبه عليه الصلاة والسلام للإشارة إلى قوة تمكُّنِهم في الكفر، واختيارَ «خَرْجاً» في جانبه تعالى للمبالغة في حطِّ قَدْرِ خَرَاجِهم، حيث كان المعنى: فالشيءُ القليل منه عز وجل خيرٌ من كثيرهم، فما الظنُّ بكثيره جل وعلا؟

(١) المحتسب ٢/ ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٤، والدر المصون ٨/ ٣٦٠.
(٢) التيسير ص ١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥.
(٣) البحر ٦/ ٤١٥.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ تأكيدٌ لخيريَّةِ خَرَاجِه سبحانه وتعالى؛ فإنَّ مَن كان خير الرازقين يكون رزقُه خيراً من رزق غيره.

واستدلَّ الجبائيُّ بذلك على أنه سبحانه لا يساويه أحدٌ في الإفضال على عباده، وعلى أنَّ العباد قد يَرْزُقُ بعضُهم بعضاً.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ تشهدُ العقولُ السليمةُ باستقامته، ليس فيه شائبةُ اعْوِجاجٍ توجبُ الاتِّهام. قال الزمخشريُّ[1]: ولقد ألزمَهم عز وجل الحجةَ، وأزاح عِلَلَهم في هذه الآيات، بأنَّ الذي أرسل إليهم رجلٌ معروفٌ أمرُه وحالُه، مخبورٌ سرُّه وعَلَنُه، خليقٌ بأنْ يُجْتَبَى مثلُه للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له حتى يدَّعى مثل هذه الدعوى العظيمةِ بباطل، ولم يَجْعَلْ ذلك سلَّماً إلى النيل من دنياهم واستعطاءِ أموالهم، ولم يَدْعُهم إلَّا إلى دين الإسلام الذي هو الصراطُ المستقيم، مع إبرازِ المكنونِ من أدْوَائهم، وهو إخلالُهم بالتدبُّر والتأمُّلِ، واستهتارُهم بدين الآباء الضُّلَّال من غير برهان، وتعلُّلهم بأنه مجنون بعد ظهور الحقِّ وثباتِ التصديق من الله تعالى بالمعجزات والآيات النيِّرةِ، وكراهتهم للحقِّ وإعراضُهم عمَّا فيه حظُّهم[2] من الذكر. اهـ. وهو من الحُسْنِ بمكان.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هم كَفرةُ قريشٍ المحدَّثُ عنهم فيما مرَّ، وُصفوا بذلك تشنيعاً لهم مما هم عليه من الانهماك في الدنيا، وزَعْمِهم أنْ لا حياةَ بعدها، وإشعاراً بعلَّة الحكم، فإنَّ الإيمان بالآخرة وخوفَ ما فيها من الدَّواهي من أقوى الدَّواعي إلى طلب الحقِّ وسلوكِ سبيله.

وجوِّز أنْ يكون المرادُ بهم ما يعمُّهم وغيرَهم من الكفرة المنكِرين للحشر، ويدخلون في ذلك دخولاً أوَّلياً.

﴿عَنِ الصِّرَٰطِ﴾ المستقيم الذي تدعو اليه ﴿لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: لعادلون.

وقيل: المراد بالصِّراط جنسُه، أي: إنهم عن جنس الصراط، فضلاً عن الصراط المستقيم الذي تدعوهم إليه، لناكبون. ورجِّح بأنه أدلُّ على كمال ضلالهم

---

(١) في الكشاف ٣/٣٨.

(٢) في (م): حفظهم، والمثبت من الأصل والكشاف.

وغايةِ غوايتهم، لِمَا أنه ينبئُ عن كون ما ذهبوا إليه ممَّا لا يُطْلَقُ عليه اسم الصراط ولو كان معوجًّا.

وفيه أن التعليل بمضمون الصِّلة لا يساعد إلَّا على إرادة الصراط المستقيم.

وأظنُّ أنه قد نَكَبَ عن الصراط مَن زعم أنَّ المراد به هنا الصراطُ الممدود على متن جهنم، وهو طريق الجنة، أي: إنهم يوم القيامة عن طريق الجنة لمائلون يمنةً ويسرةً إلى النار.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي: من سوء حالٍ؛ قيل: هو ما عَرَاهم بسبب أَخْذِ مُتْرَفيهم بالعذاب يومَ بدر، أعني الجزعَ عليهم، وذلك بإحيائهم وإعادتهم إلى الدنيا بعد القتل، أي: ولو رحمناهم وكشفنا ضرَّهم بإرجاع مُتْرَفيهم إليهم ﴿لَّلَجُّوا﴾ لتمادوا ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطِهم في الكفر والاستكبار وعداوةِ الرسول ﷺ والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾ عامهين متردِّدين في الضلال، يقال: عَمَهَ كمَنَعَ وفَرِحَ عمهاً وعموهاً وعموهةً وعَمَهَاناً.

وقيل: هو ما هم فيه من شدَّةِ الخوف من القتل والسبي، ومزيد الاضطراب من ذلك، لمَّا رأوا ما حلَّ بمترفيهم يومَ بدر، وكَشْفُه بأمر النبيِّ ﷺ بالكفِّ عن قتالهم وسَبْيِهم بعدُ، أو بنحو ذلك. وهو وجهٌ ليس بالبعيد.

وقيل: المرادُ بالضرِّ عذابُ الآخرة، أي: أنهم في الرداءة والتمرُّد إلى أنهم لو رُحموا وكُشِفَ عنهم عذابُ النار وردُّوا إلى الدنيا، لعادوا لشدَّة لجاجهم فيما هم عليه. وفيه من البُعْدِ ما فيه.

واستَظْهرَ أبو حيان أنَّ المراد به القحطُ والجوع الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ، وذَكَر أنه مرويٌّ عن ابن عباس وابن جريج[1].

وقد دعا عليهم ﷺ بذلك في مكةَ يومَ أَلْقَى عليه المشركون وهو قائمٌ يصلِّي عند البيت سَلَى جزورٍ، فقال: «اللهمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَرَ، اللهمَّ اجْعَلْها عليهم سنينَ كَسِنيِّ يوسُفَ»[2].

(١) البحر ٦/ ٤١٥.

(٢) حديث إلقاء سلى الجزور على النبي ﷺ أخرجه البخاري (٢٤٠) عن ابن مسعود ﷺ.

ودعا بذلك أيضاً بالمدينة، وقد رُوي أنه عليه الصلاة والسلام مَكَثَ شهراً إذا رفع رأسه من الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله: «سمع الله لمن حَمِدَه» يقول: «اللهمَّ أَنْجِ الوليد بنَ الوليد، وسَلمةَ بنَ هشام، وعياش بنَ أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين بمكة، اللهمَّ اشْدُدْ وطأتَك»(١) إلخ. وربَّما فعل ذلك بعد رَفْعِه من الركعة الأخيرة من صلاة العشاء(٢). وكلتا الروايتين ذكرهما برهان الدين الحلبيُّ في «سيرته»(٣).

والكثيرُ على أنَّه الجوعُ الذي أصابهم من مَنْعِ ثُمامةَ المِيْرةَ عنهم، وذلك أنَّ ثُمامةَ بنَ أُثَالٍ الحنفيَّ جاءت به إلى المدينة سريةُ محمد بنِ مَسْلَمةَ حين بعثها ﷺ إلى بني بكر بن كلاب، فأسلم بعد أن امتنع من الإسلام ثلاثةَ أيام، ثم خرج معتمراً، فلمَّا قدم بطنَ مكة لبَّى، وهو أول مَن دخلها ملبِّياً، ومِن هنا قال الحنفيُّ:

ومنَّا الذي لبَّى بمكةَ معلناً ... برَغْمِ أبي سفيانَ في الأشهُرِ الحرمِ(٤)

فأخذته قريشٌ فقالوا: لقد اجْتَرأتَ علينا، وقد صبوتَ يا ثمامة. قال: أسلمتُ واتَّبعتُ خيرَ دينٍ، دين محمدٍ ﷺ، واللهِ لا يَصِلُ إليكم حبَّةٌ من اليمامة ـ وكانت ريفاً لأهل مكة ـ حتى يأذنَ فيها رسولُ الله ﷺ. ثم خرج ثمامةُ إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، حتى أضرَّ بهم الجوعُ، وأكلت قريشٌ العِلْهِزَ(٥)، فكتبت

= وأخرج البخاري (١٠٠٧) من حديث ابن مسعود ﷺ: أن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: «اللهم سبعٌ كسبع يوسف» الحديث، قال الحافظ في الفتح ٢/ ٥١١: وأفاد الدمياطي أن ابتداء دعاء النبي ﷺ على قريش بذلك كان عقب طرحهم على ظهره سلى الجزور، وكان ذلك بمكة قبل الهجرة، وقد دعا عليهم بذلك بعدها بالمدينة. اهـ.

(١) أخرجه أحمد (٧٦٦٩)، والبخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥): (٢٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرج هذه الرواية من حديث أبي هريرة أحمد (١٠٠٧٢)، والبخاري (٦٣٩٣)، ومسلم (٦٧٥): (٢٩٥).

(٣) السيرة الحلبية ١/ ٤٧١.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣٩.

(٥) بكسر العين والهاء وسكون اللام: دم كان يُخلط بوبرٍ ويُعالج بالنار، وقيل في معناه غير ذلك. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٢.

قريش إلى رسول الله ﷺ: ألسَت تزعُمُ أنك بُعِثْتَ رحمةً للعالمين؟ فقد قتَلْتَ الآباء بالسيف والأبناءَ بالجوع، إنك تأمر بصلَةِ الرَّحم، وأنت قد قطعتَ أرحامنا. فكتب رسول الله ﷺ إلى ثُمامةَ رضي الله عنه: «خلِّ بين قومي وبين مِيْرَتِهم» ففعل[١].

وفي روايةٍ: أنَّ أبا سفيان جاءه ﷺ، فقال: ألستَ.. إلخ[٢]. ووَجْهُ الجمع ظاهرٌ، وكان هذا قبل الفتح بقليل.

وعندي أنَّ «لو» تُبْعِدُ هذا القولَ كما لا يخفى، نعم أخرج ابن جرير وجماعةٌ عن ابن عباس ما هو نصٌّ في أنَّ قصة ثمامةَ سببٌ لنزول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ إلى آخره[٣]، فيكون الجوعُ مراداً من العذاب المذكور فيه على ذلك، ولا يَرِدُ على مَن قال به قولهُ تعالى: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ فما خضعوا بذلك ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ لأنَّ له أن يقول: المرادُ بالخضوع له عزَّ وجلَّ الانقيادُ لأمره سبحانه، والإيمانُ به جلَّ وعلا، وما كان منهم مع رسول الله ﷺ ليس منه في شيءٍ.

والمشهورُ أن المراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والأسر، ولا يَرِدُ على مَن فسَّر العذاب في قوله سبحانه: (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ) به أيضاً لزومُ المنافاةِ بين ما هناك من قوله تعالى: (إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) وما هنا من نفي الاستكانة لربِّهم ونفي التضرُّعِ المستفادِ من قوله سبحانه ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾؛ إذ له أن يقول: الجؤار مطلقُ الصراخ، وهو غيرُ الاستكانة لله عزَّ وجل، وغيرُ التضرُّعِ إليه سبحانه. وهو ظاهر.

وكذا إذا أريد بالجؤار الصراخ باستغاثةٍ بناءً على أنَّ المراد بالاستكانة له تعالى ما علمتَ آنفاً من الانقياد لأمره عز وجل، وأنَّ التضرُّعَ ما كان عن صميم الفؤاد

(١) أخرجه أحمد (٩٨٣٣)، والبخاري (٤٣٣٢)، ومسلم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون الشعر، ودون قوله: ثم خرج ثمامة إلى اليمامة فمنعهم.. إلخ. وأخرجه بتمامه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٥/ ٦٣٨-٦٣٩، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤/ ٨٠، وبنحوه أحمد (٧٣٦١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٢٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٩٣، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٢٨٩)، والبيهقي في الدلائل ٤/ ٨١.

والجؤارَ ما لم يكن كذلك، وكأنَّ التعبير هناك بالجؤار للإشارة إلى أنَّ استغاثتهم كانت أشبهَ شيءٍ بأصوات الحيوانات.

وقيل: ما تقدَّم لبيانِ حال المقتولين، وما هنا لبيان حال الباقين. وعبَّر في التضرُّع بالمضارع ليفيد الدوام، إلا أنَّ المراد دوامُ النفي لا نفيُ الدوام، أي: وليس من عادتهم التضرُّعُ إليه تعالى أصلاً. ولو حُمِلَ ذلك على نفي الدوام ـ كما هو ظاهر ـ لا يَرِدُ ما يتوهَّمُ من المنافاة بين قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أيضاً.

واستكان استفعل من الكون، وأصلُ معناه: انتقل من كون إلى كون، كاسْتَحْجَر، ثم غَلَبَ العرفُ على استعماله في الانتقال من كونِ الكِبْر إلى كون الخضوع، فلا إجمالَ فيه عرفاً.

وقال أبو العباس أحمد بن فارس[(١)]: سُئِلْتُ عن ذلك في بغداد لمَّا دخلتُها زمنَ الإمام الناصر، وجَمَعَ لي علماءَها، فقلتُ واستحسن منِّي: هو مشتقٌّ من قول العرب: كُنْتُ لك، إذا خضعت، وهي لغة هذيلية. وقد نقلها أبو عبيد في «الغريبين»[(٢)]، وعليه يكون من باب قرَّ واستقرَّ. ولا يجعل من استفعل المبنيِّ للمبالغة، مثل استَعْصَمَ واستَحْسَرَ، إلا أنْ يراد في الآية حينئذٍ المبالغةُ في النفي لا نفيُ المبالغة.

وقيل: هو من الكين: اللَّحمةُ المستَبْطنة في الفرج؛ لذلَّةِ المستكين.

وجوَّز الزمخشريُّ[(٣)] أن يكون افتعل من السكون والألفُ إشباعٌ، كما في قوله:

وأنتَ من الغَوائلِ حين تَرْمي ... ومن ذمِّ الرجال بمنتزاح[(٤)]

---

(١) هو أحمد بن إسماعيل بن فارس جد ابن المنير، وكلامه في الانتصاف (مع الكشاف) ٣/ ٣٩، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٤٢ نقلاً عن الانتصاف.

(٢) كتاب الغريبين لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي المتوفى سنة (٤٠١هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٠٩.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٩.

(٤) البيت لإبراهيم بن هرمة القرشي وهو في ديوانه ص٩٢، والحماسة البصرية ١/ ١٩٠، واللسان (نزح)، وسلف ١٠/ ٨٣ برواية: العواتك، بدل: الغوائل، و١٢/ ٣٠٤.

وقوله:

أعـــوذُ بـــالله مـــن الــعَــقْـــرابِ الــشـــائـــلاتِ عُــقَــدَ الأذنـــابِ(١)

واعترُض بأنَّ الإشباع المذكورَ مخصوصٌ بضرورة الشعر، وبأنه لم يُعهد كونُه في جميع تصاريف الكلمة، واستكان جميعُ تصاريفه كذلك، فهو يدل على أنه ليس مما فيه إشباع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ من عذاب الآخرة، كما يُنْبِئُ عنه التهويلُ بفتح الباب والوصفُ بالشدة، وإلى هذا ذهب الجبائيُّ. و«حتى» مع كونها غايةً للنفي السابق مبتدأٌ لِمَا بعدَها من مضمون الشرطية، كأنه قيل: هم مستمرُّون على هذه الحال، حتى إذا فتحنا عليهم يومَ القيامة باباً ذا عذابٍ شديدٍ ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الباب، أو: في ذلك العذاب، أو: بسبب الفتح. أقوال، ﴿مُبْلِسُونَ ٧٧﴾ متحيِّرون آيسونَ من كلِّ خيرٍ، أو ذَوو حُزْنٍ من شدة اليأس. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

وقيل: هذا البابُ استيلاءُ النبيِّ ﷺ والمؤمنين عليهم يوم الفتح، وقد أَيِسوا في ذلك اليومِ من كلِّ ما كانوا يتوهَّمونه من الخير.

وأخرج ابن جرير: أنه الجوعُ الذي أكلوا فيه العِلْهِز(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه القتلُ يومَ بدر(٣).

وروت الإمامية ـ وهم بيتُ الكذب ـ عن أبي جعفر رضي الله عنه: أنَّ ذلك عذابٌ يعذَّبون به في الرجعة(٤). ولعمري لقد افتَرَوْا على الله تعالى الكذبَ، وضلُّوا ضلالاً بعيداً. والوجه في الآية عندي ما تقدَّم.

---

(١) الجمل في النحو للخليل ص ٢٤٤، وضرائر الشعر لابن عصفور ص ٣٣، والبحر ٦/ ٤١٦، واللسان والتاج (سبسب)، وسلف ١٣/ ٣٢٧.

(٢) تفسيرالطبري ١٧/ ٩٥ عن مجاهد.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٩٥.

(٤) مجمع البيان ١٨/ ١٦٧، وسيأتي الكلام على مفهوم الرجعة عند الشيعة عند تفسير الآية (٨٣) من سورة النمل.

والظاهرُ أنَّ هذه الآيات مدنيَّةٌ، وبعضُ مَن قال بمكِّيَّتها ادَّعى أنَّ فيها إخباراً عن المستقبل بالماضي؛ للدلالة على تحقُّق الوقوع.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتُحِسُّوا بها الآياتِ التنزيلية والتكوينية ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكَّروا بها في الآيات وتَسْتَدلُّوا بها، إلى غير ذلك من المنافع. وقدِّم السمعُ لكثرة منافعه، وأُفرِدَ لأنه مصدرٌ في الأصل، ولم يجمعه الفُصحاء في الأكثر.

وقيل: أُفرِدَ لأنه يدرَكُ به نوعٌ واحدٌ من المُدْرَكاتِ وهو الأصوات، بخلاف البصر فإنه يدرَكُ به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال، وبخلاف الفؤاد فإنه يُدرَكُ به أنواعٌ شتَّى من التصوُّرات والتصديقات. وفي الآية إشارةٌ إلى الدليل الحسيِّ والعقليِّ، وتقديمُ ما يشير إلى الأول قد تقدَّم(١)، فتذكَّرْ فما في العهد من قِدَم.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: شكراً قليلاً تشكرون تلك النعمَ الجليلة؛ لأنَّ العمدةَ في الشكر صَرْفُ تلك القوى التي هي في أنفُسِها نِعَمٌ باهرةٌ إلى ما خُلقَتْ هي له، فنصب «قليلاً» على أنه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، والقِلَّةُ على ظاهرها بناءً على أنَّ الخطاب للناس بتغليب المؤمنين.

وجوِّز أن تكون بمعنى النفي بناءً على أنَّ الخطاب للمشركين على سبيل الالتفات. وقيل: هو للمؤمنين خاصةً. وليس بشيء.

والأولى عندي كونُه للمشركين خاصةً مع جواز كون القلَّةِ على ظاهرها، كما لا يخفى على المتدبِّر. و«ما» على سائر الأقوال مزيدة للتأكيد.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم وبثَّكم فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: تُجمعون يومَ القيامة بعد تفرُّقِكم، لا إلى غيره تعالى، فما لكم لا تؤمنون به سبحانه وتشكرونه عز وجل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ من غير أن يشاركه في ذلك شيءٌ من الأشياء ﴿وَلَهُ﴾ تعالى شأنُه خاصةً ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو سبحانه وتعالى المؤثِّر في

---

(١) ١٤/ ٢٠٢.

اختلافهما، أي: تعاقُبِهما، من قولهم: فلانٌ يختلفُ إلى فلانٍ، أي: يتردَّدُ عليه بالمجيءِ والذهاب. أو تخالُفهما زيادةً ونقصاً.

وقيل: المعنى: لأمره تعالى وقضائه سبحانه اختلافُهما، ففي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، واللامُ عليه يجوز أن تكون للتعليل.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٨٠﴾ أي: ألَا تتفكَّرون فلا تعقلون، أو: أتتفكَّرون فلا تعقلون بالنظر والتأمُّل أنَّ الكلَّ صار منَّا، وأنَّ قدرتنا تعمُّ جميعَ الممكنات التي من جملتها البعث.

وقرأ أبو عمرو في روايةٍ: «يعقلون»[١] على أنَّ الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوءِ حال المخاطبين. وقيل: على أنَّ الخطاب الأولَ لتغليب المؤمنين، وليس بذاك.

﴿بَلۡ قَالُواْ﴾ عطفٌ على مُضْمَرٍ يقتضيه المقام، أي: فلم يعقلوا بل قالوا ﴿مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٨١﴾ أي: آباؤهم ومَن دان بدينهم من الكفرة المُنْكِرين للبعث.

﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٨٢﴾ تفسيرٌ لِمَا قبله من المُبْهَمِ، وتفصيلٌ لِمَا فيه من الإجمال، وقد مرَّ الكلامُ فيه[٢].

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ البعثَ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ متعلِّقٌ بالفعل من حيث إسنادُه إلى المعطوفِ عليه والمعطوفِ على ما هو الظاهرُ، وصحَّ ذلك بالنسبة إليهم؛ لأنَّ الأنبياء المُخبِرين بالبعث كانوا يُخْبِرون به بالنسبة إلى جميع مَن يموت.

ويجوز أن يكون متعلِّقاً به من حيث إسنادُه إلى آبائهم لا إليهم، أي: ووُعد آباؤنا من قبل، أو بمحذوفٍ وقع حالاً من «آباؤنا» أي: كائنينَ من قبل.

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾ أي: أكاذيبُهم التي سطروها، جمع أسطورةٍ كأُحدوثةٍ وأُعجوبة، وإلى هذا ذهب المبرِّد[٣] وجماعة.

وقيل: جمع أسطارٍ، جمع سَطَرٍ[٤]، كفَرَسٍ وأَفْراسٍ.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٨، والبحر ٦/٤١٨.
(٢) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٤٩) من سورة الإسراء، وص٧٠-٧١ من هذا الجزء.
(٣) سلف قوله ١٠/٩٤ و١٤/٧٦.
(٤) بفتح الطاء، وهو كالمسكَّن بمعنى الصف. حاشية الشهاب ٦/٣١٣.

والأول كما قال الزمخشريُّ أوفقُ[١]؛ لأنَّ جَمْعَ المفردِ أَوْلَى وأَقْيَس، ولأنَّ بنية أُفْعُولة تجيءُ لِمَا فيه التلهِّي، فيكون حينئذ كأنه قيل: مكتوبات لا طائل تحتها.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ من المخلوقات، تغليباً للعقلاء على غيرهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ جوابُه محذوفٌ ثقةً بدلالة الاستفهام عليه، أي: إن كنتم من أهل العلم ومن العقلاء، أو عالمينَ بذلك، فأخبروني به.

وفي الآية من المبالغة في الاستهانة بهم وتقريرِ فَرْطِ جَهالتهم ما لا يخفى، ويقوِّي هذا أنه أخبر عن الجواب قبل أن يجيبوا، فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فإنَّ بداهة العقل تَضْطَرُّهم إلى الاعتراف بأنه سبحانه خالقُها، فاللام للملك باعتبار الخلق.

﴿قُلْ﴾ أي: عند اعترافهم بذلك تبكيتاً لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: أتعلمون، أو: أتقولون ذلك، فلا تتذكَّرون أنَّ[٢] مَن فَطَر الأرضَ ومَن فيها ابتداءً قادرٌ على إعادتها ثانياً، فإنَّ البدء ليس بأهونَ من الإعادة، بل الأمرُ بالعكس في قياس المعقول.

وقرئ: «تتذكَّرون» على الأصل[٣].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ أُعيدَ لفظُ الربِّ تنويهاً بشأن العرش، ورفعاً لمحلِّه من أن يكون تبعاً للسماوات وجوداً وذِكْراً.

وقرأ ابن محيصن: «العظيمُ» بالرفع[٤] نعتاً للربِّ.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوبُ بغير لامٍ فيه وفيما بعده[٥]، ولم يُقْرَأ - على ما قيل - في السابق بترك اللام، والقراءةُ بغير لامٍ على الظاهر، وباللَّام على المعنى، وكِلَا الأمرين جائزان، فلو قيل: مَن صاحبُ هذه الدار؟ فقيل: زيدٌ، لكان[٦] جواباً عن لفظ السؤال، ولو قيل: لزيد، لكان جواباً على المعنى؛ لأنَّ

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠.
(٢) في الأصل و(م): أي، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٤٧، والكلام منه.
(٣) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٤، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٤٨.
(٤) البحر ٦/ ٤١٨.
(٥) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩.
(٦) في (م): كان.

معنى مَن صاحبُ هذه الدار؟: لمن هذه الدار، وكلا الأمرين واردٌ في كلامهم، أنشد صاحب «المطلع»:

إذا قيل مَن ربُّ المزالفِ والقُرى وربُّ الجيادِ الجردِ قلتُ لخالدِ[1]

وأنشد الزجاج:

وقال السائلون لمن حفرتُم فقال المخبرون لهم وزيرُ[2]

﴿قُلْ﴾ إفحاماً لهم وتوبيخاً: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: أتعلمون ذلك ولا تَقُون[3] أنفسَكم عقابَه على ترك العمل بموجب العلم، حيث تكفرون به تعالى، وتُنْكِرون ما أَخْبَرَ به من البعث، وتُثْبِتون له سبحانه شريكاً.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممَّا ذُكر ومما لم يُذْكَر؛ وصيغةُ الملكوت للمبالغة في الملك، فالمراد به: الملكُ الشاملُ الظاهر. وقيل: المالكيةُ والمدبِّرية. وقيل: الخزائن.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي: يمنع مَن يشاء ممن يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: ولا يَمنع أحدٌ منه جلَّ وعلا أحداً. وتعديةُ الفعل بـ «على» لتضمينه معنى النصرة أو الاستعلاء.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ تكريرٌ لاستهانتهم وتجهيلهم على ما مرَّ.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ملكوتُ كلِّ شيءٍ، والوصفُ بأنه الذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه.

﴿قُلْ﴾ تهجيناً لهم وتقريعاً: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ كيف، أو من أين تُخْدَعون وتُصْرَفون عن الرشد ـ مع عِلْمِكم به ـ إلى ما أنتم عليه من البغي، فإنَّ مَن لا يكون مسحوراً مختلَّ العقل لا يكون كذلك.

---

(١) البيت في تفسير القرطبي ١٥/ ٨٠، وتفسير النسفي ٣/ ١٢٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ١٧٠، وتفسير الطبري ١/ ١٤٠ و١٧/ ٩٩، ونسباه إلى بعض بني عامر، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ١٨٤ للوزيري، وهو دون نسبة في كتاب اللامات للزجاجي ص ٤٩.

(٣) في الأصل و(م): تتقون، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٨.

وهذه الآياتُ الثلاثُ، أعني «قل لمن» إلى هنا، على ما قرِّر في «الكشف» تقريرٌ للسابق وتمهيدٌ للَّاحق، وقد روعي في السؤال فيها قضيةُ الترقِّي، فسُئلَ عمَّن له الأرضُ ومَن فيها، وقيل: «مَن» تغليباً للعقلاء، ولأنه يلزمُ أن يكون له غيرُهم من طريق الأَوْلى. ثم سئل عمَّن له السماواتُ والعرشُ العظيم، والأرضُ بالنسبة إليه كَلَا شيءٍ. ثم سُئل عمَّن بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ، فأتى بأعمِّ العامِّ وكلمةِ الإحاطة، وأُوْثِرَ الملكوتُ وهو الملكُ الواسع، وقيل: «بيده» تصويراً وتخييلاً.

وكذلك روعي هذه النكتةُ في الفواصل، فعيِّروا أوَّلاً بعدم التذكُّر، فإنَّ أيْسَرَ النظر يكفي في انحلال عَقْدِهم. ثم بعدم الاتِّقاء، وفيه وعيدٌ. ثم بالتعجُّب من خَدْعِ عقولهم فتخيُّلُ الباطلَ حقّاً والحقَّ باطلاً، وأنَّى لها التذكُّرُ والخوف.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضرابٌ عن قولهم: «إنْ هذا إلَّا أساطيرُ الأوَّلين»، والمرادُ بالحقِّ: الوعدُ بالبعث. وقيل: ما يعمُّه والتوحيدَ، ويدلُّ على هذا السياق. وقرئ: «بل أتيتُهم» بتاء المتكلِّم. وقرأ ابن أبي إسحاق بتاء الخطاب(١).

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ في قولهم: «إنْ هذا إلَّا أساطيرُ الأوَّلين»، أو في ذلك وقولِهم بما ينافي التوحيد.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتنزُّهِه عزَّ وجلَّ عن الاحتياج، وتقدُّسِه تعالى عن مماثلة أحد.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركُه سبحانه في الألوهية ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لاستبدَّ بالذي خَلَقه، واستقلَّ به تصرُّفاً، وامتاز ملكهُ عن الآخر.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولَوَقَعَ التحارُبُ والتغالُبُ بينهم كما هو الجاري فيما بين الملوك، والتالي باطلٌ لِمَا يلزمُ من ذلك نفيُ ألوهيةِ الجميع، أو ألوهيةِ ما عدا واحداً منهم، وهو خلافُ المفروض، أو لِمَا أنه يلزمُ أنْ لا يكون بيده تعالى وحدَه ملكوتُ كلِّ شيءٍ، وهو باطلٌ في نفسه لما برهن عليه في الكلام وعند الخصم؛ لأنه يقول باختصاص ملكوتِ كلِّ شيءٍ به تعالى، كما يدلُّ عليه السؤالُ والجواب السابقان آنفاً، وكذا قيل، ولا يخفى أنَّ اللزوم في الشرطية

(١) القراءتان في الكشاف ٣/ ٤٠، والبحر ٦/ ٤١٨.

المفهومة من الآية عاديٌّ لا عقليٌّ، ولذا قيل: إنَّ الآية إشارةٌ إلى دليلٍ إقناعيٍّ للتوحيد لا قطعيٍّ.

وفي «الكشف»: قد لاح لنا مِن لُطْفِ الله تعالى وتأييدِه أنَّ الآية برهانٌ نيِّرٌ على توحيده سبحانه، وتقريرُه: أنَّ مرجِّح الممكناتِ الواجبُ الوجودِ تعالى شأنُه جلَّ عن كلِّ كثرةٍ، أمَّا كثرةُ المقوِّمات أو الأجزاءِ الكميةِ فبيِّنةُ الانتفاءِ لإيذانها بالإمكان، وأمَّا التعدُّدُ مع الاتِّحاد في الماهية فكذلك؛ للافتقار إلى المميِّز، ولا يكونُ مقتضَى الماهيةِ لاتِّحادهما فيه، فيلزمُ الإمكانُ، ثم المميِّزان في الطرفين صفتا كمالٍ؛ لأنَّ الاتِّصاف بما لا كمالَ فيه نقصٌ، فهما ناقصان ممكنان مفتقران في الوجود إلى مكمِّلٍ خارجٍ هو الواجبُ بالحقيقة، وكذلك الافتقارُ في كمالٍ ما للوجود يوجبُ الإمكان؛ لإيجابِه أنْ يكون فيه أمرٌ بالفعل وأمرٌ بالقوة، واقتضائه التركيبَ والإمكان.

ومن هنا قال العلماء: إنَّ واجب الوجود بذاته واجبٌ بجميع صفاته ليس له أمرٌ منتظر، ومع الاختلاف في الماهية يلزمُ أن لا يكون المرجِّحُ مرجِّحاً، أي: لا يكون الإله إلهاً؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ واحدٌ من الممكنات؛ إن استقلَّا بترجيحه لزم توارُدُ العلَّتين التامتين على معلولٍ شخصيٍّ، وهو ظاهرُ الاستحالة، فكونُه مرجِّحاً إلهاً يوجبُ الافتقار إليه، وكونُ غيره مستقلًّا بالترجيح يوجبُ الاستغناءَ عنه، فيكون مرجِّحاً غيرَ مرجِّحٍ في حالةٍ واحدة.

وإنْ تَعاوَنَا فكمثل إذ ليس ولا واحد منهما بمرجِّحٍ وفُرِضا مرجحين، مع ما فيه من العجز عن الإيجادِ والافتقارِ إلى الآخر.

وإن اختصَّ كلٌّ منهما ببعضٍ مع أنَّ الافتقار إليهما على السواء، لزم اختصاصُ ذلك المرجِّح بمخصِّصٍ يخصِّصُه بذلك البعض بالضرورة وليس الذات؛ لأنَّ الافتقار إليهما على السواء، فلا أولويةَ للترجيح من حيث الذات ولا معلول الذات؛ لأنه يكون ممكناً والكلام فيه عائدٌ، فيلزم المحالُ من الوجهين الأوَّلين، أعني الافتقارَ إلى مميِّزٍ غيرِ الذات ومقتضاها، ولزومَ النقص لكلِّ واحدٍ؛ لأنَّ هذا المميِّز صفةُ كمالٍ، ثم مخصِّصُ كلٌّ بذلك التمييز هو الواجبُ الخارجُ لا هما.

وإلى المحال الأول الإشارةُ بقوله تعالى: (إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ) وهو لازمٌ على تقدير التخالُفِ في الماهية واختصاص كلٍّ ببعض، وخصَّ هذا القسم لأنَّ ما سواه أظهرُ استحالةً.

وإلى الثاني الإشارةُ بقوله سبحانه: (وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أي: إمَّا مطلقاً وإمَّا من وجهٍ، فيكون العالي هو الإله، أو لا يكون ثَمَّ إلهٌ أصلاً، وهذا لازمٌ على تقديري التخالُفِ والاتِّحاد والاختصاص وغيره، فهو تكميلٌ للبرهان من وجهٍ، وبرهانٌ ثانٍ من آخر.

فقد تبيَّن ولا كفَرَقِ(١) الفجر أنه تعالى هو الواحدُ الأحدُ، جعل وجوده زائداً على الماهية أوْ لا، فاعلاً بالاختيار أوْ لا، وليس برهانُ الوحدةِ مبنيًّا على أنه تعالى فاعلٌ بالاختيار كما ظنَّه الإمام الرازي قدِّس سرُّه. انتهى، وهو كلامٌ يلوح عليه مخايلُ التحقيق، وربما يورَدُ عليه بعضُ مناقشاتٍ تندفع بالتأمُّل الصادق.

وما أشرنا إليه من انفهام قضيةٍ شرطيةٍ من الآية ظاهرٌ جدًّا على ما ذهب إليه الفرَّاء(٢)، فقد قال: إنَّ «إذاً» حيث جاءت بعدها اللامُ فقَبْلَها «لو» مقدَّرةٌ إنْ لم تكن ظاهرةً، نحو: (إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ) فكأنه قيل: لو كان معه آلهةٌ كما تزعمون لذهب كلٌّ.. إلخ.

وقال أبو حيان(٣): «إذاً» حرفُ جوابٍ وجزاء، ويقدَّر قسمٌ يكون «لَذَهبَ» جواباً له، والتقديرُ: والله إذاً، أي: إن كان معه من إلهٍ لَذَهَبَ، وهو في معنى: ليذهَبَنَّ، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا﴾ [الروم: ٥١] أي: لَيَظَلُّنَّ، لأن «إذاً» تقتضي الاستقبال، وهو كما ترى.

وقد يقال: إنَّ «إذاً» هذه ليست الكلمةَ المعهودةَ، وإنَّما هي «إذا» الشرطيةُ حذفت جملتُها التي تضاف إليها وعوِّض عنها التنوين، كما في «يومئذٍ»، والأصلُ: إذا كان معه من إلهٍ لذهب إلخ، والتعبيرُ بـ «إذاً» من قبيل مجاراة الخصم.

---

(١) أي: كفلق. القاموس (فرق).
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٤١.
(٣) في البحر ٦/ ٦٥ و٤١٩.

وقيل: «كلُّ إلهٍ» لِمَا أنَّ النفي عامٌّ يفيد استغراقَ الجنس. و«ما» في «بما خلق» موصولةٌ حُذفَ عائدُها كما أشرنا إليه. وجوِّز أن تكون مصدريةً، ويحتاج إلى نوعِ تكلُّفٍ لا يخفى.

ولم يستدلَّ على انتفاءِ اتِّخاذِ الولد إمَّا لغايةِ ظهورِ فسادِهِ، أو للاكتفاء بالدليل الذي أُقيم على انتفاء أن يكون معه سبحانه إلهٌ، بناءً على ما قيل: إنَّ ابن الإلهِ يلزمُ أن يكون إلهاً؛ إذ الولدُ يكون من جنس الوالد وجوهرِه، وفيه بحثٌ.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ مبالغةٌ في تنزيهه تعالى عن الولد والشريك، و«ما» موصولةٌ، وجوِّز أن تكون مصدريةً. وقرئ: «تصفون» بتاء الخطاب[1].

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: كلِّ غيبٍ وشهادة، وجُرَّ «عالم» على أنه بدلٌ من الاسم الجليل، أو صفةٌ له؛ لأنه أُريدَ به الثبوتُ والاستمرار فيتعرَّفُ بالإضافة.

وقرأ جماعةٌ من السبعة وغيرِهم برَفْعِه[2] على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو عالم، والجرُّ أجود عند الأخفش[3]، والرفعُ أَبْرعُ عند ابن عطية[4].

وأيًّا ما كان فهو ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى دليلٍ آخرَ على انتفاء الشريك، بناءً على تَوَافُقِ المسلمين والمشركين في تفرُّده تعالى بذلك.

وفي «الكشف»: إنَّ في قوله سبحانه «عالم» إلخ إشارةً إلى برهانٍ آخَرَ راجعٍ إلى إثبات العلوِّ، أو لزومِ الجهل الذي هو نقصٌ وضدُّ العلوِّ؛ لأنَّ المتعدِّدَينِ لا سبيل لهما إلى أن يعلَم كلُّ واحدٍ حقيقة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة، وهو نوعُ جهلٍ وقصور، ثم عِلْمُه به يكون انفعاليّاً تابعاً لوجود المعلوم، فيكون في إحدى صفات الكمال ـ أعني العلم ـ مفتقراً، وهو يؤذِنُ بالنقصان والإمكان.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٩.

(٢) قرأ بالرفع من العشرة نافع وشعبة وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. التيسير ص١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩.

(٣) كما في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٤، والبحر ٦/ ٤١٩.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٤.

﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ الله ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ٩٢﴾ تفريعٌ على كونه تعالى عالماً بذلك، فهو كالنتيجة لِمَا أشار إليه من الدليل.

وقال ابن عطية: الفاء عاطفةٌ، كأنه قيل: عَلِمَ الغيبَ والشهادةَ فتعالى، كما تقول: زيدٌ شجاعٌ فعَظُمَتْ منزلتُه، على معنى: شَجُعَ فعَظُمَتْ، ويحتمل أن يكون المعنى: فأقول تعالى.. إلخ، على أنه إخبارٌ مستأنف[1].

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ أي: إن كان لا بدَّ من أنْ تُرِيَني؛ لأنَّ «ما» والنون زيدتا للتأكيد ﴿مَا يُوعَدُونَ ٩٣﴾ أي: الذي يوعدونه من العذاب الدنيويِّ المستأصِلِ، وأمَّا العذابُ الأُخرويُّ فلا يناسبُ المقام.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤﴾ أي: قريناً لهم فيما هم فيه من العذاب، ووضعَ الظاهر موضعَ الضمير للإشارة إلى استحقاقهم للعذاب.

وجاء الدعاء قبل الشرط وقبل الجزاء مبالغةً في الابتهال والتضرُّع، واختير لفظُ الربِّ لِمَا فيه من الإيذان بأنه سبحانه المالكُ الناظر في مصالح العبد.

وفي أمره ﷺ أن يدعوَ بذلك مع أنه عليه الصلاة والسلام في حرزٍ عظيم من أن يُجعل قريناً لهم، إيذانٌ بكمال فظاعة العذاب الموعود، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه مَن لا يكاد يمكِنُ أن يحيق به. وهو متضمِّنٌ ردَّ إنكارهم العذابَ واستعجالِهم به على طريقة الاستهزاء.

وقيل: أُمِرَ ﷺ بذلك هضماً لنفسه وإظهاراً لكمال العبودية.

وقيل: لأنَّ شؤم الكفرةِ قد يحيقُ بمن سواهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وروي عن الحسن أنه جل شأنه أخبر نبيَّه ﷺ بأنَّ له في أمته[2] نقمةً، ولم يُطْلِعْه على وقتها، أهو في حياته أم بعدها، فأمره بهذا الدعاء.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٤، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤١٩.
(٢) جاء في هامش (م): أي: أمة الدعوة. اهـ منه.

وقرأ الضحاك وأبو عمران الجونيُّ: «تُرِئَنِّي» بالهمزة بدل الياء، وهو كما في «البحر» إبدالٌ ضعيف[١].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ولكنَّا لا نفعلُ، بل نؤخِّره عنهم لعِلْمِنا بأنَّ بعضهم أو بعضَ أعقابهم سيؤمنون، أو لأنَّا لا نعذِّبهم وأنت فيهم.

وقيل: قد أَراه سبحانه ذلك، وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة؛ قال شيخ الإسلام: ولا يَخْفَى بُعْدُه؛ فإنَّ المتبادِرَ أن يكون ما يستحقُّونه من العذاب الموعودِ عذاباً هائلاً مستأصِلاً، لا يظهر على يديه ﷺ للحكمة الداعية إليه[٢].

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: ادفع بالحسنة التي هي أحسنُ الحسنات التي يُدْفَعُ بها ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بأنْ تُحْسِنَ إلى المسيء في مقابلتها ما استطعتَ، ودون هذا في الحُسْنِ أن يُحسن إليه في الجملة، ودونه أن يصفح عن إساءته فقط.

وفي ذلك من الحثِّ له ﷺ إلى ما يليق بشأنه الكريم من حُسْنِ الأخلاق ما لا يخفى، وهو أبلغُ من: ادفع بالحسنة السيئةَ؛ لمكان «أحسن»، والمفاضلةُ فيه على حقيقتها على ما ذكرنا، وهو وجهٌ حسنٌ في الآية.

وجوِّز أن تعتبر المفاضلة بين الحسنة والسيئة على معنى أنَّ الحسنة في باب الحسنات أَزْيَدُ من السيئة في باب السيئات، ويطَّردُ هذا في كلِّ مفاضلةٍ بين ضدَّين، كقولهم: العسلُ أحلى من الخلِّ، فإنهم يعنون أنه في الأصنافِ الحلوةِ أَمْيَزُ من الخلِّ في الأصناف الحامضة. ومن هذا القبيل ما يُحكى عن أشعب الماجن أنه قال: نشأتُ أنا والأعمشُ في حجر فلان، فما زال يعلو وأَسْفُلُ حتى استوينا. فإنه عَنَى استواءهما في بلوغ كلٍّ منهما الغايةَ، حيث بلغ هو الغايةَ في التدلِّي[٣]، والأعمشُ الغايةَ في التعلِّي.

وعلى الوجهين لا يتعيَّنُ هذا الأحسن وكذا السيئة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس أنه قال في الآية: يقولُ

---

(١) البحر ٦/ ٤٢٠، والقراءة ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٤٩.
(٣) في حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٥ (والكلام منه): التدني.

الرجل لأخيه ماليس فيه، فيقول: إن كنتَ كاذباً فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لك، وإن كنتَ صادقاً فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لي(١).

وقيل: التي هي أحسنُ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، والسيئةُ: الشرك.

وقال عطاء والضحاك: التي هي أحسن: السلام، والسيئةُ: الفحش.

وقيل: الأول الموعظة، والثاني المنكر.

واختار بعضهم العمومَ وأنَّ ما ذكر من قبيل التمثيل.

والآية قيل: منسوخةٌ بآية السيف. وقيل: هي محكمةٌ لأنَّ الدفع المذكور مطلوبٌ مالم يؤدِّ إلى ثَلْمِ الدِّين والازدراء بالمروءة.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: بوصفهم إياك، أو بالذي يصفونك به مما أنت بخلافه، وفيه وعيدٌ لهم بالجزاء والعقوبة، وتسليةٌ لرسول الله ﷺ، وإرشادٌ له عليه الصلاة والسلام إلى تفويض أمره إليه عز وجل، والظاهرُ من هذا أنَّ الآية آيةُ موادَعةٍ، فافهم.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ أي: وساوِسِهم المغريةِ على خلافِ ما أُمِرْتُ به، وهي جمع هَمْزَة، والهَمْز: النَّخْسُ والدَّفعُ بيدٍ أو غيرها، ومنه مهمازُ الرائض: لحديدةٍ تُرْبَطُ على مؤخَّر رِجْلِه ينخسُ به الدابة لتُسْرِعَ أو لتَثِبَ. وإطلاقُ ذلك على الوسوسة والحثِّ على المعاصي؛ لما بينهما من الشَّبَهِ الظاهر، والجمعُ للمرَّات، أو لتنوُّعِ الوساوس، أو لتعدُّدِ الشياطين.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أي: من حضورِهم حولي في حالٍ [من](٢) الأحوال. وتخصيصُ حالِ الصلاة وقراءةِ القرآن، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحالِ حلولِ الأجل كما روي عن عكرمة؛ لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها، لاسيما الحال الأخيرة، ولذا قيل: اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من النَّزْعِ عند النَّزْعِ. وإلى العموم ذهب ابن زيد.

---

(١) الحلية ٨/ ٢٥٢-٢٥٣، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٤.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٠، والكلام منه.

وفي الأمر بالتعوُّذ من الحضور بعد الأمر بالتعوُّذ من همزاتهم مبالغةٌ في التحذير من مُلابَسَتِهم. وإعادةُ الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمالِ الاعتناء بالمأمور به؛ وعَرْضِ نهايةِ الابتهال في الاستدعاء.

ويُسَنُّ التعوُّذ من همزاتِ الشياطين وحضورِهم عند إرادة النوم، فقد أخرج أحمد وأبو داود والنسائيُّ والترمذيُّ وحسَّنه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّمنا كلماتٍ نقولُهنَّ عند النوم من الفزع: «بسم الله، أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّةِ من غَضَبِه وعقابه وشرِّ عباده، ومن هَمَزاتِ الشياطين وأنْ يَحْضُرون»(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ «حتى» ابتدائيةٌ وغايةٌ لمقدَّرٍ يدلُّ عليه ما قبلها، والتقدير: فلا أكون كالكفار الذين تهمزُهم الشياطينُ وتَحْضُرهم حتى إذا جاء.. إلخ، ونظيرُ ذلك قوله:

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبُّني(٢)

فإنَّ التقدير: يسبُّني كلُّ الناسِ حتى كليبٌ، إلَّا أنه حذفت الجملةُ هنا لدلالة ما بعدَ «حتى».

وقيل: إنَّ هذا الكلام مردودٌ على «يَصِفُون» الثاني، على معنى أنَّ «حتى» متعلِّقةٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه، كأنه قيل: لا يزالون على سوء المقالة والطعنِ في حضرة الرسالة حتى إذا.. إلخ، وقولُه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾ إلخ اعتراضٌ مؤكِّدٌ للإغضاء المدلول عليه بقوله سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلخ، بالاستعاذة به تعالى من الشياطين أن يُزِلُّوه عليه الصلاة والسلام عمَّا أُمِرَ به.

وقيل: على «يصفون» الأول، أو على «يشركون». وليس بشيءٍ.

وجوَّز الزمخشريُّ أن يكون مردوداً(٣) على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(٤)،

(١) مسند أحمد ٢/ ١٨١، وسنن أبي داود (٣٨٩٣)، وسنن الترمذي (٣٥٢٨)، وعمل اليوم والليلة للنسائي (٧٦٦).
(٢) وعجزه: كأن أباها نهشل أو مجاشع، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤١٩.
(٣) في(م): مروراً.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٢.

ويكون من قوله سبحانه: (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ) إلى هذا المقام كالاعتراض تحقيقاً لكذبهم ولاستحقاقهم جزاءه. وليس بالوجه.

ويُفْهَمُ من كلام ابن عطية[١] أنه يجوزُ أن تكون «حتى» هنا ابتدائيةً لا غايةً لِمَا قبلها. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّها إذا كانت ابتدائيةً لا تفارقُها الغاية[٢].

والظاهرُ الذي لا ينبغي العدولُ عنه أنَّ ضمير «أحدهم» راجعٌ إلى الكفار، والمراد من مجيءِ الموت ظهورُ أماراته، أي: إذا ظهر لأحدهم أيّ أحدٍ كان منهم أماراتُ الموت، وبَدَتْ له أحوالُ الآخرة ﴿قَالَ﴾ تحسُّراً على ما فرَّط في جَنْبِ الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ أي: رُدَّني إلى الدنيا، والواو لتعظيم المخاطَب وهو اللهُ تعالى، كما في قوله:

أَلَا فارْحَموني يا إلهَ محمدٍ فإنْ لم أَكُنْ أهلاً فأنتَ له أهلُ[٣]

وقول الآخر:

وإنْ شئتُ حرَّمْتُ النساءَ سواكم وإن شئتُ لم أَطْعَمْ نُقَاخاً ولابَرْدا[٤]

والحقُّ أنَّ التعظيم يكون في ضمير المتكلِّم والمخاطَب، بل والغائبِ والاسمِ الظاهر، وإنكارُ ذلك غيرُ رضيٍّ، والإيهامُ الذي يدَّعيه ابن مالك[٥] هنا لا يُلتفتُ إليه.

وقيل: الواو لكون الخطاب للملائكة عليهم السلام، والكلامُ على تقديرِ مضافٍ، أي: يا ملائكةَ ربِّي ارْجِعوني.

وجوِّز أن يكون «ربِّ» استغاثةً به تعالى، و«ارجعوني» خطاباً[٦] للملائكة عليهم

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥.
(٢) البحر ٦/ ٤٢٠.
(٣) ذكر صدره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٢١.
(٤) البيت للعَرْجي، كما في الأضداد لابن الأنباري ص ٦٤، والصحاح (نقخ). وهو بلا نسبة في تفسير الغريب لابن قتيبة ص ١٤٦ و٥٠٩، والبحر ٦/ ٤٢١. وجاء في هامش الأصل و(م): النقاخ: الماء البارد، والبرد: النوم.
(٥) كما في الدر المصون ٨/ ٣٦٦ حيث نقل السمين عن ابن مالك قوله: إنه لم يَعْلَم أحداً أجاز للداعي يقول: يا رحيمون؛ لئلا يوهم خلاف التوحيد.
(٦) في (م): خطاب.

السلام، وربما يُستأنسُ لذلك بما أخرجه ابن جَريرٍ وابنُ المنذر عن ابن جُرَيْجٍ قال: زعموا أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعائشة ﵂: «إنَّ المؤمنَ إذا عايَنَ الملائكةَ قالوا: نَرْجِعُكَ إلى دار الدنيا؟ قال: إلى دارِ الهموم والأحزان؟ بل قدوماً إلى الله تعالى. وأمَّا الكافر فيقولون له: نَرْجِعُكَ؟ فيقول: ربِّ ارْجِعوني»[1].

وقال المازنيُّ: جمع الضمير ليدلَّ على التكرار، فكأنه قال: ربِّ ارجعني ارجعني ارجعني، ومثلُ ذلك تثنيةُ الضمير في: قفا نَبْكِ[2]، ونحوِه.

واستشكل ذلك الخفاجيُّ بأنه إذا كان أصلُ ارجعوا مثلاً: ارجع ارجع ارجع، لم يكن ضميرُ الجمع بل تركيبه الذي فيه حقيقةً، فإذا كان مجازاً فمِن أيِّ أنواعه؟ وكيف دلالتُه على المراد؟ وما علاقتُه؟ وإلَّا فهو ممَّا لا وجهَ له. ومن غريبه أنَّ ضميره كان مفرداً واجبَ الاستتار، فصار غيرَ مفردٍ واجبَ الإظهار.

ثم قال: لم تَزَلْ هذه الشبهةُ قديماً في خاطري، والذي خَطَرَ لي أنَّ لنا استعارةً أخرى غيرَ ما ذُكر في المعاني، ولكونها لا علاقة لها بالمعنى لم تُذْكَر، وهي استعارةُ لفظٍ مكانَ لفظٍ آخَرَ لنكتة، بقَطْعِ النظر عن معناه، وهو كثيرٌ في الضمائر، كاستعمال الضمير المجرور الظاهرِ مكانَ المرفوع المستتر في: كفى به، حتى لزم انتقالُه عن صفةٍ إلى صفةٍ أخرى، ومن لَفْظٍ إلى آخر، وما نحن فيه من هذا القبيل، فإنه غيَّر الضمائر المستترة إلى ضمير جمعٍ ظاهرٍ، فلزم الاكتفاءُ بأحد ألفاظِ الفعل، وجعل دلالة ضمير الجمع على تكرُّر الفعل قائماً مقامه في التأكيد من غير تجوُّزٍ فيه. ولابن جنِّي في «الخصائص» كلامٌ يدلُّ على ما ذكرناه، فتأمَّلْ[3]. انتهى كلامُه.

ولعَمْري لقد أَبْعَدَ جدّاً، ولعل الأقربَ أن يقال: أراد المازنيُّ أنه جمع الضمير للتعظيم بتنزيل المخاطَب الواحد منزلةَ الجماعة المخاطبين، ويَتْبعُ ذلك كونُ الفعل

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٠٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤.

(٢) قطعة من بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٨، وتمامه:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول وحَوْمَلِ

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٦، وينظر الخصائص ٢/ ٤٦٦، باب في إيراد المعنى المراد بغير اللفظ المعتاد.

الصادر منه بمنزلة الفعل الصادر من الجماعة، ويتبعُهما كون «ارجعوني» مثلاً بمنزلة: ارجعني ارجعني ارجعني، ولكن إجراء نحو هذا في نحو: قفا نَبْكِ، لا يتسنَّى إلا إذا قيل بأنه قد يُقصَدُ بضمير التثنية التعظيمُ، كما قد يُقْصَدُ ذلك بضمير الجمع، ولم يخطر لي أنّي رأيته، فلْيُتتبَّعْ ولْيُتَدبَّر.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ أي: في الإيمان الذي تركتُه، و«لعل» للترجِّي، وهو إما راجعٌ للعمل والإيمان لعِلْمِه بعدم الرجوع، أو للعمل فقط لتحقيق إيمانه إن رجع، فهو كما في قولك: لعلي أربح في هذا المال، أو كقولك: لعلي أبني على أُسٍّ، أي: أُؤسِّسُ ثم أبني.

وقيل: فيما تركتُ من المال أو من الدنيا، جَعَلَ مفارقة ذلك تركاً له.

ويجوز أن تكون «لعل» للتعليل؛ وفي «البرهان»: حَكَى البغويُّ عن الواقديِّ أنَّ جميع ما في القرآن من «لعل» فإنها للتعليل، إلَّا قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] فإنها للتشبيه(١). وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدِّيِّ عن أبي مالكٍ نحوه(٢).

ثم إنَّ طَلَبَ الرَّجْعةِ ليس من خواصِّ الكفار، فعن ابن عباس ﵄: أنَّ مانع الزكاة وتارِكَ الحجِّ المستطيعَ يَسْألان الرجعة عند الموت.

وأخرج الدَّيلميُّ(٣) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضر الإنسانَ الوفاةُ يُجْمَعُ له كلُّ شيءٍ يمنعه عن الحقِّ فيُجْعَلُ بين عينيه، فعند ذلك يقول: «ربِّ ارْجعوني لعلِّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ». وهذا الخبرُ يؤيِّد أنَّ المراد من «ما تركتُ»: المالُ ونحوُه.

﴿كَلَّآۚ﴾ رَدْعٌ عن طَلَبِ الرجعةِ واستبعادٌ لها ﴿إِنَّهَا﴾ أي: قولَه: «ربِّ ارجعوني» إلخ ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ لا محالةَ، لا يخلِّيها ولا يسكتُ عنها؛ لاستيلاء الحسرة وتسلُّطِ الندم عليه، فتقديمُ المسندِ إليه للتقوِّي، أو: هو قائلُها وحدَه،

(١) البرهان ٤/ ٣٩٤.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٦٠، والدر المنثور ١/ ٣٣.
(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ١٥.

فالتقديمُ للاختصاص، ومعنى ذلك: أنه لا يُجاب إليها ولا تُسْمَعُ منه، بتنزيل الإجابة والاعتداد منزلةَ قولِها، حتى كأنَّ المعتدَّ بها شريكٌ لقائلها. ومثلُ هذا متداوَلٌ، فيقول مَن كلَّمه صاحبُه بما لا جدوى تحته: اشْتَغِلْ أنت وحدك بهذه الكلمة فتكلَّمْ واستَمِعْ، يعني أنها مما لا تُسْمَعُ منك ولا تستحقُّ الجواب.

والكلمة هنا بمعنى الكلام، كما في قولهم: كلمة الشهادة، وهي في هذا المعنى مجازٌ عند النحاة. وأمَّا عند اللغويين؛ فقيل: حقيقة، وقيل: مجازٌ مشهور.

والظاهر أنَّ «كلَّا» وما بعدها من كلامه تعالى، وأَبْعَدَ جدّاً مَن زَعَم أنَّ «كلَّا» مِن قولِ مَن عايَنَ الموتَ، وأنه يقولُ ذلك لنفسه على سبيل التحسُّرِ والندم.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: أمامهم، وقد مرَّ تحقيقُه(١)، والضميرُ لـ «أحدهم»، والجمعُ باعتبار المعنى لأنه في حُكْمِ كلِّهم، كما أنَّ الإفراد في الضمائر الأُوَلِ باعتبار اللَّفْظِ.

﴿بَرْزَخٌ﴾ حاجزٌ بينهم وبين الرجعة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ من قبورهم، وهو يوم القيامة، وهذا تعليقٌ لرجعتهم إلى الدنيا بالمُحالِ، كتعليق دخولهم الجنةَ بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وعن ابن زيد أنَّ المراد: من ورائهم حاجزٌ بين الموت والبعثِ في القيامة من القبور، باقٍ إلى يوم يبعثون.

وقيل: حاجزٌ بينهم وبين الجزاء التامِّ باقٍ إلى يوم القيامة، فإذا جاء ذلك اليومُ جُوزوا على أتمِّ وَجْهٍ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، وهي النفخةُ الثانية التي يقع عندها البعثُ والنشور.

وقيل: المعنى: فإذا نفخ في الأجساد أرواحُها، على أنَّ «الصُّوْرَ» جمعُ صورة ـ على نحو بُسْرٍ وبُسْرَةٍ ـ لا القَرْنُ، وأيِّد بقراءةِ ابن عباس والحسن وابن عياض: «في الصُّوَر» بضمِّ الصاد وفتح الواو، وقراءةِ ابن رزين: «في الصِّوَر» بكسر

(١) ١٦/٩.

الصاد وفتح الواو[١]، فإنَّ المذكور في هاتين القراءتين جمعُ صورةٍ لا بمعنى القرن قطعاً، والأصلُ توافُقُ معاني القراءات، ولا تَنافيَ بين النفخ في الصُّور بمعنى القرن الذي جاء في الخبر[٢] ودلَّت عليه آياتٌ أُخَرُ، وبين النفخِ في الصُّور جمع صورةٍ، فقد جاء أنَّ هذا النفخَ عند ذاك.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ نُفِخَ في الصُّور، كما هي بينهم اليوم، والمراد أنها لا تنفعهم شيئاً، فهي منزَّلةٌ منزلةَ العدم لعِظَم الهولِ واشتغالِ كلٍّ بنفسه، بحيث يفرُّ المرء من أخيه، وأمِّه وأبيه، وصاحبته وبنيه.

وقد أخرج ابن المبارك في «الزهد»، وابنُ جريرٍ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن عساكر، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا كان يومُ القيامة جَمَع الله تعالى الأوَّلين والآخِرينَ ـ وفي لفظ: يؤخذُ بيد العبد أو الأمة يومَ القيامة على رؤوس الأوَّلين والآخِرين ـ ثم ينادي منادٍ: ألا إنَّ هذا فلان بن فلان، فمن كان له حقٌّ قِبَلَه فليأت إلى حقِّه ـ وفي لفظٍ: مَن كان له مظلمةٌ فلْيَجِئْ ليأخذ حقَّه ـ فيفرحُ والله المرءُ أن يكون له الحقُّ على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداقُ ذلك في كتاب الله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ)[٣]. وهذا الأثرُ يدلُّ على أنَّ هذا الحكم غيرُ خاصٍّ بالكفرة بل يعمُّهم وغيرَهم.

وقيل: هو خاصٌّ بهم كما يقتضيه سياق الآية.

وقيل: لا ينفع نسبٌ يومئذٍ إلَّا نسبُه ﷺ، فقد أخرج البزَّار والطبرانيُّ والبيهقيُّ وأبو نعيم والحاكم والضياء في «المختارة» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ

---

(١) القراءتان في القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤٢١. وابن عياض هو سعد ـ وقيل: سعيد ـ بن عياض الثمالي الكوفي، روى عن النبي ﷺ مرسلاً وعن ابن مسعود، قال ابن عبد البر: لا تصح له صحبة. التهذيب ١/ ٦٩٦.

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٣٩) و(١١٦٩٦)، والترمذي (٢٤٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور، وحَنَى جبهته وأصغى سمعه، ينتظر متى يؤمر» وجاء في بعض رواياته: القرن، بدل: الصور.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٤١٦)، وتفسير الطبري ١٧/ ١١٢-١١٣، والحلية ٤/ ٢٠١-٢٠٢، وتاريخ ابن عساكر ١٨/ ٢٨٥، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٥.

رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ سَبَبٍ ونَسَبٍ منقطعٌ يومَ القيامة إلَّا سببَي ونَسَبي»(١). وقد أخرج جماعةٌ نحوَه عن مِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةِ رضي الله عنه مرفوعاً(٢)، وأخرج ابن عساكر نحوَه مرفوعاً أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما(٣).

وهو خبرٌ مقبولٌ لا يكاد يردُّه إلَّا مَن في قلبه شائبةُ نَصْبٍ(٤)، نعم ينبغي القولُ بأنَّ نَفْعَ نسبِه ﷺ إنما هو بالنسبة للمؤمنين الذين تشرَّفوا به، وأمَّا الكافرُ والعياذُ بالله تعالى فلا نَفْعَ له بذلك أصلاً.

وقد يقال: إنَّ هذا الخبر لا ينافي إرادة العموم في الآية، بأن يكون المرادُ نفيَ الالتفات إلى الأنساب عقيب النفخة الثانية من غير فَصْلٍ حَسْبَما يُؤْذِنُ به الفاءُ الجزائية، فإنَّها على المختار تدلُّ على التعقيب، ويكون المراد تهويلَ شأن ذلك الوقت ببيان أنه يَذْهَلُ فيه كلُّ أحدٍ عمَّن بَيْنَه وبَيْنَه نسبٌ، ولا يلتفتُ إليه ولا يخطر هو بباله، فضلاً عن أنه ينفعُه أو لا ينفعه، وهذا لا يدل على عدم نفع كلِّ نسبٍ فضلاً عن عدم نفع نسبه ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، وحكي عن الجبائيِّ: أنَّ المراد أنه لا يُفتخَرُ يومئذٍ بالأنساب كما يُفتخَرُ بها في الدنيا، وإنما يُفْتَخَرُ هناك بالأعمال والنجاةِ من الأهوال، فحيث لم يُفتخَرْ بها ثَمةَ كانت كأنها لم تكن. فعلى هذا وكذا على ما تقدَّم يكون قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ﴾ من باب المجاز.

وجوِّز أن يكون فيه صفةٌ مقدَّرةٌ، أي: فلا أنسابَ نافعةً أو مُلتفَتاً إليها أو مفتخَراً بها، وليس بذاك. والظاهر أنَّ العامل في «يومئذٍ» هو العملُ في «بينهم»، لا «أنساب»؛ لِمَا لا يخفى.

---

(١) كشف الأستار (٢٤٥٥)، والمعجم الكبير (٢٦٣٣) و(٢٦٣٥)، وسنن البيهقي ٧/ ٦٣-٦٤، والحلية ٢/ ٣٤ و٧/ ٣١٤، والمستدرك ٣/ ١٤٢، والأحاديث المختارة (١٠١) و(١٠٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٧٢: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٠٧)، والطبراني ٢٠/ (٣٠)، وصححه الحاكم ٣/ ١٥٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٠٣: وفيه أم بكر بنت المسور، ولم يجرحها أحد ولم يوثقها أحد، وبقية رجاله وثقوا.

(٣) تاريخ ابن عساكر ٦٧/ ٢١.

(٤) أهل النَّصْب: المتدينون ببغضة عليٍّ رضي الله عنه. القاموس (نصب).

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: ولا يسألُ بعضُهم بعضاً عن حاله وممن هو، ونحوِ ذلك؛ لاشتغال كلٍّ منهم بنفسه عن الالتفات إلى أبناء جنسه، وذلك عقيب النفخة الثانية من غير فَصْلٍ أيضاً، فهو مقيَّدٌ بـ «يومئذٍ» وإن لم يذكر بعده، اكتفاءً بما تقدَّم، وكأنَّ كِلَا الحُكْمينِ بعدَ تحقُّق أمر تلك النفخة لديهم، ومعرفةِ أنها لماذا كانت، وحينئذٍ يجوزُ أن يقال: إنَّ قولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢] قبل تحقُّق أمرِ تلك النفخة لديهم، فلا إشكالَ.

ويحتمل أنَّ كِلَا الحُكْمين في مبدأ الأمر قبل القول المذكور، كأنهم حين يسمعون الصيحة يذهَلُون عن كلِّ شيءٍ، الأنسابِ وغيرها، كالنائم إذا صيحَ به صيحةً مُفْزِعةً، فهبَّ من منامه فَزِعاً ذاهلاً عمَّن عنده مثلاً، فإذا سَكَنَ روعُهم في الجملة قال قائلهم: «مَن بَعَثَنا من مرقدنا».

وقيل: لا نسلِّم أن قولهم: «مَن بعثنا من مرقدنا» أنه كان بطريق التساؤل. وعلى الاحتمالين لا يُشْكِلُ هذا مع قوله تعالى في شأن الكفرة يومَ القيامة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات:٢٧]، وفي شأن المؤمنين: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠] فإنَّ تساؤل الكفرة المنفيَّ في موطنٍ، وتساؤلَهم المثبتَ في موطنٍ آخَرَ، لعله عند جهنم، وهو بعد النفخة الثانية بكثير، وكذا تساؤلُ المؤمنين بعدها بكثيرٍ أيضاً؛ فإنه في الجنة كما يرشدُ إليه الرجوع إلى ما قبل الآية.

وقد يقال: إنَّ التساؤل المنفيَّ هنا تساؤلُ التعارُفِ ونحوه مما يترتَّبُ عليه دفعُ مضرَّةٍ أو جلبُ منفعةٍ، والتساؤلُ المثبتُ لأهل النارِ تساؤلٌ وراءَ ذلك، وقد بيَّنه سبحانه بقوله عزَّ مِن قائل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ الآية [الصافات: ٢٨]، وقد بيَّن جلَّ وعلا تساؤلَ أهل الجنة بقوله سبحانه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ الآية [الصافات:٥١]، وهو أيضاً نوعٌ آخَرُ من التساؤل ليس فيه أكثرُ من الاستئناس، دون دَفْعِ مضرَّةٍ عمَّن يتكلَّم معه أو جَلْبِ منفعةٍ له.

وقيل: المنفيُّ التساؤلُ بالأنساب، فكأنه قيل: لا أنساب بينهم ولا يسألُ بعضهم بعضاً بها، والمراد أنها لا تنفع في نفسها وعندهم، والآيةُ في شأن الكفرة، وتساؤلُهم المثبتُ في آيةٍ أخرى ليس تساؤلاً بالأنساب، وهو ظاهرٌ فلا إشكال.

وروَى جماعةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئل عن وجه الجمع بين النفي هنا والإثباتِ في قوله سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فقال: إنَّ نفي التساؤل في النفخة الأولى حين لا يبقى على وجهِ الأرض شيءٌ، وإثباتُه في النفخة الثانية[1].

وعلى هذا فالمرادُ عنده بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾: فإذا نُفِخَ النفخةُ الأولى، وهذه إحدى روايتين عنه رضي الله عنه، والروايةُ الثانيةُ حَمْلُه على النفخة الثانية، وحينئذٍ يُختارُ في وجه الجمع أحدُ الأوجُهِ التي أشرنا إليها.

وقرأ ابن مسعود: «ولا يسَّاءلون» بتشديد السين[2].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: موزوناتُ حسناته من العقائد والأعمال، ويجوز أن تكون الموازينُ جمعَ ميزان ووجهُ جَمْعِه قد مرَّ[3]، والمعنى عليه: مَن ثَقُلَتْ موازينُه بالحسنات.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ الفائزون بكلِّ مطلوبٍ، الناجُون عن كلِّ مهروب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: موازينُ أعماله الحسنةِ، أو أعمالِه التي لا وَزْنَ لها ولا اعتدادَ بها، وهي أعمالُه السيئة، كذا قيل؛ وهو مبنيٌّ على اختلافهم في وَزْنِ أعمال الكفرة، فَمَنْ قال به قال بالأول ومَن لم يقل به قال بالثاني، وقد تقدم الكلامُ في نظير هذه الآية في سورة الأعراف[4]، فتذكَّر.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ضيَّعوها بتضييع زمانِ استكمالها، وأبطلوا استعدادَها لنيل كمالها.

واسمُ الإشارة في الموضعين عبارةٌ عن الموصول، وجمعُه باعتبارِ معناه، كما أن إفراد الضميرين في الصلتين باعتبار لَفْظِه.

﴿فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «أولئك»، وجوِّز أن يكون خبرَ مبتدأ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قبل الحديث (٤٨١٦) بنحوه.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٩، والكشاف ٣/ ٤٣، والبحر ٦/ ٤٢١.
(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف و١٧/ ١١٢، وما بعدها.
(٤) ٨/ ٨٤.

محذوفٍ، أي: هم خالدون في جهنم، والجملةُ إما استئنافية جيء بها لبيان خسرانهم أنفسَهم، وإما خبرٌ ثانٍ لـ «أولئك» أيضاً.

وجوِّز أن يكون «الذين» نعتاً لاسم الإشارة، و«خالدون» هو الخبر.

وقيل: «خالدون» مع معموله بدلٌ من الصِّلةِ، قال الخفاجيُّ: أي: بدلُ اشتمالٍ؛ لأنَّ خلودهم في جهنم يشتملُ على خسرانهم، وجُعِلَ كذلك نظراً لأنه بمعنى: يخلدون في جهنم، وبذلك يصلح لأن يكون صلةً كما يقتضيه الإبدال من الصلة[1]. وظاهرُ صنيع الزمخشريِّ يقتضي ترجيحَ هذا الوجه[2]، وليس عندي بالوجه كما لا يخفى وجهُه.

وتعقَّب أبو حيان القولَ بأنَّ «في جهنم خالدون» بدلٌ، فقال: هذا بدلٌ غريب، وحقيقتُه أن يكون البدل ما يتعلَّق به «في جهنم»، أي: استقروا، وكأنه من بدل الشيءِ من الشيء وهما لمسمًّى واحد على سبيل المجاز؛ لأنَّ مَن خَسِر نفسه استقرَّ في جهنم[3].

وأنت تعلم أنَّ الظاهر تعلُّقُ «في جهنم» بـ «خالدون»، وأنَّ تعليقه بمحذوفٍ وجَعْلَ ذلك المحذوف بدلاً وإبقاء «خالدون» مفلتاً، مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه مع ظهور الوجه الذي لا تكلُّف فيه.

وقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ جملةٌ حاليةٌ أو مستأنفةٌ، واللَّفْحُ: مسُّ لَهَبِ النارِ الشيءَ، وهو كما قال الزجَّاجُ أشدُّ من النفح تأثيراً. والمراد: تُحرقُ وجوهَهم النارُ، وتخصيصُ الوجوه بذلك لأنها أشرفُ الأعضاء، فبيانُ حالِها أَزْجَرُ عن المعاصي المؤدِّية إلى النار، وهو السرُّ في تقديمها على الفاعل. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ متقلِّصو الشفاه عن الأسنان من أثر ذلك اللَّفْح. وقد صحَّ من رواية الترمذيِّ وجماعةٍ عن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال

---

(١) بنحوه في حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣، ويعني بظاهر صنيع الزمخشري تقديمُه لهذا القول على ما عداه من الأقوال.

(٣) البحر ٦/ ٤٢٢.

في الآية: «تَشْويهِ النارُ فتَقْلِصُ شفتهُ العُلْيا حتى تَبْلُغَ وسطَ رأسِه، وتَسْتَرْخي شفتُه السُّفْلَى حتى تَضْرِبَ سُرَّتَه»(١).

وأخرج ابن مردويه والضياء في «صفة النار» عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ﴾ إلخ: «تلفحُهم لفحةً فتسيلُ لحومُهم على أعقابهم»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الكلوحَ بُسُورُ الوجه وتقطيبُه.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابنُ أبي عبلة: «كَلِحُون» بغير ألفٍ جمع كَلِحٍ كحَذِرٍ(٣).

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول، أي: يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً لِمَا به استحقُّوا ما ابتُلوا به من العذاب: أَلَمْ تَكُنْ آياتي تُتْلَى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ حينئذٍ.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: استوْلَتْ علينا ومَلَكَتْنا شقاوَتُنا التي اقتضاها سوءُ استعدادِنا، كما يومئُ إلى ذلك إضافتُها إلى أنفسهم. وقرأ شبل في اختياره: «شَقْوَتُنا» بفتح الشين(٤).

وقرأ عبد الله والحسن وقتادة وحمزة والكسائيُّ، والمفضَّل عن عاصم، وأبان، والزعفرانيُّ وابن مقسم: «شَقاوتنا» بفتح الشين وألف بعد القاف(٥).

وقرأ قتادة أيضاً، والحسنُ في رواية خالد بن حوشب عنه: «شِقاوتُنا» بالألف وكَسْرِ الشين(٦).

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٨٧) و(٣١٧٦)، ومسند أحمد (١١٨٣٦). قال الترمذي: حسن صحيح غريب. اهـ. وهو من طريق أبي السَّمْح عن أبي الهيثم، وأبو السمح هو دراج بن سمعان، وهو صدوق، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦، وعزاه لابن مردويه أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٢. وأبو بحرية هو عبد الله بن قيس الكندي السَّكوني التَّراغِمي، مشهور بكنيته، من رجال التهذيب.

(٤) البحر ٦/ ٤٢٣.

(٥) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٦/ ٤٢٢.

(٦) البحر ٦/ ٤٢٢-٤٢٣.

وهي في جميع ذلك مصدرٌ، ومعناها ضدُّ السعادة، وفسَّرها جماعةٌ بسوء العاقبة التي عَلِمَ الله تعالى أنهم يستحقُّونها بسوء أعمالهم، ونُسب ذلك لجمهور المعتزلة.

وعن الأشاعرة أنَّ المراد بها ما كتبه الله تعالى عليهم في الأزل من الكفر والمعاصي.

وقال الجبائيُّ: المراد بها الهوى وقضاءُ اللذَّات مجازاً من باب إطلاق المسبَّب على السبب.

وأيًّا ما كان فنسبةُ الغَلْبِ إليها لاعتبارِ تشبيهها بمن يتحقَّق منه ذلك، ففي الكلام استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ، ولعل الأولى أن يخرج الكلام مخرجَ التمثيل، ومرادُهم بذلك على جميع الأقوال في الشقوة: الاعترافُ بقيام حجة الله تعالى عليهم؛ لأنَّ منشأها على جميع الأقوال عند التحقيق ما هم عليه في أنفسهم، فكأنهم قالوا: ربَّنا غلب علينا أمرٌ منشؤُه ذواتُنا ﴿وَكُنَّا﴾ بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ عن الحقِّ، مكذِّبين بما يُتْلَى من الآيات، فما تُنْسَبُ إلى حيفٍ في تعذيبنا.

ولا يجوز أن يكون اعتذاراً بما عَلِمَه الله تعالى فيهم وكَتَبَه عليهم من الكفر، أي: غَلَبَ علينا ما كَتَبْتَه علينا من الشقاوة، وكنَّا في علمك قوماً ضالِّين، أو غلب علينا ما عَلِمْتَه وكتبتَه، وكنَّا بسبب ذلك قوماً ضالِّين، فما وقع منَّا من التكذيب بآياتك لا قدرةَ لنا على رَفْعِه[1] = وإلَّا لزم انقلابُ العلم جهلاً وهو محالٌ؛ لأنَّ ذلك باطلٌ في نفسه لا يَصْلُح للاعتذار، فإنه سبحانه ما كتب إلا ما عَلِمَ، وما عَلِمَ إلَّا ما هم عليه في نفس الأمر، من سوء الاستعداد المؤدِّي إلى سوء الاختيار، فإنَّ العلم على ما حقِّق في موضعه تابعٌ للمعلوم.

ويؤيِّد دعوى الاعتراف قولُه تعالى حكايةً عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: ربَّنا أخرجنا من النار وأَرْجِعنا إلى الدنيا، فإنْ عُدْنا بعد ذلك إلى ما كنَّا عليه فيها من الكفر والمعاصي فإنَّا متجاوزون الحدَّ في الظلم = لأنَّ

---

(١) في الأصل: دفعه.

اجتراءهم على هذا الطلب أَوْفَقُ بكون ما قبله اعترافاً، فإنه كثيراً ما يهوِّنُ به المُذْنِبُ غضبَ من أَذْنبَ إليه. والاعتذارُ وإن كان كذلك بل أعظم، إلَّا أنَّ هذا الاعتذارَ أشبهُ شيءٍ بالاعتراض الموجبِ لشدة الغضب الذي لا يَحْسُنُ معه الإقدامُ على مثل هذا الطلب.

هذا مع أنهم لو لم يعتقدوا أنَّ ذلك عذرٌ مقبولٌ والاعتذارُ به نافعٌ لم يُقْدِموا عليه، ومع هذا الاعتقاد لا حاجةَ بهم إلى طلب الإخراج والإرجاع، ولا يقال مثلُ هذا على تقدير كونه اعترافاً؛ لأنهم إنما قالوه تمهيداً للطلب المذكور؛ لما أنه مظنةُ تسكينِ لَهَبِ نار الغضب على ما سمعتَ.

ثم إنَّ القوم لعلهم ظنُّوا تغيُّرَ ما هم عليه من سوء الاستعداد لو عادوا؛ لِمَا شاهدوا من حالهم في ذلك اليوم، ولذلك طلبوا ما طلبوا.

وفي قولهم: «عدنا» إشارةٌ إلى أنهم حين الطلب على الإيمان والطاعة، فيكون الموعودُ على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثباتَ عليهما؛ لينتفعوا بهما بعد أن يَموتوا ويُحشروا، فتأمَّل.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه إقناطاً لهم أشدَّ إقناطٍ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ أي: ذِلُّوا وانْزَجِروا انزجارَ الكلاب إذا زُجِرَتْ، من خَسَأْتُ الكلبَ: إذا زجرته فخَسَأَ، أي: انْزَجَر. أو: اسكتوا سكوت هوانٍ، ففيه استعارةٌ مكنيةٌ قرينتُها تصريحية.

﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ باستدعاء الإخراج من النار والرجع إلى الدنيا. وقيل: لا تكلِّمون في رفع العذاب. ولعل الأولَ أوفقُ بما قبله وبالتعليل الآتي.

وقيل: لا تكلِّمون أبداً، وهو آخرُ كلام يتكلَّمون به.

أخرج ابن أبي الدنيا في «صفة النار»[1] عن حذيفة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى إذا قال لأهل النار: «اخسؤوا فيها ولا تكلِّمون» عادت وجوههم قطعةَ لحم ليس فيها أفواهٌ ولا مناخرُ، يتردَّد النَّفَسُ في أجوافهم».

وأخرج الطبرانيُّ، والبيهقي في «البعث»، وعبد الله بن أحمد في زوائد

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٧.

«الزهد»، والحاكم وصحَّحه، وجماعةٌ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إنَّ أهل جهنم ينادون مالكاً: ليَقْضِ علينا ربُّك. فيذَرُهم أربعين عاماً لا يجيبهم، ثم يجيبهم: «إنكم ماكثون» ثم ينادون ربَّهم: ربَّنا أخرجنا منها فإنْ عدنا فإنَّا ظالمون. فيذرُهم مثلي الدنيا لا يجيبهم، ثم يجيبهم: «اخسؤوا فيها ولا تكلِّمون» قال: فما نَبَس القوم بعدها بكلمةٍ، وما هو إلَّا الزفيرُ والشهيق(١).

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وغيرُهما عن محمد بن كعب قال: لأهل النار خمسُ دعواتٍ، يجيبُهم الله تعالى في أربعةٍ، فإذا كانت الخامسةُ لم يتكلَّموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيجيبُهم الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فلا يتكلَّمون بعدها أبداً(٢).

وفي بعض الآثار أنهم يَلْهَجون بكلِّ دعاءٍ ألفَ سنةٍ.

ويُشْكِلُ على هذه الأخبار ظواهرُ الخطابات الآتية كما لا يخفى، ولعلها

---

(١) البعث والنشور(٦٤٨)، والمستدرك ٤/ ٥٩٨، وعزاه للطبراني الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٦، والمنذري في الترغيب والترهيب٤/ ٣٩٢. وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٣١٩-زوائد نعيم)، وهناد في الزهد (٢١٤)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٩.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦، وأخرجه أيضاً البيهقي في البعث والنشور (٦٦٠). وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو متروك.

لا يصحُّ منها شيءٌ، وتصحيحُ الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار[1]، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ تعليلٌ لِمَا قبله من الزَّجر عن الدعاء، أي: إنَّ الشأن. وقرأ أبيٌّ وهارون العتكي: «أنه» بفتح الهمزة[2]، أي: لأنَّ الشأن.

﴿كَانَ﴾ في الدنيا التي تريدون الرجعة إليها ﴿فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ وهم المؤمنون. وقيل: هم الصحابة. وقيل: أهل الصفَّة رضي الله عنهم أجمعين.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: هزؤاً.

أي: اسكتوا عن الدعاء بقولكم: «ربنا» إلخ؛ لأنكم كنتم تستهزئون بالداعينَ خوفاً من هذا اليوم بقولهم: «ربَّنا آمنا» إلخ ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾ بتشاغُلِكم بالاستهزاء بهم ﴿ذِكْرِى﴾ أي: خوفَ عقابي في هذا اليوم ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وذلك غايةُ الاستهزاء.

وقيل: التعليلُ على معنى: إنما خَسَأناكم كالكلب ولم نَحْتَفِلْكم إذ دعوتُم؛ لأنكم استهزأتُم غايةَ الاستهزاء بأوليائي حين دَعَوا، واستمرَّ ذلك منكم حتى نسيتُم ذكري بالكلِّية ولم تخافوا عقابي، فهذا جزاؤكم.

وقيل: خلاصةُ معنى الآية: إنه كان فريقٌ من عبادي يَدْعونَ فتشاغلتُم بهم ساخرين، واستمرَّ تشاغُلُكم باستهزائهم إلى أنْ جرَّكم ذلك إلى تَرْكِ ذكري في أوليائي، فَلَمْ تخافوني في الاستهزاء بهم، ثم قيل: وهذا التذنيبُ لازمٌ ليصحَّ قوله تعالى: (إِنَّهُۥ كَانَ) إلخ تعليلاً، ويرتبطَ الكلام ويتلاءمَ مع قوله سبحانه: (وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ) ولو لم يُردْ به ذلك يكون إنساءُ الذكر كالأجنبيِّ في هذا المقام، وفيه تَسَخُّطٌ عظيمٌ لفِعْلِهم ذلك، ودلالةٌ على اختصاصٍ بالغٍ لأولئك العباد المسخورِ

(١) كذا قال، وفي كلامه نظر، فقد قال فيه المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٩٣: رواته محتجٌ بهم في الصحيح. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٦: رجاله رجال الصحيح.

(٢) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٣.

منهم، كما نبَّه عليه أولاً في قوله تعالى: (مِّنْ عِبَادِى) وخَتَمه بقوله سبحانه: (إِنِّى جَزَيْتُهُمُ) إلى قوله تعالى: (هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ) وزاد في خَسْئِهم بإعزازِ أضدادهم. انتهى ولا يخلو عن بحث.

وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «سُخْرِيًّا» بضم السين[1]، وباقي السبعة بكَسْرِها، والمعنى عليها واحد ـ وهو الهزؤ ـ عند الخليل وأبي زيد الأنصاريّ وسيبويه[2].

وقال أبو عبيدة والكسائيُّ والفرَّاء: مضمومُ السين بمعنى الاستخدام من غير أجرة، ومكسورُها بمعنى الاستهزاء[3].

وقال يونس: إذا أريد الاستخدامُ ضُمَّ السينُ لا غير، وإذا أريد الهزؤُ جاز الضمُّ والكسر.

وهو في الحالين مصدرٌ زيدَتْ فيه ياء النسبة للمبالغة كما في أحمريّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ أي: بسبب صبرهم على أذيَّتِكم، استئنافٌ لبيان حُسْنِ حالِهم، وأنهم انتفعوا بما آذَوْهم، وفيه إغاظةٌ لهم.

وقوله سبحانه: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ إما في موضع المفعول الثاني للجزاء، وهو يتعدَّى له بنفسه وبالباء كما قال الرَّاغب[4]، أي: جزيتُهم فوزَهم بمجامع مُراداتهم ـ كما يُؤذِنُ به معمولُ الوصف[5] ـ حالَ كونهم مخصوصين بذلك، كما يؤذن به توسيطُ ضمير الفصل. وإما في موضع جرٍّ بلام تعليلٍ مقدَّرة، أي: لفوزهم بالتوحيد المؤدِّي إلى كلِّ سعادة، ولا يمنع من ذلك تعليلُ الجزاء بالصبر؛ لأنَّ الأسباب لكونها ليست عللاً تامَّةً يجوزُ تعدُّدُها.

---

(١) التيسير ص١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩، وهي قراءة أبي جعفر وخلف من العشرة.
(٢) ذكره عن الخليل وسيبويه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٢٣-١٢٤، وذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٤٣ عن الكسائي.
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٣، ومجاز القرآن ٢/ ٦٢.
(٤) في مفرداته (جزى).
(٥) أي: مفعول «فائزين» وقد حذف للعموم. حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٩.

وقرأ زيد بن عليٍّ وحمزةُ والكسائيُّ وخارجةُ عن نافع: «إنهم» بالكسر[1] على أنَّ الجملة استئنافٌ معلِّلٌ للجزاء. وقيل: مبيِّنٌ لكيفيته، فتدبر.

﴿قَٰلَ﴾ الله تعالى شأنُه، أو المَلَكُ المأمورُ بذلك، لا بعضُ رؤساء أهل النار كما قيل، تذكيراً لِمَا لبثوا فيما سألوا الرجعة إليه من الدنيا، بعد التنبيه على استحالته، وفيه توبيخٌ على إنكارهم الآخرة.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابن كثير: «قل»[2] على الأمر للمَلَكِ لا لبعض الرؤساء كما قيل، ولا لجميع الكفار على إقامةِ الواحدِ مقامَ الجماعة كما زَعَمه الثعالبيُّ.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي تَدْعُون أنْ ترجعوا إليها، أي: كم أقمتُم فيها أحياءً ﴿عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ تمييزٌ لـ «كم»، وهي ظرفُ زمانٍ لـ «لبثتم»، وقال أبو البقاء: «عددَ» بدلٌ من «كم»[3].

وقرأ الأعمش والمفضَّل عن عاصم «عدداً» بالتنوين[4]، فقال أبو الفضل الرازي[5]: «سنين» نصبٌ على الظرف، و«عدداً» مصدرٌ أُقيم مقام الاسم، فهو نعتٌ مقدَّمٌ على المنعوت. وتجويزُ أن يكون معنى «لبثتم»: عدَدْتُم، بعيد.

وقال أبو البقاء: «سنين» ـ على هذه القراءة ـ بدلٌ من «عدداً»[6].

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدَّةِ لُبثهم بالنسبة إلى ما تحقَّقوه من طولِ زمانِ خلودهم في النار. وقيل: استَقْصَروها لأنها كانت أيامَ سرورهم بالنسبة إلى ما هم فيه، وأيامُ السرور قِصَارٌ.

وقيل: لأنها كانت منقضيةً، والمنقضي لا يُعتَنَى بشأنه، فلا يُدْرَى مقدارُه طولاً وقِصَراً، فيُظَنُّ أنه كان قصيراً.

---

(١) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩-٣٣٠ عن حمزة والكسائي.
(٢) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٣٠.
(٣) الإملاء ٤/ ٦٥.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٩، والبحر ٦/ ٤٢٤.
(٥) صاحب اللوامح، وكلامه في البحر ٦/ ٤٢٤، وعنه نقل المصنف.
(٦) الإملاء ٤/ ٦٥.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: المتمكِّنين من العدِّ؛ فإنَّا بما دُهِمْنا من العذاب بمعزلٍ من ذلك. أو الملائكةَ العادِّين لأعمار العباد وأعمالِهم، على ما رواه جماعةٌ عن مجاهد.

وقرأ الحسن والكسائيُّ في رواية: «العادِينَ» بتخفيف الدَّال[١]، أي: الظَّلمةَ فإنهم يقولون كما نقول، كأنَّ الأتباع يسمُّون الرؤساء بذلك لظُلْمِهم إياهم بإضلالهم.

وقرئ: «العادِيِّينَ» بتشديد الياء[٢] جمع عاديٍّ نسبةً إلى قوم عادٍ، والمراد بهم المعمَّرون؛ لأنَّ قوم عادٍ كانوا يعمَّرون كثيراً، أي: فاسأل القدماء المعمَّرين، فإنهم أيضاً يستقصرون مدة لبثهم.

﴿قَـٰلَ﴾ أي: اللهُ تعالى، أو المَلَكُ. وقرأ الأخوان: «قل» على الأمر[٣]، كما قرأا فيما مرَّ كذلك.

وفي «الدرِّ المصون»: الفعلان في مصاحف الكوفة بغير ألفٍ، وبألفٍ في مصاحف مكة والمدينة والشام والبصرة[٤]. ونُقِلَ مثلُه عن ابن عطية[٥]. وفي «الكشاف» عكسُ ذلك[٦]. وكأنَّ الرسم بدون ألفٍ يَحْتَمِلُ حَذْفَها من الماضي على خلاف القياس، وفي رَسْم المصحف من الغرائب ما لا يخفى، فلا تغفل.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ تصديقٌ لهم في مقالتهم. ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: تعلمون شيئاً، أو: لو كنتم من أهل العلم.

و«لو» شرطيةٌ، وجوابُها محذوفٌ ثقةً بدلالة الكلام عليه، أي: لو كنتم تعلمون لعلمتم يومئذٍ قِصَرَ أيام الدنيا كما علمتم اليومَ، ولعملتُم بموجب ذلك، ولم يَصْدُرْ منكم ما أوجب خلودَكم في النار، وقولنا لكم: «اخسؤا فيها ولا تكلِّمون».

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٤.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٤.
(٣) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٣٠.
(٤) الدر المصون ٨/ ٣٧٢.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٨، والبحر ٦/ ٤٢٤.
(٦) الكشاف ٣/ ٤٤. وفي المقنع للداني ص ٩٥ أن في بعض المصاحف «قال»، وفي بعضها «قل»، ولم يعيّن.

وقيل: المعنى: لو كنتم تعلمون قلَّةَ لبثكم في الدنيا بالنسبة للآخرة ما اغْتَرَرْتُم بها وعصيتُم. وكأن نفي العلم بذلك عنهم على هذا لعدم عملهم بموجبه، ومَن لم يعمل بعِلْمِه فهو والجاهلُ سواء.

وقدَّر أبو البقاء الجواب: لما أَجبتُم بهذه المدة[1]. ولعله يجعل الكلامَ السابق ردّاً عليهم لا تصديقاً، وإلا لا يصحُّ هذا التقدير.

وجوَّز أن تكون «لو» للتمنِّي فلا تحتاج لجواب. ولا ينبغي أن تُجعل وَصْليةً لأنها بدون الواو نادرةٌ أو غيرُ موجودة.

هذا، وقال غيرُ واحدٍ من المفسِّرين: المرادُ سؤالُهم عن مدَّةِ لبثهم في القبور، حيث إنهم كانوا يزعمون أنهم بعد الموت يصيرون تراباً، ولا يقومون من قبورهم أبداً. وزعم ابن عطية أنَّ هذا هو الأصوبُ، وأنَّ قوله سبحانه فيما بعد: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ يقتضيه[2]. وفيه منعٌ ظاهر. ويؤيِّد ما ذهبنا إليه ما روي مرفوعاً: «إنَّ الله تعالى إذا أدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهلَ النارِ النارَ، قال: يا أهل الجنة، كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا: لبثنا يوماً أو بعضَ يوم. قال: لنِعْمَ ما أنجزتُم في يومٍ أو بعضِ يوم، رحمتي ورضواني وجنَّتي، امكثوا فيها خالدين مخلَّدين. ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم في الأرض عددَ سنين. قالوا: لبثنا يوماً أو بعضَ يوم. فيقول: بئسما أنجزتُم في يومٍ أو بعضِ يومٍ، ناري وسَخَطي، امكثوا فيها خالدين مخلَّدين»[3].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: ألم تعلموا شيئاً فحسبتُم أنَّما خلقناكم بغير حكمةٍ حتى أنكرتُم البعثَ، فـ «عبثاً» حالٌ من نون العظمة، أي: عابثين. أو مفعولٌ به، أي: أفحسبتم أنما خلقناكم للعَبَثِ. وهو ماخلا عن الفائدة مطلقاً، أو عند الفائدة المعتدِّ بها، أو عمَّا يقاوِمُ الفعل كما ذكره الأصوليون.

(١) الإملاء ٤/ ٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٨-١٥٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥١١، وأبو نعيم في الحلية من طريق أيفع بن عبد الكلاعي عن النبي ﷺ. قال أبو نعيم: كذا رواه أيفع مرسلاً، وأسند أيفع عن معاوية بن أبي سفيان وغيره.

واستَظْهَرَ الخفاجيُّ إرادةَ المعنى الأول هنا[١]، واختار بعضُ المحقِّقين الثاني.

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ عطفٌ على «أنما خلقناكم» أي: أفحسبتُم ذلك وحسبتُم أنكم لا تبعثون.

وجوِّز أن يكون عطفاً على «عبثاً» والمعنى: أفحسبتُم أنَّما خلقناكم للعبث ولتركِكم غيرَ مرجوعين، أو عابثين ومقدِّرين أنكم إلينا لا ترجعون.

وفي الآية توبيخٌ لهم على تغافُلهم، وإشارةٌ إلى أنَّ الحكمة تقتضي تكليفهم وبعثَهم للجزاء.

وقرأ الأخوان: «تَرْجِعون» بفتح التاء[٢] من الرجوع.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظامٌ له تعالى ولشؤونه سبحانه التي يصرِّفُ عليها عبادَه جلَّ وعلا من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة، أي: ارتفع سبحانه بذاته وتنزَّه عن مماثلةِ المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعالِه، وعن خلوِّ أفعاله عن الحِكَمِ والمصالح الحميدة.

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الحقيقُ بالمالكية على الإطلاق إيجاداً وإعداماً، بَدْءاً وإعادةً، إحياءً وإماتةً، عقاباً وإثابةً، وكلُّ ما سواه مملوكٌ له مقهورٌ تحت مَلكوتيَّتِه.

وقيل: «الحق» أي: الثابتُ الذي لا يزول ولا يزول ملكُه، وهذا وإن كان أشهرَ إلَّا أنَّ الأول أوفقُ بالمقام.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنَّ كلَّ ما عداه عبيدُه تعالى ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦﴾ وهو جرمٌ عظيمٌ وراء عالم الأجسام والأجرام، وهو أعظمُها، وقد جاء في وصف عِظَمِه ما يبهرُ العقول، فيلزمُ من كونه تعالى ربَّه كونُه سبحانه ربَّ كلِّ الأجسام والأجرام، ووُصِفَ بالكريم لشرفه، وكلُّ ما شرف في بابه وُصِفَ بالكرم، كما في قوله تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٦] وقوله سبحانه: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى غير ذلك.

---

(١) حاشية الشهاب ٦/٣٤٩.

(٢) التيسير ص١٦٠، والنشر ٢/٢٠٨-٢٠٩ عن حمزة والكسائي ويعقوب وخلف.

وقد شرف بما أَوْدَعَ الله تعالى فيه من الأسرار، وأعظمُ شرفٍ له تخصيصُه باستوائه سبحانه عليه.

وقيل: إسنادُ الكرم إليه مجازيٌّ، والمراد: الكريم ربُّه، أو المراد ذلك على سبيل الكناية.

وقيل: هو على تشبيه العرش لنزول الرحمة والبركة منه بشخصٍ كريم. ولعل ما ذكرناه هو الأظهر.

وقرأ أبان بن تغلب، وابن محيصن، وأبو جعفر، وإسماعيل عن ابن كثير: «الكريمُ» بالرفع[1] على أنه صفة الربِّ، وجوِّز أن يكون صفةً للعرش على القَطْعِ، وقد يرجَّحُ بأنه أوفقُ بقراءة الجمهور.

﴿وَمَن يَدۡعُ﴾ أي: يعبدْ ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ أي: مع وجوده تعالى وتحقُّقه سبحانه ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إفراداً أو إشراكاً، أو: مَن يعبد مع عبادة الله تعالى إلهاً آخر كذلك، ويتحقَّقُ هذا في الكافر إذا أفرد معبوده الباطل بالعبادة تارةً وأَشْرَكَه مع الله تعالى أخرى، وقد يُقْتَصَر على إرادة الإشراك في الوجهين، ويُعلم حال مَن عَبَدَ غيرَ الله سبحانه إفراداً بالأولى.

وذِكْرُ «آخر»، قيل: إنه للتصريح بألوهيته تعالى، وللدلالة على الشريك فيها، وهو المقصودُ، فليس ذكرُه تأكيداً لِمَا تدلُّ عليه المعيةُ وإنْ جوِّز ذلك، فتأمَّل.

نعم قوله تعالى: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ لازمةٌ لـ «إلهاً» لا مقيِّدةٌ، جيء بها للتأكيد وبناءِ الحكم المستفاد من جزاء الشرط ـ من الوعيد بالجزاء على قَدْرِ ما يستحق ـ [عليه][2] تنبيهاً على أنَّ التديُّن بما لا دليل عليه ممنوعٌ فضلاً عما دلَّ الدليل على خلافه. ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء جيء به للتأكيد، كما في قولك: مَن أَحْسَنَ إلى زيد لا أَحَقَّ منه بالإحسان، فاللهُ تعالى مُثيبه.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٩.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٠، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٥٣.

ومِن الناس مَن زَعَمَ أنه جوابُ الشرط دون قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ وجَعَلَه تفريعاً على الجملة، وليس بصحيحٍ لأنه يلزمُ عليه حَذْفُ الفاء في جواب الشرط، ولا يجوز ذلك كما قال أبو حيان إلَّا في الشعر[١].

والحسابُ كنايةٌ عن المجازاة، كأنه قيل: مَن يعبدْ إلهاً مع الله تعالى فالله سبحانه مُجازٍ له على قَدْرِ ما يستحقُّه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: إنَّ الشأنَ لا يفلح.. إلخ. وقرأ الحسن وقتادة: «أنه» بالفتح[٢] على التعليل، أو جَعْلِ الحاصل من السَّبكِ خبرَ «حسابه» أي: حسابُه عدمُ الفلاح، وهذا على ما قال الخفاجيُّ[٣] من باب:

تـحـيـةُ بـيـنِـهـم ضـربٌ وجـيـعُ[٤]

وبهذا مع عدم الاحتياج إلى التقدير رجِّح هذا الوجهُ على سابقه، وتَوَافُق القراءتين عليه في حاصل المعنى، ورجِّح الأولُ بأنَّ التوافُقَ عليه أتمّ. وأصلُ الكلام على الإخبار: فإنما حسابُه عند ربِّه أنه لا يفلح هو، فوُضع «الكافرون» موضعَ الضمير؛ لأنَّ «مَن يَدْعُ» في معنى الجمع، وكذلك: حسابُه أنه لا يفلح، في معنى: حسابُهم أنهم لا يفلحون.

وقرأ الحسن: «يَفْلَحُ» بفتح الياء واللام[٥].

وما ألطفَ افتتاحَ هذه السورة بتقدير فلاح المؤمنين، وإيرادَ عدمِ فلاح الكافرين في اختتامها، ولا يخفى ما في هذه الجمل من تسلية رسول الله ﷺ.

وكأنه سبحانه بعد ما سلَّاه بذكر مآلِ مَن لا ينجعُ دعاؤه فيه، أمره بما يرمز إلى مُتارَكةِ مُخالِفيهِ، فقال جل وعلا: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾ وقرأ ابن محيصن: «ربُّ» بالضم[٦]

---

(١) البحر ٦/ ٤٢٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ٩٩، والمحتسب ٢/ ٩٨، والبحر ٦/ ٤٢٥.

(٣) في الحاشية ٦/ ٣٥٠.

(٤) وصدره: وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيل، والبيت لعمرو بن معدي كرب كما في الكتاب ٣/ ٥٠، وسلف ٥/ ٦٤.

(٥) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٥.

(٦) البحر ٦/ ٤٢٥.

﴿اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّحِمِينَ﴾ والظاهرُ أنَّ طَلَبَ كلٍّ من المغفرة والرحمة على وجه العموم له عليه الصلاة والسلام ولمتَّبعيهِ، وهو أيضاً أعمُّ من طلب أصل الفعل والمداومة عليه، فلا إشكال، وقد يقال في دفعه غيرُ ذلك.

وفي تخصيص هذا الدعاء بالذكر ما يدلُّ على أهميةِ ما فيه، وقد علَّم ﷺ أبا بكر الصدِّيقَ رضي الله عنه أن يقول نحوَه في صلاته، فقد أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه وابن حِبَّان وجماعةٌ عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال: «قل: اللهمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نفسي ظُلْماً كثيراً، وإنَّه لا يَغْفِرُ الذنوبَ إلَّا أنتَ، فاغْفِرْ لي مغفرةً مِن عندِكَ، وارحمني إنَّك أنتَ الغفورُ الرحيم»(١).

ولقراءة هذه الآيات ـ أعني قولَه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ إلى آخر السورة ـ على المصاب نفعٌ عظيم، وكذا المداومةُ على قراءة بعضها في السفر.

أخرج الحكيم الترمذيُّ وابن المنذر وأبو نعيم في «الحلية» وآخرون، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قرأ في أذن مصاب: «أفحسبتُم» حتى ختم السورة، فبرأ، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أنَّ رجلاً موقناً قرأ بها على جبلٍ لزال»(٢).

وأخرج ابن السنيِّ وابن منده، وأبو نعيم في «المعرفة» بسندٍ حسنٍ من طريق محمد بن إبراهيم بن الحارث التيميِّ عن أبيه قال: بَعَثَنا رسول الله ﷺ في سريةٍ وأَمَرنا أن نقول إذا أمسينا وأصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فقرأناها فغنمنا وسَلِمْنا(٣). هذا والله تعالى المسؤول لكلِّ خير.

❁ ❁ ❁

(١) صحيح البخاري (٨٣٤)، وصحيح مسلم (٢٧٠٥)، وسنن الترمذي (٣٥٣١)، والمجتبى ٣/ ٥٣، وسنن ابن ماجه (٣٨٣٥)، وصحيح ابن حبان (١٩٧٦).

(٢) الحلية ١/ ٧، وعزاه للحكيم الترمذي السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٧، ولم نقف عليه عن ابن المنذر. وأخرجه أيضاً أحمد في العلل (٥٩٧٩)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ١٦٣، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٧٠). قال أحمد: هذا الحديث موضوع.

(٣) عمل اليوم والليلة لابن السني (٧٧)، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٧٢٦)، وعزاه لابن منده السيوطي في الدر ٥/ ١٧، وعنه نقل المصنف.

ومن باب الإشارة في الآيات: قيل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وصلوا إلى المحلِّ الأعلى والقُربةِ والسعادة، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ ظاهراً وباطناً.

والخشوعُ في الظاهر: انتكاسُ الرأس، والنظرُ إلى موضع السجود وإلى ما بين يديه، وتركُ الالتفات، والطمأنينةُ في الأركان[1]، ونحو ذلك.

والخشوعُ في الباطن: سكونُ النفس عن الخواطر والهواجس الدنيوية بالكلِّية، أو تركُ الاسترسال معها، وحضورُ القلب لمعاني القراءة والأذكار، ومراقبةُ السرِّ بتَرْكِ الالتفات إلى المكونات، واستغراقُ الروح في بحر المحبة.

والخشوعُ شرطٌ لصحة الصلاة عند بعض الخواصِّ، نقل الغزاليُّ عن أبي طالب المكيِّ عن بشرٍ الحافي: مَن لم يَخْشَعْ فَسَدَتْ صلاتُه[2]. وهو قولٌ لبعض الفقهاء، وتفصيلُه في كتبهم.

ولا خلافَ في أنه لا ثوابَ في قولٍ أو فعلٍ من أقوالِ أو أفعالِ الصلاة أُدِّيَ مع الغفلة، وما أقبح مُصَلٍّ يقول: «الحمد لله رب العالمين» وهو غافلٌ عن الربِّ جلَّ شأنُه، متوجِّهٌ بشراشرِهِ إلى الدرهم والدينار[3]، ثم يقول: «إياك نعبد وإياك نستعين» وليس في قلبه وفِكْرِه غيرُهما. ونحوُ هذا كثيرٌ، ومن هنا قال الحسن: كلُّ صلاةٍ لا يَحْضُرُ فيها القلبُ فهي إلى العقوبة أسرع.

وقد ذكروا أنَّ الصلاة معراجُ المؤمن، أَفَتَرى مثلَ صلاةٍ هذا تَصْلُحُ لذلك؟! حاشَ للهِ تعالى، مَن زَعَمَ ذلك فقد افترى.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال بعضهم: اللغوُ كلُّ ما يَشْغَلُ عن الحقِّ عزَّ وجلَّ.

وقال أبو عثمان: كلُّ شيءٍ فيه للنفس حظٌّ فهو لغو.

وقال أبو بكر بن طاهر: كلُّ ما سوى اللهِ تعالى فهو لغوٌ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ هي تزكيةُ النفس عن الأخلاق الذميمة.

---

(١) إلى هذا الموضع نهاية السقط من الأصل.
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ١٦٠.
(٣) في الأصل: والدنيا.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ إشارةٌ إلى استيلائهم على القوة الشَّهْوية فلا يتجاوزون فيها ما حُدَّ لهم.

وقيل: الإشارةُ فيه إلى حِفْظِ الأسرار، أي: والذين هم ساترون لِمَا يَقْبُحُ كَشْفُه من الأسرار عن الأغيار، إلا على أقرانهم ومَن ازْدَوَجَ معهم، أو على مُريديهم الذين هم كالعبيد لهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ قال محمد بن الفضل: سائر جوارحهم ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ الميثاق الأزليّ ﴿رَاعُونَ﴾ فهم حَسنو الأفعال والأقوال والاعتقادات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فيؤدُّونها بشرائطها، ولا يفعلون فيها وبعدها ما يضيِّعها كالرياء والعُجْب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قيل: المخلوقُ من ذلك هو الهيكلُ المحسوسُ، وأمَّا الروحُ فهي مخلوقةٌ من نورٍ إلهيٍّ يَعِزُّ على العقول إدراكُ حقيقته.

وفي قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ إشارةٌ إلى نفخ تلك الروح المخلوقة من ذلك النور، وهي الحقيقةُ الآدميةُ المرادة في قوله ﷺ: «خَلَقَ الله تعالى آدم على صورته»(١) أي: على صفته سبحانه من كونه حيّاً عالماً مريداً قادراً، إلى غير ذلك من الصفات.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ إشارةٌ إلى مراتب النفس التي بعضُها فوق بعضٍ، وكلُّ مرتبةٍ سُفْلَى منها تحجُبُ العليا، أو إشارةٌ إلى حُجُبِ الحواسِّ الخمس الظاهرة وحاسَّتي الوهم والخيال، وقيل غيرُ ذلك.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قيل: أي: سماء العناية ﴿مَاءً﴾ أي: ماءَ الرحمة، ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بمقدارِ استعدادِ السالك ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ وجوده ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ﴾ أي: نخيل المعارف ﴿وَأَعْنَابٍ﴾ أي: أعناب الكشوف.

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٧١)، والبخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقيل: النخيل إشارةٌ إلى علوم الشريعة، والأعنابُ إشارةٌ إلى علوم الطريقة.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ هي ما كان منها زائداً على الواجب، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ إشارةٌ إلى ما كان واجباً لا يتمّ قوامُ الشريعة والطريقة بدونه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ إشارةٌ إلى النور الذي يُشْرِقُ من طور القلب بواسطة ما حصل له من التجلّي الإلهيِّ. ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ أي: تَنْبتُ بالجامع لهذين الوصفين، وهو الاستعداد، والآكلين إشارةٌ إلى المتغذِّين بأطعمة المعارف.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ فيه من الأمر بمكارم الأخلاق ما فيه.

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي الاغترارُ بالأعمال، وإرشادٌ إلى التشبُّث برحمة الملك المتعال.

نسال الله تعالى أن يوفِّقنا لطاعته، ويغفرَ لنا ما ارتكبناه من مخالفته، ويتفضَّلَ علينا بأعظم مما نؤمِّله من رحمته، كرامةً لنبيِّه الكريم، وحبيبه الذي هو بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم وشَرَّفَ وعظَّم وكرَّم.